٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية - قسم الدراسات العليا العربية
(فرع الأدب)
بمكة المكرمة



سابق البربري والاتجاه الإسلامي في شعره

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب

إعداد
الطالبة شادية حسن عبد الرحمن زيني

إشراف
الدكتور مصطفى عبد الواحد

١٤٠٥هـ/١٩٨٥م


كلمة الشكر

كلمة شكر وتقدير

* ربِّ أوزعني أن أشكرَ نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين *
*صدق الله العظيم *

وبعد :

فإنني أتقدم بالشكر الجزيل ،والثناء العطر ، إلى كل من كان له فضل عليّ في إخراج هذا البحث ،وأخص منهم بالشكر والتقدير :

* والدى الكريم "رحمه الله" ، الذى وجّهني إلى طلب العلم ، وشجعني على مواصلة الطريق فيه .

* والدتي الكريمة "أدامها الله" ، التي ساعدتني على طلب العلم ،وهيأت الفرصة لي حتى وصلت إلى هذه المرحلة .

* جامعة أم القرى بمكة المكرمة ،ممثلة في كلية اللغة العربية ، التي فتحت الطريق أمامي ،وهيأتني لإعداد هذا البحث .

* قسم الدراسات العليا العربية بكلية اللغة العربية ، على ما شملني به من عناية .

وأخص بالشكر الجزيل ،والتقدير الزائد : أستاذى المشرف الدكتور مصطفى عبد الواحد ،على ما شملني به من توجيه ونصح وإرشاد ومتابعة لهذا البحث منذ أن كان فكرة حتى استقر على هذه الصورة . فقد وجدتُ من علمه ودقة منهجه ، وسعة صدره أكبر معين لي على إتمام هذا البحث .

وأخص بالشكر الجزيل : أخي وأستاذى ،الأستاذ الدكتور محمود حسن زيني ، الذى وجهني إلى هذا الموضوع ،وكان لي خير ناصح ومعين في هذا البحث.

وأشكر من أساتذتي كل من كان لهم فضل عليّ في إعداد هذا البحث وإخراجه على هذه الصورة .

وأخص منهم بالشكر الجزيل : أستاذى الدكتور محمود الطناحي ، وأستاذى الدكتور محمد أبو موسى .

وأتقدم بالشكر والتقدير إلى الدكتور حاتم صالح الضامن من العراق ، الذى أنفذ لي مصوّرة الدراسة التي كتبها الأستاذ عبدالله كنون عن سابق البربرى ، ولم يبخل عليّ بعلمه وتوجيهه .

وأشكر زميلاتي ،ممن كان لهن فضل عليّ ،وأخص منهن صديقتيّ : مضاوي صالح الحميدة ، وهيفاء عثمان فدا .

وأتقدم بالشكر والتقدير إلى الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة المناقشة ، على بذل الوقت والجهد في قراءة هذه الرسالة ،ومناقشتي التي أرجو أن أكون أهلاً للإفادة منها .

المُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمدلله حمداً يليق بجلاله و فضله ، والصلاة والسلام على رسول الله البشير النذير المبعوث رحمة للعالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،وأشهد أن محمداً عبده ورسوله -صلى الله عليه وسلم ،وأستفتح بالذى هو خير .

و بعد :

فإن الأدب الإسلامي -و نعنى به الأدب المعبّر عن عقيـــدة الإسلام وأخلاقه و منهجه ، الداعي إلى سبيله - ما يزال بحاجة إلى من يدفع عنه الكثير من الاتهامات ، التي روّجها أعداء الإسلام و من تابعهم ، حيث وصموا هذا الأدب بالجمود والضعف ، والتقوقع في بوتقة التقليد البحت ،والاقتصار على الاقتباس الحرفي من آيات الكتاب الحكيم . . أو السُّنة المطهّرة الشريفة .

و هذه اتهامات باطلة لا أساس لها من الصحة ولا تنطبق علـــى الكثير من الشعر العربي ذى الاتجاه الإسلامي ،حيث أن كثيراً من هذا الشعر بلغ الذروة في سمو المعنى ،وإبداع الصورة ،و حكمة البناء . مع الانطباع بطابع الإسلام في تعاليمه السمحة ،والتأثر بالأسلوب القرآني ، والحديثي في قوة الصياغة وجلاء المعنى ،وجمال الصورة .

و ردُّ هذه الاتهامات الباطلة عن الأدب الإسلامي يحتاج إلى نظر فاحص ، ودراسة متأنية لشعر العصور الإسلامية وبخاصة الأموى والعباسي . . ذلك أن الكثير من الدراسات التي تناولت أدب الدعوة قد اقتصـــرت على عصر النبي -صلى الله عليه وسلم - وعصر الخلفاء الراشدين ،حيث ركزت

الاهتمام على شعراء الدعوة الإسلامية مثل حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ، وغيرهم ممن يذكرون في تلك الفترة الزمنية .. مع أن أثر الإسلام القوي قد امتد إلى الشعر العربي عامة ، والملتزم بالاتجاه الإسلامي خاصة ، في كل العصور ، ذلك أن التأثير الإسلامي في الشعر العربي لم ينحصر في شعر الذود عن الدعوة الإسلامية ، والرد على مناهضيها ، وتوضيح مفاهيمها ، بل إن النفس الإسلامي نتحسسه في شعر الشعراء المسلمين حتى من وُسِمَ منهم بالإقذاع والفحش .. فإذا كان الفرزدق الذى عرف عنه جفاء الطبع وفحش القول قد ترك الإسلام أثراً قوياً في شعره (١) ، فإن غيره من الشعراء الملتزمين بالمنهج الإسلامي فعلاً وقولاً أكثر انطباعاً بالطابع الإسلامي في شعرهم .

ومن هذا المنطلق أردت أن أجعل بحثي هذا لنيل درجة التخصص - الماجستير - سبيلاً للرد على زعم القائلين بضعف التأثير الإسلامي في الشعر ، ورداً لاتهام الشعر الإسلامي بالضعف ، والجمود والاقتصار على التقليد المحض والاقتباس الحرفي من القرآن الكريم ، أو الحديث الشريف .. ولذا فإني بحثتُ عن شاعر أجدُ في شعره مقوّمات قوية للرد على هذه الاتهامات ، حتى هداني الله - على يد أخي الدكتور محمود حسن زيني - إلى اختيار شاعر عاش في العصر الأموي ، ووقف شعره على الوعظ والتزهيد والحكمة والأمثال ، ذلك هو الشاعر الزاهد الواعظ سابق البربري . الذى لم يُعْرَفْ عنه شيء ذو بال سوى أنه عاصر الخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز . واختيار هذا الشاعر يرجع إلى أسباب أهمها :

---

(١) انظر أثر الإسلام في شعر الفرزدق للدكتور مصطفى عبد الواحد .

١ - أنه شاعر إسلامي عاش في العصر الأموي، وهذا يخرجنا من الاعتقاد السائد بأن شعراء الدعوة الإسلامية هم شعراء الرسول - عليه الصلاة والسلام.

٢ - أن شعره يعكس قوة تأثير الإسلام في الشعر العربي، بحيث أنه قد وقف شعره على المعاني الإسلامية، حتى قيل عنه أنه: "أول من قال في الزهديات" (١).

٣ - أن شعره يتخذ مسارًا آخر يختلف عن الاتجاهات التي سادت في العصر الأموي، مما يدل على أن شعر العصر الأموى ليس وقفًا على المديح والهجاء والفخر والغزل، بل إن الاتجاه إلى شعر الزهد والوعظ قد بدا جليًا قويًا في هذا العصر، كما يعكسه شعر سابق البربرى.

٤ - أنه شاعر مجهول، مغموط الحق، لم يلق حظًا وافرًا من عناية الدارسين قديمًا أو حديثًا، فشعره متناثر في بطون الكتب المتنوعة، وأخباره في كتب التراجم قليلة ومتناقضة أحيانًا. اللهم إلا دراسة حديثة موجزة للأستاذ عبدالله كنون، جمع فيها أخباره وجزءًا من شعره. والأستاذ عبدالله كنون باحث فاضل، ودراسته نافعة، إلا أن لنا عليها بعض المآخذ، نوجزها فيمايلي:

أ - أن الدراسة تظهر فيها نزعة العصبية الإقليمية، ذلك أن الأستاذ عبدالله كنون اعتمد على لقب البربرى فنظر إلى سابق على أنه شاعر مغربي برع في شعر الزهد منذ القرن الأول، ولذلك سمّى دراسته

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان ٢٤٨/١. ويدل قوله على أن شاعرنا أول من قال شعرًا في الزهد في الإسلام.

: " سابق البربرى شاعر من المغرب عاش في الشام " ولم ينظر إلى سابق على أنه شاعر إسلامي وجه شعره إلى خدمة العقيدة الإسلامية.

ب - أن الدراسة قامت على جمع الأخبار من مصادرها ، دون دراسة هذه الأخبار ومحاولة الموازنة بينها ، ونقدها ، للخروج برأي فاصل منها ، اللهم إلا ترجيح نسبة سابق إلى البربر ، ونسبة البربر إلى العرب .

جـ - لم يستوف الأستاذ عبدالله كنون جمع شعر سابق ، ولم يُخرّج ما جمعه ، ولم يحقق نسبته إلى سابق البربرى أو غيره .

د - لم يدرس الشعر دراسة فنية تُبيّن شاعرية الشاعر ومنزلته الفنية ، وإنما كان له بعض الأحكام العامة على هذا الشعر مثل قوله : "ويصبح سابق بين عشية وضحاها من أشعر أهل زمانه "(١) ، وقوله عن القصيدة الرائية التي وجهها سابق إلى عمر بن عبد العزيز : " فهذه قصيدة من أحسن شعر سابق وأحفله بالموعظة والتذكير ، ولو لم يكن له إلا هي لكانت أصدق برهان على تألهه وشاعريته التي خضع لها عمر بن عبد العزيز "(٢). ومثل قوله في الحكم على شاعرية سابق البربرى ومنزلته من شعر الزهد : " وبعد فهذا شاعر فحْل من أكبر الشعراء الذين يفاخر بهم هذا المغرب العربي ، ويستظهر بهم عند الحديث عن الأدب والأدباء ، وقد احتجّ به أهل العربية وعلماء البلاغة ، وقرّبه الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، مما يعطيك أن شعره كان مرآة لسلوكه وأخلاقه ، فهو قد أربى على أبي العتاهية المعروف بشعره في الزهد والمواعظ ، سواء من ناحية تخلّقه أو من جهة سبْقه إلى جعل الشعر قاصرًا على هذه المواضيع ، فلا نقول فيه : أنه أبو العتاهية المغربي ، بل نقول في أبي العتاهية : أنه سابق المشرقي "(٣) .

---

(١) انظر ص ٣ من الدراسة .
(٢) ص ٨
(٣) انظر ص ١٠ من دراسة الاستاذ عبدالله كنون .

وهذا الحكم على شاعرية سابق صحيح وهام ،إلا أنه لم يقم على دراسة فنية لشعر الشاعر ،وإنما قام على العصبية الاقليمية للمغرب العربي .

ودراستي لهذا الشاعر - مع ما في أخباره من فجوات كثيرة - هي محاولة وضع تصوّر لحياته على ضوء ما في أخباره ، اعتمادًا على الشواهد التاريخية ، والأوضاع السائدة في العصر الذى عاش فيه ،والبيئة التي ينتمي إليها ،مع محاولة جمع شعره وتحقيقه ودراسته دراسة فنية موسّعة تكشف عن مقدرته الفنية ومنزلته الشعرية ، ثم ربط هذا الشعر بالاتجاه الإسلامي لبيان مدى تأثره بالإسلام من حيث المعاني والأسلوب ،والقيمة الفنية .

وقد استقر هذا البحث في أربعة أبواب تسبقها مقدمة وتتلوها خاتمة .

ففي الباب الأول حاولت وضع تصوّر عام لشخصية هذا الشاعر وحياته ، فقسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول ،خصصت الفصل الأول منها لشخصيته ، فعرّفت باسمه وكنيته ونسبه ،وحاولت تحديد سنة مولده وبيئته ووفاته ، وفيما بين المولد والوفاة تعرضت لأخباره في صلته بعمر ابن عبد العزيز ،وصلته بشعراء عصره .. وجعلت الفصل الثاني منها للحديث عن حياته العلمية ،فقسّمته إلى ستة مباحث ،كان الأول منها للحديث عن المكانة العلمية للشام في عصره ، والثاني للمنهج التعليمي والبيئة الدينية في الشام ،والثالث للبيئة الأدبية في الشام والرابع لتحصيله العلمي ،والخامس لشيوخه وتلاميذه ، والسادس لروايته للحديث. ثم ختمت هذا الباب بفصل خاص عن الزهد في القرن الأول الهجرى ، وهو القرن الذى ثبتت لشاعرنا أخبار فيه .

وفي الباب الثاني : حاولتُ جمع شعر سابق البربري وتحقيقه وتخريج رواياته من بطون الكتب المتنوعة ،فقسّمت الباب إلى فصلين ،خصصت الأول منهما لجمع الشعر وتخريجه في مصادره المتنوعة ، مُحاوِلةً صنع ديوان شعر لسابق البربري ، وقد فرّقت في هذا الديوان بين الشعر الذي ثبتت نسبته إلى سابق البربري ،والشعر المنسوب إليه وإلى غيره ، والشعر الذي وقع في ظني أنه لسابق البربري ، واتّبعتُ في تخريج أبيات الشعر من مصادرها الترتيب الزمني للمصادر. ولم أنس الإشارة إلى الأبيات التي وجدت في الشعر الذي جمعه الأستاذ عبدالله كنون ،والأبيات التي لم توجد في هذا الشعر المجموع . وجعلت الفصل الثاني منهما لدراسة المصادر التي جمعتُ منها شعر سابق .

وفي الباب الثالث : حاولتُ دراسة شعر سابق البربري دراسة فنية موسّعة ، فقسّمت هذا الباب إلى ستة فصول -قد تطول أو تقصر- بحيث جعلتُ الفصل الأول لدراسة الألفاظ ، والثاني لدراسة الظواهر الأسلوبية البارزة في شعره ، فقسّمته إلى ستة مباحث ، خصصت كل مبحث لظاهرة أسلوبية برزت في شعره ، بحيث كان المبحث الأول خاصاً بالأساليب الانشائية التي برزت في شعره فدرستُ فيه أسلوب الاستفهام والنداء عنده ، والمبحث الثاني تخصص في دراسة طريقة الاستدلال في شعره وهي ظاهرة أسلوبية برزت بوضوح في هذا الشعر . وجعلت المبحث الثالث لدراسة أسلوب الخطاب عنده ، والرابع لظاهرة التكرار التي وضحت كثيراً في شعره ، والخامس كان لدراسة استعمال "قد" في شعره . والمبحث السادس والأخير لدراسة أسلوب القصر "بإنما" . وقد طال هذا الفصل من الباب الثالث ،لأنه تناول في كل ظاهرة أسلوبية دراسة وتحليل الشواهد المستقاة من شعر سابق البربري . أما الفصل الثالث في هذا الباب فخصصته لدراسة الصور البيانية في شعره فدرست فيه التشبيه والاستعارة في شعر سابق البربري .

والفصل الرابع كان لدراسة الصنعة البديعية في هذا الشعر ،فدرست فيه الطباق والمقابلة ، والجناس ورد العجز على الصدر ،ومراعاة النظير . وفي الفصل الخامس درست الوزن والقافية في شعر سابق البربري ،بحيث قسّمتُ الفصل إلى مبحثين ،أولهما لدراسة أوزان الشاعر ،وزحافاته ،ومناسبة هذه الأوزان لمعانيه ،والآخر لدراسة قوافيه ،ومناسبة هذه القوافي لمعانيه . وفي الفصل السادس والأخير من الباب الثالث درست افتتاحيات قصائد سابق البربري .

وفي الباب الرابع والأخير، حاولتُ دراسة الاتجاه الإسلامي في شعر سابق ، حيث درست هذا الشعر من الوجهة الدينية في ظل ما أشيع عن الشعر الديني من مزاعم خاطئة وصمته بالضعف والابتذال ،والاقتصار عن التقليد والاقتباس الحرفي من القرآن والسنة ، وقد قسّمتُ هذا الباب إلى أربعة فصول ، بحيث كان الفصل الأول لدراسة الأغراض التي قام عليها شعر سابق البربري ، والفصل الثاني لدراسة أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في شعره ، والفصل الثالث لدراسة قضية ضعف الشعر في الإسلام ، والفصل الرابع لدراسة شعر سابق في ضوء قضية الالتزام .

وقد تلتْ هذه الأبواب الأربعة خاتمة لخّصتُ فيها بإيجاز أهم النتائج والتوصيات التي خرجت بها من هذا الجهد المتواضع .

وبعد هذا العرض لأبواب وفصول ومباحث هذه الدراسة ينبغي أن أشير إلى أنني قد أغفلتُ المقدمات التاريخية لعصر الشاعر ، إذ وجدتُ أنها قد أشبعت بالدراسة والعرض في الكتب المختصة بدراسة الأدب في العصر الأموي .. ولا حاجة بنا إلى تكرار ما قاله السابقون .. كما أنني لم أجد في هذه المقدمات التاريخية صلة وثيقة بحياة الشاعر وفنه .. ولذا فإني اكتفيتُ في هذه الدراسة بما يوضح كيفية نشأة الشاعر العلمية ،

ونوع العلوم التي تلقاها ، من خلال دراسة المنهج التعليمي المتّبع في العصر الذى ثبتت للشاعر أخبار فيه ،وللبيئة التي ينتمي إليها .

وقد كان منهجي في دراسة القضايا التي تطرقتُ إليها في هــذا البحث ـ قائماً على التحليل والموازنة والنقد، كما حرصتُ على مناقشة الآراء التي قيلت عن هذا الشاعر وفنه الشعرى ،وما يتعلق بالأدب الإسلامي من قضايا ،سواء كانت هذه الآراء للقدماء أو المحدثين . ولم أر في مناقشــة من سبقني جرأة أو تطاولاً ، فالعلم ووضوح الرؤية لا يتحققان إلا من خلال النقاش الذى يخرج منه الباحث بآراء يؤدي واجبه بها .

وفي الختام أرجو أن أكون بهذا البحث قد أديتُ جزءاً من واجبي نحو لغتي العربية وأدبها الإسلامي ،وأن أكون خرجتُ من هذا الجهــد المتواضع بنتائج وتوصيات تفيد أدب الدعوة الإسلامية . فإن نجحتُ في تحقيق ما تصبوا إليه النفس فذلك بتوفيق الله وفضله ، وإن لم أحقق شيئــاً فالعون والتوفيق من الله أطلب . والله من وراء القصد ،وهو الهادى إلى سواء السبيل . والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمــد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الباب الأول

ترجمة سابق البربري

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

ترجمة سابق البربري

الفصل الأول : شخصيته :

١ - اسمه وكنيته ونسبه .

٢ - حياته : مولده - بيئته - صلته بعمر بن عبد العزيز ، صلته بشعراء عصره ، وفاته .

الفصل الثاني : حياته العلمية :

١ - المكانة العلمية للشام في تلك الفترة الزمنية .

٢ - المنهج التعليمي والبيئة الدينية في الشام .

٣ - البيئة الأدبية في الشام .

٤ - تحصيله العلمي .

٥ - شيوخه وتلاميذه .

٦ - روايته للحديث .

الفصل الثالث : الزهد في القرن الأول الهجرى :

١ - معنى الزهد في اللغة .

٢ - الزهد في القرآن .

٣ - الزهد في الحديث النبوى الشريف .

٤ - مفهوم الزهد في الاسلام .

٥ - زهد النبي صلى الله عليه وسلم .

٦ - زهد الخلفاء الراشدين .

٧ - الزهد في الشام .

*

الفصل الأول

((شخصيته))

أولا - اسمه وكنيته و نسبه :

١ - اسمه :

هو سابق بن عبدالله البربرى ،كما ذكره ابن حِبّان [١] ،والسمعاني [٢] ، وابن الأثير [٣] ،والبغدادى [٤] .

وقد ورد اسمه مجردًا من اسم أبيه فقيل : سابق البربرى ، قاله : ابن حبيب [٥] ،والبخارى [٦] ،وابن خير [٧] ،والذّهبي [٨] ،وابن حجر [٩] .

و هناك من سمّاه : سابق بن عبدالله الرّقي المعروف بالبربرى ، قال به : ابن ماكولا [١٠] ، وابن عساكر [١١] ، و يبدو أن الزبيدى

---

(١) في الثقات ٦/ ٤٣٣ .
(٢) في الأنساب ٢/ ١٣١ .
(٣) في اللباب ١/ ١٣١ .
(٤) في الخزانة ٤/ ١٦٤ . و في شرح أبيات المغنى ٤/ ٢٩٦ .وقد ذكره بهذا الاسم من المعاصرين : الدكتور سامي مكي العاني في معجم ألقاب الشعراء ٣٢ ،وفؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي م ١ جـ٤/ ١٠٠ و م ٢ جـ٣/ ٤١ طبعة جامعة الإمام .
(٥) في كنى الشعراء ٢٩٤ .
(٦) في التاريخ الكبير جـ٤ ق٢/ ٢٠١ .
(٧) في فهرسة ٤٠٦ .
(٨) في تاريخ الإسلام ٦/ق ١١٤ ب مخطوط ،والمشتبه ١/ ٣٤٤ ،والميزان ٢/ ١٠٩ .
(٩) في تبصير المنتبه ١/ ١٣٥ ،ولسان الميزان ٣/ ٢ .وقد ذكره بهذا الاسم من المعاصرين الدكتور شوقي ضيف في العصر الإسلامي ٣٧٥ .
(١٠) في الإكمال ١/ ٣٩٨ .
(١١) في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ مخطوط . وقد ذكره بهذا الاسم من المعاصرين بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ١/ ٢٤٨ .

تابعهم ، اذ أنه ذكر سابق البربرى في مادتي : سبق ،وبر ،وقال في الأولى : " سابق بن عبدالله البرقي المعروف بالبربرى"[١] ، وقال في الثانية : " وأبو سعيد سابق بن عبدالله الشاعر المطبوع"[٢] . فهو قد جمع في المادة الأولى بين "البرقي " -ويبدو أنها الرقي وصحفت- وبين البربرى ،وذكره في الثانية بغير نسبة .

وقد انفرد ابن عبد البر[٣] بتسميته : سابق البلوي المعروف بالبربرى فنسبه إلى بلىّ من قضاعة ،ويبدو أنه تحريف ،لأن البلوى والبربرى بينهما تناقض كبير ،فالبربرى : تُبيِّن أنه من أصل غير عربي ، والبلوى نسب عربي ،فكيف نجمع بينهما ؟

هذا الجمع في نسبته بين الرَّقي والبربرى قد يكون نتيجة وجود شخصين مختلفين بهذا الاسم ،إذ أن أصحاب طبقات الحديث فرّقوا بين : سابق بن عبدالله الرَّقي ،وسابق البربرى ،كما ورد عند الذهبي[٤] نقلًا عن ابن عدى ،وكما ورد عند ابن أبي حاتم[٥] حين ذكر شخصين باسم سابق : سابق البربرى ،وسابق الرَّقي ،مع اختلاف في أسماء الرواة بينهما .

---

(١) تاج العروس مادة سبق ٦/٣٧٦.
(٢) المصدر نفسه مادة بر ٣/٣٩.
(٣) في جامع بيان العلم وفضله ١/٤٩.
(٤) في ميزان الاعتدال ٢/١٠٩ .
(٥) في الجرح والتعديل ١/٣٠٧.

ولكن ابن حجر [١] ذكر أن ابن عدى قد جوّز أن يكون سابق ثلاثة : سابق بن عبدالله الراوى عن أبي خلف ، وسابق بن عبدالله الرّقي ، وسابق البربرى .

والذى نراه أن أصحاب طبقات الحديث أكثر قربًا من الصواب ، لأن العادة في الأنساب أنه اذا كانت للشخص الواحد نسبتان إحداهما للموطن والأخرى للأصل فإنه يشتهر بهما معًا ، ولا تترجح إحداهما على الأخرى ، أما إذا ذكر في بعض الترجمات بإحدى النسبتين وجمع له بينهما في بعضها الآخر - وهذا ما حدث لسابق البربرى - ، إذ ذكر في بعض الترجمات بنسبة واحدة هي " البربرى " ، وجُمع له بين البربرى والرّقي في بعضها الآخر - فإن هذا دليل على أن هاتين النسبتين لشخصين مختلفين . ثم إن علماء الحديث أكثر دقة وضبطًا في هذه الأمور من المؤرخين والأدباء ، فابن عدى ، وقد تابعه ابن حجر فرّق بين سابق بن عبدالله ، وسابق الرّقي وسابق البربرى ، فقال ابن حجر نقلًا عن ابن عدى : " وقد جوّز ابن عدى أن يكون سابق ثلاثة : سابق ابن عبدالله الراوى عن أبي خلف ، وسابق بن عبدالله الرّقي ، وسابق البربرى ، فقال ما نصه : أظن أن سابقًا صاحب حديث : " اذا مدح الفاسق " ليس هو بالرّقي ، لأن الرّقي أحاديثه مستقيمة عن مطرف وأبي حنيفة . وأما سابق البربرى فإنما له كلام في الحكمة والزهد وغيرهما " [٢] . وقد نقل الذهبي [٣] عن ابن عدى مثل هذا أيضا .

---

(١) في لسان الميزان ٣/٢ .
(٢) المصدر نفسه ٣/٢-٣ .
(٣) في ميزان الاعتدال ٢/١٠٩ .

ثم إن ابن أبي حاتم قد ذكر من بين من روى العلم باسم سابق شخصين هما : سابق البربرى ، وسابق الرّقي ، فقال في الأول : " سابق البربرى ، روى عن مكحول ، روى عنه الأوزاعي " (١) . وقال في الثاني : " سابق الرّقي ، روى عن العلاء بن عبد الرحمن ، وخصيف ، وأبي خلف ، روى عنه موسى بن أعين ، ومعافى بن عمران الموصلي ، وعثمان بن عبد الرحمن الطرائفي " (٢) ، فذكرهما مع اختلاف في سند الرواية . وقال في سابق البربرى : إن الأوزاعي روى عنه . وهذا يتفق مع ما ذكره البخارى في ترجمته لسابق البربرى حين قال : " سابق البربرى روى عنه الأوزاعي " (٣) .

ثم إن الذهبي (٤) قال في ترجمة سابق : " سابق البربرى : له أشعار مليحة في الزهد .... ويقال إن سابقًا الرّقي تأخر ...." . وهذا دليل على تفرقته بين الرقى والبربرى .

كما أن بعض من ذكر سابقًا البربرى كان يصفه بالشاعر ، فيقول : " سابق البربرى الشاعر " (٥) . وهذا دليل على وجود أكثر من شخص يسمى سابقًا ، ومن بينهم شاعرنا ...

وفي هذا كله دليل كاف يجعلنا نرجح أن سابق بن عبدالله الرّقي غير سابق البربرى ، إلا أنه تبقى لدينا شبهة في كون الرّقي

---

(١) الجرح والتعديل ١/٣٠٧ .
(٢) المصدر نفسه والصفحة .
(٣) التاريخ الكبير جـ٢ ق٢/٢٠١ .
(٤) تاريخ الإسلام ٦/ق ١١٤ (ب) مخطوط .
(٥) انظر مثلا حلية الأولياء ، لأبي نعيم ٥/٣١٨ ، وتاج العروس للزبيدى مادة بر ٣/٣٨ .

هو البربرى ،لأن سابق البربرى ذُكِر عنه أنه سكن الرّقة. ولكن من الممكن ان تكون سكناه الرّقة لا تؤثر في نسبته ،لأن الغالب في النسب أنها تكون للمواطن الأصلية لا لمواطن السكن ،وأيضا فإن ابن حِبّان يقول عن سابق البربرى في ترجمته له : "هذا من أهل بربر سكن الرقة"(١) . وقوله : " من أهل بربر" يدل على أن بربر مدينة أو قرية ، غير أنه لا دليل لدينا يثبت هذا ،وعليه لا يزال الباب مفتوحًا أمام العديد من التساؤلات التي تتصل بشخصية سابق وحياته .

٢ - كنيتـه :

كنى سابق البربرى بكنىً مختلفة بناءً على الاختلاف بين الاسمين ، فقد كناه معظم من ذكره بأبي سعيد(٢) ،بينما كناه ابن حبيب بأبي أمية(٣) .

ولكن الذهبي(٤) الذى فرّق بين سابق البربرى وسابق الرّقي كنى الرّقي : أبا عبدالله ،أو أبا سعيد ،أو أبا المهاجر ، وذكر البربرى بغير كنية . وكذلك فعل ابن حجر(٥) ، إذ كنى الرّقي : أبا المهاجر ، ولم يكن البربرى .

---

(١) انظر الثقات ٦/٤٣٣ .

(٢) كذا كناه ابن حبان في الثقات ٦/٤٣٣ وابن ماكولا في الإكمال ١/٣٩٨ والسمعاني في الأنساب ٢/١٣١ ،وابن الأثير في اللباب ١/١٣١ ، والبغدادى في الخزانة ٤/١٦٤ والزبيدى في تاج العروس مادة بر ٣/٣٩ ،ود. العاني في معجم ألقاب الشعراء ٣٢ .

(٣) في كنى الشعراء ٢٩٤ .

(٤) في ميزان الاعتدال ٢/١٠٩ .

(٥) في لسان الميزان ٧/٥٤ - ١١٢ الخاص بالكنى .

أما من جمع بين الرَّقي والبربري وجعلهما شخصًا واحدًا فإنه جمع بين الكنى المختلفة لسابق البربري ،كما فعل ابن عساكر ،إذ قال : "سابق بن عبدالله أبو سعيد ،ويقال : أبو أمية ،ويقال : أبو المهاجر الرَّقي المعروف بالبربري الشاعر"(١) ، وكما فعل الصفدي، إذ قال : "سابق بن عبدالله أبو سعيد ،ويقال : أبو أميّة ويقال : أبو المهاجر الرَّقي المعروف بالبربري الشاعر"(٢) . وكذا كناه بروكلمان(٣) .

وقد سار الأستاذ عبدالله كنون في هذا الاتجاه ،حيث قال : "فوضح أن كلًا من سابق البربري وسابق الرقي إنما هو اسم لشخص واحد ،وأن تلك الكنى المختلفة هي لهذا الشخص بالذات"(٤) .

ولكن الذي أرجحه أن كنيته : أبو سعيد ،لأنها الكنية التي ذكرها معظم من ذكر سابقًا ،ولأن سابقًا البربري غير سابق الرّقي كما رجحت آنفًا .

٣ - نسبه :

اتفق كل من ترجم له أو أشار إليه على أن اسمه : سابق البربري ، أما دلالة نسبته إلى البربر فقد كانت موضع خلاف بينهم ، فمنهم من جعله من المنسوبين إلى البربر ، كما قال السمعاني : "والمشهور بهذه

---

(١) انظر تاريخ دمشق ،لابن عساكر ٤/ق ٧٢ .
(٢) انظر الوافي بالوفيات للصفدي ١٥/ ٦٩ .
(٣) انظر تاريخ الأدب العربي ١/ ٢٤٨ .
(٤) انظر دراسة عبدالله كنون سابق البربري ... ١٣ .

النسبة : أبو محمد هارون بن أبي إبراهيم البربري ... وأبو سعيد سابق بن عبدالله البربري ..." [١] ، وبذلك قال ابن حجر حين ذكره ضمن المنسوبين إلى البربر : " البربري خلق منهم : سابق البربري ، وخلق كثير نسبوا إلى البربر ... " [٢] . وكذلك قال البغدادي أيضا : " والبربري نسبة إلى البربر " [٣] .

ولكن ابن الأثير خالف السمعاني حين عقّب بقوله : " قلت : الصحيح أن سابقاً البربري ليس منسوباً إلى البربر ، وإنما لقب له " [٤] . وقد تابعه في العصر الحديث الدكتور سامي العاني ، إذ قال : " اسمه أبو سعيد سابق بن عبدالله ، ولم يكن من البربر " [٥] .

والذي نلحظه أن كلام ابن الأثير أقرب إلى واقع حياة سابق البربري ، إذ لو كان سابق من البربر لعرفنا شيئاً عن هجرته إلى الشام ، كما أن البخاري [٦] عده في الشاميين بقوله : " يعد في الشاميين " وابن عساكر ترجم له في تاريخ دمشق . ثم إننا برجوعنا

---

(١) الأنساب ٢/١٣١ .
(٢) تبصير المنتبه ١/١٣٥ .
(٣) خزانة الأدب ٤/١٦٤ .
(٤) اللباب ١/١٣٢ .
(٥) معجم ألقاب الشعراء ٣٢ .
(٦) في التاريخ الكبير جـ٢ ق٢/٢٠١ .

الى كتب[١] طبقات أشعراء شمالي أفريقية لم نجد فيها ذكراً لسابق ، وأيضا فان قول ابن حِبَّان : " هذا من أهل بربر سكن الرّقة"[٢] دليل على أن بربر قد تكون مدينة أو محلة ،وليست قبيلة البربر ،ويكون سابق منسوباً إلى موطن سكناه وليس إلى قبيلته .

هذا الخلاف في نسبة سابق إلى البربر يدعونا إلى مناقشة العديد من القضايا المتصلة بنسبه ،إذ أن الأستاذ عبدالله كنون[٣] الذى نسبه إلى البربر قد أكد هذه النسبة وبنى دراسته على أن سابق البربرى شاعر مغربي عاش في الشام ، ثم إنه أطال في الحديث عن نسبة البربر إلى العرب ورجّح أنهم ينتسبون إلى بر بن قيس عيلان .

والتحقيق التاريخي لا يفيد ذلك ،فأصحاب الأنساب ينفون نسبة البربر إلى قيس عيلان ،كما فعل ابن حزم حيث قال : "وادّعت طوائف منهم إلى اليمن ،إلى حمير وبعضهم إلى بر بن قيس عيلان ،

---

(١) راجع مثلا : نفح الطيب للمقرى تحقيق د . إحسان عباس ،وخريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني في قسم شعراء المغرب ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٦م ، المغرب في حلى المغرب لابن سعيد تحقيق د . شوقي ضيف ،وبغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد بن يحيى الضبي ،ودمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخرزى ،تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو . والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ،تحقيق د . إحسان عباس .

(٢) انظر الثقات ٦/ ٤٣٣ .

(٣) في دراسته الموجزة عن سابق البربرى وهي بعنوان سابق البربرى شاعر من المغرب عاش في الشام .

وهذا باطل ،لا شك فيه ،وما علم النسابون لقيس عيلان ابنًا اسمه بـرّ أصلًا ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب موءرخي اليمن[١].

وعلى هذا النهج مضى البلاذرى حيث قال : " والبرابرة اليوم يقولون : نحن بنو برّ بن قيس . وذلك باطل "[٢] . كما أن ابن عبد البر لم ينسبهم إلى العرب بقوله : "وأما البربر فالاختلاف فيهم كثير وأثبت ما قيل فيهم : إنهم من ولد قبط بن حام ،وقد انتسب بعضهم في حمير وأنكر ذلك أكثر الناس "[٣] .

وقد شك ابن منظور في نسبتهم إلى قيس عيلان بقوله : " و بربر جيلٌ من الناس يقال : إنهم من ولد بر بن قيس عيلان ، قال : ولا أدرى كيف هنا ؟ "[٤] .

أما الموءرخون فإن منهم من نفى هذه النسبة إلى العرب أصلًا ومنهم من عرض لنسب البربر دون أن يرجّح فيه شيئًا ، فابن خلدون قال بعد مناقشته للآراء التي قيلت في نسبهم : " والحق الذى لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من كنعان بن حام بن نوح كما تقدم في أنساب الخليقة ... "[٥] . ثم قال :

---

(١) جمهرة أنساب العرب ٤٩٥ .

(٢) أنساب الأشراف ١/ ٧ .

(٣) القصد والأمم ٢٤ .

(٤) لسان العرب مادة برر ٤/ ٥٥ .

(٥) العبر ١/ ١٩١ .

" ... وأما نسابة البربر فيزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب ،مثل لواته يزعمون أنهم من حمير ... وهذه كلها مزاعم ،والحق الذى شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة وعندى أنهم من إخوتهم والله أعلم "(١) .

وياقوت الحموى يسير في هذا الاتجاه حيث قال : " فأكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب ،وهو بهتان منهم وكذب "(٢) ، وقال عن أحمد بن يحى بن جابر : " حدثني بكر بن الهيثم ،قال : سألت عبدالله بن صالح عن البربر ،فقال : هم يزعمون أنهم من ولد بر بن قيس بن عيلان ، وما جعل الله لقيس من ولد اسمه بَرّ ،وإنما هم من الجبّارين الذين قاتلهم داود وطالوت "(٣) .

وقد نسبهم اليعقوبي إلى حام بن نوح بقوله : "وكانت البربر والأفارقة وهم أولاد فارق بن بيصر بن حام بن نوح .."(٤) . كما أرجعهم صاحب الاستقصا(٥) إلى حام بن نوح أيضا ، والنويرى ذكر مثل هذا بقوله : " والعقب من حام بن نوح : الهند ،والسند ،والزنج ، والحبشة ،والقبط ،والبربر ..."(٦) .

---

(١) العبر ٦/١٩٢ .
(٢) معجم البلدان ١/٣٦٨ .
(٣) المصدر نفسه والصحيفة .
(٤) تاريخ اليعقوبي ١/١٩٠ .
(٥) الاستقصا لابي العباس احمد بن خالد الناصرى ١/٦٣ .
(٦) نهاية الأرب ٢/٢٨٨ .

ولكن ابن الأثير أرجعهم إلى العرب حين ذكر أنهم من العماليق وأن العماليق من العرب بقوله : " ... فكانت طسم والعماليق وأميم وجاشم قوما عربًا لسانهم عربي ... والبربر من ولد شميلا بن مآرب بن فاران بن عمرو بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ما خلا صنهاجة وكتامة فإنهما بنو فريقش بن صيفي بن سبأ" (١) . كما رجّح القلقشندى نسبتهم إلى العرب دون تحديد .. فقال : " وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلى أنهم من العرب وإن لم نتحقق من أى عرب هم " (٢) .

هذا كلام المحققين من النسابة والمؤرخين ، ويلحظ فيه أن معظمهم لا يميل إلى نسبة البربر إلى العرب ، وأن من نسبهم إلى العرب أرجعهم إلى غير قيس عيلان ، ذلك لأنّ قيس عيلان لم يكن له ولد اسمه برّ أصلا كما قال ابن حزم سابقًا ، وكما يدل عليه ذكر نسب قيس وبطونها في كتب الأنساب كما ورد عند ابن عبد البر في قوله : " قال أبو عمر: لا أعلم خلافًا في أن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ولد ثلاثة رجال : عمرو بن قيس ، وسعد بن قيس ، وخَصَفَة بن قيس ... وأنكر أكثر أهل العلم بالنسب وأيام العرب أن يكون لقيس بن عيلان ولد يقال له برّ ، ولم يعرفوا لقيس ولدًا إلا الثلاثة المذكورين " (٣) .

وهذا دليل كاف لرد ما أكده الأستاذ عبدالله كنون من نسبة البربر إلى العرب وإلى قيس عيلان خاصة ، فهو قد قال

---

(١) الكامل في التاريخ ١/ ٤٥ .
(٢) صبح الأعشى ١/ ٣٦١ .
(٣) الإنباه على قبائل الرواة ٨٣ .

بأسلوب يدل على تأكده مما يقول : " فإنما يدل على صحة انتساب هذه القبائل المغربية إلى الشعب العربي ، وصِدْق النسابة الذين يُرجعون البربر الى أصول عربية من عدنانية و قحطانية"(١) . ثم قال بأسلوب التعجب : " وما أصدق ما ينسب إلى تماضر بنت قيس عيلان ترثي أخاها برًا وتذكر بعده عن وطنه :

كأنِّي وبرًّا لَمْ تعزَّ ديارُنا
بنجْدٍ ولم نَقْسِمْ نَهاباً ومَغْنَما

وشطَّت ببرٍّ دارُهُ عَنْ بلادِهِ
وطَوَّحَ بَرٌّ نفْسَهُ حيثُ يَمَّما

وأزْرَتْ ببرٍّ لكْنةٌ أعجميَّةٌ
وما كانَ بَرٌّ في الحِجازِ بأعْجَما"(٢)

ويلحظ أن كلامه عبارة عن دعوى لا نجد في النصوص التاريخية مايؤكدها ، بل نجد ما ينفيها . ثم كيف يُفَسَّر قوله : " يرجعون إلى أصول عربية من عدنانية و قحطانية " هل يرجعون إلى العدنانية والقحطانية في وقت واحد ؟ أو أنهم يرجعون إلى العدنانية أو القحطانية؟ وهو النسق المناسب للعبارة . ثم إن هذه الأبيات التي نسبت إلى تماضر بنت قيس عيلان تبدو عليها علامات الصنعة ، فهي تذكر في البيت الأول أنهم كانوا بنجد ، ثم تذكر في البيت الثالث أنهم كانوا بالحجاز ،

---

(١) سابق البربري شاعر من المغرب عاش في الشام ص ٣ .
(٢) المرجع نفسه والصفحة .

وهذا تناقض . ثم إن من ذكر أصل البربر لم يشر إلى أنهم كانوا في نجد أو في الحجاز ، وإنما كانوا في فلسطين أو في اليمن . وأخيرًا فإن هذه الأبيات قد وردت في كتب التاريخ والأنساب بأسلوب الشك فيها ، فابن خلدون يوردها بقوله : " ومما ينسب إلى تماضر أيضا ... "(١) ، وابن عبدالبر يذكرها بصيغة الزعم فيقول : " وزعموا أن تماضر أيضا قالت في أخيها برّ بن قيس ... "(٢) .

وهذه أدلة أخرى على أن قضية عروبة البربر مشكوك فيها ، وأن ما ادّعاه الأستاذ عبدالله كنون لا يستند الى أدلة تاريخية . الأمر الذى ألجأه في محاولته إثبات هذه النسبة إلى الدعوة يعرض قضية عروبة البربر على الباحثين النفسيين ، وتحليل اللهجات البربرية تحليلا فلولوجيًا ، فقال : " أما أنه قد آن لنا أن نهتم جديا بالمسألة ، ونعرض قضية عروبة البربر على الباحثين النفسيين ، ونحلل اللهجات البربرية تحليلًا فلولوجيًا ، فلا يمكن أن يكون هذا التعلق الشديد بالعرب ، وهذا البيان المُعرب بلغتهم ظاهرتين عاديتين لا ترجعان إلى عناصر نفسية وأصول لغوية متحدة أو مشتركة ، وإلا فلماذا لا يعتز الفارسي مثلًا إلا بأصله ؟ ، ولم تكن إلا كلّا ولا ، حتى عاد إلى فهلويته يمكّن لها في بلاده بعد أن كان بلغ في العربية شأوا لا يُلْحق ، على حين أن البربرى في عنفوان مجده وإقبال دولته لا يحيد عن الانتماء إلى الأصول العربية التي يعتقد أنه منحدر منها ، وما يزال كذلك إلى الآن يُدِلّ بعروبته ويرفع من شأن عربيته ... المسألة مهمة جدًا فلينظر فيها بجد ... "(٣) .

---

(١) العبر ٦/١٨٦ .

(٢) القصد والأمم ٢٥ .

(٣) سابق البربرى ، شاعر من المغرب عاش في الشام ٤ .

وقد نقلنا هذا النص - على طوله - لما احتواه من قضايا تستوجب المناقشة مع الأستاذ عبد الله كنون ، فهو يذكر القضية بأسلوب حماسي فيه نبرة خطابية معتمداً على الميل العاطفي في مقام يستوجب الاستناد على دليل تاريخي يأخذه من كلام المؤرخين . ثم إنه يدعو إلى عرض قضية عروبة البربر على المحللين النفسيين بحجة ميل البربر إلى العرب وتمسكهم باللغة العربية ، مما يجعلنا نتساءل ، ما هي مظاهر هذا الميل إلى العرب ؟ وهل كانت لغة البربر بعد الفتح الإسلامي هي العربية ؟ ومن الذى نبغ منهم في اللغة العربية وكان له البيان المُعرب ؟ .

هذه التساؤلات تتبادر إلى الذهن ، لأن التاريخ يثبت لنا أن ثورات (١) عديدة قامت بين البربر والعرب ، كما يثبت أن البربر كانت لهم لغتهم أو لهجاتهم الخاصة قبل الفتح الإسلامي ، ثم إنهم بدأوا يتعلمون العربية بعد الفتح الإسلامي ، ولكن لهجاتهم الخاصة لم تنقرض تماما إلى عهد قريب كما يتضح من قول عبد الوهاب منصور : " لأن البربر كانوا يتسابقون بعد حفظ القرآن إلى تعلم اللغة العربية ودراسة شريعة الإسلام عن طريقها ، واللغة أو اللهجات البربرية آيلة اليوم إلى الانقراض وقد انقرضت فعلاً في تونس وطرابلس أو كادت ، وأصبح المتكلمون بها إلى جانب العربية في الجزائر قلة قليلة ، ولكن لا يزال يتكلمها مع العربية نحو الثلث من سكان المغرب الأقصى " (٢) .

---

(١) انظر في هذا : نفح الطيب للمقرى ١/ ٤٢٧، ٤٨٢ ، ٤٩٠ .
وانظر أيضا : فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، الفصل الخامس ١٤٣-٢٠٧ .

(٢) قبائل المغرب ، عبد الوهاب بن منصور ١/ ٢٨٨ .

ثم إن قوله : "إن الفارسي سرعان ما عاد الى فهلو يته يمكّن لها " يدعونا إلى أن نتساءل : هل كانت الفارسية الحديثة هي الفهلوية القديمة ؟ . هذا ما لا تثبته الدراسة ، فاللغة الفارسية التي نشأت في ظلال دويلات الفرس منذ منتصف القرن الثالث الهجرى كانت هي اللغة الدرية ،وهي لغة فارسية حديثة نشأت في حضانة اللغة العربية وتحت وصايتها على حد تعبير الدكتور غنيمي هلال (١) ،ذلك لأنها استمدت من العربية الكثير من ألفاظها وخاصة المصطلحات الدينية ، حتى قيل (٢) : إن نسبة الألفاظ العربية في المعجم الفارسي تزيد على السبعين بالمائة. كما أنها استبدلت بالخطوط الفارسية القديمة الخط العربي الذى تميز بالسهولة والوضوح ، ثم إنها نشأت برعاية من كانوا من أصحاب اللسانين العربي والفارسي ،إذ جمعوا بين العربية والفارسية وساهموا في تنشيط حركة الترجمة بين اللغتين ،وتركوا المؤلفات العديدة التي كتبوها بالعربية مع أن أصلهم فارسي ، حتى قال ابن خلدون : " ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم " (٣) ،فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي والزجاج وكلهم من الفرس ،تركوا المؤلفات العديدة بالعربية ، ثم إن الغزالي المتوفى سنة خمس وخمسمائة للهجرة ، وابن سينا المتوفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة للهجرة ، قد تركا كثيراً من المؤلفات بالعربية وقليلا منها بالفارسية.

وهذا يعني عدم ضياع اللغة العربية في بلاد الفرس ،كما يعني أن الفارسي لم يتحول عن اللغة العربية بسرعة كما قال الأستاذ

---

(١) انظر في هذا : مقدمة كتابه مختارات من الشعر الفارسي ٦-٧.

(٢) انظر في هذا : دراسات في الأدب المقارن د. بديع جمعة ٧١.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٤٤.

عبدالله كنون ، بل ظلت العربية - حتى بعد تحقيق الكيان السياسي لايران بعد نشوء الدويلات الفارسية - هي لغة الأدب والعلم لدى النابهين من أبناء ايران . هذا إلى جانب التأثيرات الإسلامية الكثيرة التي ظهرت في الآثار الأدبية التي كتبت بالفارسية الحديثة مثل مقامات القاضي حميد الدين التي أنشأها على غرار مقامات الحريرى وبديع الزمان وضمّنها كثيرًا من الجمل والأشعار العربية ،مما يدل على اهتمام الفرس باللغة العربية ،وتأثرهم بها في اكثر من مجال .

وقد أطلنا المناقشة مع الأستاذ عبدالله كنون ،لأنه دعا إلى الجد في هذه المسألة ،والجد يقتضى تجنب الميل العاطفي في مقام الحكم التاريخي ،فقضية الأنساب لا تحتاج الى عواطف ومشاعر ،وإنما تستند إلى الدليل التاريخي الذى يثبتها أو ينفيها ،وعروبة البربر قضية في الأنساب رجّحَ الدليل التاريخي نفيها ،ولذلك نقول : ما أبعد الشقة بين البربر والعرب من جهة ،وبين سابق والبربر من جهة أخرى ، واذا كان الأستاذ عبدالله كنون قد جزم بأن سابقًا من البربر فلماذا لم يخبرنا عن كيفية انتقال سابق من موطنه أو موطن قبيلته في شمالي إفريقية إلى الشام ،وهل كان أسيرًا أم مولى أم مهاجراً ؟ وكم كان عمره حين قدم ؟ وكيف كانت نشأته العلمية ؟ هل تلقى العلم في موطن قبيلته أم تلقاه في مكان هجرته ؟ ، وما أثر انتمائه إلى البربر في لهجته أو شعره ؟ ، ثم ما قول الأستاذ فيما جزم به ابن الأثير من أن سابقًا لُقِّبَ بالبربرى ،ولم يكن من البربر ؟

كل هذه تساؤلات تحتاج إلى إجابة عنها من الأستاذ ليثبت انتساب سابق إلى البربر .

وقد يحتجّ لنسبة سابق إلى البربر بما قيل عنه بأنه من موالي بني أمية ،كما ذكر ابن عساكر (١) ،والذهبي (٢) ،والصفدى (٣) ، والبغدادى (٤) .

والمولى لا يكون عربيًا ،ولكنّا نقول : إن من نسبه إلى الموالي لم يحدد أصله ،كما لم يُعيِّن بالتأكيد سيّده ، فالذهبي والبغدادى يقولان : " وهو من موالي بني أمية" . وابن عساكر يقول : " سابق مولى الوليد" دون أن يحدد أهو الوليد بن عبد الملك (٥) ،أم الوليد بن يزيد (٦) .

أما الصفدى فيقول : " وقيل : هو مولى عمر ، وقيل : هو مولى الوليد " .

وهذا الاضطراب في الأقوال يشكك فيها ،ويبين عدم التحقق منها .. مما يدل على أن نسبته إلى البربر مشكوك فيها أيضا ... ثم إن كونه مولى لا يُعضِّد نسبته إلى البربر ...

ونحن بترجيحنا عدم صحة نسبة سابق إلى البربر ،وعدم صحة نسبة البربر إلى العرب لا ننتقص من شأن البربر ولا نعيبهم ، فإن موقف الإسلام من الأجناس واضح ،فهو لا ينتقصهم ولا يعيبهم بسبب

---

(١) انظر تاريخ دمشق ٤/ق ٧٣ ب .

(٢) انظر تاريخ الإسلام ٦/ق ١١٤ ب .

(٣) انظر الوافي بالوفيات ١٥/ ٧٠ .

(٤) انظر خزانة الأدب ٤/ ١٦٤ ،وشرح أبيات المغنى ٣/ ٢٩٦ .

(٥) الوليد بن عبد الملك بن مروان ،ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٨٦ هـ وتوفى سنة ٩٦ هـ .

(٦) الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ،ولي الخلافة بعد وفاة عمه هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ وتوفى سنة ١٢٦ .

أجناسهم حيث : "لا فضلَ لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمرَ على أسودَ ولا أسودَ على أحمرَ إلاّ بالتقوى "(١) . كما أنه يرفض اختلاط الأنساب ، فقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : "من انتسب إلى غير أبيه ،أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنةُ اللهِ والملائكة والناس أجمعين "(٢) . ثم إن البربر أمة لها شأنها وأثرها في خدمة الإسلام ،كما أن لها فضائلها ورذائلها ،حيث لا تخلو أمة من فضائل ورذائل كما قال أبوحيان : " إن لكل أمة فضائل ورذائل ،ولكل قوم محسان ومساوىء ،ولكل طائفة من الناس في حلها و عقدها كمال وتقصير"(٣) ، وكما قال الجاحظ : " ولكلٍ نصيب من النقص ،ومقدار من الذنوب ،وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء "(٤) .

ومن هنا فإننا نقرر ،واثقين مما نقرره : أن الأستاذ عبدالله كنون بنى تصوراته في نسبة سابق إلى البربر ،ثم في عروبة البربر على ظنٍّ ظنه ،لا على علم تحقق منه ،ثم إنه تناول القضية من زاوية إقليمية محضة ، إذ أعجبه أن يجد في القرن الأول الهجرى شاعراً مغربياً ، كما أعجبه أن تكون لهذا الشاعر منزلة طيبة في الزهد ،و مكانة عالية عند الخليفة الأموى الزاهد عمر بن عبد العزيز ،والدليل على ذلك أنه جعل عنوان بحثه المطبوع من قبل المجمع العلمي في دمشق :

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥/٤١١ .
(٢) سنن ابن ماجه ،كتاب الحدود ٣٦/٢/٨٧٠ .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/٧٣ .
(٤) رسائل الجاحظ ، مناقب الترك ١/٣٧ .

سابق البربرى شاعر من المغرب عاش في الشام ،مع أن التحقيق العلمي أن ينسب الشاعر إلى بيئته التي عاش فيها والتي نمت شخصيته في ربوعها ،واذا كان سابق البربرى قد عاش في الشام فما وجه وصفه بأنه شاعر من المغرب ،مع أن الأستاذ عبدالله كنون لا يعرف له تاريخاً ولا نشأة في بلاد المغرب ، ولا يعرف -كما لا نعرف نحن - شيئاً عن رحلته من المغرب إلى المشرق . ولهذا كان الأجدر أن تغفل هذه الفروق الإقليمية ،وأن يهدم الحاجز الوهمي بين المشرق والمغرب . وأن ننظر إلى سابق البربرى على أنه شاعر مسلم جعل من الشعر أداة للدعوة إلى الخير والتذكير بمنهج التقوى الذى جاء به الإسلام.

ثانياً - حياتـــه :

مولده ، بيئته ، صلته بعمر بن عبدالعزيز ،صلته بشعراء عصره ،وفاتـه .

ليس من السهولة تحديد مولد سابق البربرى ،ووفاته ، ذلك لأن المصادر (١) التي ترجمت له لم تذكر شيئاً عن مولده ،أو وفاتــه ،

---

(١) انظر ترجمته في التاريخ الكبير للبخارى ق ٢ ج ٢/ ٢٠١ . والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ق ١ ج١ / ٣٠٧ . والثقات لابن حبّان ٦/ ٤٣٣ . والإكمال لابن ماكولا ١/ ٣٩٨ . والأنساب للسمعاني ٢/ ١٣١ . وتاريخ دمشق ،لابن عساكر ٤/ق ٧٠ . وفهرسة ابن خير ٤٠٦ . واللباب لابن الأثير ١/ ١٣٢ . وميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ١٠٩ . وتاريخ الإسلام للذهبي ٦/ق ١١٤ب والمشتبه في الرجال للذهبي ١/ ٣٤٤ . والوافي بالوفيات ، للصفدى ١٥/ ٦٩ . ولسان الميزان لابن حجر ٣/ ٢ . وتبصير المنتبه لابن حجر ١/ ١٣٥ . وخزانة الأدب ،للبغدادى ٤/ ١٦٤ . وشرح أبيات المغنى للبغدادى ٤/ ٢٩٦ . وتاج العروس للزبيدي مادة بر ،سبق . ورغبة الآمل للمرصفي ٤/ ١٥٩ . وتاريخ الأدب لبروكلمان ١/ ٢٤٨ . وتاريخ التراث لسزكين م١ ج٤/ ٩٣ و م٢ج٣/ ٤١-٤٢ . وانظر دراسة الاستاذ عبدالله كنون : سابق البربرى ...

أو نشأته . اللهم إلا أخبارًا قليلة عن بعض مشايخه ،وتلامذته ،وأخبارًا قليلةً لا قطع فيها عن أصله ومناصبه . . .ولكن هذا لا يمنع من تحليل هذه الروايات الموجزة في ترجماته لمحاولة تقدير سنة مولده ،ووفاته بالتقريب ،ومعرفة شيءٍ عن نشأته العلمية ،وتحصيله العلمي . . . وهذا هو الذى عوّلنا عليه ،إذ لا سبيل لنا غيره أمام غياب الترجمة المفصلة لحياة سابق البربرى .

١ - مولده :

من الأخبار التي وصلتنا عن سابق البربرى أنه وفد على عمر بن عبد العزيز ووعظه ،فابن عساكر يقول في ترجمته : " قدم على عمر بن عبد العزيز وأنشده أشعارًا في الزهد "(١) ،والصفدى يقول : " قدم على عمر بن عبد العزيز وأنشده أشعارًا في الزهد "(٢) كما يقول البغدادى أيضًا : " ووفد على عمر بن عبد العزيز ،وله معه حكايات لطيفة "(٣) .

ونجد تأكيدًا لهذا الخبر في ترجمات عمر بن عبد العزيز ، فأبو نعيم يروى عن ميمون بن مهران أنه قال : " دخلت على عمر بن عبد العزيز يوما وعنده سابق البربرى الشاعر ،وهو ينشد شعرًا ،

---

(١) انظر تاريخ دمشق ٤/ق٧٢ .

(٢) انظر الوافي بالوفيات ١٥/٦٩ .

(٣) انظر خزانة الأدب ٤/١٦٤ ،وشرح أبيات المغنى ٤/٢٩٦ .

فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات :

فَكَمْ مِنْ صَحيحٍ باتَ لِلْمَوتِ آمنًا
أَتَتْهُ المَنايا بغتةً بَعْدَما هَجَعْ
فَلَمْ يَسْتَطِعْ إذْ جاءَهُ الموتُ بغتةً
فِرارًا ولا مِنْهُ بِقوّتِهِ امْتَنَعْ
فأَصْبحَ تَبكيهِ النِّساءُ مُقنَّعًا
ولا يَسْمَعُ الدّاعي وإنْ صَوتَهُ رَفَعْ
وقُرِّبَ مِنْ لَحْدٍ فَصَارَ مَقِيلَهُ
وفارقَ ما قَدْ كانَ بالأمْسِ قَدْ جَمَعْ
فَلا يَتْرُكُ المَوتُ الغَنيَّ لِمَالِهِ
ولا مُعْدِمًا في المَالِ ذا حَاجَةٍ يَدَعْ

قال : فلم يزل عمر يبكي و يضطرب حتى غشي عليه ، فقمنا فانصرفنا"(١) . وقد ذكر هذا الخبر و غيره قريب منه أبو الفرج الأصفهاني (٢) ، وابن كثير (٣) . كما وصلنا أنه كتب قصيدة وعظية لعمر بن عبد العزيز بعد أن أرسل إليه يطلب منه أن يعظه فقد ذكر ابن عساكر (٤) عن أبي محمد هبة الله بن أحمد عن عبد ربّه بن حماد :

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/٣١٨ ،ترجمة عمر بن عبد العزيز

(٢) في الأغاني م٥ ق١/٣١١ ،ترجمة أعشى همدان،وفيه وعظه بشعر أعشى همدان .

(٣) في البداية والنهاية ٩/٢١٤ . ترجمة عمر بن عبد العزيز ،وفيه وعظه بالأبيات السالفة ذاتها .

(٤) في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٣ م . والخبر في الوافي بالوفيات ، للصفدي ١٥/ ٧٠ .

" أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى سابق البربرى : أن عظني ، فكتب إليه بهذه الأبيات :

بسمِ الذى أُنزِلَتْ مِنْ عِنْدِهِ السُّوَرْ
والحَمْدُ لِلَّهِ أمَّا بَعْدُ يا عُمَرْ "

وهي قصيدة وعظية طويلة ذكرها أبو الفرج ابن الجوزى كاملة في كتابه : " مناقب عمر بن عبد العزيز" (١) ، كما ذكر جزءا منها في كتابه التبصرة (٢) .

وهذا الخبر يدلنا على أن سابقًا كان معاصرًا لعمر بن عبد العزيز ، كما يدلنا أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز قد بلغ من السن درجة النضج الكامل ، لأنه كان مؤثرًا بوعظه في عمر ، ومقربًا إليه ..... ومعنى هذا أنه كان تقريبًا في نهاية العقد الخامس من عمره ، لأن هذا السن تنضج فيه الشخصية بعد أن تُمحِّصها التجارب ، فتستطيع أن تنطق بالحكمة المستخلصة . ورائية سابق البربرى التي أنفذها إلى عمر مليئة بالحكم الواعظة ، مما يدل على أنه قد أحكمته التجارب فاستطاع أن يستخلص هذه الحكم والمواعظ - فإذا عرفنا أنه اتصل بعمر بن عبد العزيز في نهاية عقده الخامس ، أي وسنه خمس وأربعون أو ثمان وأربعون ، واتصل بعمر في خلافته التي استمرت من سنة تسع وتسعين إلى سنة واحد ومائة فاننا نقدر مولده في أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجرى .

---

(١) طبعة برلين ١٩٠٠م/ ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .
(٢) تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد ١/ ١٠١ ، وانظر أيضا سيرة عمر بن عبد العزيز لنفس المؤلف ص ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ بدون تحديد سنة الطبع أو داره .

٢ - بيئته :

تذكر المصادر التي وردت فيها أخبار سابق البربري أنه عاش في الشام ، فقد قال عنه البخاري : " يعد في الشاميين "(١) . وقال عنه ابن حِبَّان : " من أهل بربر سكن الرقة "(٢) . ويروي عنه ابن عساكر : " كتب مكحول إلى الحسن ونحن بدابق ... "(٣) ، كما يروي فهد بن بشر الداماني : " حدثني سابق بن سعيد - وهي أبو سعيد صحفت - البربري إمامنا بالرَّقة ... "(٤) . ويقول عنه الذهبي : " سكن الرقة "(٥) . ويذكر ابن حجر أنه : " من أهل الرقة "(٦) .

فهذه الروايات تردد بيئته فيما بين الرَّقة(٧) ، وحرَّان(٨) ، ودابق(٩) ، وكلها في الشام ، ولهذا فهو يُعَدُّ في الشاميين .

----

(١) التاريخ الكبير جـ٢ / ٢٠١ .
(٢) الثقات ٦ / ٤٣٣ .
(٣) ، (٤) ، تاريخ دمشق ٤ / ق ٧٣ أ ، ب .
(٥) تاريخ الإسلام ٦ / ق ١١٤ ب .
(٦) تبصير المنتبه ١ / ١٣٥ .
(٧) الرَّقة : بفتح أوله وثانيه وتشديده : مدينة مشهورة على الفرات ، بينها وبين حرَّان ثلاثة أيام ، معدودة في بلاد الجزيرة ، لأنها من جانب الفرات الشرقي " . انظر معجم البلدان ، لياقوت ٣ / ٥٩ .
(٨) حرَّان : بتشديد الراء : مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور . وهي قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرُّها ، وبين الرَّقة يومان ، وهي على طريق الموصل والشام والروم " . انظر معجم البلدان لياقوت ٢ / ٢٣٥ .
(٩) دابق : بكسر الباء ، وقد روي بفتحها وآخره قاف : قرية قرب حلب ، من أعمال عزاز ، بينها وبين حلب أربعة فراسخ " معجم البلدان ٢ / ٤١٦ .

٣ - صلته بعمر بن عبد العزيز :

يذكر بعض من ترجم لسابق البربري خبرًا عن اتصاله بالخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز، ويُبيِّن حضوره مجالسه الوعظية، واشتراكه في وعظه وتذكيره بشعره، فابن عساكر (١) والصفدي (٢) يقولان عن سابق البربري: "قدم على عمر بن عبد العزيز، وأنشده أشعارًا في الزهد". والبغدادي يقول عنه: "وفد على عمر بن عبد العزيز وله معه حكايات لطيفة" (٣).

وقد ذكرت ترجمات عمر بن عبد العزيز أخبارًا له مع سابق البربري، تدل على إقبال الخليفة عمر بن عبد العزيز على سابق البربري، واستنشاده شعره، والتأثر به فقد روى أبو نعيم عن ميمون بن مهران أنه قال: "دخلت على عمر بن عبد العزيز يوما، وعنده سابق البربري الشاعر، وهو ينشد شعرًا، فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات:

فَكَمْ مِنْ صَحيحٍ باتَ لِلْمَوتِ آمِنًا
أَتَتْهُ المَنايا بغتةً بَعْدَما هَجَعْ

فلَمْ يَسْتَطِعْ إِذْ جاءَهُ المَوتُ بغتةً
فرارًا ولا مِنْهُ بقوَّتِهِ امْتَنَعْ

فأَصْبَحَ تَبكيهِ النِّساءُ مُقَنَّعًا
ولا يَسْمَعُ الدَّاعي وإِنْ صَوتَهُ رَفَعْ

---

(١) تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢.
(٢) الوافي بالوفيات ١٥/٦٩.
(٣) خزانة الأدب ٤/١٦٤ وشرح أبيات مغنى اللبيب ٤/٢٩٦.

وقُرِّبَ مِنْ لَحْدٍ فصارَ مقِيلَــهُ
وفارقَ ما قَدْ كَانَ بالأَمْسِ قَدْ جَمَعْ
فلا يَتْرُكُ المَوتُ الغنيَّ لِمالِـهِ
ولا مُعْدِمًا في المَالِ ذا حَاجةٍ يَدَعْ

قال: فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غشي عليه، فقمنا فانصرفنا عنه"(١).

وذكر الأصفهاني في كتابه الأغاني (٢) أن عمر بن عبد العزيز "قال يوما لسابق البربري - ودخل عليه - أنشدني يا سابق شيئاً من شعرك تذكرني به، قال: أو خيرًا من شعري ؟ قال: هات، قال: قال أعشى همدان :

وبينما المرءُ أمسى ناعِمًا جَذِلاً
في أهلِهِ مُعْجبًا بالعيشِ ذا أنقِ
غِرًّا أُتيحَ له مِنْ حَيْنِهِ عَرَضٌ
فما تَلَبَّثَ حتى ماتَ كالصَّعِقِ
ثُمَّتَ أضحى ضُحًى من غِبِّ ثالثةٍ
مقنَّعًا غيرَ ذي رُوحٍ ولا رَمَقِ

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/٣١٨، ترجمة عمر بن عبد العزيز وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ق ٧٢ ب، ترجمة سابق البربري، والبداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٢١٤، ترجمة عمر بن عبد العزيز.
(٢) ٥/ ٣١١، ترجمة أعشى همدان، طبعة دار الفكر- بيروت.

يُبْكَى عليه وأَدْنَوْهُ لِمُظْلِمَةٍ
تُعْلَى جوانِبُها بالتُّرْبِ والقَلَقِ
فما تَزَوَّدَ مِمَّا كان يَجْمَعُهُ
إلا حَنُوطاً وما واراه مِنْ خِرَقِ
وغَيْرَ نفحةِ أعوادٍ تُشَبُّ لَهُ
وقَلَّ ذلك مِنْ زادٍ لِمُنْطَلَقِ

قال: فبكى عمر حتى أخضل لحيته ".

وذكر أبو نعيم خبراً آخر عن سابق البربري في صلته بعمر بن عبد العزيز فقال: " دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز، فقال عمر: عظني يا سابق، وأوجز، قال: نعم، يا أمير المؤمنين، وأبلغ إن شاء الله، فقال: هات، فأنشده:

إذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزادٍ من التُّقى
ووافَيْتَ بَعْدَ المَوتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ على أَنْ لا تكونَ شَرِكْتَهُ
وأَرْصَدْتَ قبلَ الموتِ ماكانَ أَرْصَدا (١)

فبكى عمر حتى سقط مغشياً عليه " (٢).

---

(١) البيتان لأعشى بني قيس بن ثعلبة من قصيدة مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٨٧.

(٢) انظر حلية الاولياء لأبي نعيم ٥/٦، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ق٧٤ أ والتبصرة لأبي الفرج بن الجوزي /ق ٨٥٦ الجزء غير المطبوع.

ولم يقتصر اتصال سابق البربرى بعمر بن عبد العزيز على حضور مجالسه ،بل إن عمر بن عبد العزيز كان يكتب لسابق البربرى يسأله أن يعظه ، فقد روى ابن عساكر (١) عن ابي محمد هبة الله بن أحمد : "أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى سابق البربرى أن عظني ،فكتب إليه بهذه الأبيات :

بِسْمِ الذى أُنْزِلَتْ مِنْ عِنْدِهِ السُّوَرُ
والحَمْدُ لِلَّهِ : أمّا بَعْدُ يا عُمَرُ

إنْ كُنتَ تَعْلَمُ ما يأْتِي وما يَذَرُ
تَكُنْ على حَذَرٍ قَدْ يَنفعُ الحَذَرُ

واصْبِرْ على القَدَرِ المَجْلُوبِ وارضَ بهِ
وإنْ أتاكَ بما لا تَشْتَهِي القَدَرُ

فَمَا صَفَا لامرئٍ عَيْشٌ يُسَرُّ بِهِ
إلا تَتَبَّعَ يوماً صَفْوهُ الكَدَرُ

وقد عُرِفَ عن عمر بن عبد العزيز ورعه وزهده وخشونة عيشه زمن خلافته ،حتى قيل عنه : "استخلف عمر بن عبد العزيز فانقشع عنه الشعراء والخطباء ،وثبت معه الزهاد والفقهاء ، وقالوا : ما يسعنا فراقه حتى يخالف فعله قوله" (٢) .

---

(١) انظر تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ أ وقد أورد القصيدة كاملة أبو الفرج ابن الجوزى في كتابه مناقب عمر بن عبد العزيز ٩٢-٩٧ طبعة برلين ١٩٠٠ م وكتابه سيرة عمر بن عبد العزيز ١٢٠-١٢١ وذكر جزءا منها في كتابه التبصرة ١/١٠١ - ١٠٢ .

(٢) انظر تذكرة الحفّاظ للذهبي ٢/١١٩ .

كما عُرِفَ عنه أنه عندما استخلف أغفل الشعراء المدّاحين وأعرض عنهم ، فمما يُروى من أخباره أن رجلًا دخل عليه فقال : "يا أمير المؤمنين . إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زينا ، وأنت زين الخلافة ، وإنما مثلك كما قال الشاعر:

وإذَا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجُوهٍ
كان للدُّرِّ حُسْنُ وَجْهِكَ زَيْنَا

فأعرض عنه "(١) .

كما روى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال لجلسائه : "من صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال ، يدلني من العدل ما لا اهتدى إليه ، ويكون لي على الخير عوناً ، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندي أحداً ، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس ، فإذا كان كذلك فحيهلا به ، وإلا فهو في حرج من صحبتي والدخول علي"(٢) .

إذا عرف هذا عن الخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز فإن صلة سابق البربري به ، وحضوره مجالسه لدليل قوي على أن شاعرنا قد كان على درجة عالية من الزهد والورع والتقوى ، وحسن الخلق ، وقوة التأثير بالوعظ ، وذلك لأنّ عمر بن عبد العزيز لم يكن يقبل الا على من اتصف بهذه الصفات النبيلة .

---

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٢٩/٥ . ترجمة عمر بن عبد العزيز .
(٢) المصدر نفسه ٣٣٦/٥ .

كما أن إقبال عمر بن عبد العزيز على سابق البربري ، واستنشاده شعره الوعظي ، وتأثره به ، دليل على المكانة العالية التي حظي بها شاعرنا عنده ، ذلك لأن عمر بن عبد العزيز قد روى عنه قوله :
"كل واعظ قبلة "(١) .

٤ - صلته بشعراء عصره :

لم يصلنا خبر عن اتصال سابق البربري بأحد من شعراء عصره ، أو اشتراكه في مجلس من مجالس الشعراء الأدبية ، ولم نجد له شعرًا يدل على أنه كان على صلة بأحد منهم ، كأن يمدحهم أو يهجوهم ، أو يذكر أحدًا منهم . . . وهذا يدل على أن شاعرنا كان يميل إلى الانفراد والخلوة والعزلة عن الآخرين ، وعدم مشاركته لشعراء عصره في خوض غمارهم التي كانوا فيها خائضين . ولعل هذا يعود إلى أنه شاعر زاهد واعظ يستمسك بالتقوى والورع . . . والزهاد يفضلون الوحدة والانفراد والصمت على الاشتغال بالأمور الدنيوية ، وذلك لأن التعبد والانقطاع للآخرة لا يصفوان إلا بترك الفضول والإعراض عن اللغو ، يقول أبو الفرج بن الجوزي : " لا يصفو التعبد والتزهد والاشتغال بالآخرة إلا بالانقطاع الكلي عن الخلق ، بحيث لا يبصرهم ولا يسمع كلامهم إلا في وقت ضرورة كصلاة جمعة أو جماعة ، ويحترز في تلك الساعات منهم . وإن كان عالمًا يريد نفعهم وعدهم وقتًا معروفًا ، واحترز في الكلام معهم "(٢) .

---

(١) انظر طبقات بن سعد ٥/ ٣٧٥ .
(٢) انظر صيد الخاطر ، لأبي الفرج بن الجوزي ٣٩٨ .

وفي أخبار الزُّهاد والوعَّاظ من أهل الشام ما يدل على ميلهم إلى العبادة والصمت والانفراد ، روى أبو نعيم أن عبدالله بن أبي زكريا - وكان من زهاد الشام - قال : " من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قلَّ ورعه ، ومن قلَّ ورعه أمات الله قلبه " (١) . وقد قال أبو الدرداء - وهو صحابي جليل نزل الشام - " كنت تاجراً قبل أن يبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - فلما بعث محمد - عليه السلام - زاولت العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا ، فأخذت في العبادة وتركت التجارة " (٢) .

فكان الزُّهاد الأوائل يرون أن الخوض في أمور الدنيا ومشاركة الناس لهوهم فيها يغفل القلب عن ذكر الله ، وعن العمل للآخرة ، ولهذا فان شاعرنا الزاهد قد سلك هذا السبيل ، وهذا ما يفسر عدم اتصاله بأحد من معاصريه إلا الخليفة الأموى الزاهد عمر بن عبدالعزيز ، الذى اتصف بالزهد والورع والخوف مثله .

أما الشعراء المعاصرون له فلم يذكر له خبر معهم ، لأن الشعر الرائج في تلك الفترة الزمنية كان هو المديح والفخر والهجاء والغزل (٣) . وشاعرنا لم يصلنا من شعره ما يدخل تحت هذه الأغراض الرائجة" .

---

(١) انظر حلية الاولياء ٥/١٤٩ ، أخبار عبدالله بن أبي زكريا .
(٢) انظر المصدر نفسه ١/٢٠٩ .
(٣) انظر ما يأتي في مبحث البيئة الأدبية في الشام ص ٦٣ .

٥ - وفاتـــه :

نستطيع تقدير وفاة سابق البربري بالتقريب بالاعتماد على ترجمة الذهبي له ، فقد سلكه الذهبي (١) ضمن الطبقة الخامسة عشر ، وقد جعل هذه الطبقة بين سنتي إحدى وأربعين ومائة ، وخمسين ومائة. ومعنى هذا أن وفاته كانت في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة بين سنتي إحدى وأربعين ومائة ، وخمسين ومائة. ويؤيد هذا التحديد التقريبي أخبار عن حياة سابق البربري ، فقد ذُكِرَ في ترجماته أنه روى عن مكحول (٢) ، كما ذُكِرَ عن سابق خبر يدل على أنه التقى بـه ، إذ روى الحرّاني عن شجاع بن الوليد عن أبي كامل مولى الغاز بن ربيعة أنه قال : " سمعت سابق البربري ينشد مكحولا وهو في الغــزو " (٣) ،

---

(١) في تاريخ الإسلام ٦/ق ١١٤ ب . الجزء غير المطبوع.

(٢) ذكر هذا في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ق ١ م ١/ ٣٠٧ ، وفي الثقات لابن حِبّان ٦/ ٤٣٣ وفي الأنساب للسمعاني ٢/ ١٣١ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ق ٧٢ وفي تاريخ الإسلام للذهبي ٦/ق ١١٤ ب وفي الوافي بالوفيات للصفدي ١٥/ ٦٩ ، وخزانة الادب للبغدادي ٤/ ١٦٤ ، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٤/ ٢٩٦ . وفيهما يقول البغدادي : إن مكحولا روى عنه ، وهـذا يخالف جميع من ترجم لسابق ، لذا اعتقد أنه تصحيف . وفي تاج العروس للزبيدي مادة بر ٣/ ٣٨ .

(٣) تاريخ الرقة ، للحرّاني ، نقلاً عن دراسة عبدالله كنون . سابق البربري ... ٢٤ .

كما روى ابن عساكر عن أبي علي بن المسلم أن الأوزاعي روى عن سابق البربري قوله : " كتب مكحول إلى الحسن و نحن بدابق يسأله عن الطالب والمطلوب . . ." (١) .

فهو قد لقي مكحولا ، وروى عنه . فإذا كان مكحول توفي سنة اثنتي عشرة ومائة (٢) ، على خلاف في ذلك . فإن سابقاً يحتمل أن تتأخر وفاته عن هذا التاريخ .

ثم إن المصادر تذكر أن الأوزاعي روى عن سابق البربري ، و معنى هذا أن الأوزاعي روى عنه مشافهة (٣) إذ كانت العلوم لم تدون بعد . فإذا كان الأوزاعي ولد سنة ثمان وثمانين ودرس في حلقات مكحول (٤) ، فإن المحتمل أن يكون قد لقي سابقاً البربري في حلقات مكحول وروى عنه ، وهذا لا يكون إلا بعد سنة مائة ، لأن الأوزاعي كان في الثانية عشرة من عمره سنة مائة ، وهذا سن صغير لا يؤهله للرواية عن سابق البربري . وعليه لا بد أن يكون لقيه بعد سنة مائة ، حتى يمكن أن يروي عنه .

هذه كلها احتمالات تُرجّح ما ذهب إليه الذهبي ، وتُعيّن بالتقريب الزمن الذى توفي فيه سابق البربري ، أي في النصف الأول من القرن

---

(١) تاريخ دمشق ٤/ق٧٣ ب .

(٢) طبقات ابن سعد ٧/ ٤٥٤ .

(٣) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر لعبد القادر بدران ٦/ ٤٠ و فيه تعليق للمهذب على رواية الأوزاعي عنه يقول فيه : " ويعني أن الأوزاعي روى عنه مشافهة" .

(٤) انظر طبقات ابن سعد ٧/ ٤٨٨ .

الثاني الهجرى (١). الأمر الذى يحدد الفترة الزمنية التي عاش فيها سابق البربرى ،وهي ما بين النصف الثاني من القرن الأول الهجرى ، والنصف الاول من القرن الثاني الهجرى . ومعنى هذا أن شاعرنا مخضرم بين الدولتين - الأموية والعباسية - . ولكنّا لا نجد له ذكرًا في الدولة العباسية ،ولعل هذا يرجع إلى أنَّ سِنَّهُ قد كبرت ،وإلى أنه شاعر زاهد لا يتكسب بشعره ،مما جعله لا يذكر مع الخلفاء العباسيين كما لم يُذْكَر من قبل مع الخلفاء الأمويين غير عمر بن عبد العزيز ،الخليفة (٢) الزاهد الذى قرَّب الفقهاء والزّهاد وأغفل الشعراء المدّاحين .

---

(١) هذا التحديد لسنة وفاة سابق ينقض التاريخ الذى حدده الزركلي في الأعلام ١١١/٣ ، بنحو سنة مائة دون الإشارة إلى المصدر الذى اعتمده . ويقترب من التاريخ الذى حدّده فؤاد سزكين في تاريخ التراث م١ ج٤/ ١٠٠ وهو الربع الأول من القرن الثاني الهجرى .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٢٧/٥ ومابعدها .

الفصل الثانـــي

((حياته العلميــــــة))

بعد التحديد التقريبي للفترة الزمنية التي عاش فيها شاعرنا سابق البربرى ،وللبيئة التي احتضنته ،وأنتج فيها شعره ـ نستطيع أن نتصـــور كيفية تعليمه ، والمواد التي تعلمها .

ولئن كانت المصادر التي ترجمت لسابق لم تذكر شيئاً عن نشأتـه وتعليمه فلا بد أن نتذكر هنا أن الانسان وليد عصره وبيئته ،وهـــذا يسوقنا إلى دراسة البيئة الشامية ، لنعرف شيئاً عن المناهج التعليميـة السائدة في الشام في تلك الفترة الزمنية ، وذلك لنتمكن من تصور الجو العلمي الذى نشأ فيه سابق البربرى ،وعاش في ربوعه .

أولا ـ المكانة العلمية للشام في تلك الفترة الزمنية:

كانت الشام في أول عهدها مركز كثير من الحضارات ،إذ تعاقبت عليها المدنيات المختلفة ،كالفينيقية ،والكلدانية ،والمصرية ،والعبرية ، والرومانية (١) . وكل هذه الحضارات قد تركت آثارها في هذه الأرض التي هي في الأصل موطن لكثير من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والســـلام ـ وهذا بالطبع يترك أثره بالغا في عقلية الشاميين ،الأمر الذى جعلهـــم أهل علم وحضارة ،وعقول متفتحة للبحث والدراسة .

---

(١) انظر فجر الإسلام ،لأحمد أمين ١٨٧ ومابعدها .

ولما فتح المسلمون أرض الشام ،كان لا بد أن ينشروا فيها نور الإسلام ،حيث وفد عليها كثير من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ،فقد ذكر البخارى في تاريخه : أن يزيد بن أبي سفيان كتب إلى عمر بن الخطاب : قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ،فأرسل معاذًا وعبادة وأبا الدرداء - رضي الله عنهم - (١) .

وبذلك أصبح هؤلاء الصحابة هم المؤسسون الأوائل للمدارس الإسلامية بالشام ، إذ توزعوا في مدنها ،واستمروا في تعليم أبناء الشام حقبة من الزمن حتى وافاهم الأجل بعد أن وطدوا دعائم العلم فيها ،فأبو الدرداء استقر في دمشق ،وقام بمسؤولية تعليم القرآن خير قيام ،حتى كثر تلاميذه بشكل يدعو الى الإعجاب ،روى أن أبا عبيد الله ،مسلم بن مشكم قال : " قال لي أبو الدرداء : أعدد من يقرأ عندنا - يعني في مجلسنا هذا - فعددت ألفًا وستمائة ونيفًا ،فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرة ،عشرة ، لكل عشرة منهم مقرئ . وكان أبو الدرداء قائمًا يستفتونه في حروف القرآن ، فإذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحوّل إلى أبي الدرداء " (٢) .

وقد استمر اهتمام هؤلاء الصحابة - وزاد عليهم غيرهم - بالتعليم في الشام في عهد بني أمية ، فقد روى أن أبا الدرداء أوصى قبل أن يوافيه الأجل - في عهد معاوية سنة اثنين وثلاثين للهجرة - بتعيين فضالة ابن عبيد الأنصارى - صحابي توفى سنة تسع وخمسين للهجرة - في منصبيه اللذين كان يشغلهما ،وهما الإقراء والقضاء ،فعمل معاوية بذلك (٣) .

---

(١) انظر التاريخ الصغير للبخارى ١/ ٤١-٤٢ تحقيق محمود إبراهيم زايد .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١/منجد ٣١٥ . نقلاً عن التربية والثقافة ، للدكتورة ملكة أبيض ص ٢٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ١٤/ق ٣٩٢ ،ترجمة فضالة بن عبيد الأنصارى ،نقلا عن المرجع نفسه /٢٦٩ .

ولما قرّ قرار الخلافة الأموية في دمشق ازدهرت الحركة العلمية في الشام ،حتى كانت دمشق من بين أهم المراكز العقلية في هذا العصر ، يقول الأستاذ أحمد أمين : " وعلى الجملة فقد كانت أهم المراكز العقلية في ذلك العصر : مكة والمدينة في الحجاز ،والبصرة والكوفة في العراق ودمشق في الشام ،والفسطاط في مصر "(١) .

لذا كانت الشام إذ ذاك تموج بالعلماء والأدباء والشعراء ،وكان المسجد الجامع بدمشق جامعة كبرى تمتلىء بالحلقات العلمية المختلفة التي يعقدها القراء والمحدّثون ،والفقهاء ،والقصّاص . فانتشرت حلقات القرآن ،والحديث ، والفقه ، والقصص،والوعظ ،وازدهرت مجالس الأدب والعلم في بيوت الخلفاء والولاة (٢) . وهذا يؤدي إلى ازدهار العلم ونشاط العلماء . ويهيىء للناس جواً علمياً راقياً ينهلون فيه ماتاقت إليه نفوسهم من علم .

ثانياً - المنهج التعليمي والبيئة الدينية في الشام:

ويتمثل في العناية بتعليم المواد الدينية عامة كالقرآن والحديث والفقه ،وفي الحلقات العلمية المتنوعة كالمناظرات الفقهية ،و حلقات القرآن والحديث ،والقصص،والوعظ . .

---

(١) انظر فجر الإسلام ١٧١ .

(٢) درست الدكتورة ملكة أبيض البيئة العلمية في الشام بتوسع في كتابها التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ، معتمدة على مخطوط تاريخ دمشق لابن عساكر .

فالمنهج التعليمي السائد في الأمصار الإسلامية يقوم أساساً على القرآن ،كما يتضح من قول ابن خلدون : " اعلم أن تعلم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين ،أخذ به أهل الملة ،ودرجوا عليه في جميع أمصارهم ،لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن ،وبعض متون الأحاديث . وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات "(١) .

والشام كغيرها من الأمصار الإسلامية اتخذت هذا المنهج في تعليم الناشئة ،ولذا انصب اهتمام ولاة الأمر على تعليم القرآن ومبادئ الكتابة ،فاذا حذقهما التلاميذ ارتقوا في درجات التعليم ،وهذا يتضح مما رواه ابن عساكر عن واصل ،وهو رجل من أهل دمشق قال : "أُسِرَ غلام من بين بطارقة الروم ، فلما صار إلى دار الاسلام - وكان ذلك في ولاية بني أمية - أخذه الخليفة وسماه بشيراً ،وأمر به إلى الكتّاب ، فكتب ،وقرأ القرآن ،وروى الشعر ،وطلب الحديث ،وحجّ "(٢) .

فالاهتمام ينصب في بداية التعليم على تعلم القرآن وفهمه وحفظه ،حتى أن الفقهاء والمُحدِّثين كانوا يرون أنه الركن الأول في التعليم ، بل ربما كان هو الشرط الأساسي لقبول الطلبة في حلقاتهم . فقد كان الأوزاعي إذا رأى في حلقته حدثاً بين الجالسين ،سأله : "هل قرأت القرآن ؟ فإذا قال نعم ،اختبر حفظه ،فإن تبيّن له أنه لا يعرف القرآن ،قال له : اذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم"(٣) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣/١٢٤٩ تحقيق د . على عبدالواحد وافي .

(٢) تاريخ دمشق ،لابن عساكر ١٧/ق ٤١٤ ترجمة واصل . نقلا عن التربية والثقافة للدكتورة ملكة أبيض ٢٥٨ .

(٣) المصدر نفسه ١٠/ ق ٣٤٦ ،ترجمة عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي نقلا عن المرجع نفسه ٢٥٩ .

وهذا المنهج في التعليم ينطبق على الخاصة والعامة ،فقد كان الخلفاء الأمويون يصرفون اهتمامهم إلى تعليم أبنائهم القرآن ،ويدارسونهم فيه منذ نعومة أظفارهم ،فقد ذكر ابن ظفر الصقلي (١) : "أن معاوية ابن أبي سفيان قال لابنه يزيد -وقد أتت عليه سبع سنين - : يا بني في أى سورة أنت ؟ فقال : في السورة التي تلي : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ،وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ،وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا) (٢) يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية: يا بني إن هذه السورة تليها سورتان ،وهي بينهما ،ففي أيهما أنت ؟ قال : في السورة التي أولها : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) (٣) " .

فهذا الخبر - وإن كان يدل على ذكاء يزيد بن معاوية ولباقته في الحديث -فإنه يدل أيضا على أن العناية بتعليم القرآن كانت عامة منذ نشأة الدولة الإسلامية ،حتى أن الأبناء في بداية تعليمهم كانت تظهر عليهم علامات فهم القرآن، و تدبره، وتأمل معانيه ، روى أن أبا سليمان بن داود بن نصير الطائي -المتوفى سنة خمس وستين ومائة - " لما بلغ من العمر خمس سنين أسلمه أبوه إلى المؤدب ،فابتدأ بتلقين القرآن -وكان لقنًا- فلما تعلم سورة: (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ) (٤) ،

---

(١) انظر أنباء نجباء الأبناء ١٠٤ .
(٢) سورة الفتح ،الآيات ١-٢-٣ .
(٣) سورة محمد آية : ٢ .
(٤) سورة الإنسان ،من الآية: ١ .

وحفظها رأته أمه جمعة مقبلاً على الحائط مفكراً يشير بيده ،فخافت على عقله فنادته : قم يا داود فالعب مع الصبيان ،فلم يجبها ،فضمته إليها ، ودعت بالويل ،فقال : مالك يا أماه ؟ فقالت : أبك بأس ؟ قال : لا قالت: أين ذهنك ؟ قال : مع عباد الله ، قالت : أين هم ؟ قال : في الجنة ، قالت : ما يصنعون ؟ قال : (مُتكِئينَ فِيهَا عَلى الأرائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا) (١) ، ثم مرّ في السورة ،وهو شاخص كأنه يتأمل شيئًا حتى بلغ قوله تعالى : (وكَانَ سَعْيُكم مَشْكُوراً) (٢) . ثم قال : يا أماه ،ما كان سعيهم ؟ فلم تدر ما تجيبه ،فقال لها : قومي عني حتى أتنزه عندهم ساعة . فقامت عنه ،فأرسلت إلى أبيه ، فأعلمته شأن ولده ،فقال له أبوه : يا داود كان سعيهم أن قالوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فكان يقولها في أكثر أوقاته" (٣) .

ففي هذه الأخبار بيان لمدى عناية المسلمين بتعلم القرآن في ذلك العصر . ولهذا كثرت حلقات تعليم القرآن في المساجد. وفي تاريخ دمشق خبر يدل على كثرتها في المسجد الجامع بدمشق ، فقد روى ابن عساكر : " كان حلق المسجد بدمشق يقرأون القرآن جميعا ،وأبو إدريس - قاضي دمشق في عهد عبد الملك بن مروان - جالس إلى بعض العمد . فكلما مرّتْ حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها ،

---

(١) سورة الإنسان آية ١٣ .
(٢) سورة الانسان من الآية ٢٢ .
(٣) انظر أبناء نجباء الأبناء ،لابن ظفر الصقلي ١٦٠-١٦١ .

وأنصتوا له ، وسجد بهم وسجدوا جميعًا بسجوده ،وربما سجد بهم ثنتي عشرة سجدة "[١] . كما برّز أساتذة كثيرون في تعليم القرآن في الشام ،ومنهم واثلة بن الأسقع الليثي -وهو صحابي استقر في دمشق وتوفى سنة ثلاث وثمانين للهجرة[٢] - . ومنهم هُجَيْمة بنت حُيَيّ- أم الدرداء -المتوفاة سنة إحدى وثمانين ،وكان مولاها خُلَيْد بن سعد يقرأ القرآن في بيتها حيث يجتمع العديد من الطلبة والعلماء[٣] .

وتبعًا للمنهج الإسلامي في التعليم القائم على الاستمداد من الكتاب والسنة فقد امتد اهتمام الناس إلى تعليم الحديث وروايته ، فقد روى ابن عساكر عن معروف الخياط قوله : " رأيت واثلة بن الأسقع يملي على الناس الأحاديث ،وهم يكتبونها بين يديه "[٤] . واهتمامهم بطلب الحديث دفعهم للرحلة إلى الأمصار الإسلامية ، فقد روى عن بُسْر بن عبيدالله الحضرمي قوله : " إني كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه . . . وإنه كان ليبلغني الحديث في المصر فأرحل فيه مسيرة أيام "[٥] . وكثيرًا ما اقترن تعليم الحديث بالنحو ،فقد روى عن الأوزاعي قوله : " أعربوا الحديث فان القوم كانوا عربا "[٦].

---

(١) تاريخ دمشق ٨/ق٢٦١ . ترجمة أبي إدريس الخولاني . نقلًا عن التربية والثقافة . . للدكتورة ملكة أبيض ٢٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ١٧/ق ٤٠٩ ، ترجمة واثلة بن الأسقع . نقلًا عن المرجع نفسه ٢٦٩ .

(٣) تاريخ دمشق ٥/ق٢٤٩ نقلًا عن التربية والثقافة ،للدكتورة ملكة أبيض ٢٦٩ .

(٤) المصدر نفسه ١٧/ق٤٠٩ ، ترجمة واثلة بن الاسقع ،نقلا عن التربية والثقافة ،٢٧٩ .

(٥) المصدر نفسه ٣/ ١٥ ،ترجمة يسر بن عبيدالله ،نقلًا عن المرجع نفسه ٣٥٩- ٣٦٠ .

(٦) تاريخ أبي زرعة الدمشقي ٢/ ٧٢٢ تحقيق شكر الله نعمة القوجاني .

كما دفعهم اهتمامهم بالحديث إلى الحرص على جمعه وتدوينه ،حيث قامت حركة الجمع للحديث ،وهناك شواهد تدل على أن جمعه كان محط اهتمام الأمويين من عهد معاوية ،فقد روى الجاحظ (١) : أن معاوية كتب إلى عائشة -رضي الله عنها -" أن اكتبي لي بشيء سمعته من أبي القاسم -صلى الله عليه وسلم -فكتبت إليه : سمعت أبا القاسم -صلى الله عليه وسلم -يقول : " من عَمِلَ بما يُسْخِطُ الله عادَ حامِدُه مِنَ الناسِ لَهُ ذاماً " . كما أن عبد العزيز بن مروان -والي مصر في عهد عبد الملك - كتب إلى كُثيِّر بن مُرّة الحضرمي ،وكان قد أدرك بحمص سبعين بدرياً من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم -أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله من أحاديثهم ،إلا حديث أبي هريرة فإنه عندهم (٢) .

ولكن هذا الاهتمام بكتابة حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم لا يُعَدُّ تدويناً كاملاً للسُّنَّة ،لأن الشروع الفعلي لتدوين السُّنَّة كان في عهد الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ،فقد ذكر الدكتور مصطفى السباعي : أن الروايات تكاد تجمع على أن أول من فكّر بالجمع والتدوين من التابعين : عمر بن عبد العزيز ، ذلك حين أرسل إلى قاضيه وعامله على المدينة أبي بكر بن حزم : " انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء " .

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣٠٣ تحقيق عبد السلام هارون .
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٤/ق٥١٨ ترجمة كثير بن مرة ،نقلا عن التربية والثقافة ١٢٢ .

كما طلب مثل هذا من ولاة الأمصار وكبار علمائها . ولهذا كتب له ابن حزم ما عند عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن الأنصارية - المتوفاة سنة ثمان وتسعين - والقاسم بن محمد بن أبي بكر - المتوفى سنة ست ومائة - . ولكنه لم يُدوِّن كل ما في المدينة من أثر ، وإنما فعل هذا الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري - المتوفى سنة أربع وعشرين ومائة (١) -.

ومن اهتمامهم بالجانب الديني في المنهج التعليمي حرصهم على تعليم الفقه ، فقد روى (٢) أن عمر بن عبد العزيز بعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي ، والحارث بن يمجد الأشعري يفقِّهان الناس في البدو ، وأجرى عليهما رزقًا . كما انتشرت حلقات الفقه في الشام ، إذ كانت المناقشات الفقهية كثيرًا ما تجري بين أيدي الخلفاء الأمويين ، وفي مجالسهم الخاصة ، ولا سيما معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، فيتناقشون في موضوعات فقهية يشارك فيها الخلفاء (٣) . فقد روى الجاحظ : أن سليمان بن عبد الملك جمع بين قتادة والزهري ، فغلب قتادةُ الزهريَّ ، فقيل لسليمان في ذلك ، فقال : إنه فقيه مليح (٤) .

وقد كثرت هذه المناظرات حتى نشأ عنها علم الاختلاف ، أي اختلاف الفقهاء ، ولذا كان أيوب السختياني يقول : "لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف" (٥) . وكانت نتيجة الاهتمام بالفقه أن ظهر

---

(١) انظر السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي لمصطفى السباعي ١٠٤ ملخصاً .
(٢) انظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٦٠ .
(٣) انظر التربية والثقافة للدكتورة ملكة أبيض ٢٩٩ .
(٤) انظر البيان والتبيين ١ / ٢٤٣ .
(٥) المصدر نفسه ٢ / ٩٨ .

في الشام اتجاهان فقهيان ، لكل منهما فريق من العلماء يمثله ،فكان رجاء ابن حيوة ،وميمون بن مهران ،وعبدالله بن زيد ،أبو قُلابة ،وعبدالرحمن ابن عمر والأوزاعي يمثلون الاتجاه الأول باعتمادهم على السُّنَّة. وكان مكحول الدمشقي وتلاميذه : ثابت بن ثوبان ،ويزيد بن يزيد بن جابر وسليمان بن موسى الأشدق والعلاء بن الحارث ،وسعيد بن عبد العزيز يمثلون الاتجاه الآخر باعتمادهم الرأى ،وقد اشتهر مكحول بالرأى حتى قيل : الحديث حديث الزُّهْرِي ،والرأى رأى مكحول (١) .

ومن اهتمامهم بالعلوم الإسلامية كثرة مناقشاتهم حول مسائل العقيدة ،فنشأ الصراع بين السلف المتمسكين بهدي الكتاب والسُّنَّة وبين الفرق المخالفة كالقدرية والجبرية والمرجئة والمعتزلة (٢) . وقد اتهم مكحول الدمشقي بالقدر -أى بنفيه - كما يفهم مما رواه ابن سعد عن بعض أهل العلم : " كان مكحول من أهل كابل ،وكانت فيه لكنة ، وكان يقول بالقدر .. " (٣) . ولكن مكحولاً لم يكن في الحقيقة من القدرية الذين ينفون تقدير الله -سبحانه - لما يحدث ، بدليل قول عمر بن عبد العزيز له : " إياك أن تقول في القدر ما يقول هؤلاء ،يعني غَيْلان وأصحابه " (٤) ،وإنما كان مكحول ممن يؤمن بالقدر كما يؤمن به أهل السُّنَّة والجماعة ، يتضح هذا مما رواه أبو نعيم عن أبي رزين

---

(١) انظر التربية والثقافة للدكتورة ملكة أبيض ٢٩٩-٣٠١ ملخصاً .
(٢) انظر العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ٢٠٤-٢٠٦ ملخصًا .
(٣) انظر الطبقات الكبرى ٧/ ٤٥٤ و ترجمة مكحول .
(٤) المصدر نفسه ٥/ ٣٨٦ ترجمة عمر بن عبد العزيز.

قال [١] : " لما أكثر الناس على مكحول في القدر قلت : لأسألنه عن شيء ،قلت : ما تقول في رجل عنده جارية وعليه دَيْن ولا مال له غيرها ،أتُرى له أن يعزل عنها ؟ قال : لا يفعل لا يفعل ، فإن الله تعالى لم يخلق نفساً إلا وهي كائنة فلا عليه أن لا يفعل ".

و نظرا لزيادة الاهتمام والعناية بالمواد الدينية عامة في الشام ،فقد كثر الشيوخ والمعلمون فيها في القرنين الأول والثاني الهجريين [٢] ... فمن معلمي الشام في القرن الأول نذكر : جُبير بن نُفير الحضرمي في حمص ،توفى سنة ثمانين ،وكُثيِّر بن مُرَّة الحضرمي في حمص سنة خمس وثمانين ،وعائذ الله بن عبدالله : أبو إدريس الخولاني في دمشق سنة ثمانين . و من معلمي الشام في النصف الأول من القرن الثاني الهجرى نذكر : خالد بن مَعْدان الكُلاعي في حمص سنة أربع ومائة ،وعمر بن عبد العزيز ،الخليفة الأموى ،في دمشق سنة واحد ومائة ،و مكحول بن كسرى ، في دمشق سنة ثلاث عشرة ومائة ،ومحمد بن مسلم بن شهاب الزُّهْرى في دمشق والرصافة سنة أربع وعشرين ومائة ،ورجاء بن حيوة في فلسطين سنة اثنتى عشرة ومائة .. وغيرهم ممن توفى بعد النصف الأول من القرن الثاني الهجرى . هذا إلى بعض المعلمين الذين اختصوا بتعليم أبناء الخلفاء مثل معبد الجهني المتوفى سنة ثمانين ،وعامر الشعبي المتوفى سنة ثلاث ومائة ، وكانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان [٣] .

---

(١) انظر حلية الأولياء ،لأبي نعيم ٥/١٧٨ ترجمة مكحول الدمشقي .
(٢) انظر التربية والثقافة ، للدكتورة ملكة أبيض ٤٥١- ٤٥٢ .
(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٥٠-٢٥١ .

وفي هذه الكثرة لمعلمي الشام دليل على وفرة الحلقات العلمية فيها وانتشارها، وشيوع العلم بين الناس عامة.

والى جانب هذه الحلقات الدينية انتشرت في الشام حلقات القصص والوعظ الديني، ذلك أن الخلفاء الأمويين قد شجعوا القصص، وأولوه اهتماماً خاصاً، ليشغلوا الناس عن السياسة، وليكسبوا أهل الشام إلى صفهم .. فقد روى أن معاوية بن أبي سفيان قد أبدى اهتمامه بالقصص من أول عهده، " فعندما قتل علي وبايع أهل العراق ابنه الحسن، سار معاوية إلى العراق في ستين ألفا، ومعه القُصَّاص يقصُّون في كل يوم يحضُّون أهل الشام وقت كل صلاة "(١). وفي أيام السِّلْم عَيَّن معاوية قاصاً، فكان: " إذا سلَّم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحَمَده ومجَّده، وصلَّى على النبي صلى الله عليه وسلم، ودعا للخليفة، ولأهل ولايته وحشمه، وجنوده، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة "(٢). وفي أيام المروانيين ازداد الاهتمام بالقصص، فقد عَيَّن عبدالملك بن مروان قاضي دمشق أبا إدريس الخولاني ليقصَّ للناس بعد صلاة الفجر، وفي العَشِيَّات(٣).

ومع حلقات القصص التي انتشرت في الشام أيام الأمويين انتشرت حلقات الوعظ الديني والتذكير، نظراً لكثرة الزهاد والوعَّاظ فيها ..

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/ق١٠٩ ترجمة معاوية بن أبي سفيان، نقلا عن التربية والثقافة ٣١٠.

(٢) انظر فجر الإسلام لأحمد أمين ١٥٩.

(٣) تاريخ دمشق ٨/ق٢٦١ ترجمة أبي إدريس الخولاني نقلا عن التربية والثقافة ٣١١ / ملخصا.

وكثيرًا ما كان يعقد هذه الحلقات كبار العلماء والقضاة والمُحَدِّثين والقراء من الصحابة والتابعين .. كما كان يحضرها بعض الخلفاء الأمويين ، فقد روى ابن الجوزي عن الأوزاعي قال : "كان عمر بن عبد العزيز يجلس إلى القاصّ مع العامة بعد الصلاة ويرفع يديه إذا رفع" (١) . وقد انتشرت حلقات الوعظ في المساجد ، وكان الصحابة يحرصون على حضورها ، فقد روى عن شَهْر بن حَوْشَبْ أنه قال : " دخل أبو الدرداء ذات يوم مسجد بيت المقدس ، فإذا بقوم يُذَكِّرُهم مُذَكِّر لهم ، قد رفعوا أصواتهم بالبكاء والدعاء . فقال أبو الدرداء : بأبي وأمي النَّوَّاحُون على أنفسهم قبل النَّوْح . ثم قال : يا ابن حَوْشب : عَجِّلْ بنا حتى نأتي هَوْءُ لاً ..." (٢) . وانتشار هذه الحلقات الوعظية دليل على كثرة الوعّاظ من الصحابة والتابعين من أمثال : شَدَّاد بن أوس (٣) - صحابي في القدس توفى سنة ثمان وخمسين ، وخالد بن مَعْدان (٤) - تابعي في حمص توفى سنة أربع ومائة ، وبلال بن سعد - إمام مسجد دمشق وقارئه وقاصّه في خلافة هشام بن عبد الملك ، وقد قيل عنه : " كان محل بلال بن سعد بالشام ومصر كمحل الحسن بالبصرة " (٥) . وقد أدى انتشار هذه الحلقات الوعظية إلى ازدهار فن الوعظ النثرى (٦) .

---

(١) انظر القصاص والمذكرين ٣٦ .
(٢) انظر المصدر نفسه ٣٤-٣٥ .
(٣) انظر المصدر نفسه ٥٠-٥١ .
(٤) انظر المصدر نفسه ٨٣-٨٤ .
(٥) انظر المصدر نفسه ٨٤ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ٥/٢٢٢ .
(٦) انظر التربية والثقافة للدكتورة ملكة أبيض ٣١٢ .

كما انتشرت أيضا مجالس الوعظ بالشعر ،و في ترجمات سابق البربري أخبار تبين كثرة حضوره مجلس عمر بن عبد العزيز ووعظه بشعره أو شعر غيره من الشعراء (١) .

وهكذا شاعت في الشام حلقات العلوم الدينية المتنوعة ،وحلقات القصص والوعظ ،حتى أصبحت الشام ملتقىً علميًا عظيمًا يقصده العلماء فيستفيدون ويفيدون .

ثالثًا ـ البيئة الأدبية في الشام:

وتتمثل في حلقات الأدب التي كانت تعقد في مجالس الخلفاء والولاة ،و في ألوان الشعر الذى ازدهر في الشام في فترة الخلافة الأموية . و في ما قام به الخلفاء من تشجيع للشعر والأدب بعامة .

كانت الشام في العصر الأموى قبلة يقصدها الشعراء من جميع الأمصار الإسلامية ،لكونها عاصمة الدولة الأموية ،مما جعلها تموج بالشعراء الوافدين إلى جانب غيرهم من العلماء والمُحَدِّثين والقراء والقُصّاص ... وقد شجع الخلفاء الأمويون الشعراء ، وفتحوا بيوتهم مجالس لمحاورات أدبية يتناقش فيها الشعراء ، بل ربما شاركوا بأنفسهم في نقد الشعر وتقييمه ... وذلك لأنهم من العرب الأقحاح الذين طبعوا على الفصاحة والبيان .

---

(١) انظر هذه الأخبار وما ذكر فيها في المبحث الخاص بصلته بعمر ابن عبد العزيز ص ٤٠ .

هذه المنزلة الرفيعة للأدب في نفوس الخلفاء الأمويين تتضح من حثهم على طلب الأدب ،ورواية الشعر ،فقد ((بعث زياد بولده إلى معاوية ،فكاشفه عن فنون العلم ،فوجده عالماً ، ثم استنشده الشعر فقال : لم أَرْوِ منه شيئاً . فكتب معاوية إلى زياد : ما منعك أن تُروِّيه الشعر ؟ فوالله إنْ كان العاق ليرويه فيَبَرّ ،وإنْ كان البخيل ليرويه فيسخو ،وإنْ كان الجبان ليرويه فيقاتل)) (١) . كما يتضح اهتمامهم بالأدب وحرصهم على طلبه من الأخبار الكثيرة التي رويت عن المنتديات الأدبية التي عقدت في مجالس الخلفاء ،نذكر منها على سبيل المثال ما رواه ابن سلام ،إذ قال : " اجتمع شعراء العرب عند سليمان بن عبدالملك فأمرهم أن يقول كل رجل منهم قصيدة يذكر فيها مآثر قومه ولا يكذب . ثم جعل لمن برَّزَ عليهم جارية مولدة فأنشدوه ،وأنشد أبو النجم حتى أتى على قوله :

عُدُّوا كَمَنْ رَبَعَ الجُيُوشَ لِصُلْبِهِ
عِشْرون ،وهو يُعَدُّ في الأحْيَاءِ

فقال سليمان : أشهد إنْ كنت صادقاً ،إنك لصاحب الجارية . فقال أبو النجم : سل الملأ عن ذلك ،يا أمير المؤمنين . قال الفرزدق : أَمَّا أنا فأعرف منهم ستة عشر ، ومن ولَدِ ولَدِهِ أربعة ،كلُّهم قد ربع . فقال سليمان : ولَدُ ولَدِهِ هم ولَدُهُ : إدفع إليه الجارية " (٢) . وقد شجع

---

(١) العقد الفريد ،لابن عبد ربه ١٠٨/٦ تحقيق محمد سعيد العريان .

(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ٧٥١/٢ تحقيق محمود شاكر .

اهتمام الخلفاء بالأدب الشعراء فأكثروا الوفود على الشام لمدح الخلفاء، وتحقيق ما تصبوا إليه نفوسهم من الكسب المادّي والشهرة الأدبية . فمن الحجاز وفد على الشام : ابن قيس الرُّقيّات ، ونُصَيْب ، والأحوص ، وكُثيِّر ، واسماعيل بن يَسَّار النَّسَائي ، وطُرَيْح الثَّقفي ، ويزيد بن ضَبَّة ، وأبوالعبَّاس الأعمى . ومن نجد وفد على الشام : الرَّاعي ، والعُجَيْر السَّلُولي ، وأَرْطأة ابن سُهَيَّة ، وعقيل بن عُلَّفة ، وابن مَيَّادة . ومن العراق قدم على الشام : جرير والفرزدق ، والأخطل ، ومِسْكين الدَّارِمي ، وعبدالله بن الزُّبير الأسدى ، وأعشى شيبان ونابغتهم ، وذو الرُّمَّة (١) . وقد حقق الكثير من هؤلاء الشعراء ما رغبوا فيه من الكسب المادّي ، إذ أغدق الخلفاء الأمويون - عدا عمر بن عبد العزيز - المال على من مدحهم من الشعراء ، ومما يروى من هذا أن كُثَيِّرًا " قدم على يزيد بن عبد الملك ، وقد مدحه بقصائد جياد مشهورة ، فأُعْجِبَ بهنَّ يزيد ، وقال له : احتكم . قال : وقد جعلت ذلك إليّ ! قال : نعم ، قال : مئة ألف . قال : ويحك . مئة ألف !! قال : على جود أمير المؤمنين أُبْقي أم على بيت المال ؟ قال : ما بِيَ استكثارها ، ولكنّي أكره أن يقول الناس : أعطى شاعرًا مئة ألف . ولكن فيها عروض ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين " (٢) .

وعُرِفَ الخلفاء الأمويون بالذَّوق الفني الرفيع ، إذ كان لبعضهم نظرات نقدية دقيقة ، فقد روى أن كُثَيِّرًا " دخل على عبد الملك بن مروان

---

(١) انظر العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ١٦٥-١٦٦ .
(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ٢/٥٤٣ .

فأنشده مدحته ،وفيها :

على ابنِ أبي العاصي دِلاصٌ حَصِينَةٌ
أَجَادَ المُسَدِّي سَرْدَها وأَذَالَهـــا

فقال له عبدالملك : أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معدى كرب ؟ :

وإذَا تَجِيئُ كَتِيبةٌ مَلْمُومَـــةٌ
شَهْباءُ يَخْشَى الذَّائِدُون نِهالَهـا
كُنْتَ المُقدِّم غيرَ لا بِسِ جُنَّـــةٍ
بالسَّيْفِ تَضْرِبُ مُعْلِماً أَبْطَالَهـــا

فقال : يا أمير المؤمنين : وصفه بالخُرْق ،ووصفتك بالحَزْم"(١) .

ولهذا الذوق الفني الذى تمتع به خلفاء بني أمية حرص الشعراء على تجويد مدائحهم حتى يحظوا بالقبول والرِّضا عند الخلفاء، الأمر الذى أدى إلى ازدهار هذا الفن الشعرى ،كما برع فيه بعض الشعراء(٢) .

ولمّا نشبت الحروب في الشام بين القبائل القيسية التي وفدت على الشام ،وبين القبائل اليمنية فيها ،زكت روح الفخر والهجاء بين هذه القبائل المتعادية ،مما أدّى إلى ازدهار فن الفخر والهجاء ،وظهور فن النقائض الذى حمل لواءه جرير والفرزدق والأخطل في هذا العصر.

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢/٥٤١-٥٤٢ .
(٢) انظر العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ٢١٥-٢٢٩ ،وانظر التطور والتجديد لنفس المؤلف ١٣١-١٦١ .

وقد عُدّ هذا الشعر طارئًا على الشام مع الوفود التي قدمت عليها إمّا لمدح الخلفاء، أو لموازرة المتحاربين فيها (١) .. ومع هذا فقد برّز بعض الشعراء الشاميين في هذه الفترة، مثل عدي بن الرّقاع (٢) .

كما ظهر شعراء من البيت الأموى مثل يزيد بن معاوية، الذى قال عنه ابن خلّكان : " وشعر يزيد - مع قِلّتِهِ - في نهاية الحسن " (٣) وخالد بن يزيد بن معاوية، الذى قال عنه الجاحظ : " وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبًا شاعرًا، وفصيحًا جامعًا، وجيد الرأى، كثير الأدب، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء " (٤) . ويزيد بن عبد الملك، والوليد ابن يزيد (٥) .

ولم يرق هؤلاء الشعراء إلى المستوى الفني الذى وصل إليه شعراء الحجاز والعراق، مما دعا الدكتور شوقي ضيف أن يقول عن الشعر في الشام : " إن بيئة الشام كانت متخلفة في هذا العصر من حيث الشعر عن بيئة العراق، وبيئة الحجاز " (٦) .

---

(١) انظر التطور والتجديد للدكتور شوقي ضيف ٤٧-٤٨ .

(٢) انظر الأغاني، للأصفهاني ٨/٣٥١ وفيه يقول عن عدى : " وكان شاعرًا مقدمًا عند بني أمية مدّاحًا لهم " .

(٣) انظر وفيات الأعيان ٤/٣٥٤ تحقيق د/ إحسان عباس. وليزيد ابن معاوية ديوان شعر جمعه وحققه صلاح الدين المنجد، طبع دار الكتاب الجديد - بيروت .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٢٨ .

(٥) للوليد بن يزيد ديوان شعر جمعه وحققه د/ حسين عطوان مكتبة الأقصى - عمان . وقد اشتهر الوليد بالمجون والفسق والشعر العابث .

(٦) انظر التطور والتجديد ٤٩ .

وعلى الرغم من أن الخلفاء الأمويين في الشام شجعوا الشعراء، وفتحوا بيوتهم لهم، وشاركوهم في مجالسهم، فإن أغلبهم لم يكن يروقهم الشعر الخليع البعيد عن المبادئ الخلقية التي دعا إليها الإسلام... فقد روى عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال لعبد الرحمن بن الحكم: " يا أخي، إنك شُهِرْتَ بالشعر، فإياك والتشبب بالنساء، فإنك تُعِرُّ الشريفة في قومها، والعفيفة في نفسها - والهجاء، فإنك لا تعدو أن تعادى به كريماً، أو تستثير به لئيماً، ولكن افخر بمآثر قومك، وقل من الأمثال ما توقِّر به نفسك، وتؤدب به غيرك "(١). وروى عن عبد الملك بن مروان أنه لمّا حجّ "لقيه عمر بن أبي ربيعة بالمدينة، فقال له عبد الملك: لا حيّاك الله يا فاسق. قال: بئست تحية ابن العم لابن عمه على طول الشحط. فقال له: يافاسق، ذاك لأنك أطول قريش صبوة، وأبطؤها توبة، ألست القائل:

وَلَوْلَا أَنْ تُعنفني قريشٌ
مَقَالَ الناصحِ الأدنى الشفيقِ

لَقُلْتُ إذا التقينا قَبِّليني
وَلَوْ كُنَّا على ظَهْرِ الطريقِ

أغرب (٢)..." . وكان عمر بن عبد العزيز أشدّ صرامة مع شعراء الخلاعة والمجون، فقد روى ابن قتيبة أن الأحوص: "كان يُرْمَى

---

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٦/١١٤.

(٢) انظر الموشح للمرزباني ١٨٤، تحقيق محب الدين الخطيب.

بالأبنة والزِّنا ،وشُكِيَ إلى عمر بن عبد العزيز ،فنفاه من المدينة إلى قرية من قرى اليمن على ساحل البحر ، فدخل إليه عدة من الأنصار فكلَّموه فيه ،وسألوه أن يردَّه إلى المدينة ، فقال لهم عمر : من القائل :

أَدُورُ ولَوْلَا أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ
بِأَبْيَاتِكُمْ ما دُرْتُ حيثُ أَدُورُ

.... قالوا : الأحوص ، قال : لا جرم لا رددته إلى المدينة ما كان لي سلطان "(١) . كما أن عمر بن عبد العزيز رفض الشعراء المدّاحين ولم يسمح لهم بالدخول عليه إلا ندارا ، فقد روى أنه لما تولى الخلافة : " نهضت إليه الشعراء من الحجاز والعراق ،فكان فيمن حضره نُصَيْب ، وجرير والفرزدق ،والأحوص وكُثَيِّر والحجّاج القُضاعي ، فمكثوا شهرًا لا يؤذن لهم ،ولم يكن لعمر فيهم رأى ولا أرب ،وإنما كان رأيه ،وبطانته ووزراؤه ، وأهل أربه القرّاء ،والفقهاء ،ومن وُسِمَ عنده بورع ، فكان يبعث إليهم حيث كانوا من بلدانهم (٢) ...".

وموقف عمر بن عبد العزيز من الشعر والشعراء تؤكده الأخبار الكثيرة التي رويت عن استقباله لسابق البربرى في مجالسه واستنشاده مواعظه (٣) ... مما يبين كثرة حضور سابق البربرى مجالس عمر ابن عبد العزيز ،وحظوته عنده .

---

(١) انظر الشعر والشعراء ١/ ٥٢٥- ٥٢٦ تحقيق أحمد شاكر.
(٢) انظر حلية الأولياء ،لأبي نعيم ٥/ ٣٢٧ ترجمة عمر بن عبد العزيز
(٣) انظر المبحث الخاص بصلته بعمر بن عبد العزيز ص ٤ .

وربما كان موقف عمر بن عبد العزيز هذا سبباً من أسباب شيوع الزهد في الشام وازدهار شعر الزهد والمواعظ في تلك الفترة الزمنية.

رابعاً : تحصيله العلمي :

كانت الشام كما وضح مما سبق بيئة علمية خصبة ، إذ كانت تموج بالعلماء من كل علم وخاصة العلوم الدينية ، حتى أنه روى عن شيخ من القرن الأول أنه قال : " عهدت المسجد الجامع بدمشق ، وان عند كل عمود شيخاً ، وعليه الناس يكتبون العلم " (١) . وقد كان الناس ينتقلون بين هذه الحلقات العلمية لينهلوا من العلم ما وسعهم الوقت ، فقد روى ابن عساكر أن سعيد بن عبد العزيز التنوخي المتوفى سنة سبع وستين ومائة أنه قال : "كنت أجالس بالغداة يزيد بن عبد الرحمن " أبا مالك " وبعد الظهر إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ، وبعد العصر مكحولاً " (٢) .

وفي أحضان هذه البيئة العلمية - بيئة الشام - عاش سابق البربري ، وتلقى العلم ، ولذا لا يخلو من أن يكون قد تردد مراراً على مثل هذه الحلقات العلمية واستمع إلى هؤلاء الشيوخ والأساتذة ، ذلك أن له عقلية مستنيرة تنصح بطلب العلم ، وتنظر إليه على أنه حياة للقلوب ، وجلاء لعمى البصائر ، كما يبدو من قوله :

---

(١) تاريخ دمشق ١/ ٣١٥ ، نقلاً عن التربية والثقافة للدكتورة ملكة أبيض ٢٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ٧/ق ١١٤ ، ترجمة سعيد بن عبد العزيز نقلاً عن المرجع نفسه ٢٦٦ .

والذِّكْرُ فيهِ حياةٌ لِلْقُلوبِ كَما
يُحْيي البِلادَ إذا ما ماتَتِ المَطَرُ
والعِلْمُ يَجْلُو العَمَى عَنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ
كما يُجَلِّي سَوادَ الظُّلْمَةِ القَمَرُ (١)

كما أنه يدرك الفرق بين العالم والجاهل ،فهو عارف لفضل العلم ، إذ يقول :

وَليسَ ذُو العِلْمِ بالتَّقوى كَجاهِلِهِ
ولا البَصِيرُ كأعْمَى مالَهُ بَصَرُ (٢)

ولكنّا لا نجد في ترجمات (٣) سابق البربرى من يثبت ذلك ،أو يُبيِّن نوع العلوم التي تلقاها ،والحلقات التي كان يحضرها ... ومع ذلك يمكننا أن نتصور أنواع العلوم التي تحصَّل عليها بالرجوع إلى أخباره التي تتعلق بمنزلته الاجتماعية ،والوظائف التي أُسندت إليه ..... أخبرتنا التراجم أنه مولى لبني أُميّة ،كما ذكر ابن عساكر (٤) ،والذهبي (٥) ، والصفدى (٦) ،والبغدادى (٧) . وقد عرف الموالي أن الذى يرفع مكانتهم ،وينالوا به المناصب العالية ،هو الدين والعلم ،فاجتهدوا في

---

(١) انظر شعره قصيدة رقم ١٢ البيت رقم ١٧-١٨ .
(٢) المصدر السابق البيت رقم ١١ .
(٣) انظر من ترجم له في المبحث الخاص باسمه و نسبه وكنيته ص ١٧ .
(٤) تاريخ دمشق ٤/ق ٧٣ ب
(٥) تاريخ الإسلام ٦/ق ١١٤ ب.
(٦) الوافي بالوفيات ١٥/ ٧٠ .
(٧) خزانة الأدب ٤/ ١٦٤ .

الدين ،و تبحّروا في العلم ،حتى وصل الكثير منهم إلى مراكز السيادة في مواطنهم . الأمر الذى أزعج بعض الخلفاء والولاة الأمويين ،فقد روى عن محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهْري ،أنه قال : " قدمت على عبد الملك ابن مروان ،فقال لي : من أين قدمت يا زهري ؟ قلت : من مكة . قال : فمن خلَّفْتَ يسود أهلها ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح . قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي . قال : وبِمَ سادهم ؟ قال : قلت : بالديانة والرواية . قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا ، فمن يسود أهل اليمن ؟ قال : قلت : طاوس بن كيسان قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال ،قلت : من الموالي . قال : وبم سادهم ؟ .... ـ حتى قال ـ: ويلك فمن يسود أهل الكوفة ؟ قال ،قلت : إبراهيم النخعي . قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال، قلت : من العرب . قال : ويلك يا زُهْرِي ،فرّجْتَ عنّي ،والله ليسودنَّ الموالي على العرب حتى يُخْطَبَ لها على المنابر ،والعرب تحتها . قال ، قلت : يا أمير المؤمنين إنما هو أمر الله ودينه من حفظه ساد ومن ضيّعه سقط "(١) .

وحظى الحسن البصرى ـ وهو مولى ـ بمنزلة عالية عند أهل البصرة وغيرهم بعلمه وورعه وزهده ،فقد قيل : " لما وقعت الفتنة بالبصرة ورضوا بالحسن ،اجتمعوا عليه ، وبعثوا إليه ،فلما أقبل ، قاموا ، فقال يزيد بن المهلب ـ والي البصرة لسليمان بن عبد الملك ـ: كان العلماء يكونوا أربابًا ،أما ترون هذا المولى ، كيف قام له

---

(١) انظر معرفة علوم الحديث ،لمحمد بن عبدالله النيسابورى ١٩٨- ١٩٩ ، تحقيق السيد معظم حسين .

سادات العرب "(١) . ونال الحسن البصري هذه المنزلة العالية عند عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ،فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالبصرة عَدِي بن أرطأة : " أما بعد فإنك لن تزال تُعنّي إليَّ رجلًا من المسلمين في الحرّ والبرد يسألني عن السُّنَّة ،كأنك انما تُعظِّمني بذلك . وأيم الله لحسبك بالحسن - أى البصرى - فإن أتاك كتابي هذا فسل الحسن لي ولك وللمسلمين ،فرحم الله الحسن ،فإنه من الإسلام بمنزل و مكان ،ولا تقرئنه كتابي هذا "(٢) .

فبهذه البيئة الإسلامية التي مكنت هؤلاء الموالي من بلوغ المكانة العالية بعلمهم ودينهم تثبت أن الإسلام قد أسقط الاعتبارات العرقية بين الناس ،فارتفع منهم من نال حظه من العلم ،والتزم بالدين والتقوى ،مصداقاً لقوله تعالى (... يَرْفعِ اللَّهُ الذينَ آمنُوا مِنكُمْ والذينَ أُوتوا العِلْمَ دَرَجات ...) (٣) . وقد عرف سابق البربرى هذا المبدأ الإسلامي ووعاه ،كما يبدو من قوله :

الحِلْمُ والعِلْمُ خَلَّتا كَرَمٍ
لِلْمَرءِ زَيْنٌ إذاهُمَا اجْتَمعَا
صِنْوانِ لا يَسْتَتِمْ حسنُهُما
إلاّ بِجَمْعٍ لِذَا ، و ذَاكَ معَا
كَمْ مِنْ وَضِيعٍ سَمَا بِهِ العِلْمُ والـ
حِلْمُ فَنَالَ العَلاءَ وارْتَفعَا
ومِنْ رَفيعِ البِنَا أضاعَهُمَا
أَخْمَلَهُ ما أضَاعَ فاتَّضعَا (٤)

---

(١) انظر محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ١ / ٣٢ ،لم تحدد دار النشر.
(٢) انظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٨٣ ،لم تحدد سنة النشر.
(٣) سورة المجادلة من الآية : ١١ .
(٤) انظر شعره ،مقطعة ١٨ .

ومن يدرك هذه الحقيقة الإسلامية، ويعلم قيمة طلب العلم لا بد له أن يجتهد في طلبه، ويتعمّق في علومه.

وتذكر ترجمات سابق البربرى أنه كان إمام مسجد الرَّقة وقاضي أهلها (١).

والقضاء منصب دقيق حساس، إذ القاضي منوط به الحفاظ على أمن الناس، والعدل بينهم، والذود عن أموالهم، وأعراضهم، ودمائهم. وقد عُنِي المسلمون بالقضاء من أول عهدهم.. فكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعرى رسالة (٢) في القضاء حين ولّاه قضاء الكوفة، بحيث وضحت هذه الرسالة أحكام القضاء، وشروطه، وواجبات القاضي وحقوق المتقاضين. بحيث يمكننا منها أن نتبيَّن الصفات الخُلُقية التي ينبغي أن يتحلى بها القاضي، والمبادىء والأحكام الفقهية، والعلوم الدينية التي يجب على القاضي أن يحيط بها... فقول عمر بن الخطاب في رسالته: آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك.. ولا يمنعنَّك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهُدِيتَ فيه لرشدك، أن ترجع عنه إلى الحق... ثم إياك والقلق والضجر، والتأذِّي بالناس، والتنكُّر للخصوم..." . قوله هذا فيه بيان أن القاضي ينبغي له أن يتصف

---

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ق٧٣ أ، وانظر تاريخ الرَّقة للحراني نقلاً عن دراسة عبدالله كنون: سابق البربرى ٢٤.

(٢) انظر الرسالة في البيان والتبيين للجاحظ ٢/٤٩، والكامل في اللغة والأدب للمبرد ١/١٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومقدمة ابن خلدون ٢/٦٢٨ - ٦٢٩ تحقيق د/على عبد الواحد وافي.

بالعدل ، والسماحة ،والتقوى والورع ،ومراقبة النفس بتقييم قضائه بناء على الأدلة الشرعية التي يدركها بالاستنباط أو الاجتهاد والقياس. .. و معنى ذلك أنه لا يتولّى القضاء إلا من التزم بهذه الصفات الخُلُقية الرفيعة .

وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فإن القضاء فريضة محكمة وسُنَّة متبعة ، فافهم إذا أُدْلى إليك ... البيِّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر ،والصُّلْح جائز بين المسلمين ... ومراجعة الحقِّ خير من التمادى بالباطل . الفَهْمَ الفَهْمَ عندما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ،ولا في سُنَّة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، أعرف الأمثال والأشباه ،وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ..

قول عمر بن الخطاب هذا يُبيِّن أن القضاء الاسلامي عِلْمٌ له حدود ومبادئ وأحكام فقهية مستقاة من الكتاب والسُّنَّة والإجماع ، وعلى القاضي المسلم أن يحيط بها ويفهمها ،إذ لا ينبغي له أن يحيد عنها أو يبتدع فيها إلا ما كان بعد قياس واجتهاد واستنباط . ومعنى ذلك أن القاضي المسلم ينبغي أن يكون على علم تام بالقرآن الكريم وتفسيره ،وعلومه ،وأحكامه وناسخه ومنسوخه ،ومحكمه ومتشابهه ،وعلم بالسُّنَّة الشريفة ،فيعرف طرق نقلها ،ورواتها ،والأحكام عليها من حيث الصحة والضعف أو الفساد .. وعلم بالفقه الإسلامي ،فيعرف أصوله وأحكامه وطرق القياس ،والاجتهاد وما أجمع عليه السلف .

ومعنى هذا أن المسلم لا يمكن أن يتولّى القضاء إلا إذا كان على علم تام ،وتبحُّر عميق في كل العلوم الدينية ،مع الفهم والدراية

وقوة الذكاء والفطنة وحسن الخُلُق .

وقد التزم المسلمون في عصورهم الأولى بهذه المبادىء والأحكام والشروط فيمن يتولى القضاء واستمرت تلك الشروط معتبرة حتى أن الماوردي - المتوفى في القرن الخامس الهجرى - التزم بها وزاد عليها، فجعل شروط القضاء سبعة (١) .

فإذا كان شاعرنا سابق البربرى قد تولّى منصب القضاء، وهو من مخضرمي الدولتين - الأموية والعباسية - فإنه لا بدّ أن يكون قد تحققت في أخلاقه وعلمه هذه الشروط المطلوبة في القاضي المسلم، فلا بد أنه كان ذا خلق فاضل، يتصف بالصدق والعدل، والتقوى والورع، وسماحة الخلق، والذكاء والفطنة، والقدرة على الاجتهاد. ولا بد أنه كان ذا إلمام تام بالعلوم الدينية والأحكام الشرعية، بأن يتفقه في القرآن وعلومه، والسُّنَّة وما يتصل بها، والفقه وأصوله وأحكامه. وقد كان في بيئة الشام العلمية والدينية التي عاش فيها سابق البربرى ما يهيىء له أن ينهل من هذه العلوم ما يشاء .

وفي أخبار سابق البربرى أنه روى الحديث (٢)، وروايته للحديث تدل على تعمقه في العلوم الدينية عامة، وعلوم الحديث خاصة، إذ لا بد أن يكون على علم بطرق التحمّل (٣) في نقل الحديث،

---

(١) انظر هذه الشروط في الأحكام السلطانية للماوردى ٦٥-٦٦.
(٢) انظر ما يأتي عن روايته للحديث ص ٧٣.
(٣) انظر تدريب الراوى للسيوطي ٢/ ٨-٦٠، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ.

وهي ثمانية : السماع ، والقراءة على الشيخ ، والاجازة ،والمناولة ، والكتابة ،وإعلام الشيخ الطالب أن هذا الحديث سماعه مقتصراً عليه ، والوصية ،والوِجَادة . وتحت هذه الطرق فروع ينبغي لمن يروي الحديث أن يعرفها . . . كما ينبغي له أن يكون على علم تام بأحكام الحديث ، ورواته ، وما يتصل بجرحهم وتعديلهم وما إلى ذلك من علوم الحديث التي يهتم بها من يتصدى لروايته . . .

ثم إن سابق البربرى شاعر مطبوع ،قوي الشعر ، سليم اللغة ، كما يتبيَّن من دراسة شعره (١) . ولهذا فإنه لا بد أن تكون له معرفة بأشعار العرب ،وعلوم العربية ،ومعرفة بالأوزان وأحكام القوافي . .

فهذه الأخبار الموجزة التي وصلتنا عن منزلة سابق البربرى ، ومناصبه فتحت لنا باباً نتصور منه العلوم التي تلقاها شاعرنا في نشأته ، ومواد تحصيله العلمي . . . وإنْ كنَّا لا نملك الجزم في إثبات ذلك ، مما يجعلنا نقول : إن في حياة سابق البربرى ،ونشأته ،وتعليمه الكثير من الفجوات التي أعوزتنا المصادر في سدِّها ،فلجأنا إلى الافتراض والتصوّر القائمين على الحقائق البدهية ، والأحكام المستمدة من الشريعة الإسلامية ،والتاريخ الإسلامي .

---

(١) انظر الدراسة الفنية لشعر سابق البربرى في الباب الثالث .

خامساً : شيوخه وتلاميذه :

تذكر المصادر التي ترجمت لسابق البربري أنه روى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ولذا تذكر له سند من روى عنهم ومن رووا عنه ... ولكن هذا السند يختلف في المصادر تبعاً لاختلافهم في لقب سابق البربري (١) .. فمن لقّبه بالبربري فقط اقتصروا في شيوخه الذين يروي عنهم على ذكر : مكحول (٢) ، وعمرو بن أبي عمرو (٣) ، وسعيد (٤) بن سمعان (٥) ، وعمر بن عبد العزيز (٦) . واقتصروا في تلاميذه الذين يروون عنه على ذكر : الأوزاعي (٧) ، وأهل الجزيرة ، وموسى بن أعين (٨) ، والمعافى بن عمران (٩) ،

---

(١) انظر المبحث الخاص باسمه ونسبه وكنيته ص ١٧ .

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ق ١ جـ١ / ٣٠٧ ، وابن حِبّان في الثقات ٦/ ٤٣٣ ، والسمعاني في الأنساب ٢/ ١٣١ . والذهبي في تاريخ الإسلام ٦/ق ١١٤ ب .

(٣) و (٤) ذكرهما ابن حِبّان في الثقات ٦/ ٤٣٣ والسمعاني في الأنساب ٢/ ١٣١ .

(٥) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام ٦/ق ١١٤ ب .

(٦) ذكره البخارى في التاريخ الكبير ق ٢ جـ٢ / ٢٠١ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ق ١ جـ١ / ٣٠٧ وابن حِبّان في الثقات ٦/ ٤٣٣ والسمعاني في الأنساب ٢/ ١٣١ .

(٧) ذكرهم ابن حِبّان في الثقات ٦/ ٤٣٣ ، والسمعاني في الأنساب ٢/ ١٣١ .

(٨) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام ٦/ق ١١٤ ب والبغدادى في خزانة الأدب ٤/ ١٦٤ .

(٩) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام ٦/ق ١١٤ ب ، والبغدادى في خزانة الأدب ٤/ ١٦٤ .

وشجاع بن (١) الوليد . وقد اقتصر أصحاب طبقات الحديث (٢) فيمن روى عنهم سابق البربرى على ذكر مكحول ، وعمرو بن أبي عمرو ، وسعيد ابن سمعان . واقتصروا فيمن يروون عن سابق على ذكر الأوزاعي ، وأهل الجزيرة . ذلك لأنّ أصحاب طبقات الحديث يُفرِّقون بين سابق البربرى ، وسابق الرَّقي ، فيذكرون الاثنين مع اختلاف سند الرواية فيهما ..

أما من جمع في لقبه بين الرَّقي والبربرى ، فإنهم يذكرون فيمن يرويِ عنهم سابق البربرى كلًّا من ربيعة بن عبد الرحمن (٣) وداود بن أبي هند (٤) ، ومكحول (٥) ، وشعبة (٦) ، وعبد الله بن سعيد بن

---

(١) ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام ٦/ق١١٤ ب . وقد ذكر البغدادى في الخزانة مكحولًا مع من يرويِ عن سابق البربرى وهذا خطأ ربما نتج عن التحريف . فالمصادر كلها تذكر أن سابقًا البربرى يرويِ عن مكحول .

(٢) وهم : البخارى في التاريخ الكبير ق ٢ ج٢ / ٢٠١ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ق ١ ج١ / ٣٠٧ ، وابن حِبّان في الثقات ٦/٤٣٣ . وقد تابعهم السمعاني في الأنساب ٢/١٣١ .

(٣) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ والصفدى في الوافي بالوفيات ١٥/٦٩ .

(٤) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق٧٢ والصفدى في الوافي بالوفيات ١٥/٦٩ .

(٥) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ، والصفدى في الوافي بالوفيات ١٥/٦٩ ، والزبيدى في تاج العروس مادة سبق وبر .

(٦) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ .

أبي هند [١] ،ومطرّف بن طريف [٢] ، والعلاء بن عبد الرحمن [٣] ، وعمرو بن أبي عمرو [٤] ،وعاصم بن شبيب [٥] ،ويزيد بن حصين [٦] ، وإسماعيل بن أميّة [٧] ، وإسماعيل بن أبي خالد [٨] ،وعلي بن خزيمة [٩] ،وأبي حنيفة النعمان بن ثابت [١٠] ، وعاصم بن كليب [١١] ، ويزيد بن خصيفة [١٢] .

---

(١) ذكره ابن عساكر في المصدر نفسه .
(٢) ذكره ابن ماكولا في الإكمال ١/٣٩٨ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب .
(٣) ذكره ابن ماكولا في الإكمال ١/٣٩٨ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب.
(٤) ذكره ابن ماكولا في الإكمال ١/٣٩٨ ،وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب.
(٥) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب وربما كان هو عاصم ابن كليب (١١) .
(٦) ذكره ابن عساكر في المصدر نفسه .
(٧) ذكره ابن ماكولا في الإكمال ١/٣٩٨ ،وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب .
(٨) ذكره ابن ماكولا في المصدر نفسه ،وابن عساكر في المصدر نفسه .
(٩) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب.
(١٠) ذكره ابن ماكولا في الإكمال ١/٣٩٨ والصفدى في الوافي بالوفيات ١٥/٦٩ ،والزبيدى في تاج العروس مادة سبق ،بر .
(١١) ذكره ابن ماكولا في الإكمال ١/٣٩٨.
(١٢) ذكره ابن ماكولا في المصدر نفسه ،وربما كان هو يزيد بن حصين (٦).

ويذكرون فيمن يروى عن سابق البربرى كلًا من : الأوزاعي (١) ، ومحمد بن يزيد بن سنان الرمادي (٢) ، وعبيدالله بن يزيد القردواني (٣) ، ومحمد بن سليم بن أبي داود (٤) ، وأبي بدر شجاع بن الوليد السَّكوني (٥) ، وموسى بن أعين (٦) ، وعثمان بن عبد الرحمن الطرائفي (٧) ، وفهد بن بشر الدّاماني (٨) ، والمُعافى بن عمران (٩) ، وزيد بن الجرّاح (١٠) .

وذلك لأنهم يجمعون بين اللقبين - الرّقي والبربرى - ويجمعون بالتالي سند الرواية عنهما .

والمعتمد عندنا في سند الرواية لسابق البربرى هو ما ذكره أصحاب طبقات الحديث ، ومن لقّبه بالبربري فقط ، إذ الراجح

---

(١) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق٧٢ ب ، والصفدى في الوافي بالوفيات ٦٩/٥ ، والزبيدي في تاج العروس مادة سبق ، بر .

(٢) (٣) (٤) ذكرهم ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب .

(٥) ذكره ابن ماكولا في الإكمال ٣٩٨/١ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب .

(٦) ذكره ابن ماكولا في الإكمال ٣٩٨/١ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب . والصفدى في الوافي بالوفيات ٦٩/١٥ .

(٧) ذكره ابن ماكولا في الإكمال ٣٩٨/١ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب .

(٨) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب .

(٩) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب ، والصفدى في الوافي بالوفيات ٦٩/١٥ .

(١٠) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ ب .

أن سابق البربرى غير سابق الرّقي كما حقق أصحاب الحديث وهم أكثر دقة وضبطاً . ولذلك فإنّا نقتصر في ذكر شيوخ سابق البربرى الذين روى عنهم على : مكحول ،وعمرو بن أبي عمرو، وسعيد بن سمعان . ونقتصر في ذكر تلاميذه الذين رووا عنه على : الأوزاعي ،وأهل الجزيرة .

أولا : مكحول :

أبو عبدالله مكحول بن عبدالله الشامي ،من سبي كابل . قال عنه الذهبي : " يروى بالإرسال عن أُبيّ ،وعبادة بن الصامت ،وعائشة ،وأبي هريرة ،وروى عن واثلة ،وأبي أمامه ،وعِدّة . وعنه ثور بن يزيد ،والأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز وخلْق "(١) .

كان فقيه أهل الشام وعالمهم . روى ابن حجر(٢) عن يحيى بن حمزة عن مكحول قوله : اعتقت بمصر فلم أدع فيها علماً إلاّ احتويت عليه فيما أدري ثم أتيت العراق والمدينة والشام فذكر كذلك ". وقد اُشْتُهِرَ في الشام حتى قال عنه الزّهْري : " العلماء أربعة : سعيد بن المسيّب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ،والحسن بالبصرة ،و مكحول بالشام "(٣) . وقال عنه ابن حجر: " ثقة فقيه ،كثير الإرسال ،مشهور ،من الخامسة "(٤) .

---

(١) انظر ميزان الاعتدال ٤/١٧٧ تحقيق على محمد البجاوى .
(٢) انظر تهذيب التهذيب ١٠/٢٩١ .
(٣) ميزان الاعتدال للذهبي ٤/١٧٧ تحقيق على محمد البجاوى .
(٤) تقريب التهذيب ٢/٢٧٣ .

وقد اتُّهِمَ بالقَدَر باطلًا ، قال الأوزاعي : " لم يبلغنا أن أحدًا من التابعين تكلّم في القَدَر إلا الحسن و مكحول ،فكشفنا عن ذلك فإذا هو باطل "(١) .

كان مكحول عابدًا زاهدًا ،روى عنه أبو نعيم (٢) : "أنه كان يصوم الاثنين والخميس ،وكان يقول : وُلِدَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الاثنين وبُعِثَ يوم الاثنين و تُوفي يوم الاثنين ،و تُرفع أعمال بني آدم يوم الاثنين والخميس" . وكان يدعو إلى الزهد والتقشف في الحياة، رُوِيَ عنه قوله : " أفضل العبادة بعد الفرائض الجوع والظمأ ، قال أبو بكر : وكان يقال : الجائع الظمآن أفهم للموعظة ،وقلبه إلى الرّقة أسرع ، وكان يقال : كثرة الطعام تدفع كثيرًا من الخير"(٣) .

وتوفي مكحول سنة اثنتي عشرة ومائة ،أو ثلاث عشرة ومائة ، أو ثمان عشرة ومائة (٤) . على خلاف في ذلك .

وقد نقلت كتب التراجم أخبارًا تثبت اتصال سابق البربرى بمكحول في مرحلة طلب العلم ،وفي وقت الغزو بعد النضج التام ، فمن المرحلة الأولى روى ابن عساكر عن الأوزاعي قول سابق البربرى : " كتب مكحول إلى الحسن ونحن بدابق يسأله عن الطالب والمطلوب . قال : فجاءه

----

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ٤/١٧٨ .
(٢) حلية الأولياء ٥/ ١٨٠ .
(٣) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/ ١٨١ .
(٤) انظر طبقات ابن سعد ٧/ ٤٥٤

إذا كنت طالباً فصلِّ بالأرض ،وإذا كنت مطلوباً فصلِّ على الأرض"[١].

وعن المرحلة الأخرى روى الحرّاني عن أبي كامل مولى الغفار بن ربيعة أنه قال: سمعت سابق البربري ينشد مكحولاً[٢] وهو في الغزو :

يا نَفْسُ كلُّ قابرٍ مقبورُ
ويَهْلِكُ الزائرُ والمَزورُ
ويَقْبِضُ العَارِيةَ المُعِيرُ
ليسَ على صَرْفِ الرَّدَى غمورُ
كمْ مِنْ غَنيٍّ مُكْثِرٍ فقيرُ

حتى انتهى إلى قوله :

والصدْق بِرٌّ والتقى تطهير
والبِرُّ معْروفٌ بِهِ المَبْرُورُ
ونَ والهوى يسُوقُه المَقْدُورُ

فقال مكحول : لا .

ثانيا - عمرو بن أبي عمرو :

اسمه ميسرة ،مولى المطلب بن عبدالله بن حنطب المخزومي ،أبوعثمان المدني . روى عن أنس بن مالك ،ومولاه المطلب ،وأبي سعيد المقبري ، وسعيد بن جُبير ،وعبدالله بن عبد الرحمن الأشهلي ،والأعرج ،وعاصم ابن عمر بن قتادة وغيرهم[٣] .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ق ٧٣ ب.
(٢) تاريخ الرّقة ،للحرّاني نقلاً عن دراسة عبدالله كنون : سابق البربري ٢٤ .
(٣) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ٨/ ٨٢ .

اخْتُلِفَ في الحكم عليه : قال عنه الذهبي : "صدوق حديثه مخرج في الصحيحين في الأصول" ، قال ابو حاتم : لا بأس به "[١] . وقال ابن حجر : "ثقة ربما وهم ، من الخامسة "[٢] . وقال ابن عدى : "لا بأس به ، لأن مالكاً يروي عنه ، ولا يروى مالك إلا عن صدوق ثقة ، وقال : كان كثير الحديث صاحب مراسيل"[٣] .

وكانت وفاته بعد الخمسين كما ذكر ابن حجر[٤] .

ثالثا - سعيد بن سمعان :

هو سعيد بن سمعان الأنصارى الزُّرَقي مولاهم المدني . قال عنه الذهبي : " سعيد بن سمعان ، عن أبي هريرة ، فيه جهالة . ضعّفه الأزدى ، وقوّاه غيره . وقال النسائي : ثقة[٥] . وقال عنه ابن حجر: ثقة لم يصب الأزدى في تضعيفه ، من الثالثة[٦] .

رابعا : عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي :

هو عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو ، واسمه يحمد الشامي ، أبو عمرو الأوزاعي الفقيه[٧] . وُلِدَ سنة ثمان وثمانين . وحدّث عن عطاء بن أبي رباح ، والقاسم ابن مخيمرة ، وشدّاد أبي عمار ، وربيعة بن يزيد ،

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٢٨١ .
(٢) تقريب التهذيب ٢/ ٧٥ .
(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ٨/ ٨٢ .
(٤) تقريب التهذيب ٢/ ٧٥ .
(٥) ميزان الاعتدال ٢/ ١٤٣ .
(٦) تقريب التهذيب ١/ ٢٩٨ .
(٧) تهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٢٣٨ .

والزُّهْري و محمد بن إبراهيم التيمي ، و يحيى بن أبي كثير ، وخلْق . ورأى محمد بن سيرين مريضًا ، ويقال : إنه سمع منه . حدّث عنه شعبه ، وابن المبارك ، والوليد بن مسلم ، والهقل بن زياد ، ويحيى ابن حمزة ، ويحيى بن القطّان ، وأبو عاصم ، وأبو المغيره ، و محمد بن يوسف الفريابي وخلائق (١) .

ارتفع بعلمه إلى مرتبة الإمامة ، قال ابن عيينة : كان إمام أهل زمانه . وقال أحمد بن حنبل : دخل الثورى والأوزاعي على مالك ، فلما خرجا قال مالك : أحدهما أكثر علمًا من صاحبه ولا يصلح للإمامة ، والآخر يصلح للإمامة ، يعني الأوزاعي (٢) .

وقد فضّله أهل زمانه على مكحول ، روى أبو زرعة عن محمد بن شعيب أنه قال : قلت لأمّية بن يزيد بن أبي عثمان في الأوزاعي : أين هو من مكحول ؟ قال : هو عندنا أرفع من مكحول (٣) .

وقد كان عالمًا فقيهًا ضابطًا لروايته ، فقد روى الذهبي عن عامر ابن يساف قوله : سمعت الأوزاعي يقول : إذا بلغك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديث فإياك أن تقول بغيره ، فانه كان مبلِّغًا عن الله (٤) .

وروى أبو زرعة عن أبي مسلم عن الأوزاعي قوله : كنا نسمع الحديث

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/١٧٨ .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٢٤٠-٢٤١ .

(٣) تاريخ أبي زرعة ٢/ ٧٢٠ .

(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ١٨٠ .

فنعرضه على أصحابنا كما يعرض الدرهم الزائف ، فما عرفوا منه أخذنا ، وما أنكروه منه تركنا" (١) .

وقد عُرِفَ بالزهد والورع والعبادة والخشوع ،قال الذهبي : قال بشر بن المنذر : رأيت الأوزاعي كأنه عمي من الخشوع وكان الوليد يقول : ما رأيت أكثر اجتهاداً في العبادة منه ،وقال أبو مسهر : كان الأوزاعي يحيى الليل صلاة وقرآناً وبكاءً (٢) . وقال ابن حِبّان في الثقات : كان من فقهاء أهل الشام وقرائهم وزهادهم (٣) .

كان يكثر من مواعظه للخلفاء والولاة والناس ،ولا يخاف في الله لومة لائم ،قال عنه أبو نعيم : الأوزاعي يكثر كلامه ومواعظه ورسائله (٤) .. وروى عنه أبو نعيم مواعظ كثيرة منها قوله : من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير ،ومن علم أن منطقه من عمله قلّ كلامه " (٥) .

وثّقه الذهبي فقال فيه : إمام ثقة ،وليس هو في الزُّهْرِي كمالك وعُقيل (٦) ،وقال عنه ابن حجر : قال يعقوب : والأوزاعي ثقة ثبت في روايته عن الزُّهْرِي خاصة (٧) .

---

(١) تاريخ ابي زرعة ٢/ ٧٢٢ .
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٩ .
(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ٦/ ٢٤٠ .
(٤) حلية الأولياء ٦/ ١٤٤ .. وانظر في ترجمته مواعظه الكثيرة التي وجهها إلى الخلفاء والولاة .
(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/ ١٤٣ .
(٦) ميزان الاعتدال ٢/ ٥٨٠ .
(٧) تهذيب التهذيب ٦/ ٢٤٠ .

وقد مات في بيروت سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة [(١)] . وقد نقل ابن عساكر خبراً يثبت رواية الأوزاعي عن سابق البربري ، وهو : "أخبرنا أبو الحسن علي بن المسلم القوصي ، انبا أبو الحسن بن أبي الحديد ، انبا جدي ، انبا أبو الدحداح ، نا أحمد بن عبد الواحد ، أنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن سابق البربري ، قال : "كتب مكحول إلى الحسن ونحن بدابق يسأله عن الطالب والمطلوب . قال : فجاءه ، إذا كنت طالباً فصلّ على الأرض ، وإذا كنت مطلوباً فصلّ على الأرى" [(٢)] .

سادسا : روايته للحديث :

ترجم أصحاب طبقات المُحَدِّثين لسابق البربري على أنه راوٍ للحديث ، فالبخاري قال عنه : "سابق البربري ، روى عنه الأوزاعي ، مرسل يُعَدّ في الشاميين" [(٣)] . وابن أبي حاتم قال في ترجمته : "سابق البربري : روى عن مكحول ، روى عنه الأوزاعي ، سمعت أبي يقول ذلك" [(٤)] . وابن حِبّان يقول عنه : "سابق بن عبدالله ، أبو سعيد البربري ، من أهل بربر ، سكن الرّقة ، يروي عن مكحول ، وعمرو بن أبي عمرو ، روى عنه الأوزاعي ، وأهل الجزيرة ، وهو الذي يروى عن سعيد بن سمعان" [(٥)] . وابن ماكولا يترجم له بقوله [(٦)] : "سابق بن عبدالله الرّقي أبو سعيد المعروف بالبربري . حدّث عن عمرو بن أبي عمر ، والعلاء بن عبدالرحمن ، ومطرّف ابن طريف ، وعاصم بن كليب ، ويزيد بن خصيفة ، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت ،

---

(١) طبقات ابن سعد ٤٨٨/٧ .
(٢) تاريخ دمشق ٤/ق ٧٣ ب .
(٣) التاريخ الكبير ق ٢ جـ٢ / ٢٠١ .
(٤) الجرح والتعديل ق ١ جـ ١ / ٣٠٧ .
(٥) الثقات ٤٣٣/٦ .
(٦) الإكمال ٣٩٨/١ .

وإسماعيل بن أمّية ،وإسماعيل بن أبي خالد . روى عنه : موسى بن أعين وشجاع بن الوليد ، وعثمان الطرائفي وغيرهم".

وقد فرّق أغلبهم كما يبدو من ترجماتهم بين سابق البربرى وسابق الرّقي ، فابن أبي حاتم يذكر سابقًا آخر لقبه الرّقي (١) ،أما الذهبي فبعد أن ترجم لسابق الرّقي نقل عن ابن عدى قوله: " قال ابن عدى : وهو غير سابق البربرى الزاهد ، ذاك له كلام في الزهد " (٢) . وقد علّق ابن حجر على قول ابن عدى هذا بقوله : "وأما البربرى فلم يذكر اسم أبيه ،وقد أشار إليه ابن عدى ،ومقتضاه : أن البربرى ليست له رواية وليس كذلك ،فقد ذكره ابن حِبّان في الثقات .." (٣) .

ومعنى هذه الأقوال التي ذكرت في كتب طبقات الحديث عن سابق البربرى ،أن سابقاً البربرى قد روى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وأنه ثقة ،إذ لم يُذكر فيه جرح ،وذكره ابن حِبّان في الثقات .. وأن سابقاً البربرى غير سابق الرّقي ،بل إن ابن عدى جوّز أن يكون سابق ثلاثة كما قال ابن حجر : "وقد جوز ابن عدى أن يكون سابق ثلاثة : " سابق "بن عبدالله الراوى عن أبي خلف ، و "سابق " بن عبدالله الرّقي . و "سابق "البربرى . فقال ما نصه: أظن أن سابقًا صاحب حديث : إذا مدح الفاسق ليس هو بالرّقي ، لأن الرّقي أحاديثه مستقيمة عن مطرّف ،وأبي حنيفة . وأما سابق البربرى

---

(١) انظر الجرح والتعديل ق ١ جـ١ / ٣٠٧ .
(٢) انظر ميزان الاعتدال ٢/١٠٩ .
(٣) انظر لسان الميزان ٣/٣ .

فإنما له كلام في الحكمة والزهد وغيرهما"[(١)] .

وقد نقل الدولابي[(٢)] ،وابن عساكر[(٣)] والحرّاني[(٤)] ، بعضاً من الأحاديث التي رواها سابق البربرى ،وهي :

١ - الحديث الأول[(٥)] :

" حدثنا أحمد بن إبراهيم النابلسي ،قال : حدثنا أحمد بن شعيب الحرّاني ، قال: حدثنا موسى بن أعين[(٦)] ،عن أبي سعيد سابق البربرى ،قال : حدثنا العلاء بن عبد الرحمن[(٧)] ، عن أبيه[(٨)] ،

---

(١) لسان الميزان ٣/ ٢-٣ .
(٢) في الكنى والأسماء ١/ ١٨٨ ، الطبعة الأولى عام ١٣٢٢هـ .
(٣) في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢-٧٣ .
(٤) في تاريخ الرقة ،نقلا عن دراسة عبدالله كنون : سابق البربرى ٢٤ .
(٥) الحديث نقله الدولابي في الكنى والأسماء ١/ ١٨٨ والنص له . ونقله الحرّاني في تاريخ الرقة ،انظر دراسة عبدالله كنون ٢٤ ،وقد نقله على نفس الرواية عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ،مع اختلاف قليل في لفظ الحديث .
(٦) موسى بن أعين الجزرى ،مولى قريش ،أبو سعيد ،ثقة ،عابد ، من الثامنة ،مات سنة خمس أو سبع وسبعين / تقريب التهذيب ، لابن حجر ٢/ ٢٨١ .
(٧) العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحُرَقي ،أبو شبل المدني ، صدوق ربما وَهِمْ ،من الخامسة ،مات سنة بضع وثلاثين / تقريب ٢/ ٩٣ .
(٨) عبدالرحمن بن يعقوب الجهني ،المدني ،مولى الحُرَقة ، ثقة من الثالثة / تقريب ١/ ٥٠٣ .

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إِذَا ماتَ الإِنْسانُ انْقَطَعَ عملُه إلاّ من ثَلاثٍ : من صدقةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنتفَعُ به أَوْ ولدٍ يدعو له "(١) .

٢ - الحديث الثاني(٢) :

" أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي ... نا أبو هِمام ،يعني الوليد بن شجاع السَّكوني ،قال : حدّثني أبي ،نا سابق بن سعيد والخدري ، حدثني عمرو بن أبي عمر(٣) ،عن عبد الرحمن بن الحرث(٤) ،عن ابن عبّاس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الحلال بَيِّن ،والحَرامُ بيِّن ،

---

(١) الحديث أخرجه عن طريق أبي العلاء ، عن أبيه عن أبي هريرة ، دون أن يتصل السند إلى سابق البربرى مسلم في صحيحه كتاب الوصية ١٤ ، والترمذى في سننه كتاب الأحكام ٣٦ ،وقال فيه : هذا حديث حسن صحيح . وأبو داود في سننه كتاب الوصايا ١٤ ،وأحمد في مسنده ٢/٣٧٢ . بزيادة جارية (صدقة جارية) .

(٢) الحديث نقله ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ .

(٣) عمرو بن أبي عمرو ،ميسرة ،مولى المطلب المدني ،أبو عثمان ،ثقة ربما وَهِمْ ،من الخامسة ،مات بعد الخمسين / تقريب ٢/ ٧٥ .

(٤) ربما كان عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي ، له روءية ،وكان من كبار ثقات التابعين ،مات سنة ثلاث وأربعين / تقريب ١/ ٤٧٦ .

وبَيْن ذلك مُشْتَبِهَات ،فَمَنْ رَتعَ فيهنَّ ،فَمُن أَنْ يأْثمَ ،ومَنْ اجْتَنبهُنَّ فهو أَرْفَقُ بِدِينِهِ كالمُرْتَعِي إلى جَنْبِ حِمىً ،ومَنْ ارْتَعى إلى جَنْبِ حِمىً فيُوشِكُ أَنْ يَقَع فيه ،ولكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ،و حِمَى اللّهِ عزَّوجلَّ في الأرضِ الحَرامِ "(١) .

٣ - الحديث الثالث(٢) :

"أخبرنا أبو محمد عبد الكريم بن حمزة السلمي وطاهر بن بشر .... نا محمد بن عبيدالله القردواني ،نا أبي ،حدثنا سابق البربرى عن مطرِّف(٣) عن أبي إسحاق(٤) عن عاصم بن(٥) ضمرة عن علي : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يُوتِرُ من أوّلِ الليلِ ،ووسَطِهِ وآخِرِه ،ثم ثبتَ لهُ آخِرُ الليلِ "(٦) .

---

(١) الحديث اخرجه عن طريق النعمان بن بشير البخارى في صحيحه كتاب الإيمان ٣٩ ، والبيوع ٣ ،ومسلم في صحيحه ،كتاب المساقاة ١٠٧-١٠٨ والترمذى في سننه كتاب البيوع ١ ،وفيه يقول : هذا حديث حسن صحيح ،وقد رواه غير واحد من النعمان بن بشير. وابو داود في سننه ،كتاب البيوع ٣-٤ ،والنسائي في سننه ،كتاب البيوع ٣ ، والقضاة ١١ وابن ماجة ،كتاب الفتن ١٤ ،وأحمد في مسنده - ٤/٢٦٧ -٢٦٩- ٢٧١ - ٢٧٥. و لفظ الحديث مختلف .

(٢) نقله ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق ٧٢ .

(٣) مطرِّف بن طريف الكوفي ،ابو بكرأوأبو عبدالرحمن ،ثقة فاضل ،من صغار السادسة مات سنة إحدى وأربعين / تقريب ٢/٢٥٣ .

(٤) لم استطع تعيينه .

(٥) وثّقه ابن معين وابن المديني ،وقال أحمد : هو أعلى من الحارث الأعور وهو عندى حجة... ميزان الاعتدال ٢/٣٥٢ .

(٦) أخرجه أحمد بن حنبل عن طريق علي رضي الله عنه ١/١٢٠ ،وعن طريق عائشة رضي الله عنها ٦/٤٧ . واللفظ مختلف.

٤ - الحديث الرابع[1] :

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندى ،أنا أبو محمد بن أبي عثمان ... نا سابق بن عبدالله -وكان من البكائين -عن أبي خلف[2] عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذَا مُدِحَ الفَاسِقُ غَضِبَ اللّهُ عزّوجَلّ "[3] .

والحديث الآخر هذا ليس من مرويات سابق البربرى ،وإنما هو من مرويات سابق بن عبدالله ،كما يفهم من قول ابن حجر : " سابق ابن عبدالله الرّقي : عن أبي خلف عن أنس رضي الله عنه : إذا مدح الفاسق اهتز العرش ، رواه عنه المعافى بن عمران ،وهذا خبر منكر ، ولكنْ أبو خلف لا يُعرف . وذكره ابن عدى سابقًا وكناه أبا عبدالله . قال : ويقال : أبو سعيد ،ويقال : أبو المهاجر ،يروى عنه أحمد بن سنان الموصلي ،وأبو الوليد رباح بن الجراح ،وروى معان بن رفاعة عنه ،وروى محمد بن عبيدالله القردواني عن أبيه عن سابق الرّقي نحو ثلاثين حديثًا . قال ابن عدى : وهو غير سابق البربرى الزاهد ، ذاك له كلام في الزهد انتهى"[4] .

وقد تبيّن أن الأحاديث الثلاثة الأولى التي كان سابق البربرى أحد رجال السند فيها أحاديث صحيحة مخرّجة في الصحاح ،وسند الرواية فيها قوى ،وموصول إلى النبي صلى الله عليه وسلم .. مما يدل على أن شاعرنا كان ثقة في نقلها وروايتها ... ولكننا لا نملك الجزم

---

(١) نقله ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤/ق٧٢ -٧٣ ب.
(٢) أبو خلف الأعمى ،عن أنس بن مالك قيل اسمه حازم كذّبه يحيى بن معين وقال ابو حاتم : منكر الحديث . ميزان الاعتدال ٤/ ٥٢١ .
(٣) اخرجه السيوطي في الجامع الصغير ، انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى ١/ ٤٤١ .
(٤) انظر لسان الميزان ٣/ ٢ .

بإطلاق هذا الحكم على رواية سابق البربرى كاملة ،ذلك أن أحاديثه التي رواها لم تصلنا كلها .. ثم إن البخارى يقول في ترجمته لسابق البربرى : "سابق البربرى ،روى عنه الأوزاعي ،مرسل يُعَدّ في الشاميين" (١) .
وكلمة" مرسل" تعنى إرساله الحديث ،لأن "المُرْسَل "في اصطلاح المُحدِّثين : "حديث التابعي الكبير الذى لقي جماعة من الصحابة وجالسهم كعبيدالله ابن عَدِي بن الخيار ،ثم سعيد بن المُسَيَّب وأمثالهما ،إذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" (٢) . والبخارى لم يضبط كلمة "مرسل" لنعرف أهي "مُرْسِلْ" أم "مُرْسَلْ" . ولكن الراجح أنها "مُرْسِلْ" بمعنى أن سابقاً البربرى يرسل الحديث دون إسناد .. وأنه كان يُحدِّث بالأحاديث المُرْسَلة ..

فإذا كان أصحاب الحديث يرون أن "حكم المُرْسَل حكم الحديث الضعيف إلا أن يصح مخرجه بمجيئه من وجه آخر" (٣) وإذا كان سابق البربرى من أتباع التابعين (٤) وليس تابعيًا .. فان أحاديثه المُرْسَلة لا تكتسب درجة القوة في الرواية ،بحيث لا يُحتجّ بها لقول ابن الصلاح : "... وما ذكرناه من سقوط الاحتجاج بالمُرْسَل والحكم بضعفه هو المذهب الذى استقر عليه آراء جماهير حفّاظ الحديث ،ونقّاد الأثر وقد تداولوه في تصانيفهم" (٥) .ولكن أحاديث سابق البربرى المُرْسَلة لم يصلنا منها شيء

---

(١) التاريخ الكبير ،للبخارى ق ٢ ج٢/ ٢٠١ .
(٢) مقدمة ابن الصلاح ،من التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح ٧٠-٧١ .
(٣) المصدر نفسه ٧٣ .
(٤) انظر تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر ١/ ١٣٥ .
(٥) مقدمة ابن الصلاح ،من كتاب التقييد والإيضاح ٧٣ .

الفصل الثالث

الزهد في القرن الأول الهجرى

قبل الحديث عن الزهد في القرن الأول الهجرى لا بد لنا من تقديم موجز عن معنى الزهد في اللغة ،واستعمال لفظة الزهد في الشعر العربي الجاهلي ،والقرآن الكريم ،ثم الحديث النبوى الشريف ، ليتسنى لنا أن ندرك مفهوم الزهد في الإسلام . ثم نتحدث عن حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزاهدة وقناعته من الدنيا بالقليل ، وعن مواعظه في التزهيد في الدنيا ،والترغيب عنها . ومواعظ من جاء من صحابته والتابعين واتباعهم ، ليعرف كيف نشأ الزهد وتطور ،في القرن الأول الهجرى ، في المدن الإسلامية عامة وفي الشام خاصة .

أولاً : معنى الزهد في اللغة:

الزاء ،والهاء ،والدال ، أصلٌ يدلُّ على قِلّة الشيء[(١)] .

والزُّهْدُ : خِلاف الرغبة ، زَهِدَ في الشيء : رغِبَ عنه ،ويقال : فلان زاهِدٌ وزهيد : بيّن الزهادة[(٢)] . قال الخليل : الزَّهادة في الدّنيا ،والزُّهْد في الدين خاصة[(٣)] .

ولم ترد كلمة الزهد ـ أو إحدى مشتقاتها ـ في الشعر

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ،مادة زهد ٣ / ٣٠ ،تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) انظر الصحاح للجوهرى ،مادة زهد ٢ / ٤٨١ . وانظر أساس البلاغة ، للزمخشرى ،مادة زهد ١٩٧ .

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ،لابن فارس ،مادة زهد ٣ / ٣٠ .

الجاهلي إلا قليلاً (١) ، ومن هذا القليل قول النابغة الذُّبياني (٢) :

فثابَ بأبكارٍ وعُونٍ عقـائلٍ
أوانسَ يحميهـا امْروءٌ غيرُ زاهِـدِ

وقول الأعشى (٣) :

فَلَنْ يطلبوا سِرَّهـا للغِنَـى
ولَـنْ يُسْلِمُوهـا لِإزْهادهـا

وكذلك قول أُميَّة بن أبي الصَّلْت (٤) :

ولسَوْفَ يَنْسى ما أقولُ معاشِرٌ
ولسَوْفَ يذكُرُه الذى لا يزْهَـدُ

---

(١) انظر مثلا من دواوين الجاهليين : شعر زهير بن أبي سُلمى ،صنعة الأعلم الشنتمري ، دار الآفاق الجديدة ،بيروت . وديوان امرىء القيس ،الشركة الوطنية عام ١٩٧٤م. وديوان طرفة بن العبد ، تحقيق د. فوزى عطوى . وديوان الطفيل الغنوي ،تحقيق : محمد أحمد عبدالقادر . وديوان الخرنق بنت بدر بن هفان ،تحقيق : د. حسين نصار. وديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الجاهلي ، دراسة وجمع وتحقيق :د. حسن باجودة . وهي لم ترد فيها لفظة الزهد ولا مشتقاتها . وانظر من المجموعات الشعرية مثلا : الأصمعيات . والمفضليات ،تحقيق : عبد السلام هارون ،وأحمد شاكر . وجمهرة أشعار العرب ،لأبي زيد القرشي ،وشرح القصائد السبع الطوال ،لأبي البركات بن الأنباري ،تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) انظر ديوان النابغة الذبياني ٩١ ،الشركة الوطنية .

(٣) انظر ديوان الأعشى ،تحقيق :د. فوزى عطوى ٩٨ ، الشركة اللبنانية للكتاب .

(٤) انظر شرح ديوان أمية بن أبي الصلت ٣١ ، تحقيق : سيف الدين كاتب ،وأحمد عصام كاتب. وتحقيقه سيء وفيه خلط كثير.

واستعمال كلمة الزهد في هذه الأبيات استعمال لغوى ،بعيد عن المفهوم الإسلامي للزهد ، ذلك لأن الحياة الجاهلية كانت وثنية مادية ، لا تؤمن بالآخرة ،ولا تعلّق بصر الإنسان بغير الحس والمتاع الدنيوى ، ولا تحضُّ على الرغبة عن الشهوات ،والتطلع إلى المعنويات . فالجاهليون -كما صورهم القرآن الكريم - مغمورون في متع الحياة ،لاهون في زخرفها الحسي ،لا يؤمنون بالبعث والحساب ،ولم يكن لهم شاغل إلا همُّ الحياة الدنيا . فالله سبحانه وتعالى -يقول عنهم : * وقالوا إنْ هِيَ إلا حياتُنا الدُّنيا وما نحنُ بمبعوثينَ * (١) . ويقول الله سبحانه عنهم: * ...وكذَّبوا بلقاءِ الآخِرةِ وأترفْناهم في الحَياةِ الدُّنيا ..* (٢) .

كما صورهم الله -سبحانه - وقد جرفهم حُبُّ الدنيا ،والتمتع برغائبها إلى طلب الاستزادة من الأموال والأولاد ، يقول سبحانه وتعالى * ذَرْني ومَنْ خَلَقْتُ وحيداً . وجَعلْتُ له مالاً ممْدوداً . وبَنِينَ شُهوداً . ومَهَّدْتُ له تَمْهيداً . ثم يَطْمَعُ أنْ أزيدَ * (٣) . كما رسم القرآن الكريم صورة لحبهم المال وجمعهم له ظناً منهم أنه مخلِّدهم في حياتهم الدنيا ،يقول سبحانه : * الذى جَمعَ مَالاً وعدَّدَهُ ، يَحسِبُ أنّ مالَهُ أخلدَهُ * (٤) .

فهذه صورتهم التي أوضحها لنا القرآن الكريم ،وهي الصورة التي يدل عليها شعرهم ،ومنه قول طرفة بن العبد الذى يبيِّن أن شعورهم

---

(١) سورة الأنعام ،آية : ٢٩ .
(٢) سورة المؤمنون ،من الآية: ٣٣ .
(٣) سورة المدثر ،الآيات : ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥ .
(٤) سورة الهمزة ،الآيتان : ٢ ، ٣ .

بلذة الحياة لا يأتي إلا من خلال متع حسّية لا تلبث أن تزول ويمحى أثرها ، وذلك في قوله (١) :

فلولا ثلاثٌ هُنَّ من حاجةِ الفتى
وجَدِّك لم أحفلْ متى قامَ عُوَّدى
فمنهنَّ سَبْقي العاذلاتِ بشَرْبةٍ
كُميْتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزْبِدِ
وكرّي إذا نادى المُضافُ مُحنَّبا
كَسِيدِ الغضا ، نبّهتهُ المتورِّدِ
وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ - والدَّجْنُ مُعْجِبٌ -
ببهكنةٍ تحْتَ الطِّرافِ المُعمَّدِ

فهذه هي الأهداف التي يحيا الجاهليون من أجلها ، ويسعون لها ، ولذلك لم يظهر لكلمة الزهد - في العصر الجاهلي - معنى الرغبة عن المتاع والتطلع إلى ما هو أسمى من اللذة ، وبقيت كلمة الزهد في حدود مفهومها اللغوى .

ثانيا : الزهد في القرآن الكريم :

لما بعث الله نبينا محمداً - عليه الصلاة والسلام - بدعوة الإسلام القويمة التي شملت حياة الإنسان الروحية والمادية ، ونقلته من الجهل والضلال إلى الهداية والحق ، ومن الوثنية إلى العبادة والتبتل والتوحيد لله عز وجل - تغيرت نظرة العربي إلى الحياة ، بعد أن استضاء عقله بنور

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ، بشرح الأعلم الشنتمرى ٣٢/٣٣ طبع ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

التعاليم الربانية ، وتطهرت القلوب من رجس الكفر ،وانصرفت عن الاستغراق في الحسيات الفانية ،ونبذت النفوس المؤمنة كل ما ينافي شرع الله ،أو يشغل عن طاعة الخلق وعبادته . وأخذت المبادىء الإسلامية تشيع بين الناس حتى أصبحت أساس وجودهم ومنهاج حياتهم ،وشاعت فيهم روح الجهاد والتضحية في سبيل نشر هذه العقيدة والدفاع عنها ، كما ظهرت فيهم آثار الترفع عن الدنايا ،وعدم التهالك على الملذات الدنيوية ،وعدم الاستغراق في المتع الحسية التي تفنى مع انتهاء وقتها ،وأخذوا في المقابل يتطلعون إلى المجال الأرحب ، والأفق الأوسع ،ألا وهو ما وعد الله به عباده المؤمنين الصابرين من نعيم خالد ومتاع دائم في الحياة الآخرة ...

كل ذلك بهدي الله - سبحانه - الذى أنزله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - في القرآن الكريم.

وإذا تتبعنا لفظة الزهد في القرآن الكريم وجدناها قد وردت مرة واحدة بمعناها اللغوى ،وهو عدم الرغبة في الشىء ،وذلك في قوله تعالى : * ... وكانوا فيه من الزاهدين * (١) . ولكن الدعوة إلى الزهد بمفهومه الإسلامي قد وردت ضمنا في آيات كثيرة في سور شتى من القرآن الكريم ، فقد دعا الله - سبحانه - إلى نبذ التكالب على متع الحياة الدنيا ،والتنافس على زينتها ،والانغماس في الشهوات ،إذ بيّن : " حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ،وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو لعب ،وأن الدار الآخرة لهي الحيوان أى الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال له ولا انقضاء " (٢)، وذلك في قوله تعالى :

---

(١) سورة يوسف ،من الآية : ٢٠.
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير ٣/ ٤٢١.

﴿ وما هذهِ الحَياةُ الدُّنْيا إلا لَهوٌ ولَعِبٌ . وإنَّ الدارَ الآخِرةَ لَهي الحَيَوان لَوْ كانُوا يَعْلَمون ﴾ (١) . كما وصف الله سبحانه سرعة زوال الدنيا وفنائها ، فمثّل لها بالزرع الذى ينضر و يزهر ويثمر ، ثم ينتهي به الحال إلى الاصفرار والحطام والزوال ، فالدنيا ما هي إلا دار لعب و لهو وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد ، ولا دوام إلا للحياة الآخرة ، حيث يلقى الإنسان ربه ، ويحصد نتيجة عمله ، فإما خلود في مغفرة الله ورضوانه ، وإما خلود في العذاب الشديد ، يقول الله سبحانه : ﴿ اعلَموا أنّما الحَياةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينَةٌ وتَفاخُرٌ بينكُمْ وتَكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ كَمثلِ غيثٍ أعْجَبَ الكُفّارَ نباتُه ثُمّ يَهيجُ فتراه مُصفرًّا ثُمَّ يكُون حُطَامًا . وفي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَديدٌ ومغفِرةٌ مِنَ اللّهِ ورضْوانٌ . ومَا الحَياةُ الدُّنْيا إلا مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ (٢) .

و في القرآن الكريم مقارنة بين المتاعين : زهرة الحياة الدنيا الفانية ، والخلود في النعيم المقيم في الآخرة ، يقول سبحانه ﴿ زُيِّنَ للنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَناطِيرِ المُقَنْطَرةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمةِ والأنْعامِ والحَرْثِ ذَلِكَ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا واللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المئابِ . قل أؤُنبئكُم بِخيرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلّذينَ اتّقَوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّاتٌ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ خَالِدينَ فِيهَا وأزْواجٌ مُطَهّرةٌ ورِضْوانٌ مِنَ اللّهِ . واللّهُ بَصيرٌ بالعِبَادِ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية : ٦٤ .
(٢) سورة الحديد ، آية : ٢٠
(٣) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

فالله - سبحانه وتعالى - يذكر مظاهر زهرة الحياة الدنيا الفانية ، وهي : النساء ، البنين ، الأموال ، الخيل ، الأنعام من إبل وبقر وغنم ، والأرض المتخذة للزراعة ، ثم يصف هذا المتاع بأنه متاع قليل مصيره إلى الزوال والفناء ، ومن ثم يذكر ما هو أفضل منه وأبقى ، ألا وهو جنات النعيم التي يتخرق بين جوانبها أنهار الأشربة المختلفة (١) .

فهذه الآيات التي تتحدث عن هوان الدنيا وزوالها ، وتصف زخرفها باللهو واللعب ومتاع الغرور . والآيات التي تقارن بين المتاعين - الزائل ، والخالد - هذه الآيات تتجه بالفطر السليمة والعقل المستنير إلى اختيار ما هو دائم خالد ، وتدعوا إلى الزهد فيما هو زائل منقرض .

كما أن الله - سبحانه وتعالى - حث رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - على الإعراض عن المعرضين عن الحق والهدى ، المغمورين في لهوهم الدنيوى ، الذين جعلوا الدنيا أكبر همهم وغاية علمهم (٢) ، وذلك في قوله تعالى :
* فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الحَيَاةَ الدُّنْيَا ، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ العِلْمِ .. * (٣) . وفي المقابل أثنى - سبحانه - على الزاهدين في زينة الحياة الدنيا ، ووصفهم بأنهم أهل العلم ، فقال - سبحانه - في

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٣٥١-٣٥٢ .
(٢) انظر المصدر نفسه ٤/ ٢٥٥ .
(٣) سورة النجم الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .

قصة قارون: ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ في زِينَتِهِ قَالَ الذينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ ما أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وقَالَ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحًا ولا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ (١) .

وهذا التفضيل للزاهد في الدنيا وزينتها على غير الزاهد فيها يبين أن من جعل غايته الحياة الدنيا وزخرفها هو الخاسر الذى لا خير فيه . ثم إن الله - سبحانه وتعالى - يحذر من الانغماس في فتنة الحياة الدنيا ، ويبين أنه مجلبة للعاقبة الوخيمة في الآخرة ، فيقول - سبحانه - : ﴿ فأَمَّا مَنْ طَغَى . وآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا . فإِنَّ الجَحِيمَ هي المَأْوَى ﴾ (٢) . كما يُذَكِّر الله تعالى بأن سعي العبد للحصول على نعيم دنيوى فحسب يحرمه ما أعدّه الله للمتقين الصابرين في الآخرة ، فقال - سبحانه - ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ ومَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْهَا ومَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (٣) . وبيّن - سبحانه - عاقبة المغمور في شهواته الساعي على ملذاته الدنيوية ، إذ سيجد التوبيخ والتقريع من الله على ضلاله وغيه وغفلته ، يقول سبحانه وتعالى :
﴿ ويَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُوا على النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ في حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا واسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فاليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة القصص ، الآيتان: ٧٩ ، ٨٠ .
(٢) سورة النازعات ، الآيات : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) سورة الشورى ، آية : ٢٠ .
(٤) سورة الأحقاف ، آية : ٢٠ .

وهكذا كانت هذه الآيات بما فيها من تصغير لشأن الدنيا ومتاعها ، وتعظيم للحياة الآخرة ونعيمها ،وبما فيها من تفضيل لمن صبر واتقى واحتسب المثوبة عند الله ، وإعراض عمن استهوته الدنيا وجرفه تيار اللهو واللعب ،فنسي حساب الله وعذابه - دعوة صريحة من الله - سبحانه - إلى ابتغاء الدرجات العلى في الآخرة ،وعدم التهالك والركون إلى متع الحياة الدنيا وزينتها وجعلها الغاية والهدف من الحياة ،ودعوة إلى ترك التنافس على ما في الدنيا من متاع سيزول حتما ،والتطلع إلى ما عند الله من نعيم مقيم وعد به عباده المؤمنين الصابرين .

وبهذا تكون هذه الآيات - وغيرها كثير - دافعًا قويًا أعطى لكلمة الزهد مفهومًا إسلاميًا جديدًا يثبت أن الزهد إنما نشأ من أصل إسلامي يصور نظرة الإسلام المثالية إلى حقيقة الدنيا .

ثالثا - الزهد في الحديث النبوي الشريف :

إذا تتبعنا لفظة الزهد في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نجدها قد وردت على وجهين : وجه ضُمِّنَتْ فيه المعنى اللغوي البحت ، والآخر جاءت فيه متضمِّنة المفهوم الإسلامي للزهد ،فالوجه الأول كما في قوله - عليه الصلاة والسلام - لرجل من بَلْهُجَيْم طلب منه الوصية : " لا تَسُبَّنَّ أحدًا ولا تَزهَدَنَّ في المَعْرُوفِ ولو أنْ تَلْقى أخاكَ وأنْتَ مُنبسِطٌ إليه وجْهُكَ .." (١) . والمعنى : لا ترغب عن المعروف في أي لون

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٦٤ .

من ألوانه . وفي قوله -صلى الله عليه وسلم- في وصف مآل شهداء أُحُد : " لمَّا أُصيبَ إخوانُكُمْ بأُحُد جعلَ اللهُ أرواحَهمْ في جَوفِ طَيرٍ خُضْر تَرِدُ أنهارَ الجنَّةِ : تأكلُ مِنْ ثِمَارِهَا ، وتأوي إلى قناديلَ مِنْ ذَهبٍ مُعلَّقةٍ في ظِلِّ العَرشِ ، فلمَّا وجَدُوا طِيبَ مأكلِهِمْ ومَشْربِهِم ومَقيلِهِمْ ، قالوا : مَنْ يُبلِّغ إخوانَنا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنَّةِ نُرزَقُ لئلا يَزهَدُوا في الجِهَادِ ولا يَنْكُلوا عِنْدَ الحَرْبِ ؟ ..." (١) والمعنى : حتى لا يرغبوا عن الجهاد والحرب .

أما الوجه الآخر فمنه قوله -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل عن يؤمّروا بعده ، فقال : " إنْ تؤمِّروا أبا بَكْر -رضي الله عنه- تَجِدُوه أميناً زاهِدًا في الدُّنيا رَاغِبًا في الآخِرة ..." (٢) . وفي هذا الحديث نجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- يصور الزهد بمعناه الإسلامي ، وهو: عدم الرغبة في الدنيا ، والتطلع إلى الآخرة . ومنه أيضا قوله -صلى الله عليه وسلم- : " الزَّهَادَةُ في الدُّنيَا لَيسَتْ بِتَحْرِيمِ الحَلَالِ ولا إضَاعَةِ المَالِ . ولكنَّ الزَّهادَةَ في الدُّنيا أن لا تَكُونَ بِمَا في يَدَيْكَ أوْثَقَ مِمَّا في يَدَي اللهِ ، وأنْ تكُونَ في ثَوابِ المُصِيبَةِ إذَا أنْتَ أُصِبْتَ بِهَا أرْغَبُ فيها لو أنَّها أُبْقِيتْ لَكَ " (٣) .

والرسول -صلى الله عليه وسلم- في قوله هذا يوضح المفهوم الإسلامي المقصود من الزهد في الدنيا ، فهو لا يقتصر على الجانب

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الجهاد ٢٥ ، ٣/١٥ .
(٢) مسند أحمد بن حنبل ١/١٠٩ .
(٣) سنن الترمذى ، كتاب الزهد ٢٩ ، ٤/٥٧١ .

المادى ، بحيث يحرم المسلم نفسه حلالًا أباحه له الله ،بل يرتفع ليشمل الجانب الاعتقادى ،بحيث يجعل المسلم ثقته بالله ويقينه فيما عنده ، و يرضى بالمصيبة محتسبًا أجرها عند الله . وبهذا يشرع الرسول -صلى الله عليه وسلم- للمسلمين منهجًا سليمًا لتستقيم به حياتهم ويقوى إيمانهم بالله عزوجل . ولترغيب المسلمين في الزهد ،وحضهم على الترفع عن المتاع الدنيوى الزائل ، والتطلع إلى الدرجات العلى التي أعدّها الله للصابرين الزاهدين ،فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد فضل الزهاد على غيرهم ،إذ وصفهم بالحكمة ،مما يجعلهم أهلًا للنصح والإرشاد ،يقول صلى الله عليه وسلم : " إذَا رأيْتمْ الرجلَ قد أُعطِيَ زهدًا في الدُّنْيا ،وقِلَّةَ مَنْطِقٍ فاقْتَرِبُوا مِنْه ،فإنَّهُ يُلَقِّي الحِكْمَةَ "(١)

كما أنه يجعل الزهد طريقًا إلى محبة الله و محبة الناس ،فيقول لرجل سأله عن عمل يكسب به حُبَّ الله والناس : " ازْهَدْ في الدُّنْيا يُحِبَّكَ الله . وازْهَدْ فيما في أيْدى النَّاسِ يُحِبُّوكَ "(٢) . ولما في الزهد من فضائل فان النبي الكريم -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- لم يكتف بالإرشاد اللفظي لهم بل إنه وضّح لهم الطريق العملي الذى يوصلهم إلى الزهد في الدنيا ، إذ قال عليه السلام : " كُنْتُ نَهَيْتُكمْ عَنْ زِيَارةِ القُبُورِ ،فزورُوهَا . فإنَّها تُزَهِّدُ في الدُّنْيا وتُذَكِّر بالآخِـرَةِ "(٣) . و هذا

---

(١) سنن ابن ماجة ،كتاب الزهد ١ ، ٢/ ١٣٧٣ .
(٢) المصدر نفسه ،كتاب الزهد١ ، ٢/ ١٣٧٤ .
(٣) سنن ابن ماجة كتاب الجنائز ٤٧ ، ١/ ٥٠١ .

طريق عطي إذا انتهجه الإنسان مال الى الزهد وصار له مسلكا في حياته ، إذ أن روءية المقابر تذكّر المرء بأن الفناء محتوم على الأحياء ،وأن الدنيا لا دوام لها ،وأن الإنسان لا بد واقف بين يدى الله ليلقى حسابه ،فينبغي له أن يعمل حساباً لما بعد الموت ، ويُعِدّ العُدَّة لدار الخلود . وهذا لا يكون إلا بالترفع عن الدنايا والانصياع والتسليم لأمر الله ورسوله .

كما أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكتف بالترغيب والإرشاد بل حذّر من الحرص على زينة الحياة الدنيا ، وبيَّن أن جمع المال مناف للزهادة ، وبشّر الزاهد بالفلاح ،فقال - عليه الصلاة والسلام : " ... ويلٌ لأصْحَابِ المئينَ من الإبلِ ثلاثاً ، قالوا : إلاّ مَنْ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : إلاّ مَنْ قال بالمَالِ هكذا وهكذا ، وجمع بين كفّيه عن يمينه وعن شِمَاله . ثم قال : قد أفْلحَ المزْهِدُ المُجْهِدُ ثلاثاً ،المُزْهِدُ في العَيشِ ، المُجْهِدُ في العِبَادَةِ "(١) .

وهكذا أعطى الرسول - صلى الله عليه وسلم - باستعماله للفظة الزهد في هذه الأحاديث - مفهومًا إسلاميًا ،أضاف به إلى اللغة استعمالاً جديدًا لهذه الكلمة . وهذا ليس بعجيب منه ،ولا غريب عليه ، فهو الفصيح الذى امتازه الله - سبحانه - به ، فوهب له القدرة على الوضع والتشقيق من الألفاظ ،حتى أثرى اللغة العربية بالكثير من الألفاظ ، والمصطلحات الشرعية التي لم ترد في القرآن الكريم ،أو في كلام العرب(٢) .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٣٤ .
(٢) انظر تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي ٢/ ٣١٥-٣١٦ .

فلفظة الزهد لم ترد في القرآن الكريم إلا باستعمالها اللغوى ،وكذلك الحال معها في الشعر الجاهلي ، على النحو الذى بيّناه قبلُ .

ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - استعمل لفظة الزهد في أحاديثه استعمالًا خاصًا ،فبثّ فيها المفهوم الإسلامي الذى تضمنته الآيات القرآنية الداعية إلى الترفع عن متع الحياة ،والمرغّبة في التطلع إلى ما عند الله من خير ونعيم دائم. ومن هنا كان استعمال الرسول -صلى الله عليه وسلم -لهذه اللفظة بهذا المفهوم الجديد إضافة جديدة من إضافاته الكثيرة الى اكتسبتها لغة العرب من بيانه المشرق .

رابعا - مفهوم الزهد في الإسلام::

مما سبق من الآيات الكريمة المتضمنة الدعوة إلى نبذ التكالب على الدنيا ، والتنافس على زخرفها ، ووصفها بأنها لعب ولهو ،وأنها متاع الغرور . ومن أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - التي أوضحت ما يقصد بالزهد في الإسلام ،بأنه ترفع عن زينة الحياة الدنيا ، وتطلع إلى ما عند الله من أجر ومثوبة أعدّها الله لمن صبر ونأى عن المتاع الحسي الدنيوى - نستطيع أن نستنبط مفهومًا إسلاميًا للزهد أو معنىً اصطلاحيًا له ،فنقول : إن الزهد هو الترفع اختيارًا عن ملذّات الحياة الدنيا ، وعدم الانغماس في شهوات النفس ،أو جعل اللذة الحسية هي المطلب والغاية التي يسعى الإنسان إليها . وذلك طلبًا لما عند الله من الخير الدائم ،والنعيم الخالد في الحياة الاخرة . فيكون الزهد بهذا المفهوم هو : التعلق بحب الآخرة ،والتنزه عن حب الدنيا والسعي وراء زخرفها .

ولكن هذا لا يعني أن المسلم الزاهد قد حُرِّم عليه الكسب الحلال ، أو التمتع بالمباح من الشهوات ، فالإسلام دين التوازن بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، فهو : " لا يأمر المسلم أن يحرم نفسه من متعة مادية ، ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها من طريقها المشروع و في حدها المعتدل ، حتى أننا نلاحظ أن أكثر الآيات القرآنية تحض على طلب المنزلتين : الروحية ، والمادية معًا ، يقول سبحانه : * وابْتَغِ فِيمَا آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ من الدُّنْيا . وأحْسِنْ كَما أحْسَنَ اللهُ إليكَ * (١) "(٢) . كما أن المسلم مدعو إلى السعي في الأرض وإحراز خيراتها بعمارتها واستخراج كنوزها ، وتحسين أسباب القوة المادية للفرد والمجتمع ، ولكن بشرط التعالي والسمو عن أن تكون الحياة الدنيا وزينتها غايته ، بحيث لا تذهله مطالب الحياة عن واهب الحياة ، ولا تشغله رغائب الحياة العاجلة عن حقائق الآخرة الباقية . ويكفينا في هذا أن نقرأ الآيتين التاليتين من سورة الجمعة ، لنعرف منهما كيف جمع الدين الإسلامي بين الدين والدنيا ، يقول سبحانه : * ياأيُّها الذينَ آمنُوا إذَا نُودِيَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون . فإذَا قُضِيَتْ الصَّلاَةُ فانْتَشِرُوا في الأرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ واذْكُروا اللهَ كثيرًا لعلّكُمْ تُفْلِحُون * (٣)

يقول ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين : لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار

---

(١) سورة القصص ، من الآية : ٧٧ .
(٢) انظر روح الدين الإسلامي ، لعفيف عبد الفتاح طبّارة ١٦٣ .
(٣) سورة الجمعة ، الآيتان ٩ ، ١٠ .

في الأرض والابتغاء من فضل الله ... وقوله تعالى ﴿ واذْكُروا الله كثيرًا لعلّكُمْ تُفلِحُون ﴾: أى حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم ،أذكروا الله ذكرًا كثيرًا ولا تشغلكم الدنيا عن الذى ينفعكم في الدار الآخرة "(١) .

ثم إن الإنسان منهي عن تحريم التمتع بما أباحه له الشارع الكريم من الملذّات الحسية والمعنوية ،من زواج ،وطعام ،وشراب ،و زينة ، ولكن بشرط عدم الإسراف ،يقول الله سبحانه و تعالى : ﴿ يا بَني آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولَا تُسْرِفُوا إنّه لا يُحِبُّ المُسْرِفينَ . قُلْ مَنْ حَرّمَ زِينَةَ اللهِ التي أخْرَجَ لِعبَادِه والطَّيِّبَاتِ من الرِّزْقِ قُلْ هِيَ للّذينَ آمنُوا في الحَيَاةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يَوْمَ القِيامَةِ كَذلِكَ نُفصِّل الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ ياأيُّها الذينَ آمنُوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أحلّ اللهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ ﴾ (٣) + يقول الأستاذ عفيف طبّارة تعليقًا على هذه الآية: " مما يلفت النظر في هذا النص القرآني أن الله سمّى حرمان النفس مما أحله الله اعتداء ، أى خروجًا عن طريق العدل بين الطبيعتين الروحية والمادية "(٤) .

من هذا المنطلق لم يقبل الرسول - عليه الصلاة والسلام - فكرة

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ٣٦٧/٤ .

(٢) سورة الأعراف ،الآيتان : ٣١ ، ٣٢ .

(٣) سورة المائدة آية : ٨٧ .

(٤) انظر روح الدين الاسلامي ١٦٣ .

الانقطاع المطلق عن الدنيا رغبة في الآخرة ، ورفض من صحابته كل سلوك أو نزعة توحي بالرهبانية ، ليعلموا أن دينهم ليس دين اعتكاف وعزلة ، وإنما دين حياة وتقدم وعمران . روى الامام أحمد قال : " دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - المسجد ، وأبو إسرائيل يُصلّي ، فقيل للنبي - صلى الله عليه وسلم - : هو ذا يا رسولَ اللهِ لا يقْعُدْ ، ولا يُكلّم النّاسَ ولا يستظِل ، وهو يُريدُ الصّيامَ فقالَ النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - ليقعُد ، وليُكلّم النّاسَ ، وليستظِلّ ، وليصُم " (١) . وقصة سلمان وأبي الدّرْدَاء تؤكد هذا الاتجاه الذى كان عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

رُوِيَ أن سلمان زار أبا الدّرْدَاء ، فرأى أُمَّ الدّرْدَاءِ مُتبذِّلةً ، فقالَ : ما شأنُكِ مُتبذِّلةً ، قالتْ : إن أخاكَ أبَا الدّرْدَاءِ ليس له حاجةٌ في الدُّنيا . قال : فلمّا جاء أبو الدّرْدَاء قرّبَ إليه طعامًا ، فقال : كُلْ فإنّي صائمٌ ، قال - أى سلمان - : ما أنا بآكلَ حتى تأكلَ . فأكلَ ، فلمّا كان الليلُ ذهبَ أبو الدّرْدَاء ليقومَ ، فقال له سلمانُ : نَمْ ، فنامَ . ثم ذهبَ يقومُ ، فقالَ له : نَمْ ، فنامَ ، فلمّا كانَ عند الصُّبح . قال له سلمانُ : قُم الآنَ ، فقاما فصلّيَا ، فقالَ : إنّ لِنفسِكَ عليكَ حقًّا ، ولِربِّكَ عليكَ حقًّا ، ولِضَيْفِكَ عليكَ حقًّا ، وإنّ لأهْلِكَ عليكَ حقًّا . فأعطِ كلَّ ذى حَقٍّ حقّهُ . فأتيا النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - فذكرا ذلكَ ، فقالَ له : صَدَقَ سلمان " (٢) .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٤/١٦٨ .
(٢) سنن الترمذى ، كتاب الزهد ٤/٦٠٨ .

ففي تصديق النبي -عليه السلام- لموقف سلمان وقوله ، توجيه وإرشاد من النبي الكريم لصحابته -رضي الله عنهم- وتوضيح لمنهج الإسلام القويم الذى يدعو إلى مسايرة الفطرة البشرية ،وإشباع حاجات النفس باعتدال .

ولكن مع هذه الموازنة بين الدين والدنيا ،أى بين مطالب الروح ومطالب الجسد . نجد أن كفّة الحض على التقلل من زينة الحياة الدنيا أرجح في الآيات القرآنية . يقول الله -سبحانه وتعالى- متوجهاً بالخطاب إلى الرسول الأمين -صلى الله عليه وسلم-: (ولاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أزْواجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فيهِ ورِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبْقَى) (١)
فالله تبارك وتعالى يأمره بألا ينظر إلى ما فيه هؤلاء المترفون وأشباههم من النعيم ،فإنما هو زهرة زائلة ،ونعمة حائلة يختبرهم الله بها . وما آتاه خير وأبقى (٢) .

وهذا هو مسلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعطي النفس حاجاتها ،مع الميل إلى التقلل والتقشف ،وهو المنهج الذى سار عليه السلف الصالح من بعده ،محتذين حذوه ،وسائرين على نهجه . يقول أبو الفرج بن الجوزى متوجهاً بالخطاب إلى نفسه : " اعلم أن البدن مطية ، والمطية إذا لم يُرْفَقْ بها لم تصل براكبها إلى المنزل . وليس مرادى بالرفق الإكثار من الشهوات ،وإنما أعني أخذ البُلْغَةِ الصالحة للبدن ،

---

(١) سورة طه ،آية : ١٣١ .
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ،لابن كثير ٣/ ١٧٠ .

فحينئذ يصفو الفكر ،ويصح العقل ،ويقوى الذهن ... وفي الجملة يتهيأ لك ملازمة تقوى الله -عز وجل - في المنطق والنظر ،و جميع الجوارح ، وتحقق الحلال في المطعم ،وإيداع كل لحظة ما يصلح لها من الخير ، ومناهبة الزمان في الأفضل ،ومجانبة ما يؤذي من نقص ربح أو وقوع خسران ، وتأهبي لمزعج الموت فكأن قد ،وما عدك من مجيئه في أي وقت يكون . ولا تتعرضي لمصالح البدن ، بل وفّر بها عليه ،وناوليه إياها على قانون الصواب ،لا على مقتضى الهوى ،فإن إصلاح البدن سبب لإصلاح الدين ....".(١) ويقول ابن قيّم الجوزية في درجات الزهد : "وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام بالحذر من المَعْتَبة ،والأنفة من المَنْقَصة ،وكراهة مشاركة الفساق ... الدرجة الثانية: الزهد في الفضول . وهو ما زاد على المُسْكَة والبلاغ من القوت ، باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت. وحسم الجأش ،والتحلي بحلية الأنبياء والصديقين ... ولما كان الزهد لأهل الدرجة الأولى : خوفاً من المَعْتَبة، وحذرًا من المَنْقَصة ; كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع . وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله . لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا ،فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت . فالوقت سيف إن لم تقطعه وإلا قطعك . وعمارة الوقت ; الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله ،أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب ،أو منكح ،أو منام ،أو راحة ،فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله ،وتجنب ما يسخطه . كانت من عمارة الوقت ،وإن كان له فيها أتم لذة . فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات ..(٢)

---

(١) انظر صيد الخاطر ،لأبي الفرج بن الجوزي ٨٢-٨٣ .

(٢) انظر مدارج السالكين ،لابن القيم الجوزية ٢/ ١٦-١٨ .

فهذا هو مفهوم الزهد في الإسلام تترجمه أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأسلوب حياته، وتوضحه أقوال السلف الصالح من أهل السنة والجماعة .. مما يؤكد أن الزهد إسلامي الأصل والمنهج والنشأة، أما ما دخله بعد ذلك من رهبانية المسيحية، التي جرها المتطرفون من المتصوفة على الأمة الإسلامية، إذ زعموا أن الزهد : هو الحرمان التام للنفس من حاجاتها، والانقطاع الكامل للعبادة بالصلاة والصيام، ولزوم المساجد، فإنه دخيل على الإسلام وليس منه في شيء.

خامسا - زهد النبي صلى الله عليه وسلم :

كانت الآيات القرآنية دعوة صادقة للنبي صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين للتقلل من زينة الحياة الدنيا، والتطلع إلى ما أعدّه الله لمن صبر واتقى، واحتسب الأجر والثواب في الآخرة، فالله - سبحانه وتعالى - يتوجه بالأمر إلى النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - في قوله : * وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * (١) . فيذكّره بالخير الذى أنعم عليه به - وهو القرآن - ويأمره ألا ينظر إلى الدنيا وزينتها، وما متّع به أهلها من الزهرة الفانية، فقد خلقها لفتنتهم (٢) . كما يتوجه - سبحانه - إلى النبي في قوله : * وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * (٣) . فيأمره - سبحانه - أن يجلس مع الذين يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ... سواء كانوا أغنياء أو فقراء ولا يجاوزهم إلى غيرهم من أصحاب الشرف والثروة، وممن شُغِلَ عن الدين وعبادة ربه بالدنيا (٤) .

---

(١) سورة الحجر، الآيتان ٨٧، ٨٨ .
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٢/٥٥٧ .
(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .
(٤) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٨٠-٨١ .

ففي هاتين الآيتين - وفي غيرهما - توجيه من الله - عز وجل - لنبيه الكريم بالإعراض عن مفاتن الدنيا ولهوها ، وعمن يجر إلى زينتها . وقد تمثل النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - هذه التوجيهات الربانية ، وتمسّك بها في أقواله وأفعاله ، فكان قدوة سار المؤمنون على نهجه ، وسلكوا سبيله ، ولذلك فإن التشرف بالاطلاع على سيرته الطاهرة يكشف كيف كانت حياته - عليه السلام - قائمة على التقشف سواء في طعامه ، أو لباسه ، أو كل ما يتصل بضرورات الحياة، ولكن ذلك لم يكن بحرمان النفس من احتياجاتها ، ولا بتحريم ما أحله الله ، وإنما كان - صلى الله عليه وسلم - أبعد الناس عن التكلف والمغالاة في الزهد ، بحيث كانت سيرته النموذج المحتذى الذى يمثل المفهوم الإسلامي الصحيح للزهد . روى البخارى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مَشْرُبَةٍ له - وقد اعتزل نساءه - فوجده على حصير ما بينه وبينه شيء ، وتحت رأسه وسادة من آدمٍ حشوها ليف . . فرأى عمر رضي الله عنه أثر الحصير في جنبه فهملت عيناه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ما يُبْكِيكَ ؟ " فقال عمر : يا رسول الله ، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة"(١) . وكان مبدوءه - صلى الله عليه وسلم - هو قوله : " اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخِرة"(٢) ، ولذلك قال لمن عرض عليه أن يوطىء فراشه : " مَا لي وَمَا لِلدُّنْيَا ، ما أَنَا في الدُّنْيَا إلاّ كَراكِبٍ ، اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا "(٣) .

---

(١) صحيح البخارى ، تفسير سورة التحريم ٦/ ١٩٦ .
(٢) المصدر نفسه ، كتاب الرقاق ٨/١٠٩ .
(٣) صحيح الترمذى ، كتاب الزهد ٤٤ ، ٤/ ٥٨٨ - ٥٨٩ .

ولهذا لم ينظر - عليه الصلاة والسلام - إلى شيء من متاع الحياة الدنيا، وإنما كان عيشه وأهله الكفاف وأقل من الكفاف، فطعامه طعام أقل الناس غنىً، أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنه أنها قالت: "ماشَبِعَ آلُ مُحمّدٍ - صلى الله عليه وسلم - مُنْذُ قَدِمَ المَدينةَ من طَعامِ بُرٍّ ثلاثَ ليالٍ تباعًا حتى قُبِضَ"(١).

وما كان هذا من قلّة، فقد سيقت إليه الدنيا بحذافيرها فاختار الآخرة وسعى لها سعيها، وكان - عليه السلام - ينفق كل ما يملك، ولا يترك رزقًا أملًا في غد، بل كان يخشى أن يلقى الله وعنده شيء من فتنة، رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: " لو رأيْتُما نبيَّ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - ذاتَ يَوْم في مَرَضٍ مَرِضَهُ، قالتْ: وكانَ لَهُ عِنْدى سِتّةُ دَنانير - قال موسى أو سَبْعةٌ - قالتْ: فأمرني رسولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - أنْ أُفرّقَها، قالتْ فشَغَلني وَجعُ نبيِّ اللّهِ - صلى الله عليه وسلم - حتى عافاهُ اللّهُ - عز وجل - قالتْ: ثُمَّ سألني عنها، فقال: ما فَعلتِ الستةُ؟ قالَ: أو السَّبْعةُ، قلتُ: لا واللهِ لقد شغَلني عَنْها وجَعُكَ. قالتْ: فَدَعا بِهَا ثم صَفّها في كفّهِ، فقالَ: ما ظَنُّ نبيِّ اللهِ لَوْلَقِيَ اللهَ وهذِهِ عِنْدَهُ"(٢).

فهذه شواهد تدل على تقلله وإعراضه عن زهرة الحياة الدنيا، ولهذا كان - صلى الله عليه وسلم - يعظ أصحابه، ويحضهم على الترفع عن فتنة العاجلة، فكثرت الأحاديث التي تذم الدنيا، وتصغّر من شأنها،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق ٨/١٢١.

(٢) شمائل الرسول، لابن كثير ٩٨ تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد.

روى مسلم عن جابر بن عبدالله : " أنّ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم - مرّ بالسّوقِ داخِلًا من بعضِ العَالِيةِ ، والنّاسُ كَنَفَتَيْهِ فمرّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيّتٍ فتَنَاوَلهُ فأخذَ بأُذُنِه ثم قالَ : " أيُّكُمْ يُحِبُّ أنّ هذا لهُ بِدرْهمٍ ؟ " فقالوا : ما نُحِبُّ أنّهُ لنَا بشيءٍ ، وما نَصْنعُ بهِ ؟ قالَ : " أتُحِبّونَ أنّه لكُمْ ؟ " قالُوا : واللهِ لو كَانَ حيًّا كانَ عيبًا فيهِ لأنّه أسَكُّ ، فكيفَ وهو ميّتٌ ، فقالَ : " فَواللهِ للدُّنْيا أهْوَنُ على اللهِ من هَذا عَليكُمْ " (١) . ومن مواعظه - صلى الله عليه وسلم - في التزهيد في الدنيا وزينتها قوله لعبدالله بن عمر : " كُنْ في الدُّنْيا كأنّكَ غريبٌ أوْ عَابِرُ سَبيلٍ " (٢) ، بل إنه - صلى الله عليه وسلم - كان يحذّر أصحابه من الإغراق في طلب الدنيا . روى ابن ماجه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " مَنْ كَانتِ الدُّنْيا هَمّهُ فرّقَ اللهُ عليهِ أمْرَهُ ، وجَعلَ فَقْرَهُ بينَ عَيْنَيهِ ، ولَمْ يأْتِهِ من الدُّنْيا إلا ما كُتِبَ لهُ . ومَنْ كانتِ الآخِرةُ نيّتَهُ جمعَ اللهُ لهُ أمْرَهُ ، وجَعلَ غِنَاهُ في قَلْبِه ، وأَتَتْهُ الدُّنْيا وهي رَاغِمَةٌ " (٣) . وليستبين الصحابة - رضي الله عنهم - السبب في تنفيره - صلى الله عليه وسلم - لهم من حُبّ الدنيا ومفاتنها ، قال - صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بآخِرَتهِ ، ومن أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بدُنْياه ، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى " (٤) . ولأنّ الغنى والجاه والشرف سبب من أسباب حُبّ الدنيا والركون إليها ، بيّن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه أن منزلة الفقراء عند الله عظيمة . روى البخاري عن سَهْل بن سَعْد السّاعدي أنه قال : " مرّ رجلٌ على رَسُولِ اللّهِ - صلى الله عليه وسلم - فقالَ لِرَجُلٍ عنده جالسٌ : " ما رَأْيكَ في هذا ؟ " فقال : رَجُلٌ مِنْ أشرافِ النّاسِ ، هذا

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزهد ١٨/٩٣ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ٢ ، ٨/١١٠ .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ٢ ، ٢/١٣٧٥ .

(٤) مسند أحمد بن حنبل ٤/٤١٢ .

والله حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ،وإنْ شَفَعَ أنْ يُشَفَّعَ ،قالَ : فَسَكَتَ رسول اللهِ -صلى الله عليه وسلم -ثم مَرَّ رَجُلٌ فقالَ له رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- : " ما رَأْيكَ في هذا ؟ " فقالَ : يا رسولَ اللهِ ، هذا رَجُلٌ مِنْ فُقَراءِ المُسْلِمينَ ،هذا حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أنْ لا يُنْكَحَ ،وإنْ شَفَعَ أنْ لا يُشَفَّعَ وإنْ قالَ أنْ لا يُسْمَعُ لِقَوْلِهِ ،فقالَ رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم : " هذا خيرٌ من مِلْءِ الأرضِ مِثْلَ هذا " (١) . وقال لصحابته ،وقد طلبوا منه مالاً جاء به أبو عبيدة من البحرين : " فأَبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ فَواللهِ ما الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ،ولكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُم أَنْ تُبْسطَ الدُّنْيا عَلَيْكُم كَما بُسِطَتْ عَلى مَنْ كانَ قَبْلَكُم فَتَنافَسُوها كما تَنافَسُوها وتُهْلِكُكُم كما أَهْلَكَتْهُم " (٢) .

وهكذا كانت سيرته عليه السلام - أقوالاً وأفعالاً - النموذج الحي ، والمنبع الثر ،لا حكام الشريعة الإسلامية ،ومفهوم الزهد في الإسلام . وما على المسلمين إلا أن يطبقوا تعاليمه ،ويسيروا في خطاه ،لينالوا خير الدنيا والآخرة .

سادساً - زهد الخلفاء الراشدين :

كانت حياة النبي -عليه الصلاة والسلام -كما مثلتها أخباره النموذج الحي لمبادئ الإسلام في الترفع عن الدنيا ،والاكتفاء بما يقوم بحاجات النفس من الضرورات ،ولهذا قامت حياة الصحابة الذين تربوا في هذه المدرسة الإيمانية على الزهد في الدنيا ،والاستهانة بزخرفها ،فنظروا إلى زينتها نظرة تعالٍ ،وأغرموا بالترفع عن ملذات الحياة ،وآثروا غيرهم بأموالهم ،

---

(١) صحيح البخاري ،كتاب الرقاق ٨/١١٨-١١٩ .

(٢) صحيح مسلم ،كتاب الزهد ١٨/ ٩٥ .

حتى صارت سيرتهم - رضي الله عنهم - أفضل دليل على نجاح المبادئ الإسلامية التي غرسها فيهم عليه الصلاة والسلام. وأخبار الخلفاء الراشدين منهم تنطق بذلك.

فهذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أتته الدنيا راغمة فأعرض عنها، واستدبرها، ولم يرفع بها رأساً، وكان عليه كساء يخلله - أي يخيط ما به من خلل وشق - وكان يُدْعى ذا الخلالين (١). وتوفى رضى الله عنه - وهو خليفة المسلمين - ولم يترك ديناراً ولا درهماً، وكان قد أخذ ماله فألقاه في بيت المال (٢).

ولهذا كان - رضي الله عنه - ناصحاً للمسلمين واعظاً لهم، لا يترك مناسبة إلا ويذكّرهم فيها بأمر الله فيهم، وما هو مطلوب منهم من تواضع وتنزّه عن مفاتن الدنيا. " عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال: دخلت على أبي بكر - رضي الله عنه - في مرضه الذى توفى فيه، فسلمت عليه، فقال: رأيت الدنيا قد أقبلت ولمّا تقبل، وهي جائية، وستتخذون ستور الحرير، ونضائد الديباج، وتألمون ضجائع الصوف الأذرى كأن أحدكم على حسك السعدان، ووالله لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه - في غير حد - خير له من أن يسبح في غمرة الدنيا" (٣). فكان رضي الله عنه يحذّرهم

---

(١) انظر المنقذ من الضلال، للغزالي ٢١٣.
(٢) انظر الزهد، لأحمد بن حنبل ١١١.
(٣) انظر حلية الأولياء، لأبي نعيم ١/٣٤.

ويخوفهم مما سيقبل عليهم من الدنيا ،حتى لا تأخذهم في لجتها ، ولا تغرّهم بزينتها ،فيخسروا ما عند الله مما أعدّه لمن صبر واتقى . وهذا هو حاله مع أهل بيته . روى أبو نعيم عن عائشة رضي الله عنه أنها قالت : " لبستُ مرّة درعاً لي جديداً ، فجعلت أنظر إليه ،وأعجبت به ، فقال أبو بكر : ما تنظرين ؟ . إن الله ليس بناظر إليك !! قلت : وممّ ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه -عز وجل- حتى يفارق تلك الزينة ؟ قالت : فنزعته فتصدقت به ، فقال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفّر عنك " (١) .

وهذا هو عمر بن الخطاب -رضي الله عنه -سيقت إليه الدنيا بما فيها ، فأعرض عنها ،وفُتِحَتْ عليه الفتوحات العظيمة ، فسخّر غنائمها في تحسين حال المسلمين ،وأصرّ على أن يكون وأهله في آخر قوائم المسلمين . أخذ نفسه وأهله بالتقشف ،فكان يخطب الناس- وهو خليفة -وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة (٢) . عاش على الكفاف حتى كانت حياة أقل واحد من المسلمين أفضل من عيشه وهو خليفة ،ومع ذلك كان يرى أنه أحسن حالاً ممن سبقه من زملائه ،وأن عليه أن يجتهد ليعيش حياتهم. روى أبو نعيم عن حفصة رضي الله عنها أنها قالت: " ياأمير المؤمنين لو لبست ثوباً هوألين ،من ثوبك ، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك ، فقد وسّع الله -عز وجل -من الرزق ، وأكثر من الخير ؟ ! فقال : إني سأُخْصِمُكِ إلى نفسك ،أما تذكرين ما كان يلقى رسول الله -صلى الله عليه وسلم -من شدة العيش ؟ فما زال يُذكِّرها حتى أبكاها ، فقال لها : والله إن قلت

---

(١) انظر حلية الأولياء ،لأبي نعيم ١/٣٧ .
(٢) انظر الزهد ،لأحمد بن حنبل ١٢٤ .

ذلك ، أما والله لئن استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد ،لعلّي أدرك عيشهما الرخي "(١) . وكان رضي الله عنه مترفعًا عن ملذات الحياة مع إقبالها عليه وتيسّرها له ،لأنه يخشى أن يكون ممن نال نصيبه في الدنيا ،وما له في الآخرة من خلاق ، لذلك كان يعظ أصحابه من الصحابة - رضي الله عنهم - بالتغافل عن شهوات النفس ، وعدم اللهثة وراء تحقيق الرغبات . روى ابن حنبل أن جابر بن عبدالله مرّ على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - معلّقًا لحمًا ،فقال عمر : " ما هذا ؟ قال : هذا لحمٌ اشتريته اشتهيته ،قال: أوَكلّما اشتهيت شيئًا اشتريته ؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ؟ : * أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ في حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا *(٢)"(٣) ولهذا كان رضي الله عنه ينفرهم من الدنيا ، ويمثلها لهم في أردأ صورة . روى أبو نعيم أن عمر - رضي الله عنه - "مرّ على مزبلة ،فاحتبس عندها ، فكأن أصحابه تأذوا بها ، فقال : هذه دنياكم التي تحرصون عليها أو تتكلون عليها "(٤) .

وهذا عثمان بن عفان - رضي الله عنه - رؤي نائمًا في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد ، وهو أمير المؤمنين . وكان يطعم الناس طعام الإمارة ،ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت (٥) . وكان رضي الله عنه كثير الوعظ لأصحابه بترك مفاتن الدنيا ،وعدم الاغترار بزخرفها .

---

(١) انظر حلية الأولياء ١/٤٨ .
(٢) سورة الأحقاف ،من الآية : ٢٠ .
(٣) انظر الزهد ،لأحمد بن حنبل ١٢٤ .
(٤) انظر حلية الأولياء ١/٤٨ .
(٥) انظر الزهد ،لأحمد بن حنبل ١٢٧، ١٢٩ .

عن يزيد بن عثمان أن عثمان قال في آخر خطبة خطبها : "أيها الناس ، إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، فلم يعطكموها لتركنوا إليها ،إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى ،لا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنّكم عن الباقية ،آثروا ما يبقى على ما يفنى ،فان الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله (١) ..." .

وهذا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخليفة المسلمين ،يعيش حياته زاهدًا متقشفًا ، يحكم على نفسه أن تعيش على الكفاف ، حتى يخضع قلبه على الطاعة ، ويقتدى به المؤمنون . روى ابن حنبل عن أبي داود أن عليًا - رضي الله عنه - أُتِيَ بالفالوذج فُوضِعَ قُدّامه ، فقال : إنك لطيّب الريح حسن الطعم ،ولكن أكره أن أعوّد نفسي ما لم تعتده ،ورؤى يرفع قميصه ،فسئل : لِمَ ترفع قميصك ؟ فقال يخشع القلب ،ويقتدى به المؤمن (٢) . وكان أكثر حديثه وعظًا لأصحابه بعدم التفاني في ملذّات الحياة ، وبالترفع عن صغار الشهوات ،وبترك الدنيا ،والتطلع إلى الآخرة . جاء في صحيح البخارى : " وقال علي : ارْتَحَلَتْ الدُّنْيا مُدْبِرَةً ، وارْتَحَلَتْ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً ،ولِكُلّ واحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ ،فكُونُوا من أبناءِ الآخِرَة ، ولا تكُونُوا من أبْناءِ الدُّنْيا ،فإنَّ اليومَ عَملٌ ولا حِسابٌ ،وغدًا حسابٌ ولا عَملٌ" (٣) . وكان يحببهم في الزهد ،ويصف لهم حالة الزاهد

---

(١) انظر محاضرة الأبرار ،لمحيي الدين بن عربي ١/ ١٣٩ .
(٢) انظر الزهد ١٣١ ، ١٣٢ .
(٣) صحيح البخارى ،كتاب الرقاق ٨/ ١١٠ .

وما ينبغي له ،عن نوف البكالي قال : " رأيت علي بن أبي طالب خرج ،فنظر إلى النجوم ، فقال : يا نوف ،أراقد أنت أم رامق ؟ قلت : بل رامق ، يا أمير المؤمنين ، فقال : يا نوف ،طوبى للزاهدين في الدنيا ،الراغبين في الآخرة ،أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطًا ، وترابها فراشًا ،وماءها طيبًا ،والقرآن والدعاء دثارًا وشعارًا (١) ... "

فهؤلاء أئمة الهدى ،وخلفاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بعده ،نطقت أخبارهم ،وتحدثت سيرتهم بما كانوا عليه من تقشف وفقر ،مع إقبال الدنيا عليهم ،وانفتاحها لهم ،إلا أنهم رغبوا عنها ، وفضلوا ما يبقى على ما يفنى ،ولم يلتفتوا إلى ما تغرهم به الدنيا من زينة ، أملًا فيما عند الله واحتسابًا للأجر والمثوبة . فامتاز سلوكهم بالزهد ، وتميزوا بالتقوى ،ومالوا إلى التأمل والاعتبار ،وأصبحوا وعاظًا وهداةً لمن بعدهم ، فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ،يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ،واستحقوا عن جدارة أن يكونوا خير تلاميذ لمعلم البشرية - صلى الله عليه وسلم - إذ أنهم أقبلت عليهم الدنيا فاستدبروها ،واعترضتهم مفاتنها فتحاشوها ، وظنوا أنهم إن لم يعيشوا الحياة التي عاشها إمامهم ونبيهم ظلموا أنفسهم ،وخالفوا تعاليم نبيهم ، فهذا سلمان لما احتضر بكى " وقال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عهد إلينا عهدًا ، فتركنا ما عهد إلينا ،أن يكون بُلْغَةُ أحدنا من الدنيا كزاد الراكب . فإذا نظرنا فيما ترك فإذا قيمة ما ترك بضعة وعشرون درهمًا أو بضعة وثلاثون درهمًا "(٢) . ألا يستحق هؤلاء أن يكونوا خير مقتدين لأفضل قدوة ،وأن يكونوا أساتذة وهداة لمن تبعهم ؟ بلا .

---

(١) انظر حلية الأولياء ،لأبي نعيم ١ / ٧٦ .
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٤٣٨ .

سابعا - الزهد في الشام :

انتقل إلى الشام عدد كبير من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، ذكر منهم صاحب معرفة علوم الحديث أربعا وثلاثين صحابيا [١] ، في حين أن الوليد بن مسلم قرّب عددهم فقال : " دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم " [٢] . وقد أثّر هذا العدد الكبير من صحابة الرسول عليه السلام في الحياة العامة لأهل الشام ، ذلك أن هؤلاء الصحابة كانوا قريبي عهد بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وكانوا في مسلكهم العملي أحرص على الاقتداء برسول الله عليه السلام في عيشه وما فيه من تقشف ونأى عن ملذات الحياة ، فأثّر هذا في توجيه الناس إلى الزهد . ثم إن انتقال الخلافة إلى الشام وانفتاح الدولة الإسلامية بكثرة الفتوحات قد أدّى إلى زيادة الأموال التي فتحت على الناس فأترفت الكثيرين منهم ، إذ عاشوا في القصور حياة البذخ والرفاهية ، وتنعموا بالكثير من متاع الحياة الدنيا . . ولكن عددا غير قليل من هؤلاء الناس قد نأوا عن حياة الترف هذه ، وتطلعوا إلى حياة التقشف التي عاشها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكثير من صحابته - رضوان الله عليهم - فكان هذا عاملا آخر من عوامل انتشار موجة الزهد في الشام وفي غيرها من الممالك الإسلامية في القرنين - الأول والثاني - الهجريين . حتى قيل : "إن عدد الذين اتجهوا - في الشام - للزهد والتصوف إزداد بصورة مطردة ، حتى بلغ رقما قياسيا في القرن الثالث " [٣] .

---

(١) انظر معرفة علوم الحديث ، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري ١٩٣ .

(٢) انظر التاريخ الكبير ، للبخاري ١/١٦٩ .

(٣) انظر التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ، للدكتورة ملكة أبيض ٤٤٦ .

والنظرة العجلى في ترجمات عدد من الصحابة الذين نزلوا الشام تبيّن ما كانوا فيه من تقشف وحياة زاهدة انعكست آثارها على التابعين وأتباعهم من أهل الشام .

فهذا أبو ذر الغفاري الصحابي الزاهد العابد بعث إليه حبيب ابن مسلمة - أمير الشام - بثلاثمائة دينار وقال له : "استعن بها على حاجتك . فقال أبو ذر: ارجع بها إليه ، أما وجد أحدًا أغرّ بالله منّا ، ما لنا إلا ظل نتوارى به ، وثلة من غنم تروح علينا ، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها ، ثم إني لأتخوف الفضل"(١) . وهذه حال تدل على زهده ، وتخوفه من الإغراق في متاع الحياة الدنيا أملاً فيما عند الله من خير هو أبقى ، ولذلك فإنه يقول : " يولدون للموت ، ويعمرون للخراب ، ويحرصون على ما يفنى ، ويتركون ما يبقى ، ألا حبذا المكروهات : الموت والفقر"(٢) .

وهذا أبو عبيدة بن الجراح يصف ابن حجر حاله في عيشه فيقول : " قدم عمر الشام فتلقاه أمراء الأجناد ، فقال : أين أخي أبو عبيدة فقالوا : يأتي الآن ، فجاء على ناقة مخطومة بحبل فسلم عليه وساءله حتى أتى منزله فلم نر فيه شيئًا إلا سيفه وترسه ورحله ، فقال له عمر: لو اتخذت متاعًا ، قال : يا أمير المؤمنين ان هذا يبلغنا المقيل"(٣) .

---

(١) انظر حلية الأولياء ، لأبي نعيم ١/ ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ١٦٣ .

(٣) انظر الاصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني ٢/ ٢٤٤ .

ومن الصحابة الذين نزلوا الشام وعرفوا فيها بالزهد ـ أبو الدَّرْدَاء ، وقد نُقِلَتْ أخبار كثيرة عن زهده في متع الحياة ، وتتطلعه إلى ما في الآخرة ، فقد روى ابن حنبل عن أم الدَّرْدَاء : "أنها اشتكت فناء الدقيق ، فقال : إن أمامنا عقبة كدودًا المخف فيها خير من المثقل"(١). ومن مواعظه في التزهيد في الدنيا : " لو تعلمون ما (أنتم)(٢) راؤون بعد الموت ما أكلتم طعامًا بشهوة ولا شربتم شرابًا على شهوة ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه ولحرصتم على الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم"(٣).

وقد اقتدى بهؤلاء الصحابة في زهدهم كثير من التابعين وأتباعهم ، اذ شاع هذا المنهج في حياة الناس ، ولعل خير من يمثّل زهد التابعين الخليفة الأموى الزاهد عمر بن عبد العزيز ، الذى غلبت عليه صفة الزهد على الخلافة ، فكان زاهدًا عابدًا خائفًا من الموت والحساب ، متفكرًا في مصيره بعد الموت ، وقد ترك زهد عمر بن عبدالعزيز الأثر قويًا في أهل عصره ، إذ اتخذوه مثالاً في الزهد ، فقد روى أبو نعيم عن حماد بن واقد عن أبيه أنه قال : " سمعت مالك بن دينار قال : الناس يقولون مالك بن دينار زاهد . إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذى أتته الدنيا فتركها"(٤) . وقد حرص عمر بن عبد العزيز على دوام صلاته بالزهاد في عصره ، فكان يكتب إلى الحسن البصرى يطلب وعظه ، ومن مواعظ الحسن البصرى التي أنفذها إليه : " أما بعد : فان رأس ما هو مصلحك

---

(١) انظر الزهد ، لأحمد بن حنبل ١٣٨ .

(٢) إضافة إلى النص ليستقيم بناء الجملة .

(٣) انظر الزهد ١٣٨

(٤) انظر حلية الأولياء ٥/٢٥٧ .

ومصلح به على يدك الزهد في الدنيا ،وإنما الزهد باليقين واليقين بالتفكر والتفكر بالاعتبار . فإذا أنت تفكرت في الدنيا لم تجدها أهلاً أن تبيع بها نفسك ،ووجدت نفسك أهلاً أن تكرمها بهوان الدنيا ،فإنما الدنيا دار بلاء ومنزل غفلة" (١) . كما كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى سابق البربري ويطلب موعظته ،أو يستنشده شعره الواعظ (٢) . وهذا يبين مدى الاتجاه إلى الزهد في الشام في العصر الذى عاش فيه شاعرنا .

ومن اتجه إلى الزهد في هذا العصر في الشام أبومسلم الخولاني -عبدالله بن ثوب- وهو من التابعين ،وقد أُطْلِقَ عليه حكيم الأمة ومثلها ، كان لا يتكلم في شيء من أمر الدنيا ، ولا يجالس أحداً ، روى أبو نعيم عن علقمة بن مرثد أنه قال : "انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين منهم أبو مسلم الخولاني وكان لا يجالس أحداً قط ،ولا يتكلم في شيء من أمر الدنيا إلا تحوّل عنه ،فدخل ذات يوم المسجد فنظر إلى نفر قد اجتمعوا ،فرجا أن يكونوا على ذكر خير فجلس إليهم ، فإذا بعضهم يقول : قدم غلامي فأصاب كذا وكذا . وقال آخر : جهزت غلامي ،فنظر إليهم فقال : سبحان الله ،أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ كرجل أصابه مطر غزير وابل ، فالتفت فاذا هو بمصراعين عظيمين ، فقال : لو دخلت هذا البيت حتى يذهب عني هذا المطر ،فدخل فإذا البيت لا سقف له ،

---

(١) انظر سيرة عمر بن عبد العزيز ،لأبي الفرج بن الجوزى ١٠٣

(٢) انظر المبحث الخاص بصلته بعمر بن عبد العزيز ص ٤٠ .

جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكر وخير فاذا أنتم أصحاب الدنيا (١).

وقد عرف بالزهد في الشام كثير من التابعين وأتباعهم منهم عبدالله ابن محيريز ، وبلال بن سعد ، والأوزاعي ، وأبو سليمان الداراني ، وغيرهم (٢).

----

(١) انظر حلية الأولياء ، لأبي نعيم ٥/ ١٢٣.
(٢) انظر الزهاد الأوائل ، للدكتور مصطفى حلمي ١١٧-١٤٨.

الباب الثاني

شعر سابق البربري ومصادره

الباب الثانـــــي

شعر سابق البربرى ومصـــادره

١ - الفصل الأول :

شعر سابق البربرى .

٢ - الفصل الثانـــي :

مصـــادر شعره .

الفصـــل الأ و ل

أولا : الشعر الذى ثبتت نسبته إلى سابق البربرى :

الهمزة المضمومة

(*)

(١) (بحر البسيط)

١- لا تظْهِرنَّ لِذي جَهْلٍ مُعاتَبَـــةً
فرُبَّما هُيِّجَتْ بالشَّيءِ أشْيــاءُ

٢- فالماءُ يخمِدُ حَرَّ النَّارِ يُطْفِئُهـــا
وليس لِلْجَهْلِ غيْرَ الحِلْمِ إطْفاءُ

٣- تَرى السَّفيهَ لَهُ عنْ كُلِّ مَحْلَمَـــةٍ
زَيْغٌ ،وفيهِ إلى التسْفِ(يـ)ـه(١) إصفاءُ

الهمزة المضمومة

(٢) (**) (بحر البسيط)

١- وكيفَ يأمنُ رَيْبَ الدَّهْرِ مُرْتَهَـــنٌ
بِعَدْوةِ الدَّهْرِ ،إنّ الدهرَ عَـــدّاءُ

٢- ألْقَى على الجِبلِ مِنْ عادٍ كَلاً كَلَـهُ
وقَوْمِ هُودٍ ، فَهُمْ هامٌ وأصْـــداءُ

(*) الأبيات منسوبة إلى سابق البربرى في شرح مقامات الحريرى ، للشريشي ٥/٢٧٩.
البيتان : ١ ، ٢ موجودان في شعره ص ١٠ .
البيت : ٣ غير موجود في شعره .

(١) وردت في مصدرها : " التسفّه " وهو خطأ لا يستقيم به وزن البيت وربما كان هذا من خطأ الطباعة . والصواب ما أثبته .

(**) البيتان منسوبان إلى سابق البربرى في شرح مقامات الحريرى ، للشريشى ٣/٣٣٨.
البيتان : ١ ، ٢ موجودان في شعره ١٠ بنفس الرواية .

الهمزة المضمومة

(٣)* (بحر البسيط)

١- لا تَدْفَعنَّ لَجُوجًا حِينَ تَزْجُرُهُ
إنَّ اللجُوجَ له في الدفْعِ إغْـــراءُ

٢- وأَغْضِ في حُسْنِ عَفْوٍ عَنْ نَوادِرِهِ
فالحُرُّ فيهِ عَنِ الآفاتِ إغْضَـــاءُ

الهمزة المضمومة

(٤)** (بحر البسيط)

١- يا نَفْسُ إنَّ سَبِيلَ الرُّشْدِ وَاضِحةٌ
مُنيرةٌ كَبَياضِ الفَجْرِ غَـــرَّاءُ

(*) البيتان منسوبان إلى سابق البربرى في شرح مقامات الحريرى ، للشريشى ٢١٧/٢ . وفيه ١ : لا تنفعنّ لجوجًا ... له في المال إغراء ، ولا يستقيم المعنى بهذه الرواية .

١ - ٢ موجودان في شعره ١٠ على نفس الرواية .

(**) البيت منسوب الى سابق البربرى في المذكر والمؤنث ، لابي بكر بن الانبارى ٣٢٠ ، والزاهر في معاني كلمات الناس ، للمؤلف نفسه ٢٠٩/٢ ولكنه بغير عزو .

١ - غير موجود في شعره .

الهمزة المضمومة

(٥) (بحر البسيط)

١- يأبى لِيَ الذَّمَّ أخلاقٌ ومكرمةٌ
مِنّي ، وأُذُنٌ عَنِ الفَحْشَاءِ صَمَّاءُ

٢- والنَّجمُ أقربُ مِنْ سِرّي إذا اشْتَملتْ
مِنّي على السِّرِّ أضْلاعٌ وأحْشاءُ

البيت ٢ في المحاسن والأضداد ، للجاحظ ٢٠ بغير عزو ، وفيه :

النجم .... من سِرٍّ ....

البيتان ١ - ٢ في الموشى ، لأبي الطيب الوشاء ٦٤ ، بغير عزو .

البيت ٢ في المذكر والمؤنث ، لأبي بكر الأنباري ٢٨٧ منسوب إلى سابق البربري ، وفي محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، لمحيي الدين بن عربي ١٥٩/٢ ، بغير عزو ، وفيه :

النجم .... أضلاعي وأحشائي .

وفي المحاسن والمساوئ ، للبيهقي ٣٧٥ ، بغير عزو ، وفيه :

النجم ....

البيتان ١ - ٢ غير موجودين في شعره .

الهمزة المضمومة

(٦)* (بحر البسيط)

١- مَوتُ التَّقِيِّ حَياةٌ لا انْقِطَاعَ لَـهَا ،
قَدْ ماتَ قَومٌ وهُمْ في النَّاسِ أَحْيَاءُ

الهمزة المضمومة

(٧)** (بحر البسيط)

١- والعِلْمُ يَشْفِي إِذَا اسْتَشْفَى الجَهُولُ بِهِ
وبالدَّواءِ قَدِيمًا يُحْسَمُ الـــدَّاءُ

(*) البيت في جامع بيان العلم و فضله ،لابن عبد البر ١/ ٥٧ منسوب إلى سابق البربرى ،وفي المستطرف للابشيهي ١/ ١٤٢ ، بغير عزو ،وفيه :
موت التقي حياة لا نفاذ لها ....
البيت موجود في شعره ٢٧ .

(**) البيت في جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/ ٨٩ منسوب إلـــى سابق البربرى ،وفيه :
.... إذا اشتفى ، وهو خطأ لا يستقيم به المعنى .
البيت موجود في شعره ٢٢ بنفس الرواية .

أعتقد أن أبيات الهمزة المضمومة من قصيدة واحدة ،لاتفاقهـــا في الوزن والقافية ،وسيرها في إطار واحد . ولكنها وردت متفرقة حسب مواضع الاستشهاد بها ،ولذا لم يمكن جمعها .

(٨) *

الباء المضمومة

(بحر الطويل)

١- جَمَعْنَا لها أَكْلاً وذَمًّا بِأَلْسُنٍ ،
أَلَيْسَ عَجِيباً ذَمُّها واحْتِلابُهَا ؟

(٩) **

الباء المكسورة

(بحر الوافر)

١- إذَا مَا كُنتَ طَالِبَ كلِّ ذَنْبٍ
وَلَمْ تُحْلِلْ أَخَاكَ عَنِ العِتَابِ

٢- تَبَاعَدَ مَنْ تَباعَدَ بَعْدَ قُرْبٍ
وصارَ بِكَ الزَّمانُ إلى اجْتِنَابِ

(*) البيت في بهجة المجالس ،لابن عبد البر ٢ // ٢٨٦ منسوب إلى سابق البربري .
البيت غير موجود في شعره .

(**) البيتان في شرح مقامات الحريري ، للشريشي ٢/٢٤٣ منسوبان إلى سابق البربري .
١-٢ موجودان في شعره ١٠ .

(١٠)*

الراء المفتوحـــة

(بحر الطويل)

١- وإنْ جاءَ مالا تَسْتَطِيعانِ دَفْعَــهُ
فَلا تَجْزَعا مِمَّا قَضى اللّهُ واصْبِــرَا

(١١)**

الراء المفتوحـــة

(بحر الطويل)

١- فلا تَيْأَسا واسْتَغْفِرَا اللهَ ،إنَّــهُ
إذا اللهُ سَنَّى عَقْدَ أَمْرٍ تَيَسَّــرا

(*) البيت في الكامل ، للمبرد ٤٢/٢ ،منسوب إلى سابق البربرى .
وفي سمط اللآلى ،لأبي عبيد البكرى ٨٨٩/٢ . وقد ذكره المحقق في الهامش .
البيت موجود في شعره ٥ .

(**) البيت في الأمالي ،لأبي علي القالي ٢٣٥/١ ،بغير عزو .
وفي سمط اللآلي ، للبكرى ٨٨٩/٢ . وقد نسبه المحقق إلى سابق البربرى بقوله : " والبيت في ل "غور و سنى " وفي الكامل ٢١٢/١ لسابق البربرى ،ولعله يتلوه هذا البيت :

وانجاء مالا تستطيعان دفعــه
فلا تجزعا مما قضى الله واصبــرا"

والبيتفي رواية السمط : .... عقد شيء.
والبيت في أساس البلاغة للزمخشرى ،مادة غور،سنو ، بغير عزو ،وفيه في سنو : ... عقد شيء تيسرا ،وفي اللسان ،مادة غور ،سنا بغير عزو ، وفيه في غور : فلا تعجلا ... عقد شيء . والشطر الثاني منه في عيون الأخبار ،لابن قتيبة ١٠٢/١ بغير عزو . وفي تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢٩٣ ، بغير عزو ،وفيه : ...عقد شيء ...

===

(١٢)

الراء المضمومة

* قال ابن عساكر : أخبرنا أبو محمد هبة الله بن أحمد بن محمد ، أنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثني أبو عبد الله محمد بن أيوب ، حدثني عبد ربه بن حماد ، وكان شقة : أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى سابق البربرى ، أن عظني ، فكتب إليه بهذه الأبيات :

١- بِسْمِ الذى أُنْزِلَتْ مِنْ عِنْدِهِ السُّوَرُ
والحَمْدُ لِلَّهِ ، أَمَّا بَعْدُ يا عُمَرُ

٢- إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ ما تَأْتِي وَمَا تَذَرُ
فَكُنْ على حَذَرٍ ، قَدْ يَنْفَعُ الحَذَرُ

٣- واصْبِرْ على القَدَرِ المَجْلُوبِ وارْضَ بِهِ
وإنْ أتاكَ بِمَا لا تَشْتَهِي القَدَرُ

٤- فما صَفَا لامْرِئٍ عَيْشٌ يُسَرُّ بِهِ
إلا تَتَبَّعَ يوماً صَفْوَهُ الكَدَرُ

٥- واسْتَخْبِرِ النَّاسَ عمَّا أَنْتَ جَاهِلُهُ
إذَا عَمِيتَ ، فَقَدْ يَجْلُو العَمَى الخَبَرُ

=== وفي المعاني الكبير ، لابن قتيبة ١/ ٤٧٤ ، بغير عزو ، وفيه : .... عقد شئ ... ، وفي التمثيل والمحاضرة للثعالبي ٩٠ ، وفيه : ... عقد شئ ... ، وفي النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير ٢/ ٤١٥ ، وفيه : .... عقد شئ ...

٦- فإنْ أقمتَ على الأسَاءة لـــة
فلسْتَ تعرِفُ ما تأتي وما تــذرُ

٧- قد يرعوي المرءُ يوماً بعدَ هفوته
وتُحكِمُ الجاهلَ الأيامُ والعبَـرُ

٨- إنَّ التُّقَى خيرُ زادٍ أنتَ حامِلُه
والبِرُّ أفْضلُ شيءٍ نالهُ بَشَــرُ

٩- مَنْ يطْلبِ الجورَ لا يَظْفَرْ بحاجته
وطالِبُ الحَقِّ قدْ يُهْدَى له الظَّفَرُ

١٠- وفي الهُدَى عِبَرٌ تُسْقَى القُلوبُ بها
كالغيثِ ينضُرُ عنْ وسْمِيِّه الشَّجَرُ

١١- وليسَ ذو العِلْمِ بالتَّقْوى كَجاهِلِه
ولا البَصيرُ كأعْمَى ما لهُ بَصَـرُ

١٢- والرُّشْدُ نافِلةٌ تُهْدَى لِصَاحِبِه
والغَيُّ يُكْرَه مِنْه الوِرْدُ والصَّدَرُ

١٣- قدْ يُوبِقُ المرءَ أمْرٌ وهو يَحقِرُهُ
والشَّيءُ بالنَّفْسِ يَنْمي وهو يُحتقَرُ

١٤- لا يُشْبِعُ النَّفْسَ شيءٌ حِينَ تُحْرِزُهُ
ولا يَزالُ لها مِنْ غيرِهِ وَطَـرُ

١٥- ولا تَزالُ - وإنْ كانتْ لها سِعَةٌ -
لها إلى الشَّيءِ لمْ تَظْفَرْ بهِ نَظَـرُ

١٦- وكلُّ شيءٍ لهُ حَالٌ تُغَيِّــرُه
كَما يُغَيِّرُ لونَ اللِّمَّةِ الغِيَـرُ

١٧- والذِّكْرُ فيهِ حياةٌ للقلوبِ ، كَمــــا
يُحْيي البِلادَ إذا ما ماتتْ المطَرُ

١٨- والعِلْمُ يَجْلُو العَمى عَنْ قَلْبِ صَاحبهِ
كَمَا يُجلِّي سَوادَ الظُّلْمةِ القَمَــــرُ

١٩- ورُبَّما جاءَني ما لا أُؤمِّلُـــــهُ
ورُبَّما فاتَ مأْمُولٌ ومُنْتظَـــــرُ

٢٠- لا يَنْفعُ الذِّكْرُ قَلْبًا قاسِيًا أَبَــدًا
وَهلْ يَلينُ لِقوْلِ الواعِظِ الحَجَــرُ

٢١- والمَوتُ جِسْرٌ لِمنْ يَمْشِي على قَدَمٍ
إلى الأُمورِ التي تُخْشَى وتُنْتَظَــرُ

٢٢- فَهمْ يمرُّونَ أفْواجًا وتَجْمعُهـــمْ
دارٌ إليها يَصِيرُ البَدْو والحَضَــرُ

٢٣- مَنْ كَانَ في مَعْقِلٍ لِلْحِرْزِ أَسْلَمَـــهُ
أو كانَ في خَمَرٍ لَمْ يُنْجِهِ الخَمَــرُ

٢٤- حتَّى متى أَنا في الدُّنْيا أَخُو كَلَفٍ
في الخَدِّ مِنِّي إلى لَذَّاتِها صَعَــرُ

٢٥- ولا أَرَى أثَرًا لِلذِّكْرِ في خَلَــدِي
والحَبْلُ في الحَجرِ القَاسِي له أَثَرُ

٢٦- لَوْ كانَ يُسْهِرُ عَيْني ذِكْرَ آخِرَتي
كَما يُؤَرِّقُني لِلْعَاجِلِ السَّهَـــرُ

٢٧- إذًا لَدَاويتُ قَلْبًا قد أَضرَّ بــهِ
طُولُ السَّقامِ ، وَهَيْضُ العَظْمِ يَنْجَبِرُ

٢٨- لا يَلْبثُ الشيءُ أنْ يَبْلَى إذا اخْتلفتْ
يومًا على نَقْصِهِ الرَّوْحاتُ والبُكَرُ

٢٩- والمرءُ يَصْعدُ رَيْعَانُ الشَّبابِ بهِ
وكلُّ مُصْعَدَةٍ يومًا سَتَنْحَدِرُ

٣٠- وكلُّ بَيتٍ خَرابٌ بَعْدَ جِدَّتِهِ
ومِنْ وراءِ الشَّبابِ الموتُ والكِبَرُ

٣١- بَيْنا يُرَى الغُصْنُ لَدْنًا في أُرُومَتِهِ
رَيَّانَ صارَ حُطَامًا جَوْفُهُ نَخِرُ

٣٢- كَمْ مِنْ جَميعٍ أشتَّ الدَّهْرُ شَمْلَهُمُ
وكلُّ شَمْلٍ جَميعٍ سَوْفَ يَنْتَثِرُ

٣٣- وكَمْ مِنَ اَصْيَدَ سَامِي الطَّرْفِ مُعْتَصِبٍ
بالتَّاجِ نِيرانُه لِلْحَرْبِ تَسْتَعِرُ

٣٤- يَظلُّ مُفْترِشَ الدِّيباجِ مُحْتَجِبًا
عَليهِ تُبْنَى قُبَابُ المُلْكِ والحُجَرُ

٣٥- قَدْ غَادَرتْه المَنَايا وهو مُسْتَلَبٌ
مُجَدَّلٌ تَرِبُ الخَدَّينِ مُنْعَفِرُ

٣٦- أَبَعْدَ آدَمَ تَرْجُونَ الخُلودَ، وَهَلْ
تَبْقَى فُروعٌ لِأَصْلٍ حِينَ يَنْقَعِرُ

٣٧- لَكُمْ بيوتٌ بِمُسْتَنِّ السُّيُولِ، وَهَلْ
يَبْقَى على المَاءِ بيتٌ أُسُّهُ مَدَرُ

٣٨- إلى الفَناءِ - وإنْ طَالتْ سَلامَتُهمْ -
مَصِيرُ كلّ بني أُنثى ، وإنْ كَثُرُوا

٣٩- مَنْ عاشَ أَدْرَكَ في الأعداءِ بُغيتَهُ
ومَنْ يَمُتْ فَلهُ الأَيامُ تنتصِرُ

٤٠- إنَّ الأُمورَ إذا اسْتقبلْتَها اشْتَبهتْ
وفي تَدبُّرِها التِّبيانُ والعِبَرُ

٤١- والمَرءُ ما عاشَ في الدُّنْيا له أَمَلٌ
إذا انْقَضَى سَفرٌ مِنْها أتى سَفَرُ

٤٢- لَها حَلاوةُ عَيشٍ غَيرُ دائِمَةٍ
وفي العَواقبِ مِنْها المُرُّ والصَّبِرُ

٤٣- إذا قَضَتْ زُمرٌ آجالَها نَزلَتْ
على مَنازِلِها مِنْ بَعْدِها زُمَرُ

٤٤- ولَيسَ يَزْجُرُكُمْ مَا تُوعَظُونَ بِهِ
والبَهْمُ يَزْجُرُها الراعي فَتنزجِرُ

٤٥- أَصبحتُمْ جُزُرًا لِلْمَوتِ يَقبِضُكُمْ
كَما البَهائِمُ في الدُّنْيا لَكُمْ جُزُرُ

٤٦- لا تَبْطَرُوا واهْجُروا الدُّنْيا فإنَّ لَها
غِبًّا وَخِيمًا ، وكُفْرُ النِّعْمةِ البَطَرُ

٤٧- ثم اقْتَدُوا بالأُلى كَانُوا لَكُمْ غُرُرًا ،
وليسَ مِنْ أُمَّةٍ إلا لَها غُرَرُ

٤٨- حتّى تكُونُوا على مِنْهاجِ أوّلِكُمْ
وَتَصْبِرُوا عَدَم الدُّنْيا كَما صَبَرُوا

٤٩- مَالِي أرَى النَّاسَ ، والدُّنْيا مُوَلِّيةٌ
وكُلُّ جيلٍ عليها سوفَ يَنْبَتِرُ

٥٠- لا يَشْعُرونَ بِمَا في دِينِهِمْ نَقَصُوا
جَهْلًا - وإنْ نَقَصَتْ دُنياهُم شَعَرُوا

تخريج القصيدة :

* السند مع الأربعة الأبيات الأولى في تاريخ دمشق ، لابن عساكر ٤/ق ٧٣ أ .
البيت (٤٤) في الحيوان للجاحظ ، ٤٩٧/٥ ، بغير عزو ، وفيه : " ويروى " يُزْجر " أحياناً " .
البيت (٥) في حماسة البحترى ٢٠٣ ، منسوب إلى سابق البربرى ، وفيه : ستخبر ... وهوخطأ لا يستقيم به البيت .
البيتان : (٣ ، ٤) في الكامل ، للمبرد ٤٢/٢ ، بغير عزو ، وفيه ٣ : اصبر .... ، ٤ : .... إلا سيتبع يوما صفوه كدر .
البيت (٤٤) في كتاب الأفعال ، للسرقسطي ٤٦١/٣ ، منسوب إلى سابق البربرى ، وليس الدبيرى كما رجح المحقق .
البيت (١٨) في الإمتاع والمؤانسة ، لأبي حيان التوحيدى ٧٤/٣ ، منسوب إلى سابق الزبيرى ، وهو تحريف للاسم ، وفيه : العلم يجلو ..
الأبيات : (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) في حلية الأولياء ، لأبي نعيم ١٨٨/٢-١٨٩ ، بغير عزو ، وقد قال في تقديمه لها : " عن عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال : كتب عبيدالله بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز " وفيه ٣ : ... على القدر المحتوم ... ٤ : ... إلا سيتبع يوماً صفوه كدر .
الأبيات (٢ ، ٣ ، ٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩) في حماسة الظرفاء ، لأبي عبدالله العبد لكانى ١٦٠/١ منسوبة إلى سابق البربرى ، وفيه ٢ : ... لو ينفع الحذر ، ٣ : ... وارض له ،

===

. . . .

=== ١٨ : يجلو السوءال الدجى .... سواد الليلة ... ،
٣٦ : ...... تبقى الفروع إذا ما الأصل ....
٣٧ : ... ولا يسبقى على الماء ...
الأبيات (٥، ١١، ١٧، ١٨) في جامع العلم لابن عبد البر ،
وقد نسب ١١ ، ١٧ إلى سابق البلوى المعروف بالبربري ١/ ٤٩ ،
وإلى سابق البربري ١/ ٥٠ . و نسب ٥ ، ١١ إلى أمية بن
أبي الصلت وهذا خطأ ١/ ٨٨ . وفيه : ٥ : فاستخبر الناس . .
١١ : .... كجاهلها ..... ، ١٧ : العلم فيه .....
كما تحيا البلاد إذا ما مسها المطر .
الأبيات : (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠)
في تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ق ٧٣ أ ، ٧٣ ب ، منسوبة إلى
سابق البربري ، وفيه ٢ : إن كنت تعلم ما يأتي وما يذر تكن ... ،
١٧ : والعلم فيه .... إذا ما مسها المطر ،
٢٠ : .... والحبل في الحجر القاسي له أثر ،
٤٥ : فأنتم جزر .... في الدنيا جزر ، برواية ، وبأخرى : اصبحتم
.... لكم جزر ، ٥٠ : ما يشعرون بما ... وإن نقصوا دنياهم
شعروا .
الأبيات (١-٥٠) عدا : (٦ ، ١٩ ، ٣٠ ، ٣٩) في مناقب عمر بن
عبد العزيز ، لأبي الفرج بن الجوزي ٩٢ - ٩٧ ، منسوبة إلى سابق
البربري ، وفيه ٤ : .... إلا سيتبع يومًا صفوه كدر ، ٥ : ولا يزال ... ،
٢٠ : ... لقلب الواعظ ... ، ٢٥ : ... في جلدى ... ،
٢٨ : ما يلبث .... ، ٣٤ : ... تثنى قباب .... ،
٣٦ : ... ترجون البقاء ، ٤١ : ... إذا انتفى سفر ... ،
٤٢ : .... والعواقب .... وهو خطأ لا يستقيم معه وزن البيت ،
٤٣ : إذا انقضت زمن آجالها ... ، ٤٩ : ... وكل خيل عليها
سوف ينبشروا .
الأبيات (١-٥٠) عدا (٦ ، ١٩ ، ٣٩) في سيرة عمر بن عبد
العزيز ، لأبي الفرج بن الجوزي ١١٨-١٢١ ، منسوبة إلى سابق
البربري ، وفيه ٤ : ... إلا سيتبع يوما صفوه كدر ،
١٠ : ... تشفى القلوب ... ، ١١ : ... كجاهلها ... ،
====

. . . .

=== ١٢ : . . . لصاحبها . . . ، ١٣ : . . . والشيء يا نفس . . . ،
٢٥ : . . . في جسدى والماء في الحجر القاسي . . . ،
٢٧ : . . . ووهن العظم . . . ، ٢٨ : . . . على نقضه . . . ،
٣١ : . . . أضحى حطام جوفه نخر ، وهو خطأ ، ٣٢ : ورب أصيد . . ،
٣٦ : . . . ترجون البقاء . . . فروع الأصل . . . ،
٣٧ : لهم بيوت بمستن . . . ، ٤٣ : إذا انقضت زمر . . . ،
٤٥ : . . . لها جزر ، ٤٨ : . . . وتصبروا عن هوى الدنيا . . ،
٤٩ : . . . . وكل حبل عليها . . .
الأبيات : (٧، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٩، ٥٠) في التبصرة ، لأبي الفرج بن الجوزى ١/ ١٠١-١٠٢ بغير عزو ، وقد نسبها المحقق إلى سابق البربرى ، وفيه : ٧ : . . . ويحكم . . . ،
٢٢ : فهم يجوزون . . . ، ٣٢ : . . . سوف ينتشر ، ٣٦ : . . . ترجون البقاء . . . ، ٣٨ : . . . مصير كل بني أم . . . .
الأبيات : (٣٣، ٣٤، ٣٥) في شرح مقامات الحريرى ٣/ ٣٤٦ ، منسوبة إلى سابق البربرى ، وفيه ٣٣ : ورب أغيد ساجي الطرف . . ،
٣٤ : . . . إليه تهنى قباب . . . ، ٣٥ : . . . فهو مستلب مجندل . .
البيتان : (٥ ، ٦) في الحماسة البصرية ، لعلي بن أبي الفرج البصرى ٢/ ٢٧ ، بغير عزو ، وفيه ٥ : استخبر الناس . . . من الأمور فقد يجلو . . . .
البيتان : (٣ ، ١٤٠) في عين الأدب والسياسة ، لأبي الحسن بن هذيل ٤١ ، ٢٥٥ ، بغير عزو ، وفيه ٣ : إصبر على القدر المحتوم . . . ، ١٤٠ : . . . في غيره وطر .
الأبيات : (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) في الوافي بالوفيات ، للصفدى ١٥/ ٧٠ ، منسوبة إلى سابق البربرى ، وفيه ٤ : . . . إلا ستتبع يوماً . . .
البيت (٣٧) في قصص الأنبياء ، لابن كثير ٢/ ٤٤٢ ، منسوب إلى سابق البربرى ، وفيه ٣٧ : . . . بمستن السيوف . . . يبنى على الماء . . .
البيت (٤٤) في المستطرف ، للأبشيهي ١/ ٧٧ ، بغير عزو .
البيتان (٢٤، ٢٥) في شرح أبيات المغنى ، للبغدادى ٦/ ٢٢٩ ، منسوبان إلى سابق البربرى ، وفيه ٢٥ : . . . للذكر في جسدى . .
الأبيات (١، ٢، ٣، ٤، ١٧، ٢٠، ٣٦، ٤٤، ٤٥، ٥٠) في تهذيب تاريخ دمشق ، لعبد القادر بدران ٦/ ٤١ منسوبة

===

. . . .

=== إلى سابق البربرى ،وفيه ٣ : ... المحتوم وأرض به ... ،
٤ : ... إلا سيتبع ... ، ١٧ : والعلم فيه حياة ...
تحيا البلاد إذا ما مسها المطر ،
٢٠ : لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً والحبل في الحجر القاسي له أثر .
٥٠ : ما يشعرون بما في دينهم نقصوا جهلاً وإن نقصوا ...
البيتان (٥ ، ١١) في شرح ديوان أمية بن أبي الصلت ،منسوبان
إلى أمية خطأ ،وفيه ٥ : فاستخبر الناس ... ، ١١ : ... كجاهلها
....
القصيدة موجودة في شعره ٦ ، ٧ ، ٨ . عدا الأبيات : ٦ ، ١٩ ،
٣٠ ، ٣٩

(١٣)

الراء المضمومــــة

(مشطور السريع)

* قال الحرّاني : حدثنا أبو سعيد الجزري ،حدثنا علي بن عثمان النفيلي ، حدثنا أبو كامل مولى الفازِ بن ربيعة ،قال : سمعت سابق البربرى ينشد مكحولاً ،وهو في الغزو :

١- يا نَفْسُ كل قَابرٍ مقْبــــورُ
٢- ويَهْلِكُ الزائرُ والمَــزورُ
٣- ويَقْبِضُ العَارِيةَ المُعيــرُ
٤- ليس على صَرْفِ الرَّدى غَمُورُ
٥- كم مِنْ غنيٍّ مُكْثِرٌ فقيــرُ

حتى انتهى إلى قوله :

٦- والصدْقُ بِرٌّ والتُّقى تطهيــرُ
٧- والبِرُّ معروفٌ بـه المَبْـرورُ
٨- وذو الهوى يَسُوقُـه المَقْدورُ

---

(١) السند والأبيات في شعره ٢٤ - ٢٥ ،نقلاً عن تاريخ الرّقــة للحرّاني ،منسوبة إلى سابق البربرى ، وفيه :
٤ : . . . . صرف الروا غمور ، وهو خطأ لا يستقيم معـه المعنى .

(١٤)(*)

السين المكسورة

(بحر البسيط)

١- أَذاكِرٌ أنت عَهْدَ الحَيِّ أَمْ نَاسِي
وليس لِلحُبِّ غيرُ الصَّبْرِ مِنْ آسِ

٢- إِذَا أرادَ امرؤٌ هجْرًا جَنَى عِلَلاً
وظَلَّ يَضرِبُ أخْمَاسًا لِأَسْدَاسِ

(**)
(١٥)

الشين المكسورة

(بحر الوافر)

١- إِذَا الوَاشِي نَعَى يومًا صديقًا
فلا تَدعِ الصدِيقَ لِقول واشِي

(*) البيت (٢) في العقد الفريد، لابن عبد ربه ٣/٢٢، بغير عزو، وفي جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكرى ٢/٥، بغير عزو، وفي فصل المقال، لأبي عبيد البكرى ١٠٥، بغير عزو، والرواية فيه: ... مكرا جنى عللا ...
البيتان: (١، ٢) في المستقصى في أمثال العرب، للزمخشرى ٢/١٤٦ منسوبان إلى سابق البربرى.
١، ٢ غير موجودين في شعره.

(**) البيت في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/٢٠، بغير عزو، وفي العقد الفريد، لابن عبد ربه ٢/١٥٩، بغير عزو، وفيه: ... بغى يوماً ... وفي بهجة المجالس، لابن عبد البر ١/٤٠٣، منسوب إلى سابق البربرى، وفيه: ... بغى ...
البيت غير موجود في شعره.

(١٦)

العين الساكنة

(بحر الطويل)

١- فكم مِنْ صَحيحٍ باتَ للمَوْتِ آمِنًا
أتَتْه المَنايا بَغْتةً بَعْدَما هَجَعْ

٢- فلَمْ يَسْتَطِعْ إذْ جاءَهُ المَوْتُ بغتةً
فِرارًا ، ولا مِنْه بقُوَّتِهِ امْتَنَعْ

٣- فأَصْبحَ تَبكِيه النِّساءُ مُقَنَّعًا
ولا يَسْمعُ الداعِي ، وإنْ صَوتَهُ رَفَعْ

٤- وقُرِّبَ مِنْ لَحْدٍ فصارَ مَقِيلَهُ
وفارقَ ما قَدْ كانَ بالأمْسِ قد جَمَعْ

٥- فلا يَتركُ المَوْتُ الغَنِيَّ لِمالِهِ
ولا مُعْدِمًا في المَالِ ذا حاجةٍ يَدَعْ

---

* الأبيات (١-٥) في حلية الأولياء ،لأبي نعيم ٣١٨/٥ ، منسوب إلى سابق البربرى .
الأبيات (١ ، ٢ ، ٥) في بهجة المجالس ،لابن عبد البر ٣٣٨/٢ ، منسوبة إلى سابق البربرى ،وفيه ٢ : ... ولا منه بحيلةٍ امتنع ، ٥ : ولا يترك الموت ...
الأبيات (١-٥) في تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ق٧٣ ب - ق ٧٤ أ منسوبة إلى سابق البربرى ،وفيه ٢ : ... ولا منه بحيلته امتنع ، ٣ : وأصبح تبكيه ...
الأبيات : (١-٥) في سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي الفرج بن الجوزى ١٢١ ،منسوبة إلى سابق البربرى ، وفيه ٢ : ... الموت آمنًا ... ، ٤ : ... وفارق ما قد كان في أمسه جمع.
الأبيات (١-٤) في التبصرة ،لأبي الفرج بن الجوزى ٣١٩/١ ،
===

(١٧) (*)

العين الساكنـــة

(بحر الطويل)

١- لا تَحْفِرنْ بئرًا تُرِيدُ أخًا بِهـــا
فإنكَ فِيهَا ،أنتَ ،مِنْ دُونِهِ تَقَــعْ

٢- كَذاكَ الذى يَبْغِى على الناسِ ظَالِمًا
تُصِبْهُ على رَغْمٍ - عَواقِبُ ما صَنَــعْ

= = = بغير عزو ، وفيه ٢ : .... الموت فجأة ...
الابيات (١-٥) في البداية والنهاية ، للحافظ ابن كثير ٩/٢١٤ ، منسوبة إلى سابق البربرى .
الابيات (١-٥) في تهذيب تاريخ دمشق ، لعبد القـــادر بدران ٦/٤٩ ، منسوبة إلى سابق البربرى .
الابيات (١ - ٥) في شعره ٩ .

(*) البيتان في الأمالي ، للزجاجي ١٨٥ ، منسوبان إلى سابق البربرى .
١ - ٢ موجودان في شعره ١٨ .

(١٨)

العين المفتوحة

(بحر المنسرح)

١- الحِلْمُ والعِلْمُ خَلَّتا كَرَمٍ
لِلمرْءِ زَيْنٌ إذَا هُمَا اجْتَمَعَا

٢- صِنْوانِ لا يَسْتَتِمُّ حُسْنُهُمَا
إلا بِجَمْعٍ لِذَا ، وذاكَ مَعَا

٣- كَمْ مِنْ وَضيعٍ سَمَا بهِ العِلْمُ وال
حِلْمُ فَنَالَ العَلاءَ وارْتَفَعَا

٤- ومِنْ رَفيعِ البِنَا أضَاعَهُمَا
أخْمَلَهُ ما أضاعَ فاتَّضَعَا

---

* الأبيات (١-٤) في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢ / ١٢١ ، بغير عزو ، وفي جامع بيان العلم ، لابن عبد البر ١ / ١٢٦ ، بغير عزو ، وفيه ١ : العلم والحلم حُلتا كرم ... ، ٣ : ... فنال السمو ... ، ٤ : كل رفيع البنا ... ، وفي تاريخ دمشق ، لابن عساكر ٤/ق ٧٤ أ ، منسوبة إلى سابق البربرى ، وفيه ١ : ... خلتان هما للخلق زين ... ، ٢ : ... لا يستتم مسهما ... ، وفي تهذيب تاريخ دمشق ، لعبد القادر بدران ٦ / ٤٢ ، منسوبة إلى سابق البربرى ، وفيه ١ : ... حلتا .... للخلق .... ، ٤ : .... أهمله ....
الأبيات (١-٤) في شعره ١٩ .

(*)
(١٩)

العين المضمومـــة

(بحر البسيط)

١- إنْ عِبْتَ يوماً على قَوم بعَاقِبَــةٍ
أمراً أتَــوْه فلا تَصْنَعْ كما صَنعُــــوا

(**)
(٢٠)

اللام الساكنـــة

(بحر الرجز)

١- قدْ قالَ كَعْبٌ لزُهير في المَثَــلْ
أوْ سَعْتَهم سَبّــا وأوْدَوْا بالإبـــلْ

(*) البيتفي حماسة البحترى ١٧٤ ، منسوب إلى سابق البربرى .
١- موجود في شعره ٦ .

(**) في الفاخر ،للمفضَّل بن سلمة ١٧٧ / في الهامش ، وقد قدم له المحقق بقوله : وفي ذلك يقول سابق البربرى .
غير موجود في شعره .

(٢١)

اللام المفتوحة

(مجزوء الكامل)

١- إنْ كُنتَ مُتَّخِذًا خليلا
فتنقَّ وانتقدِ الخليلا

٢- مَنْ لَمْ يكُنْ لك مُنصِفًا
في الوُدِّ فابْغِ به بديلا

٣- وعليكَ نفسكَ فارْعَها
واكْسَبْ لها عملًا جميلا

٤- ومَنْ اسْتخفَّ بنفسِه
زرعتْ له قالًا وقيلا

٥- وأقلُّ ما تَجِدِ اللئيـ
ـمَ عليكَ إلا مُسْتطيلا

٦- والمرءُ إنْ عرفَ الجميـ
ـلَ وجدتَه يأْتي الجميلا

٧- ولرُبَّما سُئِلَ البخيـ
ـلُ الشيءَ لا يَسْوى فتيلا

٨- فيقولُ لا أَجِدُ السبيـ
ـلَ إليه يَكْرَه أنْ يُنيلا

٩- وكذاكَ لا جعلَ الإلـ
ـهُ لهُ إلى خيرٍ سبيلا

١٠- يا مبتَنى الدارَ الـذى
هُوَ مُسْرِعٌ عنها الرحيلا

١١- إنْ لَمْ تَنِلْ خيرًا أخا
كَ فكنْ لهُ عبدًا ذليلا

١٢- وَتَجَنَّبِ الشَّهواتِ واحْـ
ـذرْ أنْ تكونَ لَهَا قَتِيلا

١٣- فَلَرُبَّ شَهوةِ سَاعةٍ
قد أوْرَثَتْ حُزناً طَوِيلا

---

* الأبيات (١ - ١٣) في تاريخ دمشق ، لابن عساكر ٤/ق٧٤أ - ٧٤ ب ، منسوبة إلى سابق البربري ، وفيه
٥ : ... وأقل ما تخذ اللئيم ... .
الأبيات (١ - ٣) في عين الأدب والسياسة ، لأبي الحسن علي بن هذيل ٢٦ ، بغير عزو ، وفيه
١ : ... فتنق وانتقد ... ،
٣ : ... واكسب لها خلقاً جميلا .
الأبيات (١-١٣) في تهذيب تاريخ دمشق ، لعبد القادر بدران ٦/ ٤٢ ، منسوبة إلى سابق البربري .
القصيدة في شعره ٢٠

(٢٢)

اللام المضمومة

(بحر الطويل)

١- تأوبني همٌّ كثيرٌ بلابلُهْ
طروقاً فغالَ النومَ عني غوائلُهْ

٢- فويحي من الموتِ الذي هو واقعٌ
وللموتِ بابٌ أنت لا بدَّ داخلُهْ

٣- أيا من ريبَ الدّهرِ يا نفسُ واهنٌ
تجيشُ له بالمُفظِعاتِ مراجلُهْ

٤- فلمْ أرَ في الدُّنيا وذو الجَهْلِ غافلٌ
أسيراً يخافُ القتلَ واللهوُ شاغلُهْ

٥- فما بالُه يَفْدِي منَ الموتِ نفْسَهُ
ويأمَنُ سيفَ الدهرِ ، والدهرُ قاتِلُهْ

٦- ولا يَفْتدِي مِنْ موقفٍ لَوْ رمى الرَّدى
بهِ جبلاً ، أضحتْ سرايا جنادِلُهْ

٧- وبعْدَ دُخولِ القَبرِ يا نفسُ كُرْبةٌ
وهَولٌ يُشيبُ المُرْضِعينَ زَلازِلُهْ

٨- إذا الأرضُ خفّتْ بعْدَ ثُقْلِ جِبالِها
وخلّى سَبيلَ البحرِ يا نفْسُ ساحِلُهْ

٩- فلا يرتجي عونًا على حمْلِ وِزْرِهِ
مُسيءٌ ، فأولى الناسِ بالوِزْرِ حامِلُهْ

١٠- إذَا الجَسدُ المَعْمُورُ زَايلَ رُوحَهُ
خَوى ، وجمالُ البيتِ يا نَفْسُ آهِلُهْ

١١- وقَدْ كانَ فيهِ الرُّوحُ حِيناً يَزِينُهُ
وما الغِمْدُ لولاَ نَصْلُه وحَمائِلُهْ

١٢- يُزَايِلُني مَا لي إذَا النَّفْسُ حَشْرَجَتْ
وأَهْلي وكَدْحي لا زِمي لا أُزَايِلُهْ

١٣- إذَا كَلَّ عِنْدَ الجُهْدِ يا نَفْسُ مَنْطِقي
وعايَنْتُ عِندَ الموتِ ما لا أُحَاوِلُهْ

١٤- ويغْسَلُ ما بالجِلْدِ من ظَاهرِ الأذَى
ولا يَغْسِلُ الذَّنْبَ المُخَالِفَ غَاسِلُهْ

١٥- ومَنْ تَغْلِبُ الأمْراضُ يوماً فإنَّهُ
سَيُوشِكُ يوماً أنْ تُصابَ مَقَاتِلُهْ

١٦- وقَدْ تَغْلِبُ الوحْشَ الحِبَالُ ورُبَّما
تَقَبَّضتِ الوحْشَيَّ يوماً حَبائِلُهْ

١٧- إذَا العِلْمُ لمْ تَعْمَلْ بهِ صارَ حُجَّةً
عليكَ ، ولمْ تُعْذَرْ بما أنتَ جَاهِلُهْ

١٨- وقد يُنْعِشُ الذِّكْرُ القُلوبَ وإنَّما
يكونُ حياةَ العُودِ في الماءِ وَابِلُهْ

١٩- أَرى الغُصنَ لا يَنْمي إذَا اجْتُثَّ أصْلُهُ
وليس بباقٍ من أُبِيحَتْ أوائِلُهْ

٢٠- فإنْ كُنتَ قد أبْصرتَ هذا فإنّما
يُصدِّقُ قولَ المرءِ ما هو فاعِلُهْ

٢١- ولا يَسْتقِيمُ الدهرَ سَهْمٌ لوجْهِهِ
به مَيَلٌ حتى يُقوَّمَ ما ئِلُهْ

٢٢- وفيكَ إلى الدُّنْيا اعْتِراضٌ وإنَّما
تُكَالُ لَدى المِيزانَ ما أنتَ كائِلُهْ

٢٣- فلا تَنْتكِثْ بَعْدَ الهُدى عَنْ بَصِيرةٍ
كَما نَكَثَ الحَبْلَ المُضَاعَف فَاتِلُهْ

٢٤- وتَطْلُبُ في الدُّنْيا المَنازِلَ والعُلَا
وتَنْسى نَعِيماً دائماً لا تُزَايِلُهْ

٢٥- كَمنْ غرّهُ لَمْعُ السرابِ بقِيعَةٍ
فقصَّرَعَنْ وِرْدٍ تَجيشُ مَناهِلُهْ

٢٦- وقَدْ خَانتِ الدُّنيا قُروناً تَتابعُوا
كما خانَ أعْلى البيتِ يوماً أسافِلُهْ

٢٧- وتُصْبِحُ فيها آمِناً ثمَّ لَمْ تكُنْ
لِتأْمَنَ في وادٍ بهِ الخَوْفُ نازِلُهْ

٢٨- وقَدْ خَتلتْنا باللطِيفِ من الهوى
كما يَختُلُ الوحْشِيَّ بالشوءِ خاتِلُهْ

٢٩- رَضِينَا بِما فِيها سَفَاهًا ولَمْ يكُنْ
يَبِيعُ سَمِينَ اللحْمِ بالغثِّ آكِلُهْ

٣٠- وعَاقِبةُ اللذّاتِ تَخْشَى وإنَّمـا
يُكَدِّرُ يومًا عَاجِلَ الأَمْرِ آجِلُـهْ

٣١- وإنْ فَرِحَتْ بالمرءِ يومًا حَلائِل
فلا بدَّ يومًا أنْ تُساءَ حَلائِلُـهْ

٣٢- فكمْ مِنْ فتىً قدكانَ في شِرَّةِ الصِّبَى
فأقْصَرَ بَعْدَ العَذْلِ عنه عواذِلُـهْ

٣٣- إذا ما سَما حَقٌّ إليكَ وباطـل
عليك فلا يَذْهبْ بحقِّكَ باطِلُـهْ

٣٤- وقد يأْمُلُ الراجي فيكْذِبُ ظَنُّهُ
أمورٌ ويلْقى الشيءَ ما كانَ يأْمُلُـهْ

تخريج القصيدة :

البيت (٢) في حيوان الجاحظ ٣/٤٧٣ ، بغير عزو ، وفيه : تليح من الموت الذى .... ، وفي مجالس ثعلب ١/٢٨٩ ، بغير عزو ، وفيه : تليح من الموت ...
البيتان (١٧ ، ٢٠) في جامع بيان العلم ،لابن عبد البر ٢/٧ منسوبان إلى سابق البربرى ، وفيه ١٧ : ... كان حُجَّة ، ٢٠ : ... قد أوتيت علما ...
الابيات (١-٣٤) في تاريخ دمشق ،لابن عساكر ٤/ق ٧٤ ب - ٧٥ أ ، منسوبة إلى سابق البربرى ، وفيه ١ : ... فقال اليوم عنى غوائله ، ٣ : ... يا نفس راهن تجيش له بالمقطعات ... ،
١١ : ... حينا تزينه ... ، ١٢ : ... وأهلي وقدحو لا زمى .. ،
١٦ : ... الوحشى الجبال وربما تقيَّضت .... ،
٢٠ : .... يصدق قول المر .... ، ٢٣ : فلا تنتكث .... ،
٢٥ : ... لَمْعُ السراب بقفرة ... ، ٢٦ : ... قرونًا تتابعوا ... ،

===

. . . .

=== ٢٧ : .... كنشا من ودّا ... ، وهوخطأ لا يستقيم به المعنى ، والصواب ما أثبته .

٢٩ : ... فيها شفاها ولم يكن ببيع سمين .... ،

٣٢ : ... فافقر بعد العذل ... ،

٣٣ : ... حق إليك وباطل فلا يذهب لحقك باطله ،
وهو خطأ لا يستقيم معه المعنى والوزن .

الأبيات (١-٣٤) في تهذيب تاريخ دمشق ، لعبد القادر بدران ٦/٤٣ ، منسوبة إلى سابق البربرى ، وفيه

٧ : ... وهول تشيب المرضعين جنادِلُهْ .

٨ : إذا الأرض خفّتْ بعد نقل جبالها ... ،

١٨ : ... تكون حياة ... ،

١٩ : أرى الغصن لا ينمي إذا جف أصله ... ،

٢٦ : وقد خانت الدنيا قرونًا تضاعفوا ... ،

٣١ : .... فلا بد يومًا أن ترن حلائله ،

القصيدة في شعره ٢٠ - ٢٢ .

(*)
(٢٣)

اللام المضمومة

(بحر الطويل)

١- وتأخيرُ ما يُرْجَى بلاءٌ مبرِّحٌ
وأفْضلُ ما يُرْجَى من الخيرِ عاجِلُه

(**)
(٢٤)

الميم الساكنة

(بحر السريع)

١- ياأيُّها الظَّاعِنُ في حَظِّهِ
إنَّما الظَّاعِنُ مِثْلُ المُقِيمْ

٢- كَمْ مِنْ لَبيبٍ عاقِلٍ قُلَّبٍ
مُصَحَّحِ الجِسْمِ مُقِلٌّ عَدِيمْ

٣- ومِنْ جَهُولٍ مُكْثِرٌ مالَهُ
ذلكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمْ

٤- حظُّكَ يأتِيكَ ،وإنْ لَمْ تَرُمْ
ما ضَرَّ من يرزقُ ألا يَرِيمْ

(*) البيت في بهجة المجالس ، لابن عبد البر ١/ ٤٩٤ ، منسوب إلى سابق البربرى ،
غير موجود في شعره .

(**) الأبيات (١-٤) في بهجة المجالس ، لابن عبد البر ١/ ١٤١ ، منسوبة إلى سابق البربرى .

١-٤ غير موجودة في شعره .

(٢٥) (*)

الميم المكسورة

(بحر الرجز)

١- قَدْ قِيلَ قَبْلي في الكَلامِ الأقْدمِ
إنّي وَجدْتُ العِلْمَ بالتَّعلُّمِ

(٢٦) (**)

النون المكسورة

(بحر البسيط)

١- العِلْمُ زَيْنٌ وتَشْرِيفٌ لِصَاحِبِه
والجَهْلُ والنَّوْكُ مقْرُونانِ في قَرَنِ

(*) البيت في جامع بيان العلم ،لابن عبد البر ١/١٠١ ، منسوب إلى سابق البربرى .
١ - في شعره ٢٢.

(**) البيت في العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/ ٧١ ، منسوب إلى سابق البربرى .
١ - غير موجود في شعره .

(٢٧)

النون المكسورة

(مشطور الرجز)

١- بُورِكَ في عَوْنٍ وفي أَعْوانِهِ
٢- وفي جَوارِيهِ وفي غِلْمانِهِ
٣- وبَارَكَ اللّهُ على دِعَانِهِ (١)
٤- أَطْعَمَنا عَوْنٌ على خُوانِهِ
٥- يُعْطِي وما يُقْلِعُ عَنْ جِفانِهِ
٦- وعَنْ هَداياه وعَنْ إِيوانِهِ

---

* الأبيات في تهذيب تاريخ دمشق ، لعبد القادر بدرن ٦/ ٤٤ منسوبة إلى سابق البربري .
الأبيات (١-٦) في شعره ٢٢ ، وقدّم لها بقوله : وله -أي سابق البربري- هذه الأبيات من الرجز في مدح رجل اسمه عون .

(١) كذا وردت في الأصل ولعلها رِعان ، لأن رِعان جمع الرَّعْن ، قال في اللسان الرَّعْن الأنف العظيم من الجبل تراه متقدماً ، والجمع رِعان ورُعون و منه قيل للجيش العظيم أَرْعن . وجيش أَرْعن : له فضول كرِعان الجبال . شُبِّه بالرَّعْن من الجبل . انظر اللسان مادة رعن ١٣/ ١٨٢ .

(٢٨)
النون المضمومـــة

(بحر الطويل)

١- ولِلْموْتِ تَغْذُو الوالِدَاتُ سِخَا لَها
كَما لِخرابِ الدهرِ تُبْنى المَساكِــنُ

٢- عَجِبْتُ مِنَ الدُّنْيا وذَمِّي نَعِيمَهــا
وحُبِّي لَها في مُضْمَرِ القَلْبِ سَاكِــنُ

٣- وقَوْلي أُعِذْني رَبِّ مِنْ كلِّ فِتْنَـةٍ
وأُكْلَفُ مِنْها بالذى هـو فَاتِــنُ

---

* البيت (١) في العقد الفريد لابن عبد ربه ١/٢٦٩ ،منسوب إلى سابق البربرى . وفي معاني الحروف لأبي الحسن الرماني ١٤٣ ، بغير عزو ،وفي تاريخ دمشق ،لابن عساكر ٤/ق ٧٣ أ ،منسوب إلى سابق البربرى .

الأبيات (١ ، ٢ ، ٣) في كتاب المنازل والديار ،لأسامة بن منقذ ٢/ ٨٥ ،منسوبة إلى سابق البربرى ،وفيه ١ : ... كما لخراب الدور ...

البيت (١) في مغنى اللبيب لابن هشام ١/ ٢١٤ ، بغير عزو ، وفيه : ... كما لخراب الدور . وفي الوافي بالوفيات ،للصفدى ١٥/ ٧٠ ، منسوب إلى سابق البربرى ، وفي حياة الحيوان ، للدّميرى ١/ ٤٩٣ ، بغيرعزو ، وفيه : فللموت ... كما لخراب الدور ... ، وفي شرح أبيات مغنى اللبيب ، للبغدادى ٤/ ٢٩٥ منسوب إلى سابق البربرى ، وفي خزانة الأدب ،للبغدادى ٤/ ١٦٣ ،منسوب إلى سابق البربرى ، والرواية فيهما : فللموت تغدو .. كمالخراب الدور...

البيت (١) في تاج العروس للزبيدى مادة لوم ٩/ ٦٦ ، بغير
===

(*)
(٢٩)

النون المضمومـــة

(بحر الطويل)

١- تَعاونْ على الخَيراتِ تَظْفَرْ ولا تكُنْ
على الإثمِ والعُدْوانِ مِمنْ يُعـاوِنُ

٢- ودَاهِنْ إذَا ما خِفْتَ يوماً مُسلَّطاً
عليكَ ،ولا يَحْتالُ مَنْ لا يُدَا هِــــنُ

٣- ولا تَكُ ذَا لونينِ يُبْدَى بَشَاشَـةً
وفي صدْرِهِ ضَبٌ من الغِلِّ كَامِــــنُ

=== عزو ، وفيه : فللموت ... ، وفي الدرر اللوامع ، للشنقيطي ٢/ ٣١ ، بغير عزو ،وفيه : ... كما لخراب الدور ... ، وفي معجم شواهد العربية ، لعبد السلام هارون ١/ ٣٩١ ، منسوب إلى سابق البربرى ،
البيت (١) في شعره ١٨ .
البيتان (٢ ، ٣) غير موجودين في شعره .

(*) البيت (٢) في العقد الفريد لابن عبد ربه ١/ ١٤٥ ،منسوب إلى سابق البلوى ، وفيه : ... ولن يحتال ...
الأبيات (١ ، ٢ ، ٣) في شرح مقامات الحريرى ،للشريشي ٢/ ٦ ، منسوبة إلى سابق البربرى .
البيت (٣) في كتاب الأفعال ، للسرقسطي ٢/ ٢٠٩ ، منسوب إلى سابق البربرى ، وفيه :
.... ذا وجهين تبدى بشاشة وفي القلب ضَبٌّ راهن الغل كامن
الأبيات (١-٣) في شعره ٥ .

(٣٠)

النون المضمومـــة

(بحر الطويل)

١- أَلَمْ تَرَ أَنَّ الحِلْمَ زَيْنٌ مُسَــوِّدٌ
لِصَاحِبِهِ ، والجَهْلَ للمرءِ شَائِــنُ

٢- فَكُنْ دافِنًا لِلشَّرِّ بالخيرِ تَسْتَرِحْ
مِنَ الهَمِّ ، إِنَّ الخيرَ للشَّرِّ دافِـــنُ

٣- وهَجْرُ الهَوى للمرءِ ،فاعْلَمْ ،سعادةٌ
وطولُ الهَوى رَيْنٌ على القلبِ رَائِــنُ

البيتان (١ ، ٢) في روضة العقلاء ، لابن حِبّان البستى ٢٧٩ ،
بغير عزو .
البيتان (٢ ، ٣) في شرح مقامات الحريرى ، للشريشي ١/ ٤٤٤ ،
منسوبان إلى سابق البربرى .
البيت (١) غير موجود في شعره .
البيتان (٢ ، ٣) موجودان في شعره ٥ .

(*)
(٣١)

(بحر الطويل)

١- ألا رُبَّما صارَ البغيضُ مُصَافِيـــًا
وحالَ عَنِ العَهْدِ الصديقُ المُشافِـــنُ

٢- فلا تَغترِرْ ما عِشْتَ من مُتَجمِّـــلٍ
بِظاهرِ ودٍ قد تُغطّى البطائِـــنُ

(**)
(٣٢)

النون المضمومـــة

(بحر الطويل)

١- لِسانُكَ لِلدُّنيا عدوٌّ مُشَاحِـــنٌ
وقَلْبُكَ فيها للسانِ مُبايِـــنُ

٢- وما ضرَّهاما قُلْتَ فيها وقَدْ صَفَا
لها مِنْكَ ودٌّ في فُؤادِكَ كامِـــنُ

(*) البيتان في تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ق ٧٤ أ منسوبان إلى سابق البربري ،وفيه ٢ : . . .من يتجمل بظاهر ود قد يغطي البطائن . وهو خطأ لا يستقيم به إعراب البيت ولا قافيته . . .
البيتان في تهذيب تاريخ دمشق لعبد القادر بدران ٦/ ٤٢ ، منسوبان إلى سابق البربري .
البيتان ١-٢ موجودان في شعره ١٨ .

(**) البيتان في بهجـــة المجالس لابن عبد البر ٢/ ٢٨٦ ،منسوبان إلى سابق البربري .
١-٢ غير موجودين في شعره .

(٣٣)

النون المضمومة

(بحر الطويل)

١- فحتّى متى تَلْهُو بِمنْزِلِ باطِـلٍ
كأنَّكَ فيهِ ثابتُ الأصْلِ قاطِـنُ

٢- وتَجْمعُ مالاً تأكُلُ الدهرَ دائِبًا ،
كأنَّكَ في الدُّنْيا لِغَيرِكَ خـازِنُ

---

* البيتان في شرح مقامات الحريري ، للشريشي ١٤/٣ ،منسوبان إلى سابق البربري .

البيتان ١ - ٢ موجودان في شعره ٥ .

يلحظ أن المقطعات السابقة بقافية النون المضمومة كأنها من قصيدة واحدة ،لأنها على وزن واحد وبقافية موحدة ،وفي معان متناسبة ،ولكنها وردت متفرقة بحسب مواضع الاستشهاد بها ، ولم توجد في مصدر يجمع بينها حتى نستطيع جمعها في قصيدة واحدة .

(٣٤)

النون المضمومــة

(بحر الكامل)

١- ياعَامِرَ الدُّنْيا أتعمُرُ منْــزِلاً
لَـمْ يبقَ فيهِ مع المنيـةِ سَـاكِـنُ

٢- الموتُ شيءٌ أنتَ تَعْلَمُ أنــَّـه
حَـقٌّ ، وأنتَ بِذكْرِهِ مُتَهــاوِنُ

٣- إن المنيةَ لا تُؤامِرُ من أتَـتْ
في نَفسِـهِ - يوماً - ولا تَسْـتَأذِنُ

٤- إعلَمْ بأنكَ -لا أبَا لك - في الذى
أصْبحْتَ تَجمعُهُ لِغَيرِكَ خَـازِنُ

---

* البيتان (٣، ٤) في روضة العقلاء ، لابن حِبَّان البستي ٣٠٩-٣١٠ ، بغير عزو .
الأبيات (١ ، ٢ ، ٣) في التبصرة ، لأبي الفرج بن الجوزى ٨٤٨ ، الجزء غير المطبوع ، بغير عزو ، وفيه
١: يا ساكن الدنيا ... لم يبق فيه من المنية ...
البيتان (١ ، ٢) في تحفة الأخيار في الحكم والأمثال والأشعار ، لكاتب جلبي ، ق ٧٩ ، منسوبان إلى سابق البربرى .
الأبيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) غير موجودة في شعره .

(٣٥)

النون المضمومـــة

(بحر الطويل)

وقبْلَ نُزولِ الحَرْبِ تُملا الكَنائِـــنُ

---

* شطر البيت في التمثيل والمحاضرة ،لأبي منصور الثعالبي ١٥٢ ، بغير عزو . وفي بهجة المجالس ، لابن عبد البر ١ / ٤٥٤ ، منسوب إلى سابق البربري ، وفيه : وقبل أُوان الرَّمْي . . . ، وفي مجمع الأمثال ، للميداني ٢ / ١٠١ ، بغير عزو ، وفيه : قبل الرِّماء . . . ، وفي المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشري ٢ / ١٨٦ ، بغيـــر عزو ،وفيه : . . . الرِّماء تُملأ .
شطر البيت غير موجود في شعره .

(٣٦)

الهاء المفتوحة

(بحر البسيط)

١- نَرْجُوا ونأْمُلُ أياماً تُعَدِّلنا
سريعةَ المرِّ تطوِينا و نَطْوِيها

٢- واللّهِ ما قَنِعتْ نَفْسٌ بِما رُزِقتْ
من المَعِيشةِ إلا سوفَ يَكْفِيها

٣- النّفْسُ تكْلفُ بالدُّنْيا ، وقد عَلِمتْ
أنّ السلامةَ منها : تَرْكُ ما فيها

٤- فلا الإقامةَ تُنْجِي النّفْسَ من تَلفٍ
ولا الفِرارَ من الأحْداثِ يُنْجِيها

٥- أموالُنا لِذَوِي المِيراثِ نَجْمعُها
ودُورُنا لِخَرابِ الدهرِ نَبْنِيها

٦- واللّهِ ما عَمَرتْ في الأرضِ ناظِرةٌ
إلا ومرُّ الليالي سوفَ يُفْنِيها

٧- وكُلُّ نَفْسٍ لها زَوْرٌ يُصبِّحُها
من المنيةِ - يوماً - أو يُمسِّيها

٨- وللحُتوفِ تُربّي كلُّ مُرْضِعةٍ
وللحِسابِ بَرَى الأرْواحَ بارِيها

٩- لا تَبْرحُ النّفْسُ تَنْعَى وهي سالِمةٌ
حتى يقومَ بِنادِي القومِ ناعِيها

١٠- ولَنْ تَزالَ طَوالَ الدهرِ ظَاعِنـةً
حتّى تُقِيمَ بِوادٍ غيرِ وَادِيهــا

١١- قِسْ بالتَّجاربِ أحْداثَ الزمانِ كما
تقيسُ نَعلًا بِنعْلٍ حِينَ تَحْذُوهـا

١٢- كَمْ مِنْ عَزيزٍ سَيلْقى بَعْدَ عِزَّتـِهِ
ذُلًا ، وضَاحِكَةٍ يوماً سَنبكِيهــا

١٣- تِلكَ المَدائنُ بالآفاقِ خَالِيــةً
أمْسَتْ خلاءً ، وذاقَ الموتَ بانِيهــا

١٤- أينَ المُلوكُ التي عن حظِّها غَفلتْ
حتى سَقاهَا بكأسِ الموتِ سَاقِيهــا

١٥- غَرَّتْ زماناً بِمُلْكٍ لا دوامَ لــهُ
- جَهلًا - كما غَرَّ نفْساً من يُمنِّيهــا

١٦- وصَبَّحتْ قومَ عادٍ في دِيارِهــمُ
بِمقْطَعٍ ، يوم عادَتْهُمْ عَوادِيهــا

١٧- وتُبَّعاً وثمودَ الحِجْرِ غَادَرهُــمْ
رَيبُ المَنُونِ رميماً في مَغانِيهــا

١٨- فكيفَ يَبْقى على الأحْداثِ غابِرنا
كأنَّنا قد أظلَّتْنَا دَواهِيهــا

---

* البيتان (١٢، ١٤) في البيان والتبيين ، للجاحظ ١/ ١٢٠ ، بغير عزو ،
الشطر الثاني من البيت (٣) في رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها ، للمبرد ١٧٢ ، بغير عزو .

===

. . . .

=== البيت (١٤) في العقد الفريد، لابن عبد ربه ٣/١٣٦، بغير عزو،
الأبيات (٣، ٤، ٥، ٧) في روضة العقلاء، لابن حِبّان البستي ٣٧٩، بغير عزو، وفيه ٣: والنفس تكلف . . .
الأبيات (١، ٥، ١٤) في بهجة المجالس، لابن عبد البر ٢/٣٣٧، منسوبة إلى سابق البربري، وفيه ٥: . . . ودارنا لخراب . . .
الأبيات (٢، ٣، ٥، ٦، ١١) في فصل المقال، لأبي عبيد البكري ٣٢٣، منسوبة إلى سابق البربري.
البيت (٣) في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ١/٥٢٢، ٢/٣٩١ منسوب إلى سابق البربري. وفي مجمع الأمثال للميداني ١/١٤، بغير عزو وفيه: والنفس.
البيتان (٣، ٥) في تاريخ دمشق، لابن عساكر ٤/ق ٧٣ أ، منسوبان إلى سابق البربري، وفيه ٣: والنفس تكلف . . .
الأبيات: (٢، ٣، ٥، ٦، ١١) في الحماسة المغربية، للجرّاوي ق ١٠٩، منسوبة إلى سابق البربري، وفيه ٦: والله ما غزت في الأرض قاطرة . . . إلا وضرب الليالي . . .، ١١: . . . كما تقس نعلاً بتعل حين تحروها.
الأبيات (١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨) في شرح مقامات الحريري، للشريشي ٣/٣٣٨ منسوبة إلى سابق البربري، وفيه ١٤: . . . عن خطبها غفلت . . .
والأبيات (١، ٥، ٨، ٩، ١٠، ١٢) في المصدر نفسه ٢/١٢١، منسوبة إلى سابق البربري، وفيه ١: نلهو ونأمل . . .
الأبيات (٣، ٥، ١٤) في محاضرة الأبرار، لمحي الدين بن عربي ٢/٤٤٢، بغير عزو، وفيه ٣: والنفس تكلف . . .، ١٤: . . . . . . عن خطبها غفلت . . .
الأبيات (٢، ٣، ٥) في عين الأدب والسياسة، لأبي الحسن ابن هذيل ٢٣٣، بغير عزو، وفيه: والله لو قنعت . . . إلا سوف يأتيها.
البيتان (٣، ٥) في الوافي بالوفيات، للصفدي ١٥/٧٠ ر، منسوبان إلى سابق البربري، وفيه ٣: والنفس تكلف . . .
البيت (٥) في حياة الحيوان للدَّمِيْري ١/٤٩٣، بغير عزو، وفي الصحاح، للجوهري مادة لوم ٥/٢٠٣٦، وفي تاج العروس،
===

(*)
(٣٧)

الهاء المفتوحة

(بحر البسيط)

١- إذَا زَجرْتَ لَجُوجاً زِدْتَهُ عَلَقَا
ولجّتِ النّفْسُ مِنهُ في تَمادِيهَا

٢- فَعُدْ عليهِ ، إذَا ما نَفْسُه جَمحتْ
باللينِ مِنكَ ، فإنَّ اللينَ يَثْنِيهَا

=== للزبيدى ،مادقلوم ٩/٦٦ ، بغير عزو فيهما . وفي كتاب القوافي ،لأبي يعلى التنوخي ٦٩ ، بغير عزو ، وقد نسبه المحقق خطأً إلى عبيدالله بن الحسن العنبرى .
القصيدة موجودة في شعره في مقطعات متفرقة ٤ ،٥ عدا الأبيات : ٤ ، ٧ ، ١٣ .

(*) البيتان في أدب الدنيا والدين ، للماوردى ٧٤ ، منسوبان إلى سابق البربرى .
١ - ٢ موجودان في شعره ٢٧ و فيه يقول : "ومما أنشد له ابن عبد البر . . ." ولم أجد البيتين في جامع بيان العلم ، ولا في بهجة المجالس .

(٣٨)

الهاء المفتوحة

(بحر البسيط)

١ - ولِلنُّفوسِ - وإنْ كانتْ على وَجَلٍ -
من المنيةِ آمالٌ تُقوِّيها

٢- فالصّبْرُ يَبْسطُها ، والدهرُ يَقْبِضُها
والنّفْسُ تَنْشُرها ، والموتُ يَطْويها

---

* البيتان في روضة العقلاء ، لابن حِبّان البستي ٣٨٠ ، بغير عزو وفيه ١ : والنفوس ... ، وفي أدب الدنيا والدين ، للماوردى ١٤٧ ، وقد نسبهما المحقق إلى سابق البربرى مستنداً على المنهاج . وفي شوق النفوس وأُنس العروس ، مخطوط ق ٣٧ ، بغير عزو ، وفيه ٢ : والمرء يبسطها ... والنفس نسرها ...
البيتان غير موجودين في شعره .

ثانيا ـ الشعر الذى نسب له ولغيره

(١)

الهمزة المضمومة

(بحر البسيط)

١ـ سَنَّ الضَّغَائِنَ آباءٌ لنَا سَلَفُوا
فَلَنْ تَبِيدَ وللآباءِ أَبْنَاءُ

---

* البيت في عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/١٠٧ ، بغير عزو ، وفي حماسة البحترى ١٨ ، منسوب إلى طريف بن دَيْسَق ، التميمي ، وفيه : جنا العداوة آباء لنا سلفت ... ، وفي بهجة المجالس ، لابن عبد البر ١/٤٠٩ ، منسوب إلى سابق ، وفيه : جنى الضغائن ... ، وفي شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ٧/١٤١ ، بغير عزو ، وفيه : أحيا الضغائن ... ، وفي ١٧/١٢٣ ، وقد جاء في التعليق عليه قوله " قال ابن الكلبي يحكي الناس هذا البيت سابقا للزبير ، وما هو إلا لقيس بن عاصم ".
وفي المستطرف ، للأبشيهي ١/٢١٢ ، بغير عزو ، وفيه : سن العداوة ...
والراجح أن البيت لسابق البربرى .
البيت غير موجود في شعره .

(٢)

البـاء المضمومة

(بحر البسيط)

١- قَدْ يَنفعُ الأدبُ الأحْداثَ في مَهَلٍ
وليس يَنفعُ بعد الكِبْرةِ الأدبُ

٢- إنَّ الغُصونَ إذَا قوَّمْتها اعْتدلــتْ
ولن تَلِينَ إذَا قوَّمْتَها الخُشُــبُ

---

* البيتان في البيان والتبيين ، للجاحظ ٢/٢٣٣ ، بغير عزو ،
والثاني في المصدر نفسه ٣/٨٣ ، بغير عزو أيضا .
البيت (٢) في حماسة البحترى ٣٧٣ ، منسوب إلى صالح بن عبد القدوس .
البيتان في جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكرى ٢/٢٧٩-٢٨٠ ، بغير عزو ،وفيه ٢ : ... ولا يلين إذا قوّمته الخَشَبُ .
البيتان في التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي ١٦٤ ، بغير عزو ،وفيه ٢ : ... ولا يلين إذا قوّمته الخَشَبُ .
البيتان في حماسة الظرفاء ،لأبي محمد العبد لكاني ٢/٤٩ ، بغيرعزو ،وفي أدب الدنيا والدين ، للماوردى ٢٢٨ ، بغير عزو ، وفيه ١ : .... في صغر ... وليس ينفع عند الشيبة الأدب ،
٢ : ... ولا يلين إذا قوّمته الخَشَبُ .
البيتان في بهجة المجالس ، لابن عبد البر ١/١١٣-١١٤ منسوبان إلى سابق البربرى ،وفي جامع بيان العلم للمؤلف ١/٨٣ ، منسوبان إلى سابق البربري ،
البيتان في فصل المقال ،لأبي عبيد البكرى ١٨٢ ، منسوبان إلى سابق البربرى .
البيتان في التبصرة لأبي الفرج بن الجوزى ق ٩٣٥ ، مخطوط وفيه ١ : ... وليس ينفع في ذى الشيبة الأدب ،
٢ : ... ولا يلين إذا قومته ...
البيت (٢) في شرح مقامات الحريرى ، للشريشي ٥/٢١٣ ،بغيرعزو .

===

(٣)(*)

الباءُ المضمومة

(بحر المتقارب)

١ - إذا عِبْتَ أمراً فلا تأْتِهِ
وذُو اللُّبِّ مُجْتَنِبٌ ما يَعيبُ

=== البيت (٢) في عين الأدب والسياسة ، لأبي الحسن بن هذيل ٢٠ ، بغير عزو .
البيتان في تحفة الأخيار ، لكاتب جلبي ق ٩ ، بغير عزو ، وفيه
١ : ... في صغر . وليس ينفع في الشيخوخة الأدب ،
٢ : ... ولن يلين إذا قوّمته الخَشَبُ .
والراجح أن البيتين لسابق البربري ، إذْ هما في نفس مسار شعره ، وأكثر المصادر تنسبهما إليه .
البيتان في شعره ٢ منسوبان إلى سابق البربري ، برواية مختلفة .

(*) البيت في حماسة البحتري ١٧٤ ، منسوب إلى سابق البربري وفي جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/ ١٩٥ ، منسوب لأبي العتاهية وفي مجمع الأمثال ، للميداني ٢/ ٢٣٨ ، بغير عزو ، وفيه :
... فذو اللب ...
البيت في ديوان أبي العتاهية ٣٧ ، بتحقيق د/ شكري فيصل ، في قصيدة مطولة منسوبة إلى أبي العتاهية .
البيت غير موجود في شعره .

(٤)

الحاء المكسورة

(بحر الكامل)

١ - سَبقَتْ يَداكَ لهُ بعاجِلِ طَعْنةٍ
سَفِهَتْ لِمَنْفذِهَا أُصولُ جَوانحِ

---

* البيت في أمالي اليزيدي ٥ ، في قصيدة لزياد الأعجم يرثي بها المغيرة بن المهلب . وفي ذيل الأمالي لأبي علي القالي ١٠ ، ضمن قصيدة لزياد الأعجم يرثي بها المهلب بن أبي صفرة . البيت في الزاهر في معاني كلمات الناس ، لأبي بكر الأنباري ٤٩٩/١ ، منسوب إلى سابق البربري ، وقال بعده : ويروى للصلتان ولزياد الأعجم ، وفي المصدر نفسه ٢٩٩/٢ ، منسوب إلى الصلتان . البيت غير موجود في شعره .

(٥)

الشين المكسورة

(بحر الوافر)

١ - فلا تَمذُلْ بِسرِّكَ ،كلُّ سِـــرٍّ
إذَا ما جاوزَ الإثْنيـــن فَاشـــي

---

* البيت في غريب الحديث ،لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢/ ٢٦٥ ، منسوب إلى سابق البربري . وفي الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري ٢/ ١٥٥ ، بغير عزو.
الشطر الآخر منه في جمهرة الأمثال ،لأبي هلال العسكري ١/ ٥١١، منسوب إلى سابق البربري ، وفيه : ألا كل سر جاوز اثنين شائع.
البيت في أدب الدنيا والدين ،للماوردي ٢٩٧ ، بغير عزو ،وفيه : فلا تنطق بسرك ... وفي بهجة المجالس ،لابن عبد البر ١/ ٤٥٩ ، منسوب إلى سابق البربري ،وفيه : فلا تخبر بسرك ... وفي أساس البلاغة ،للزمخشري مادة مذل ، بغير عزو ،وفي لباب الآداب لأسامة بن منقذ ٢٤١ ، بغير عزو ، وفيه : ولا تنطق بسرك ... وفي اللسان لابن منظور مادة مذل ، منسوب إلى قيس بن الخطيم.
والبيت في ديوان قيس بن الخطيم ٢٣٥ ، تحقيق د/ ناصر الدين الأسد ، ضمن الشعر المنسوب إليه.
البيت غير موجود في شعره.

(٦)

العين المضمومـــة

(بحر الطويل)

١- يُخادِعُ ريبَ الدهرِ عن نفْسِهِ الفتى
سَفَاهًا ، وريبُ الدهرِ عنها يُخادِعُــهُ

٢- ويَطْمعُ في سوفَ ويَهْلِكُ دُونَها
وكَمْ مِنْ حريصٍ أهْلَكَتْهُ مَطامِعُــهُ

---

* البيت (٢) في حماسة البحترى ٢٠٢ ، منسوب إلى عبدالله بن الأعلى الشيباني ، وفيه : ويطمع فيما سوف يهلك دونه . . .
البيتان في تاريخ دمشق ، لابن عساكر ٤/ق ٧٤ أ ، منسوبان إلى سابق البربرى . وفي المستطرف للأبشيهي ١/ ٨٢ ، منسوبان إلى سابق البربرى .
١-٢ موجودان في شعره ١٩ .

(٧)

القاف المضمومة

(بحر الكامل)

١- والناسُ في طَلَبِ المعَاشِ ،وإنَّمـا
بالجَدِّ يُرْزَقُ مِنْهم مَنْ يُـرْزَقُ

٢- ولو أنَّهم رُزِقُوا على أقْدارِهِمْ
ألفيتَ أكْثر ما ترى يتصـدَّقُ

٣- ما الناسُ إلا عَامِلانِ ،فَعامِـلٌ
قد ماتَ مِنْ عطَشٍ ،وآخَر يَغْـرَقُ

----

* الأبيات (١-٣) في بهجة المجالس ،لابن عبد البر١/ ١٩١ ، منسوبة إلى سابق البربري . وفي تاريخ بغداد ، للبغدادي ٩/ ٣٠٤ ،منسوبة إلى صالح بن عبد القدوس في قصيدة قافية نسبت إليه . ولم تنسب في معجم الأدباء لياقوت ٢/ ١٢ إلى صالح ابن عبد القدوس ، كما ذكر محقق بهجة المجالس ،إذ وردت الأبيات في الهامش نقلاً عن تاريخ بغداد .

البيت (١) في المستطرف ،للأبشيهي ١/ ٣٠ ، بغير عزو .
الأبيات (١-٣) غير موجودة في شعره .

(*)
(٨)

القاف المضمومة

(بحر الكامل)

١- المرءُ يَجْمعُ والزمانُ يُفرِّقُ
ويظلُّ يَرْقعُ والخُطوبُ تُمزِّقُ

٢- ولأنْ يُعادِي عاقلًا خيرٌ لهُ
مِنْ أنْ يكونَ لهُ صديقٌ أحمَقُ

(**)
(٩)

القاف المضمومة

(بحر الكامل)

١- لا ألفينَّكَ ثاوياً في غُرْبةٍ
إن الغريبَ بكلِّ سَهْمٍ يُرْشَقُ

(*) البيتان في بهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٥٣٨ ، منسوبان إلى سابق البربرى ، وفيه ٢: ولئن يعادى .. وهو خطأ . وفي تاريخ بغداد ، للبغدادى ٩/ ٣٠٤ ، في قصيدة قافية منسوبة إلى صالح ابن عبد القدوس .
البيتان غير موجودين في شعره .

(**) البيت مع بيتين آخرين في روضة العقلاء لابن حِبّان البستي ٢٨٧ ، بغير عزو .
البيت في بهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٢٢٣ ، منسوب إلى سابق البربرى . وفي تاريخ بغداد للبغدادى ٩/ ٣٠٤ في قصيدة منسوبة إلى صالح بن عبد القدوس .
البيت غير موجود في شعره .

(*)
(١٠)

القاف المضمومــــة

(بحر الكامل)

١- وإذَا حَملتْ إلى سَفيهٍ حِكْمةً
فلَقَدْ حَملتَ بِضاعةً لا تَنْفَــــقُ

(**)
(١١)

القاف المضمومــــة

(بحر الكامل)

١- إنَّ الترفُّقَ للمُقيمِ مُوافِـــــقٌ
وإذَا يُسافِرُ فالتَّرفُّقُ أوْفَـــــقُ

٢- لو سارَ ألفُ مدجَّجٍ في حاجــةٍ
لم يَلْقَهَا إلا الذى يَترفَّـــقُ

(*) البيت في جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/١١١ ، وقد تردد في نسبته إلى صالح بن عبد القدوس ، وسابق البربرى . ولم أجده في القصيدة القافية المنسوبة إلى صالح بن عبد القدوس في تاريخ بغداد ٩/٣٠٤ .
البيت موجود في شعره ٢٦ .
ويلحظ أن أبيات القاف المضمومة غير البيت الآخر كلها في قصيدة واحدة تنسبت إلى صالح بن عبد القدوس في تاريخ بغداد ٩/٣٠٤ .

(**) البيت (٢) مع بيتين آخرين في روضة العقلاء لابن حِبّان البستي ٢٨٧ ، بغير عزو .
البيتان في بهجة المجالس لابن عبد البر ١/٢٢٠ ، منسوبان إلى سابق البربرى . وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٩/٣٠٥ ، منسوبان إلى صالح بن عبد القدوس .
البيتان غير موجودين في شعره .

(١٢)

الميم المكسورة

(بحر الطويل)

١- وكائِنْ تَرى مِنْ صَامِتٍ لك مُعْجِبٍ
زيادَتُهُ أو نَقْصُهُ في التَّكلُّمِ

٢- لسانُ الفتَى نِصْفٌ و نِصْفٌ فؤادُهُ
فلم يبقَ إلا صورةُ اللحمِ والدَّمِ

---

* البيتان في البيان والتبيين ، للجاحظ ١/ ١٧٠ ،منسوبان إلى الاعور الشنّي .
البيت (١) في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٥١٩ ،بغير عزو.
البيتان في حماسة البحترى ٣٦٧ ، منسوبان إلى زهير بن أبي سلمى ، وفي ٢٠٥ من المصدر نفسه منسوبان إلى عبدالله بن معاوية الجعفرى.
البيتان في العقد الفريد لابن عبد ربه ٢/ ٩٠ ، منسوبان إلى زهير بن أبي سلمى . وقد ورد البيتان في جمهرة أشعار العرب لابي زيد القرشي ،ضمن قصيدة زهير.
البيت (٢) في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى ٢/ ١٤٤ ، منسوب إلى زهير. وقال في التعليق عليه: " فقلنا: لم يقله زهير ، إنما قاله زياد الاعجم ،فقال : لا ، قاله من هو أعظم تجربة ، وأنطق لساناً منه ".
البيتان في أدب الدنيا والدين للماوردى ٢٦٦ ،منسوبان إلى الاعور الشنّي .
وفي بهجة المجالس لابن عبد البر١/ ٥٦ ، بغير عزو ،وفيه ١: .... من ساكت ...
البيت (١) في تاريخ دمشق لابن عساكر ٤/ق ٧٣ أ ، منسوب إلى سابق البربرى ، وفيه: ... زيادته أو نقصته ...
البيتان ومعهما آخر في الحماسة البصرية ، لصدر الدين البصرى ٢/ ٨٢ ، منسوبان إلى الاعور الشنّي .

===

....

=== البيتان في عين الأدب والسياسة لأبي الحسن بن هذيل ١٢٢ ، بغير عزو .
و في الوافي بالوفيات ، للصفدى ١٥/ ٧١ ، منسوبان إلى سابق البربرى .
البيت (٢) في المستطرف ، للأبشيهي ١/ ٤١ ، بغير عزو .
البيتان في المحاضرات ، للحسن اليوسي ٢٤٨ بغير عزو .
ولم أجد البيتين في شعر زهير بن أبي سلمى ، بصنعة الأعلم الشنتمرى ، تحقيق : د . فخر الدين قباوة ، وأوردهما المحقق في الهامش ٢٨-٢٩ ، مستنداً إلى ورودهما عند التبريزى في معلقته . كما لم أجدهما في ديوانه بصنعة أبي العباس ثعلب ، تحقيق : د/ فخر الدين قباوة ، طبع دار الآفاق الجديدة ، بيروت وقد أوردهما المحقق في الهامش ٣٧ ، باستناده على الزوزني . وهذا مما يضعف نسبتهما إلى زهير .

البيت (١) في شعره منسوب إلى زهير .
البيت (٢) غير موجود في شعره .

(١٣)

الميم المضمومة

(بحر الكامل)

١- لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأْتِيَ مِثْلَهُ
عارٌ عليكَ إذا فَعَلْتَ عَظِيمُ

---

* كثر الخلاف في نسبة هذا البيت : فقد ورد في الصاحبي لابن فارس ١٥٦ ، بغير عزو ،وفي المؤتلف والمختلف للآمدى ٢٧٣ ، منسوب إلى المتوكل الليثي وفي جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/ ١٩٥ ،منسوب إلى أبي الأسود الدؤلي ،وإلى العزرمي .
وفي فصل المقال لأبي عبيد البكرى ٩٤ ، منسوب إلى المتوكل الليثي ، وإلى سابق البربرى . وفي مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢١٣، ٢٣٨ ، بغير عزو . وفي شرح شواهد المغني ، للسيوطي ٢/ ٧٨٠ قال نقلاً عن شارح أبيات الإيضاح : " اختلف في هذا البيت اختلافاً كثيراً ، فنسب لأبي الأسود الدؤلي ،وقيل : هو لأبي جهينة المتوكل بن نهشل بن مسافع الليثي . ورأيت في تاريخ ابن عساكر بسنده إلى ابن رواحة انه للطرّماح ،وفي شواهد مَنْ للزمخشرى : أنه لحسان ، وقيل للأخطل ،ونسبه الحاتمي لسابق البربرى . وبه جزم الآمدى".
وقد وهم السيوطي في آخر نسبة للبيت ،إذ أن الآمدى جزم بأنه للمتوكل الليثي ... وقال عنه البغدادى في الخزانة ٣/ ٦١٨ ، نقلاً عن اللخمي في شرح أبيات الجمل : " الصحيح أنه لأبي الأسود ، فإن صح من ذكر عن المتوكل فإنما أخذ البيت من شعر أبي الأسود والشعراء كثيراً ما تفعل ذلك".
وقد وجدت البيت في ديوان أبي الأسود بصنعة السكرى ١٦٥ ، ضمن مستدرك الديوان ،وفيه وردت القصيدة كاملة نقلاً عن خزانة البغدادى . وذكر المحقق ١٦٨ الخلاف فيه . والراجح أن البيت ليس من شعر سابق .
البيت في شعره ١٨٠ بترجيح نسبته إلى غير سابق .

(١٤)

النون المضمومــــة

(بحر الطويل)

١- وقد يَقْتُــلُ الجَهْلَ السؤالُ ويشتفي
إذَا عاينَ الأمْرَ المُبِهمَّ المُعَايِــنُ

٢- وفي البحثِ قِدْماً ، والسؤالُ لِذِي العَمى
شِفاءٌ ،وأشْفَى مِنْهُمَا ما تُعَايِــنُ

---

* البيت (٢) في حماسة البحترى ٢٠٣ ،منسوب إلى سابق البربرى ، وفيه : ... شناء ... والصواب ما أثبته .
البيتان في جامع بيان العلم ، لابن عبد البر ١/ ٨٨ ، منسوبان إلى أمية بن الصلت.
البيت (١) في شعره ٦٠
البيت (٢) غير موجود في شعره .
الراجح أن البيتين من شعر سابق البربرى .

ثالثاً - الشعر الذي يظن بأنه له

(١)

الدال المضمومة

(بحر الطويل)

١- وقَدْ رَابَني مِنْ فِعْلِ عَيْنيَّ أَنَّها
إِذَا ذُكِرَتْ سُعْدَى اعْتَراني جُمُودُها

٢- وفي الدَّمْعِ لَوْ جَادَتْ بِهِ العينُ شَاهِدٌ
عليها فَلَمْ يَشْهَدْ لِنفسي شُهودُها

---

* البيتان في النصف الأول من كتاب الزهرة ،لأبي بكر محمد بن أبي سليمان الأصفهاني ١/ ٣٠٢ . وقد قدم لهما بقوله : " ولقد أحسن سابق اليزيدى في قوله " ،واليزيدى قد تكون تصحيفاً وتحريفاً للبربرى .

(٢)

الراء المضمومة

(بحر البسيط)

إنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يا عُمَرُ
يَرَى ويسمعُ ما تأْتي وما تَذَرُ

وأنتَ في غَفْلةٍ عن ذاكَ تركبُ ما
عنه نهاكَ فأينَ الخوفُ والحَذَرُ

تُجاهِرُ اللّهَ إقْدَاماً عليهِ ومِنْ
حُثَالةِ الناسِ تَسْتَحْيي وتَسْتَتِرُ

فانْظُرْ لِنَفْسِكَ يا مِسْكينُ في مَهَلٍ
ما دامَ يَنْفَعُك التفكيرُ والنظَرُ

قِفْ بالمَقابِرِ وانْظُرْ إنْ وقفتَ بها
للّهِ دَرُّكَ ماذا تسترُ الحُفَرُ

ففيهمُ لكَ يا مغرورُ موعِظَةٌ
وفيهمُ لكَ يا مَغرورُ مُعتبَرُ

---

* الأبيات في المحاضرات ، للحسن اليوسي ١٩٢ ، وقد قدم لها بقوله : " ومما يروى لعمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- قوله ". والأبيات على وزن القصيدة الرائية وقافيتها ،وهي القصيدة التي وجهها سابق البربرى إلى عمربن عبد العزيز يعظه بها . وربما كانت هذه الأبيات منها،خاصة وأنها تسير في الإطار المعنوى الذى بنيت عليه القصيدة الرائية .

الفصل الثاني

مصادر شعره

لم يصل إلينا ديوان سابق البربري مجموعًا ، على الرغم من ورود إشارات عند القدماء تثبت أن له ديوانًا ، فأبو عُبيد البَكْري المتوفى سنة سبع وثمانين وأربعمائة للهجرة يقول في كتابه " فصل المقال " : " وهو في ديوان شعر سابق البربري من قصيدة له "(١) . كما وردت عند ابن خير إشارة عن أبي بكر بن العربي تدل على ذلك ، حيث قال : " ... كان سابق البربري .... فذكر أخباره وقصيدًا واحدًا ، ثم سائر قصائده بروايات مختلفة ، قال ابن العربي : تقيدتْ في مواضعها عندنا ، والحمد لله "(٢) .

كما يذكر الأستاذ فؤاد سزكين (٣) أن أبا الحسين أحمد بن جعفر ابن المُنادِي المتوفى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة للهجرة له كتاب " أخبار سابق البربري وأشعاره " وأنه كان معروفًا في الأندلس كما بيّن ابن خير.

فأبو عبيد البكري من علماء القرن الخامس الهجري ، وأبو بكر بن العربي من علماء القرن السادس الهجري ، يثبتان أن لسابق البربري ديوان شعر ، وأنه كان موجودًا إلى القرن السادس الهجري . كما أن بعض من ترجم لسابق البربري من القدماء ذكر أن له شعرًا كثيرًا ، ومنهم

---

(١) فصل المقال ١٨٢ .
(٢) انظر فهرسة ابن خير ٤٠٧ .
(٣) تاريخ التراث العربي م ٢ جـ ٣ / ٤٢ .

الصفدى الذى يقول : " وله معه - عمر بن عبد العزيز - أخبار غير هـذه وأشعار في الوعظ كثيرة "(١) . ولعل الصفدى ،وهو من القرن الثامن الهجرى ،قد اطلع على شعر سابق البربرى حتى قال هذا القول .
وقد ظنّ الدكتور شوقي ضيف أن سابقًا(٢) كان شاعرًا مكثرًا باعتماده على نص الجاحظ الذى قال فيه : " وقالوا لو أن شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربرى كان مفرّقًا في أشعار كثيرة ، لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات ، ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق . ولكنّ القصيدة إذا كانت كلها أمثالاً لم تَسِرْ ، ولم تَجْرِ مجرى النوادر . ومتى لم يخرج السّامع من شئ إلى شئ لم يكن لذلك عنده موقع "(٣) .
ولكنّا لا نفهم من هذا النص ما فهمه الدكتور شوقي ضيف ،بل نفهم منه : أنه تعليل لعدم انتشار شعر سابق ، وخفّته على ألسنة الرواة ، إذ هو في معظمه أمثال وحكم لا يصبر على سماعها أكثر الناس . وقد تمنّى الجاحظ لو أن تفرقت هذه الحكم في أشعار كثيرة ، حتى لا تخلص القصيدة كلها للحكمة والموعظة ، بل تأتي الحكم خلال الأغراض المتنوعة لتقبل عليها الأسماع والقلوب .

ومع هذه الإشارات إلى ديوان سابق ، وكثرة شعره فإننا لم نعثر على هذا الديوان الذى أشاروا إليه ، ولم نجده فيما بحثنا فيه

---

(١) انظر الوافي بالوفيات ١٥ / ٧٠ .
(٢) العصر الإسلامي ٣٧٦ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٠٦ .

من المظان المخطوطة (١) . وهذا يضع أمامنا عدّة احتمالات بشأن هذا الديوان ، فقد يكون مفقوداً مع ما فقدناه من تراثنا الغالي ، وقد يكون مطموراً تراكم عليه غبار السنين مع الكثير من تراثنا المطمور في المكتبات الخاصة أو العامة ، ولمّا تصل إليه الأيدي لتزيح عنه ما حجبه . وقد يكون من أسباب ضياعه أنه لم يجد من القدماء عناية ،لعدم اهتمامهم بشعر سابق البربري كاهتمامهم بالدواوين الأخرى لمشاهير الشعراء التي فرضت وجودها على الأدباء والرّواة ، فعنوا بها ، وتوارثوا روايتها إلى أن وصلت إلى أيدينا .

وهذا الاحتمال الأخير راجح لما ذكرناه من تعليل الجاحظ الآنف الذكر ،ولما وجدناه من أغراض شاعرنا ، حيث قصر شعره على الوعظ والتزهيد في الدنيا ، وفي الحكمة والأمثال ولم يقله في مدح الخلفاء والولاة ، ولا في الغزل والغناء ، حتى يلفت الانتباه إليه ويدعو إلى حفظه . ويؤيد هذا الاحتمال أن معظم الاختيارات (٢) الشعرية لا تذكر شعراً له .

---

(١) مثل السفينة ، لابن مبارك شاه ،مصوّرة مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى . ومنتهى الطلب من أشعار العرب ، لمحمد بن مبارك بن ميمون ،مصوّرة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ،الجزء الأول ، والثاني ، والثالث . و مجموعة شعر العرب المولدين ،لمؤلف مجهول ، مصوّرة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

(٢) مثل الأصمعيات ، والمفضليات ، وحماسة أبي تمام ، وحماسة ابن الشجري ، والأشباه والنظائر ، للخالديين ، وديوان المعاني ، لأبي هلال العسكري ، الأمالي ، للقالي ،وأمالي المرتضى ، والأمالي لليزيدي . . وغيرها . .

ومع هذا الإغفال لشعره فإن قصائداً ومقطّعاتٍ منه قد تناثرت في المصادر المختلفة ، واستُشْهِدَ بها في المواضع المتنوعة ، فوصلت إلينا ،حيث وجدت من يعنى بجمعها والتأليف بين شتاتها .

وقد كان الأستاذ عبدالله كنون أديب المغرب المعاصر أول من حاول أن يجمع أخبار سابق البربري وشعره ، حيث نشره في مقالات متتالية في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . ثم جمعها بعد ذلك و نشرها ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م . ومع تقديري لهذا الجهد المشكور له فإن لي عليه بعض الملحوظات أوجزها فيمايلي :

١ - أن ما جمعه من شعر سابق البربري يقلّ عما جمعته له ، إذ أنه لم يرجع إلى كل ما رجعت إليه من مصادر .

٢ - أنه ذكر في آخر مقالته إلى أن عدد الأبيات التي جمعها تسعة وستون ومائة بيت (١) ، وعندما أحصيت ما جمعه من الأبيات وجدته سبعة وستين ومائة بيت ، إذ أنه جمع مع شعر سابق بيتين ذكرا في خبر ورد في تاريخ دمشق (٢) هو : " دخل سابق البربري على عمر بن عبد العزيز ،فقال له عمر : " عظني يا سابق وأوجز ، قال : نعم ياأمير المؤمنين ،وأبلغ إن شاء الله ، فقال : هات ، فأنشد :

---

(١) انظر سابق البربري شاعر من المغرب ، لعبدالله كنون ٢٧ .
(٢) ٤/ق ٧٤ أ .

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التُّقى
وَوافيتَ بعدَ الموتِ مَنْ قدْ تزوَّدا

نَدِمْتَ على أنْ لا تكونَ شَرِكْتَهُ
وأرْصدتَ قبلَ الموتِ ما كانَ أرْصَدا

والبيتان من قصيدة لأعشى بني قيس بن ثعلبة وردت في السيرة النبوية ، لابن هشام ، وقصتها مشهورة (١) . ولذا لا يعدّ هذان البيتانْ من شعر سابق البربري .

٣ - لم يشر الأستاذ كنون إلى مصادره التي جمع منها الشعر إلا نادراً ، مع عدم العناية بتعيين الجزء والصفحة ، وعدم الاهتمام بتخريج الأبيات وذكر رواياتها التي وردت بها . ثم إنني برجوعي إلى المصادر التي أشار إليها وجدت الرواية تختلف أحياناً عن هذه المصادر .

٤ - لم يعتمد في إيراد القصائد والمقطّعات أيّ نوعٍ من التصنيف سواء كان الترتيب الأبجدى للقوافي ، أو الترتيب الزمني ، أو حسب الأغراض .

لهذه الملحوظات على ما جمعه الأستاذ عبدالله كنون ، ولأنني لم أجد من اهتم بشعر سابق البربرى غيره ، كان لا بد أنْ أصنع ديواناً لشعره معتمدةً على ما وجدته في بطون الكتب المظانّ منها و غير المظانّ ، المخطوط منها والمطبوع .

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٨٧ .

وعند محاولة تصنيف هذه المصادر وجدت أنها متنوعة ،من حيث اللون العلمي الذى تنتمي إليه ، والفترة الزمنية . ومن حيث كثرة الشعر المنسوب إليه أو قلته فيها .. لهذا فقد قمت بدراسة هذه المصادر بناء على هذه الاعتبارات المختلفة . فمن حيث اللون العلمي الذى تنتمي إليه هذه المصادر وجدت أنها تتضمن ثمان مجموعات هي : ١ - كتب اللغة والمعاجم، ٢ - كتب الأمثال ، ٣ - كتب التاريخ والتراجم ، ٤ - كتب الأدب الديني ، ٥ - كتب المصنفات الأدبية ، ٦ - كتب النثر الأدبي ، ٧ - كتب الاختيارات الشعرية ، ٨ - كتب الرواية والحديث .

أما المجموعة الأولى فقد تضمنت ستة عشر كتاباً هي :

١ - غريب الحديث ،لأبي عبيد القاسم بن سلّام ، ٢ - رسالة في أعجاز أبيات ، ٣ - الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ، ٤ - مجالس ثعلب، ٥ - المذكر والمؤنث ، ٦ - الزاهر في معاني كلمات الناس ،لأبي بكر الأنباري ، ٧ - أمالي الزجاجي ، ٨ - معاني الحروف ، للرماني ، ٩ - الأفعال ، للسرقسطي ، ١٠ - أساس البلاغة ، للزمخشرى ، ١١ - لسان العرب ،لابن منظور ، ١٢ - مغني اللبيب ، لابن هشام ، ١٣ - شرح أبيات مغني اللبيب ، للبغدادى ، ١٤ - تاج العروس للزبيدى ، ١٥ - الدرر اللوامع ،للشنقيطي ، ١٦ - كتاب القوافي ،للتنوخي .

وتضمنت المجموعة الثانية خمسة كتب هي : ١ - جمهرة الأمثال ، لأبي هلال العسكرى ، ٢ - التمثيل والمحاضرة ،لأبي منصور الثعالبي ، ٣ - فصل المقال ،لأبي عبيد البكرى ، ٤ - مجمع الأمثال ،للميداني ، ٥ - المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشرى .

أما كتب التاريخ والتراجم التي تضمنت شعراً لسابق فهي :

١ - حلية الأولياء ، لأبي نعيم ، ٢ - تاريخ دمشق ، لابن عساكر ، ٣ - مناقب عمر بن عبد العزيز ، ٤ - سيرة عمر بن عبد العزيز ، لأبي الفرج ابن الجوزى ، ٥ - الوافي بالوفيات ، للصفدى ، ٦ - البداية والنهاية ، ٧ - قصص الأنبياء ، لأبي الفداء بن كثير ، ٨ - تهذيب تاريخ دمشق .

وقد ذكرت هذه المصادر التاريخية شعر سابق البربرى خلال ترجمتها له ، كما في تاريخ دمشق ، والوافي بالوفيات ، وتهذيب تاريخ دمشق . أو خلال ترجمتها أو حديثها عن عمر بن عبد العزيز كما في حلية الأولياء ، ومناقب عمر بن عبد العزيز وسيرة عمر بن عبد العزيز ، والبداية والنهاية .

أما كتب الأدب الديني التي أوردت شعراً لسابق ، فهي :

١ - روضة العقلاء لابن حِبّان البستي ، ٢ - أدب الدنيا والدين ، للماوردى ، ٣ - التبصرة لأبي الفرج بن الجوزى .

وحين نأتي إلى المصنفات الأدبية التي تضمنت شعراً لسابق ، نجدها قد بلغت ثمانية عشر كتاباً هي :

١ - البيان والتبيين ، ٢ - الحيوان ، ٣ - المحاسن والأضداد ، للجاحظ ، ٤ - عيون الأخبار لابن قتيبة ، ٥ - الموشّى ، لأبي الطيب الوشّاء ، ٦ - العقد الفريد لابن عبد ربه ، ٧ - بهجة المجالس لابن عبد البر ، ٨ - سمط اللآلي ، لأبي عبيد البكرى ، ٩ - محاضرات الأدباء ، للراغب الأصبهاني ، ١٠ - لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ ، ١١ - محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، لمحيي الدين بن عربي ، ١٢ - عين الأدب والسياسة ، لأبي الحسن بن هذيل ، ١٣ - حياة الحيوان ، للدميرى ١٤ - المستطرف للأبشيهي ، ١٥ - المحاسن والمساوئ ، للبيهقي ، ١٦ - شوق النفوس ، لمؤلف مجهول ، ١٧ - تحفة الأخيار ، لكاتب چلبي ، ١٨ - خزانة الأدب ، للبغدادى .

وقد تنوعت الأشعار التي استشهدت بها هذه المصادر حسب مواضع الاستشهاد .

أما كتب النثر الأدبي التي اختارت من شعر سابق فهي ثلاثة:
١- الإمتاع والمؤانسة ،لأبي حيان التوحيدى ، ٢ - شرح مقامات الحريرى ، للشريشي ، ٣ - شرح نهج البلاغة ،لابن أبي الحديد .

وأما كتب الاختيارات الشعرية التي احتوت على شعرله ، فهي خمسة : ١ - حماسة البحترى ، ٢- حماسة الظرفاء ،لأبي محمد العبدلكاني ، ٣ - المنازل والديار ،لأسامة بن منقذ ، ٤ - الحماسة المغربية ،للجراوى ، ٥ - الحماسة البصرية ، لصدر الدين البصرى .

أما كتب الرواية والحديث التي جاء فيها شعر لسابق فلم أجد منها إلا كتاباً واحداً هو جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

ثم إن هذه المصادر تتفاوت من حيث الزمن ،ومن حيث مقدار الشعر الذى أوردته ،ومن حيث نسبته إليه ،أو عدم نسبته .

أما من حيث الزمن ،فمنها ما ينتسب إلى القرون المتقدمة وهي القرن الثالث ، والرابع ، والخامس . ومنها ما ينتسب إلى القرون المتأخرة وهي السادس ، والسابع والثامن ،والتاسع ، والعاشر ،ومابعده .

فالكتب التي تنتسب إلى القرن الثالث من القرون المتقدمة هي :
١ - غريب الحديث ،لأبي عبيد القاسم بن سلّام ،المتوفى سنة ٢٢٤هـ ، ٢ - كتب الجاحظ ،المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، ٣ - عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، ٤ - حماسة البحترى ، المتوفى سنة ٢٨٤هـ ، ٥ - كتابا المبرد المتوفى سنة ٢٨٦هـ ، ٦ - مجالس ثعلب ، المتوفى سنة ٢٩١هـ .

والكتب التي تنتسب إلى القرن الرابع هي :

١ - كتاب الموشّى ،لأبي الطيب الوشّاء ، المتوفى سنة ٣٢٥ هـ ،
٢ - كتابا ابن الانباري ،المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ،٣ - العقد الفريد ، لابن عبد ربه ،المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ،٤ - أمالي الزجاجي ، المتوفى سنة ٣٤٠ هـ ، ٥ - روضة العقلاء ،لابن حِبّانَ البستي ،المتوفى سنة ٣٥٤ هـ
٦ - معاني الحروف ، للرماني المتوفى سنة ٣٨٤هـ ، ٧- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، المتوفى سنة ٣٩٥هـ ، ٨ - الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي المتوفى سنة ٤٠٠هـ .

أما كتب القرن الخامس فهي :

١ - التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي ، المتوفى سنة ٤٢٩هـ ،
٢ - حلية الأولياء لأبي نعيم المتوفى سنة ٤٣٠هـ ، ٣ - حماسة الظرفاء لأبي محمد العبدلكاني المتوفى سنة ٤٣٢هـ ، ٤ -أدب الدنيا والدين ، للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، ٥ - كتاب الأفعال للسرقسطي ،المتوفى بعد سنة ٤٠٠ هـ ، ٦ - كتابا ابن عبد البر ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ،
٧ - كتابا ابي عبيد البكري ، المتوفى سنة ٤٨٧ هـ .

وأما الكتب التي تنتسب إلى القرون المتأخرة وذكرت شعرًا لسابق البربري فهي ،في القرن السادس :

١ - محاضرات الأدباء ، للراغب الاصبهاني المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ،
٢ - مجمع الأمثال ، للميداني ،المتوفى سنة ٥١٨ هـ ، ٣ - كتابا الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ،٤ - تاريخ دمشق ،لابن عساكر ،المتوفى سنة ٥٧١ هـ
٥ - كتابا أسامة بن منقذ ،المتوفى سنة ٥٨٤ هـ ،٦ - كتب ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

ومصنفات القرن السابع هي : ١ - الحماسة المغربية ،للجراوى ، المتوفى سنة٦٠٩ هـ ، ٢ - شرح مقامات الحريرى ، للشريشي ،المتوفى سنة٦١٩ هـ ، ٣ - محاضرة الأبرار لمحيي الدين بن عربي ،المتوفى سنة ٦٣٨ هـ ، ٤ - شرح نهج البلاغة ، لابن ابي الحديد المتوفى سنة ٦٥٦هـ ، ٥ - الحماسة البصرية لصدر الدين البصرى ، المتوفى سنة ٦٥٩هـ .

أما مصادر القرن الثامن التي اختارت من شعره فهي : ١ - لسان العرب ،لابن منظور ،المتوفى سنة٧١١ هـ ، ٢ - مغني اللبيب لابن هشام المتوفى سنة ٧٦١هـ ، ٣ - عين الأدب والسياسة لأبي الحسن بن هذيل المتوفى سنة ٧٦٣ هـ ، ٤ - الوافي بالوفيات ، للصفدى ، المتوفى سنة ٧٦٤هـ ، ٥ - كتابا ابن كثير ، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ.

وأما كتب القرن التاسع فهي : ١ - حياة الحيوان ، للدميرى ، المتوفى سنة ٨٠٨هـ ، ٢ - المستطرف للأبشيهي ،المتوفى سنة ٨٥٠هـ

وهناك مصنفات ورد فيها شعر سابق البربرى ، وتنتسب إلى ما بعد القرن العاشر حتى عصرنا ،وهي : ١ - تحفة الأخيار ،لكاتب جلبي ، المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ ، ٢ - كتابا البغدادى ، المتوفى سنة ١٠٩٣هـ ، تاج العروس للزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥هـ ، ٤- الدرراللوامع للشنقيطي المتوفى سنة ١٣٣١هـ ، ٥ - تهذيب تاريخ دمشق ، لعبد القادر بدران المتوفى سنة ١٣٤٦هـ .

أما إذا نظرنا إلى مقدار الشعر الذى تضمنه كل مصدر من هذه المصادر ،ونسبته إلى سابق البربرى ، فاننا نجد أن من هذه المصادر ما يحتوى على البيت الواحد فقط ،أو ما يحتوى على أكثر من الواحد ودون العشرة من الأبيات ،أو ما فوق العشرة الأبيات ، مع تفاوت في نسبتها إليه أو عدم نسبتها .

فالمصادر التي تضمنت بيتًا واحدًا لسابق البربري هي :

١ - غريب الحديث ، لأبي عبيد القاسم بن سلّام .
٢ - محاضرات الأدباء ، للراغب الأصفهاني .
٣ - قصص الأنبياء ، لإسماعيل بن كثير .

وقد نسبت هذه الكتب الشعر إلى سابق البربري .

٤ - المحاسن والأضداد ، للجاحظ ، ٥ - رسالة في أعجاز أبيات ، للمبرد ، ٦ - مجالس ثعلب ، ٧ - معاني الحروف ، للرماني ، ٨ - لباب الآداب ، لأسامة بن منقذ ، ٩ - شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، ١٠ - مغني اللبيب لابن هشام ، ١١ - المحاسن والمساوئ ، للبيهقي ، ١٢ - كتاب القوافي للتنوخي ، ١٣ - الدرر اللوامع للشنقيطي .

وجميع هذه الكتب أوردت الشعر بغير عزو .

وأما المصنفات التي تحتوي على اكثر من بيت ودون العشرة الأبيات فهي :

١ - الحيوان ، للجاحظ ، ورد فيه بيتان بغير عزو .
٢ - البيان والتبيين ، للجاحظ ، ورد فيه ستة أبيات ، منها أربعة بغير عزو ، واثنان لم ينسبهما إليه .
٣ - عيون الأخبار ، لابن قتيبة ورد فيه سبعة أبيات ، جميعها بغير عزو .
٤ - حماسة البحتري ، ورد فيه تسعة أبيات ، منها خمسة لم ينسبها إليه .
٥ - الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ، ورد فيه ثلاثة أبيات ، منها اثنان دون عزو .
٦ - الموشّى ، لأبي الطيب الوشّاء ، ورد فيه بيتان بغير عزو .
٧ - الزاهر في معاني كلمات الناس ، لابن الأنباري ورد فيه ثلاثة أبيات ، منها اثنان بغير عزو ، والثالث تردد فيه بين سابق البربري وغيره .

٨ - المذكر والمؤنث ،لابن الأنباري ،ورد فيه بيتان منسوبان إلى سابق البربري .

٩ - العقد الفريد ،لابن عبد ربه ، ورد فيه ثمانية أبيات ،منها اثنان لم ينسبهما إليه ، وثلاثة بغير عزو .

١٠- أمالي الزجاجي ،ورد فيه بيتان منسوبان إليه .

١١- جمهرة الأمثال ،لأبي هلال العسكري ، ورد فيه أربعة أبيات ، منها ثلاثة بغير عزو .

١٢- الإمتاع والمؤانسة ،لأبي حيان التوحيدي ، ورد فيه بيتان ، منهما واحد منسوب إلى سابق الزبيري ، وهو تحريف وتصحيف ، والآخر لم ينسبه إليه .

١٣- الأفعال ، للسرقسطي ،ورد فيه بيتان منسوبان إليه .

١٤- التمثيل والمحاضرة ، للثعالبي ، ورد فيه أربعة أبيات ، جميعها بدون عزو .

١٥- حلية الأولياء ،لأبي نعيم ، ورد فيه تسعة أبيات ، منها أربعة بغير عزو .

١٦- حماسة الظرفاء ،لأبي محمد العبدلكاني ، ورد فيه ثمانية أبيات ، منها اثنان بغير عزو .

١٧- أدب الدنيا والدين ، للماوردي ، ورد فيه تسعة أبيات ، منها ثلاثة بغير عزو ،وأربعة لم ينسبها إليه .

١٨- سمط اللآلي ،لأبي عبيد البكري ،ورد فيه بيتان كلاهما بغير عزو .

١٩- فصل المقال ،لأبي عبيد البكري ، ورد فيه تسعة أبيات ، منها واحد بغير عزو ،وآخر متردد فيه بين سابق البربري وغيره .

٢٠- مجمع الأمثال ، للميداني ،ورد فيه أربعة أبيات جميعها بغير عزو .

٢١- أساس البلاغة للزمخشري ، ورد فيه بيتان ،كلاهما بغير عزو .

٢٢- المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشرى ورد فيه ثلاثة أبيات ، منها واحد بغير عزو .

٢٣- المنازل والديار ، لأسامة بن منقذ ،ورد فيه ثلاثة أبيات ،جميعها نسبت إليه .

٢٤- الحماسة المغربية للجراوى ،ورد فيه خمسة أبيات جميعها منسوبة إليه .

٢٥- محاضرة الأبرار ،لمحيى الدين بن عربي ، ورد فيه أربعة أبيات كلها بغير عزو .

٢٦- الحماسة البصرية ، لصدر الدين البصرى ،ورد فيه أربعة أبيات ، منها اثنان بغير عزو ،واثنان لم ينسبهما إليه .

٢٧- لسان العرب ،لابن منظور ،ورد فيه بيتان ،منهما واحد بغير عزو ،والآخر لم ينسبه إليه .

٢٨- الوافى بالوفيات ، للصفدى ورد فيه تسعة أبيات ،كلها معزو إليه .

٢٩- البداية والنهاية ، لابن كثير ، ورد فيه خمسة أبيات ،كلها منسوبة إليه .

٣٠- حياة الحيوان ، للدميرى ،ورد فيه بيتان ، كلاهما بغير عزو .

٣١- المستطرف ،للأبشيهي ، ورد فيه سبعة أبيات ، منها خمسة بغير عزو .

٣٢- تحفة الأخيار ، لكاتب جلبي ، ورد فيه أربعة أبيات ، منها اثنان بغير عزو .

٣٣- خزانة الأدب ، للبغدادى ، ورد فيه بيتان ،منهما واحد لم ينسبه إليه .

٣٤- شرح أبيات مغنى اللبيب ، للبغدادى ، ورد فيه ثلاثة أبيات جميها منسوبة إليه .

٣٥- تاج العروس ، للزبيدى ،ورد فيه بيتان ،كلاهما بغير عزو .

٣٦- شوق النفوس ، مخطوط لمؤلف مجهول ،ورد فيه بيتان ،كلاهما بغير عزو .

وأما المصادر التي أوردت له فوق العشرة الأبيات فهي :

١ - روضة العقلاء ، لابن حِبّان البستى ، ورد فيه اثنا عشر بيتاً ، جميعها بغير عزو .

٢- جامع بيان العلم ،لابن عبد البر ،ورد فيه عشرون بيتاً ، منها أربعة لم ينسبها إليه ،وأربعة بغير عزو . و بيت واحد تردد فيه بين سابق البربرى وغيره .

٣ - بهجة المجالس ، لابن عبد البر ، ورد فيه ثلاثون بيتاً ،منها اثنان بغير عزو .

٤ - تاريخ دمشق ، لابن عساكر ،ورد فيه خمسة وسبعون بيتاً ،جميعها منسوبة إليه .

٥ - التبصرة ،لأبي الفرج ابن الجوزى ، ورد فيه ثمانية وعشرون بيتاً ، كلها بغير عزو .

٦ - سيرة عمر بن عبد العزيز ،لأبي الفرج ابن الجوزى ، ورد فيه اثنان وخمسون بيتاً ،كلها منسوبة إليه .

٧ - مناقب عمر بن عبد العزيز ،لأبي الفرج ابن الجوزى ، ورد فيه ستة وأربعون بيتاً ،كلها معزو إليه .

٨ - شرح مقامات الحريرى ، للشريشي ، ورد فيه واحد وثلاثون بيتاً ، منها واحد بغير عزو .

٩ - عين الأدب والسياسة ،لأبي الحسن بن هذيل ، ورد فيه أحد عشر بيتا ،جميعها دون عزو .

١٠- تهذيب تاريخ دمشق ،لعبد القادر بدران ،ورد فيه خمسة وسبعون بيتا ،كلها منسوبة إليه .

وبعد هذا الإحصاء يمكننا أن نستنبط النتائج الآتية :

أولا - أن مصادر شعر سابق البربرى متنوعة ما بين اللغة ، والأدب ، والتاريخ ، والتراجم ، والأمثال ، وكتب العلوم الدينية ، والأدب الاسلامى ، وذلك لأنه يرد غالباً مستشهداً به في اللغة أو فى الأدب ، أو مذكوراً مع ترجمة الشاعر ، أو خلال ترجمة عمر بن عبد العزيز .

ثانيا - أن مصادر شعره لا تنتمى إلى عصر واحد ، في فترة زمنية محدودة ، بل إنها تنتسب إلى القرون كلها ابتداءً من القرن الثالث الهجرى حتى القرون المتأخرة . ويدل هذا على استمرار الاهتمام بشعره خلال هذه القرون .

ثالثا - أن مقدار الشعر الوارد في المصادر يختلف باختلاف لونها العلمي ، وعصرها ، فقد أوردت كتب التاريخ والتراجم ، وعددها ثمانية اثنين وسبعين ومائتي بيت ، منسوبة إليه ، ما عدا أربعة أبيات منها وردت دون عزو . وأغلب هذه المصادر متأخر زمنياً . وهذا يدل على أن شعره عنى به المؤرخون للشاعر أو لعمر بن عبد العزيز ، وأن المتأخرين مهتمون به أكثر من المتقدمين .

أما كتب المصنفات الأدبية ، وعددها ثمانية عشر كتاباً ، فقد أوردت له ثلاثة وتسعين بيتا ، منها تسعة وأربعون بغير عزو ، وخمسة لم تنسب إليه . وأكثر هذه المصادر متأخر زمنياً ، والذى يلحظ في هذه الكتب أن عدد الأبيات فيها قليل مع كثرة عددها ، مما يدل على أن الاهتمام به كان مقتصراً على الأبيات القليلة المستشهد بها . كما أنها لم تعن كثيراً بنسبته إلى قائله ، مما يبين أن العناية كانت منصبة على الشعر لا الشاعر في منهجهم .

أما كتب الأدب الديني ، وهي المختصة بالوعظ والإرشاد والتزهيد في الدنيا ، وعددها ثلاثة ، فقد أوردت تسعة وأربعين بيتاً ، ثلاثة وأربعون منها بغير عزو . وهذا يدل على عناية الوعاظ بشعره لما فيه من الروح الإسلامية ، إذ يميل الى التحذير من الغرور بالدنيا ،والنهي عن الافتتان بزينتها ، والتذكير بالآخرة والحض على التأهب لها .ولكنهم لم يهتموا بنسبته إليه ،إذ هذا هو الغالب على منهجهم .

أما كتب النثر الأدبي ،وعددها ثلاثة ، فقد أوردت أربعة وثلاثين بيتاً منسوبة إليه ، عدا اثنين وردا بغير عزو ، وآخر نسب تصحيفاً وتحريفاً الى سابق الزبيرى ،وأكثر هذه المصادر متأخر زمنياً ، وفي هذا دلالة على أن المتأخرين أكثر عناية بشعره من المتقدمين .

أما كتب الاختيارات الشعرية ، وعددها خمسة كتب ، فقد أوردت تسعة وعشرين بيتاً ،منها أربعة بغير عزو ، وسبعة لم تنسب إليه .ومن هذه الكتب ثلاثة متأخرة زمنياً . . وفي هذا دلالة على أن كتب الاختيارات -والمتقدم زمنيا منها خاصة -لم تُعْنَ كثيراً برواية شعره .

أما كتب اللغة والمعاجم ، وعددها ستة عشر كتاباً ، فقد أوردت ثمانية وعشرين بيتاً ، أغلبها مكرر ،ومنها خمسة عشر بيتاً بغير عزو . وواحد لم ينسب إليه . وأكثر هذه المصادر متقدم زمنياً ، مما يبين أن اللغويين المتقدمين اعتمدوا شعره للاستشهاد به في مواضع متنوعة ، منها المعاني اللغوية ،أو القواعد النحوية ،أو في معاني الحروف . . ولكنهم لم يهتموا بنسبته إلى قائله وفقاً لمنهجهم الذى اعتمدوه في أغلب مصنفاتهم .

وكتب الأمثال ، وعددها خمسة أوردت أربعة وعشرين بيتاً ،منها ثلاثة عشر بغير عزو ، وواحد متردد فيه بين سابق البربرى وغيره .. وأكثرها متقدم زمنياً .

وقد أوردت هذه المصادر الشعر استشهاداً بما فيه من أمثال ،ولكنها لم تذكر كثيراً من شعره المتضمن أمثالاً ، ولم تهتم بنسبته إليه .

أما الكتاب الذى ينتمي إلى الروايات الحديثية ، فقد أورد له عشرين بيتاً ،منها أربعة بغير عزو ،وأربعة أخرى لم تنسب إليه .. وهو من المصادر المتقدمة ، واستشهد بالشعر في مواضع متنوعة كالوعظية والسلوكية ...

رابعا - هذا الترتيب التنازلي للمصادر بحسب مقدار الأبيات التي أوردتها ،يثبت أن المصادر التاريخية التي ترجمت له أو لعمر بن عبد العزيز هي المصادر التي عنيت بشعره فأوردت أعلى نسبة منه . أما المصادر الأخرى فلم يرد الشعر فيها إلا مستشهداً به في الموضوعات والمعاني المختلفة ، ولذا لم تكن نسبته عالية ،كما لم نجد فيها قصائد كاملة ، لاكتفائهم بالأبيات التي تؤدى الغرض من الاستشهاد ، كما أن المصادر المتأخرة زمنياً عنيت بشعره أكثر من المتقدمة ، مما يثبت أن ديوان شعره المفقود عاش إلى القرون المتأخرة . وهذا يبعث الأمل في الحصول عليه مستقبلاً .

خامسا - من التصنيف السابق نستنتج أن أكثر المصادر أوردت شعره بغير عزو ،أو منسوباً إلى غيره ، أو متردداً بينه وبين غيره . وهذا يدل على مشابهة شعره بشعر غيره ، وعلى عدم اهتمام الرواة بنقله مما جعله مختلطاً بغيره المشابه له . كما يدل على أن الكثير من شعره الموجود

لم يجمع لعدم نسبته إليه .

سادسا - من ذكر مصادر شعره نجد أن كتب الاختيارات التي أوردت شعره قليلة محدودة ، إذ لم يرد له شعر في مختارات أخرى مشهورة ، كالأصمعيات ، والمفضليات ، وحماسة أبي تمام ، وابن الشجرى ، وحماسة الطالبيين .. وهذا يستوجب استفساراً هو : لماذا لم تُعْنَ هذه الاختيارات بشعره ، ولم تذكره ؟ ...

وبعد : فقد بلغ مجموع شعره الذى تضمنته هذه المصادر (١) مئتان وأربعة عشر بيتاً ، منها ثلاثة وتسعون ومائة بيت صحت نسبتها إليه وحده ، أما الأخرى فقد أُشْتُبِهَ في نسبتها له ولغيره .. وقد حرصت على التنقيب عن هذا الشعر في بطون الكتب المختلفة ، ولكنني لا أدعي الإحاطة بكل المظان ، وأعلم أني قد اعتمدت - أحياناً - على غير العمدة من هذه المصادر ، وتركت غيرها من المصنفات الأصيلة التي أعرف أسماءها ولا أستطيع الوصول إليها في الوقت الحاضر ..

---

(١) أغفلت ذكر بعض هذه المصادر لأسباب مختلفة .

الباب الثالث

الدراسة الفنية لشعر سابق البربري

الباب الثالث

الدراسة الفنية لشعر سابق البربري

الفصل الأول : الألفاظ في شعر سابق .

الفصل الثاني : الظواهر الأسلوبية في شعر سابق .

الفصل الثالث : الصور البيانية في شعر سابق .

الفصل الرابع : الصنعة البديعية في شعر سابق .

الفصل الخامس : الوزن والقافية في شعر سابق .

الفصل السادس : افتتاحيات قصائد سابق .

*

الدراسة الفنية لشعر سابق البربرى

لا بد لنا في التعرف إلى شعر سابق البربرى من دراسة ألفاظه ، وأساليبه ،وصوره البيانية ،وصنعته البديعية ، وأوزانه وقوافيه .

وقد قسمت هذا الباب الذى خصصته لهذا الغرض إلى فصول - قد تطول أو تقصر - بحيث جعلت فصلاً لدراسة الألفاظ ،وآخر مطولاً لدراسة الأسلوب ، تدخل تحته مباحث تتناول الظواهر الأسلوبية البارزة في شعر سابق البربرى ، فتدرسها مع شيء من التفصيل . والثالث لدراسة الصور البيانية في شعره ، والرابع لدراسة الصنعة البديعية والأخير لدراسة افتتاحيات قصائده .

وهذه الدراسة قد انتهجت نهجاً تحليلياً مفصلاً يعتمد على الشواهد المستقاة من شعره . مع بيان مدى التزام سابق بمنهج الأوائل في شعره ، وبيان مدى تمكنه من امتلاك ناصية فنه ولغته ، لتسييرهما في اتجاه الإقناع لمخاطبه ، حتى يضمن التزامه بمعانيه الهادفة .

الفصل الأول

الألفاظ في شعر سابق

إذا نظرنا في معجم ألفاظ سابق البربرى وجدناه ممن يؤثر ما سهل وسلس من الألفاظ ، فألفاظه قريبة مألوفة ،وليست حوشية غريبة ، وهي - مع ذلك - فصيحة سليمة من الخطأ ، واللحن ،والدخيل ، بحيث لا يكد الذهن في إدراك مراميها ، ولا تحتاج إلى التنقيب في بطون المعاجم عن معانيها .. اللهم إلا ألفاظاً معدودة تحوج إلى البحث عن معناها .

وليس عجيباً أن يكون شعر سابق البربرى فصيحاً سليماً من الخطأ واللحن ،ذلك أنه من المتقدمين أهل السليقة العربية السليمة ، وقد عاش في عصر الاحتجاج ، الذى كانت العربية فيه أقرب إلى النصاعة والفصاحة ، فليس بغريب أن يسلم شعره من الخطأ والعجمة والتوليد - وإنما الغريب الذى يدعو إلى التعليل هو ما نلمسه في شعره من السهولة والوضوح ،ولكننا نستطيع أن نعلل لهذه المزية التي تميز بها شعر سابق البربرى بأسباب ثلاثة : أولها - أنه شاعر تثقف بالقرآن الكريم ، وجعله مثاله الذى يقتدى به في صياغة شعره ، وهذا ما جعله يؤثر الألفاظ السهلة البعيدة عن الاستكراه ، والتعقيد ، ذلك لأن القرآن الكريم يتميز بالسهولة ،والوضوح ، والبعد عن التعقيد ، بحيث يستطيع أقل الناس ثقافة أن يفهم آياته ، ويدرك المقصود منها ويتأثر بها .

وثانيها - أنه شاعر هادف إلى تهذيب النفس وصقلها ،والدعوة إلى الزهد في الدنيا ، والتذكير بالآخرة ، وجهاد النفس ،والرقى بها إلى المستوى المثالى الذى يدعو إليه الإسلام .. ومثل هذا الموضوع

لا يحتاج إلى التقعُّر ، واستعمال الغريب من الألفاظ ، وإنما يحتاج إلى السهل القريب منها ، لئلا ينشغل الذهن في كشف غوامضها عن إدراك المراد منها ، والتبصر في أهدافها ، ذلك لأن شعر الزهد - كما قال أبو العتاهية : " ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلّاب الغريب . وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد ، وأصحاب الحديث ، والفقهاء ، وأصحاب الرياء ، والعامة. وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه "(١) . وقد وقف سابق البربرى شعره للزهد ، والوعظ ، والتذكير ، فليس بغريب أن يكون شعره سمحاً قريباً من الأذهان ، ليفهمه العامة الذين يُعنون به .

وثالث الأسباب التي ترجع إليها سهولة ألفاظ سابق البربرى وقرب معانيها : أنه عاش في الشام كما عرفنا ، وهي بيئة حضارية وللبيئة الحضارية أثرها في تليين اللغة ، وتبسيطها كما يُفهم من قول ابن سلام: " وعَدِيّ بن زيد كان يسكن الحيرة ، ويُراكن الريف ، فلان لسانه وسهل منطقه "(٢) .

ولكن سهولة ألفاظ سابق البربرى ، وقرب معانيها لم تنزل به عن مرتبة البلغاء الفصحاء ، ذلك أن ألفاظه متصفة بالصفات التي اشترطت في ألفاظ البليغ ، كما يبدو من قولهم في الألفاظ :

---

(١) الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ٣/ ١٠ ٣ .
(٢) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/ ١٤٠ تحقيق محمود شاكر .

"والذى يجب على البليغ في استعمال الألفاظ أن تكون : سمحة سهلة، لها حلاوة وطلاوة، وعليها رونق الفصاحة، مع الخلو عن البشاعة، فلا يكون متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً عامياً" (١). ولا غرابة في أن تكون ألفاظ شاعرنا وفق هذه الشروط، فهو من أهل السليقة العربية السليمة الذين يُحتجُّ بشعرهم، وعلى شعرهم بنيت القواعد الفنية العامة في الشعر العربي.

وقد لحظت أن المعجم اللغوى لشاعرنا يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أصناف : فصنف منها ألفاظه سهلة قريبة التناول، يفهمها السامع في يسر وسهولة، دون أن يكد ذهنه في معرفة معانيها، أو إدراك ما وراءها من تلويحات. وهذا هو الصنف الغالب في معجمه اللغوى. وصنف آخر : ألفاظه بعيدة المعنى عن ذهن السامع، إذ يحتاج في فهمها إلى الرجوع إلى المعجم، إما لأنها ليست كثيرة الاستعمال، واما لاحتمالها أكثر من معنى. والصنف الثالث : ألفاظه بعيدة الإدراك بسبب ندرة استعمالها، وقلة دورانها في الشعر بالمعاني التي استخدمها فيها الشاعر.

كما لحظت أن عدداً معيناً من الألفاظ كثر دورانه في شعر سابق البربرى، إذ هناك ألفاظ كثر ترديد الشاعر لها في شعره، فهو يركز عليها، ويكررها، حتى ليجد السامع الحاحاً من الشاعر على تعميق معاني هذه الألفاظ في ذهنه.

---

(١) انظر قانون البلاغة لأبي طاهر البغدادى ٢٨، موسسة الرسالة.

ولذا فإننا نجد أن الواجب علينا أن نبسط هذه الملحوظات لنكشف عن صحة تصورنا للمعجم اللغوى الذى اختص به سابق البربرى .

١ - الصنف الأول :

وهذا الصنف - كما قلنا - ظاهرة عامة بارزة في شعر سابق البربرى ، إذ أن معظم ألفاظه سهلة قريبة المأخذ ، يدركها الذهن ابتداءً دون إجهادٍ أو تفكير ، فهي من الكلمات التي كثر استعمال الناس لها ، وأصبحت معانيها عندهم معروفة مفهومة . وهذا الصنف لا يحتاج إلى شواهد ، فهو كثير ظاهر في شعره بشكل ملحوظ .

٢ - الصنف الثاني :

وهو الذى قلنا : إن الألفاظ تبدو فيه غير معروفة أو محدودة ، وتحتاج في تحقيق معناها إلى الرجوع إلى المعجم ، إما لقلة الاستعمال وعدم شيوع معناها ، واما لاحتمالها أكثر من معنى .

ومقياسنا في غوض معاني الألفاظ يعتمد على فهم الفرد العادى في عصرنا هذا ، وليس على فهم الفرد في عصر الشاعر ، إذ من المؤكد أن الناس في عصره كانوا أقرب إلى الفصاحة ، والقوة في فهم العربية من عصرنا هذا . ولهذا فإن ما نجده غامضاً بعيد المأخذ من ألفاظ شاعرنا ، قد يكون سهلاً مفهوماً في عصره ، وما تلاه من عصور .

ومن هذا اللون من الألفاظ قوله (١) :

والله ما عَمَرتْ في الأرضِ ناظرةٌ
إلا ومَرُّ الليالي سوفَ يُفنيها

---

(١) انظر شعره ، قصيدة رقم ٣٦ ، البيت : ٦ .

واللفظ المقصود في هذا البيت هو كلمة "ناظرة" ، إذ يحتمل فيه عدة معان ، فمراد الشاعر من قوله "ناظرة" : إما أن يكون النفس بمعنى "نفس ناظرة" ، وإما أن يكون العين ، لأن ناظر العين هو: "النقطة السوداء الصافية التي في وسط سواد العين"(١) . فإن كان المراد هو الاحتمال الأول ، فإن الشاعر قد استعمل الصفة في موضع الموصوف ، وإن كان الاحتمال الثاني ، فإن اللفظ هنا مجاز مرسل علاقته الجزئية ، إذ استخدم الشاعر الجزء في مكان الكل . فالغموض الذى في اللفظ نتج من احتماله أكثر من معنى .

ومن هذا اللون من الألفاظ قوله(٢) :

وصبّحت قومٌ عادٍ في ديارهِمُ
بمقطعٍ ، يوم عادتْهم عواديها

واللفظ الذى يحتاج إلى تفسير هو قوله : "بمقطع" ، إذ فيه احتمالان ، ندركهما من ورائه ، فهو إما أن يكون المراد به : المكان الموحش الذى تنقطع فيه الصلة بالناس . وإما أن يكون المراد به : مقطع الحق وهو "ما يقطع به الباطل"(٣) والاحتمال الثاني أرجح .

ومن هذا اللون من الألفاظ قوله(٤) :

ولا تكُ ذا لونين يُبْدى بشاشةً
وفي صدْرِه ضبٌّ من الغلِ كامنُ

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة نظر ٥/٢١٦ .
(٢) انظر شعره قصيدة ٣٦ البيت : ١٦ .
(٣) انظر لسان العرب ، لابن منظور مادة قطع ٨/٢٨٢ .
(٤) انظر شعره ، مقطعة رقم ٢٩ ، البيت : ٣ .

واللفظ المقصود في هذا البيت قوله : " ضبٌ " ، إذ يخفى المراد منه ، فهو إما أن يكون لتشبيه الغل بالضب ، لأنه يستكن في القلوب كما تستكن الضباب في جحورها . وإما أن يكون المراد هو المعنى اللغوى لكلمة ضب وهو : " الغيظ والحقد والعداوة "(١) . والاحتمال الأول أرجح ، لأنه يمثل المعنى في صورة محسوسة مجسمة واضحة .

فهذه الألفاظ التي أشرنا إليها - وغيرها كثير - لا تغمض معانيها إلا بسبب احتمالها أكثر من معنى .. مما يجعل الفكر يقف عند البيت ليدرك المعنى المراد من استخدام الشاعر لألفاظه ومعظم هذا يعود إلى الدلالات المجازية الجديدة التي يستخدم فيها الشاعر ألفاظه .

وهناك أبيات أخرى من هذا الصنف تغمض فيها معاني الألفاظ على الفرد العادى لقلة استعماله لها ، فهو محتاج فيها إلى الرجوع إلى المعجم .. والشواهد في هذا الصنف كثيرة نذكر منها بعض النماذج .

فمن هذا اللون من الألفاظ قوله(٢) :

ألقى على الجيلِ من عادٍ كَلا كِلَهُ
وقومِ هُودٍ ، فهم هامٌ وأصداءُ

وفيه قد تستوقف السامع كلمة "كلاكله" ويحتاج مراجعة المعجم ليعرف أن المراد من "كلاكله" هو : صدر الزمان ، أو الزمن الأول ، لأن الكلكل هو : " الصدر من كل شيء "(٣) ويتوقف الذهن أيضا عند قوله :

---

(١) انظر لسان العرب ، مادة ضبب ١/ ٥٤٠ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ٢ ، البيت : ٢ .
(٣) انظر لسان العرب ، لابن منظور مادة كلل ١١/ ٥٩٦ .

" أصداء " فيحتاج لإدراك معناها إلى معرفة أن الصّدي كما تزعم العرب : " طائر يصيح في هامة المقتول إذا لم يثأر به "(١) . فيعرف أن سابقاً هنا يصوّر حال قوم هود بعد أن نزل بهم قضاء الله .

ومن هذا اللون أيضا قوله(٢) :

وكلّ شيءٍ له حالٌ تغيّرُه
كما يُغيّرُ لون اللمّةِ الغِيَرُ

والمرءُ يصعدُ ريْعانُ الشباب به
وكل مُصْعَدَةٍ يوماً ستنحدِرُ

وقد نجد في عصرنا من يسأل عن معنى " اللمّة " و " الغِيَر " و " ريعان الشباب " ليعرف بعد مراجعة المعجم أن أراد بقوله : " كما يغير لون اللمة الغير " أن يبيّن أن أحوال الزمان قادرة على تغيير لون الشعر مع غزارته ووفرته ، كما يعرف أن المراد بقوله : " ريعان الشباب " : بدايته وفتوّته ،لأن ريع كل شيء وريعانه : " أوله وأفضله "(٣) .

ومن هذا اللون من الألفاظ أيضا قوله(٤) :

وكم مِنَ أصْيدَ سامي الطرْفِ معْتصِبٍ
بالتاجِ نيرانُه للحرْبِ تَسْتَعِرُ

---

(١) انظر لسان العرب ، لابن منظور مادة صدى ١٤/٤٥٤ .
(٢) انظر شعره قصيدة ١٢ البيتين : ١٦ ، ٢٩ .
(٣) انظر لسان العرب ، لابن منظور مادة ريع ٨/١٣٩ .
(٤) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، بيت : ٣٣ .

فكلمة "أصيد" في المعجم تعني: " الذى لا يستطيع الالتفات، أو هو الذى يرفع رأسه كِبْراً ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً "(١)، والمراد بها هنا: الملك المتعالي كِبْراً، لأنه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً.

وهكذا نجد هذا اللون من الألفاظ في أبيات كثيرة في شعر سابق البربرى ... قد يحتاج فيها بعض السامعين إلى الرجوع إلى المعجم ليدرك المعنى المراد.

٣ - الصنف الثالث:

وهو الذى قلنا: إن فيه ألفاظاً قليلة الاستعمال، نادرة الورود في الشعر. وهذا الصنف من الألفاظ ليس كثيراً عند شاعرنا، وإنما هي ألفاظ معدودة نلمس فيها الأصالة اللغوية في استخدام المفردات.

فمن هذه الألفاظ قوله(٢):

فلا تيأسَا واستْغفِوَرا اللهَ إنـــــهُ
إذَا اللهُ سَنَّى عَقْدَ أمرٍ تَيَسَّـــرَا

ولفظ "استغفورا" هو المقصود في هذا البيت، فهو لفظ لم يرد في الشعر إلا نادراً.

---

(١) انظر لسان العرب، مادة صيد ٣/٢٦٢.
(٢) انظر شعره مقطعة رقم: ١١.

وهذا الفعل من قولهم : " غارهم الله بخير يغُورهم ويغيرهم : أصابهم بخصب ومطر وسقاهم .. واستغور الله : سأله الغِيَرة "(١) .

فقوله : "استغورا الله" في هذا البيت بمعنى : اطلبا الفضل أو الخير من الله ،وهو معنى غامض لا يتضح إلا بالرجوع إلى أصل المادة . لأن الشاعر استخدم لفظاً نادر الاستعمال في الشعر ، وإن كان وارداً في كتب اللغة .

ومما يجرى هذا المجرى من استعمال الألفاظ قوله(٢) :

مَنْ كان في مَعْقِلٍ للحِرْزِ أسْلَمَهُ
أو كان في خَمَرٍ لم يُنْجِهِ الخَمَرُ

واللفظ المقصود في هذا البيت هو قوله: "خَمَر" ، والخَمَر بالتحريك : "كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره "(٣) . وهو مأخوذ من : خَمَر الشيء يخمُره خَمْراً : ستره . وخَمَر بذاتها : ليست نادرة الاستعمال فمنها : الخَمْرة والخِمَار ، وإنما الخَمَر بمعنى : الساتر الذى لا ينجي من الموت على حد ما قال سابق البربرى فهذا الاستعمال قليل فيما قرأنا من الشعر .

ومما يدخل تحت هذا اللون من الألفاظ قوله(٤) :

ألا ربَّما صارَ البغيضُ مُصافياً
وحالَ عن العَهْدِ الصديقُ المُنافِسُ

---

(١) انظر لسان العرب ، لابن منظور مادة غور ٥/٣٧ . وانظر أساس البلاغة ، للزمخشرى مادة غور ٣٣٠ .

(٢) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، بيت : ٢٣ .

(٣) انظر لسان العرب ،لابن منظور ، مادة خمر ٤/٢٥٦ .

(٤) انظر شعره مقطعة رقم ٣١ ، بيت : ١ .

واللفظ المراد في البيت هو قوله : " المثافن " وقد جاء بمعنى المواظب والملازم ، وهو قليل الاستعمال بهذا المعنى ، ومشتق من ثفن الشيء يثفنه ثفناً: أي لزمه ،لأن الكثير منها الثفنات ، وأصلها : الثفنة : وهي الركبة من البعير والناقة والإنسان (١) .

ومن هذا اللون من الاستعمال للألفاظ نجد ألفاظاً له صاغها صياغة موحية ، توميء إلى معان أخرى إضافية غير معناها اللغوى ، ومن هذه الألفاظ ما نجده في قصيدته الرائية في مثل قوله (٢) :

كم من جميعٍ أشتّ الدهرُ شملهم
وكل شملٍ جميعٍ سوف ينتثرُ

أبعدَ آدمَ ترجونَ الخلودَ ، وهل
تبقى فروعٌ لأصلٍ حينَ ينقعرُ

مالي أرى الناسَ ، والدنيا مولّية
وكل جيلٍ عليها سوفَ ينبترُ

والألفاظ المرادة في هذه الأبيات هي قوله في القافية : " ينتثر ، ينقعر ، ينبتر " وهي من : نثر ، وقعر ، وبتر ،ولكنها جاءت على صيغة انفعل ،ولاختيار هذه الصيغة مزية بلاغية لطيفة ، فهي تدل على المطاوعة . وفي هذا إيحاء للانقياد لأمر الإله ، وكأن الشاعر أراد باختياره هذه الصيغة : أن يذكّر بأن الكون والمخلوقات كلها والبشر جميعاً تحت إرادة الله وأمره ، فهم طوع الأمر الإلهي

---

(١) انظر لسان العرب ، لابن منظور مادة ثفن ٧٩/١٣ . وانظر أساس البلاغة ، للزمخشرى مادة ثفن ٤٥ .

(٢) انظر شعره قصيدة ١٢ ، الأبيات : ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٩ .

لا يملكون إلا الانقياد والطاعة.

فهذه الألفاظ - مع أنها جاءت موافقة للقافية الرائية - إلا أنها لم تجتلب لمجرد هذه الموافقة، بل إنها مقصودة بهذه الصيغة لتوحي بمعان أخرى جانبية بالإضافة إلى معناها الأصلي. والسر في هذا يكمن في الصياغة التي آثرها الشاعر. والأمثلة على الصياغة الموحية للألفاظ كثيرة سيأتي الحديث عنها في الدراسة الأسلوبية لشعره (١).

ومما يلحظ على المعجم اللغوى لسابق البربرى، كثرة ترديده لألفاظ بعينها، فأنت تجد له ألفاظا تتكرر كثيراً في شعره، حتى تحس بأن الشاعر يلح عليها، ويهتم بها، وبما ترمي إليه من معانٍ، وكأنه مصرٌ على ترسيخ معانيها في الأذهان، حتى يضمن الاقتناع بها. وهذا يجعلنا نقول: إن من خصائص معجمه اللغوى أن له ألفاظاً كثيرة الدوران في شعره، وهذه الألفاظ مثل: "النفس، المنية أو الموت، الدنيا، الدهر، الجهل بمعنى الطيش، والجهل الذى هو ضد العلم، الهوى، العلم، البر، التقوى، التقى، الأمل، والرجاء، الهدى، الذكر، الصدق، القبر". وكثرة هذه الألفاظ في معجمه اللغوى لها دلالات كثيرة، فهي: تكشف عن تأثره بالقرآن الكريم، إذ ما من لفظ من هذه الألفاظ إلا وقد كثر دورانه في القرآن الكريم، ودوران هذه الالفاظ في شعره دليل تعلّقه بالقرآن، ومداومته على تدبّره، حتى انطبع في وجدانه وأثّر في شعره في هذا الترديد لألفاظه. وتكشف أيضاً عن الغاية السامية التي وجه إليها فنه

---

(١) انظر فيها بعد الدراسة الأسلوبية ص ٢٢٢ - ٢٩٧.

الشعرى ، ألا وهي تزكية النفس الإنسانية ، وتهذيبها ، ولفتها إلى موارد الخير لتنهل منها ، فتكرار هذه الألفاظ في شعره دليل على عنايته برياضة النفس البشرية ، وتوجيهها إلى المنازل العليا التي تسمو بها عن مواطن الخطأ والفواحش . كما أن استعمال الشاعر لألفاظ كَثُر جريانها في القرآن ، واستُخْدِمتْ في نفس المجال الذى ورَدتْ من أجله في القرآن - يعطي الشعر مزية خاصة ، إذ تظهر فيه روح قرآنية تُحبّبه إلى النفس ، وتُقرِّبُه الى القلب ، ذلك أن لألفاظ القرآن نَفَساً خاصاً تحس به النفوس المؤمنة التي تذوقت حلاوة وعذوبة هذا القرآن . فاستخدام الشاعر بعضاً من ألفاظ القرآن يضفي على شعره قبسات من هذه الروح القرآنية .

ويلفت النظر في ألفاظ سابق البربرى أنها كلها عربية فصيحة ، ولم يستعمل من الألفاظ المُعرَّبة - فيما عثرت عليه من شعره - إلا كلمة واحدة هي " الديباج " في قوله (١) :

يظلُّ مفترِشَ الدِّيباجِ محتجباً
عليه تُبنى قِبابُ المُلكِ والحُجَرُ

وهذا لا يؤثر على فصاحة شعره وقوّته ، لأن الألفاظ المُعرَّبة أصبحت عربية بتعريبها ، ويرى بعض العلماء أنه قد ورد بعضها

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٣٤ .

في القرآن الكريم كالسندس والاستبرق (١) . ثم إن الشعراء كثيراً ما نجدهم يستخدمون المُعَرَّب من الألفاظ لاختلاط الحضارات بعضها ببعض، وليس في هذا ما يقلل من قيمة الشعر.

وهكذا كانت ألفاظ سابق البربري عربية فصيحة، سهلة، قريبة المأخذ، ليست حوشية وعرة، ولا مستكرهة ثقيلة.

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/١٣٦، وفيه يقول: "وقال غيره بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعد مخالطة لسائر الألسنة في أسفارهم فعلقت من لغاتهم ألفاظاً غيرت بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح، ووقع بها البيان وعلى هذا الحد نزل بها القرآن ..." . وقد قال السيوطي في المزهر ١/٢٦٦ إن الجمهور قال: "وليس في كتاب الله - سبحانه - شيء بغير لغة العرب" . وهذا يدل على أن القضية مختلف فيها، وليس هنا مجال بحثها.

الفصل الثاني

الظواهر الأسلوبية في شعر سابق

أولا : الأساليب الإنشائية في شعر سابق البربري :

استعمل شاعرنا من الأسلوب الإنشائي - الطلبي وغير الطلبي - أنواعاً متعددة . فكان لا بد لنا من أن نعرض لبعض هذه الأساليب عنده لنلحظ خصائصها البلاغية ، وطريقة استعماله لها ، والمغزى الذي يريده منها . وقد اقتصرنا على الأسلوب الإنشائي الطلبي المتمثل عنده في الاستفهام ، والنداء ، والأمر ، والنهي ، ذلك لأن الإنشاء الطلبي ألصق بالبلاغة من غير الطلبي . وهذا يكشف لنا عن قدرة سابق البربري البلاغية وسلامة ملكته الذوقية .

١ - أسلوب الاستفهام :

معلوم أن للاستفهام أدوات معينة منها : الهمزة ، وهل ، وما ، وأي ، ومتى ، وكيف ، وكم ، وأين . وقد وردت بعض هذه الأدوات الاستفهامية في شعر سابق البربري ، وأكثرها استعمالاً عنده الهمزة ، ولذا نبدأ بها ، ونتلوها بغيرها من أدوات الاستفهام عنده .

أ - الاستفهام بالهمزة :

والاستفهام بالهمزة مبحث دقيق يحتاج في بيان مزيته إلى دقّة في التصور ، وحذر في التناول ، ذلك أن الهمزة كما قيل عنها : " يطلب بها تصور كل ما في الجملة ، كما يطلب بها حصول النسبة : أي التصديق ، فإن الاعتبارات تكثر في صياغة الجملة الداخلة عليها ، وتدق حتى تحتاج إلى حذر ، ووعي في استعمالها ، والكشف عنها كشف عن حكمة بالغة الدّقة "(١) .

---

(١) انظر دلالات التراكيب ، للدكتور محمد أبو موسى ٢١٦ .

وقد استعمل شاعرنا الهمزة في الاستفهام بمعان مجازية تدل على بلاغته ، ودقّة معرفته بأصول المعاني ، ووسائل التأثير في النفس ، حتى جاء شعره الوطني الهادف مؤثراً ناجحاً .

فهو يقول في التذكير بحتمية الفناء على البشر (١) :

أَبَعْدَ آدمَ تَرْجُونَ الخُلُودَ ، وهَلْ تَبْقَى فروعٌ لأَصْلٍ حِينَ يَنْقَعِرُ ؟

فبدأ بالهمزة الاستفهامية التي أدخلها على الظرف ، منبهاً بهذا الاستفهام على إنكاره لهذه الحال ، وتوبيخه للغافلين المستغرقين في غفلتهم مع تناسيهم لمصيرهم الذى لا محيد عنه ، إذ لا مجال للأمل في الخلود ، وقد عرفوا فناء أبيهم آدم . والمستفهَم عنه بالهمزة هو ما يليها كما بيّن عبد القاهر الجرجاني (٢) ، ولهذا فإن إدخال الهمزة الاستفهامية على الظرف هنا فيه دقّة متناهية أعطت للاستفهام حسناً ومزيةً وفضلاً ، لا يكون له لو دخلت الهمزة على غيره : كالفعل مثلاً ، فلو قال : أترجون الخلود بعد آدم ؟ لم نر فيه قوة الإنكار والتوبيخ لهؤلاء الذين يتشبثون بالحياة بعد يقينهم بفناء أصلهم فيها .

وفي ذكر آدم أبي البشر إيماء إلى حمق من يؤمل الخلود في هذه الدنيا ،لأن هذا التعلق بالدنيا لا ينبغي أن يكون ممن عنده ذرة من عقل ، إذ لا يمكن أن يعيش فرع بعد فناء أصله . هذه

----

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت ٣٦ .

(٢) انظر دلائل الإعجاز ١١١-١١٢ ، تحقيق الأستاذ محمود شاكر .

كلها معان تومض من وراء هذا الاستفهام الذى أفرغ فيه الشاعر الكثير من الأسرار ، التي تدفع العقل للغوص في بحر الأفكار بحثاً عن سبب هذا الإغراق في طلب الملذات الدنيوية مع أن الانسان موقن بالفناء .. ولم يكتف شاعرنا بالاستفهام الأول الذى أوقف الإنسان على ضآلة شأن الدنيا ، وضرورة الرحيل عنها . بل ألحقه باستفهام آخر مستعملاً فيه " هل " التي تخصصت في تصديق النسبة ، وفي تخصيص المضارع بالاستقبال (١) . وقد استعملها الشاعر هنا استعمالا جرى فيه على السليقة العربية الحرة ، دالاً بهذا الاستفهام على النفي الممتد إلى المستقبل . وبهذا الاستفهام الدال على النفي في عجز البيت يؤكد شاعرنا الحقيقة التي أنكرها ، ووبخ عليها في صدر البيت ، إذ الإنكار هو النفي ، والنفي بعد النفي تأكيد . وفي الاستفهام الثاني بـ " هل " مزية بلاغية أخرى ترجع إلى ما في الجملة من تمثيل ، إذ الشاعر بهذا الاستفهام يضع المخاطب في موضع من آمن ، وصدّق بأن الخلود في الدنيا مأمول مع معرفته بفناء آدم أبي البشر ، ولذا فإنه يستحق هذه المواجهة بنفي ما يعتقده عن طريق الاستفهام ، وكأنه يقول له : ارجع إلى نفسك واسألها : هل رأيتِ فروعاً تبقى بعد فناء الأصل ؟ وستجيبك حتماً بالنفي . بحيث يكون الاستفهام الثاني دليلاً حسياً على الحقيقة النظرية التي أكدها في الاستفهام الأول في صدر البيت .

ومما يسير في هذا الاتجاه من الاستفهام بالهمزة قوله (٢) :

أيأمَنُ ريبَ الدهرِ - يا نفسُ - واهِنٌ
تجيشُ له بالمُفظِعاتِ مراجِلُه

---

(١) انظر الإيضاح للخطيب القزويني ١/٢٢٩ تحقيق د/محمد عبد المنعم خفاجي .

(٢) انظر شعره قصيدة ٢٢ ، البيت : ٣ .

فهو ينكر متعجباً من حال هذا الإنسان الواهن الضعيف ، الذى يتناسى ضعفه وقلّة حيلته ،ويأمن ريب الدهر ،مع ما فيه من أهوال ومصاعب. وقد جاء إنكاره عن طريق الهمزة الاستفهامية التي أدخلها على الفعل ، ليكون الاستفهام الإنكارى التعجبي منصباً على هذا الأمن ، الذى يستشعره الإنسان - مع ضعفه - تجاه الدهر المشحون بالمفظعات. ولجوء الشاعر إلى الإنكار عن طريق الاستفهام فيه معنى دقيق ،ذاك أنه لا يواجه النفس بإنكار هذه الحقيقة بفرضها عليها ، وإجبارها على شيء خارج عن اعتقادها ،وإنما يطلب من المخاطب أن يراجع هذه الحقيقة في نفسه ، ويتأملها ،ويتبصرها لينتهي إلى التعجب والإنكار ممن هذه حاله ، وهي الغاية التي أرادها الشاعر .

وهذه هي مزية الإنكار عن طريق الاستفهام ،ذلك أن المغزى البلاغي في الاستفهام غير الحقيقي لا يقتصر على المعنى المجازى المستفاد من الاستفهام ،وإنما هناك معانٍ دقيقة تستشفها النفس من وراء بقية الاستفهام الكامن في الأداة ، وهو الذى يلفت الفكر ويوقظه ، ويثير التساؤل في النفس حتى تصل إلى المغزى المراد . وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني عندما قال : "واعلم أنّا وإنْ كنّا نفسّر الاستفهام في مثل هذا الإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى : أنه ليتنبّه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ،ويعيَ بالجواب"(١) .

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ١١٩ ،تحقيق محمود شاكر . وقد وضّح هذه الفكرة ووسّعها الدكتور محمد أبوموسى في كتابه "دلالات التراكيب" ٢٢٧ ، ٢٥٩ .

وفي البيت لمسات بلاغية أخرى نتحسسها من براعة شاعرنا في استعمال الألفاظ ،فهو يوجّه الخطاب إلى النفس " يا نفس " ويأتي بها منكّرة لتوحي بعموم الخطاب لكل من يسمعه ، ويضيف الدهر إلى الريب " ريب الدهر " ليوحي بالتلازم بينهما ،ثم يأتي في عجز البيت باستعارة مشحونة بالألفاظ الموحية. وقد أبدع الشاعر في هذه الاستعارة أيما إبداع ، فهو يجعل للدهر مراجل ، وليست مرجلاً واحداً ، وإنما هي مراجل تغلي ، وتصل في الغليان إلى درجة الجيشان ، بما فيها ، حتى يتناثر ما فيها ويتساقط في غير انتظام . ثم هي تجيش بالمفظعات ، فيحذف الموصوف ، ويأتي بالصفة في صيغة الجمع ، فهي أمور مفظعات ، وليست فظيعة . ويقدم الجار والمجرور "بالمفظعات" على متعلقه "مراجله" . فجاء في هذا التقديم بمزية أخرى غير المحافظة على الوزن والقافية . هذه الصياغة جعلت ريب الدهر في صورة مهولة ، مخوفة ، تذخر بالكثير من الكوارث الفادحات ، التي تصعق الإنسان وتسحقه .

ومن الاستفهام الإنكارى بالهمزة في شعر سابق قوله في شأن الدنيا (١) :

جمعنا لها أكلاً وذمّاً بألسنٍ
أليس عجيباً ذمُّها واحتِلا بُهَا ؟

فهو يذكر حال الإنسان مع الدنيا ، يقبل عليها بنهم ، ويتفانى في طلبها ، والاستمتاع بما فيها ، ومع ذلك يذمها ، ويدعو إلى عدم

---

(١) انظر شعره ، مقطعة رقم ٨ .

الفتنة بها - وهذه حال تدعو إلى التعجب والإنكار ، ولهذا فإن الشاعر أتبع الحقيقة التي صورها في صدر البيت باستفهام إنكارى في العجز ، أدخل فيه الهمزة الاستفهامية الدالة على الإنكار على ليس ليفيد تقرير المخاطب بما يعلمه من مفهوم هذه الجملة ، ألا وهو العجب من ذم الدنيا مع الإقبال عليها . وفي هذا الاستفهام معان أخرى تومض من وراء الظلال : منها التوبيخ على هذه الحال المتناقضة مع الدنيا ، إذ الأجدر بمن يذمها ، ويدرك ضآلة شأنها أن يترفع عن فتنتها ، ويتطلع إلى ما هو أبقى منها وهو الآخرة . وفي الاستفهام - أيضا - دعوة إلى التأمل والتبصر ، وسؤال النفس عن هذه الحال ، لينتهي التأمل إلى التعجب منها ، إذ المعنى الحقيقي للهمزة الاستفهامية ما زال كامنا فيها يلوح من وراء التأمل . وفي هذا الاستفهام - أيضا - لمسة فنية بديعة تأتي من هذه الاستعارة المكنية الدقيقة ، إذ هو يشبه الدنيا ببقرة حلوب ، ثم يحذف المشبه به ، ويبقى شيئاً من لوازمه وهو الحلب ، ويعبر عنه بالاحتلاب . وفي هذه الاستعارة يلوح فرط الإقبال على الدنيا ، والنهل من زينتها .

ومن شواهد الاستفهام غير الإنكارى بالهمزة في شعر سابق قوله (١) :

أَذاكِرٌ أنتَ عَهْدَ الحيّ أمْ ناسي
وليس للحُبِّ غيرُ الصبْرِ من آسِي ؟

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ١٤ ، البيت : ١ .

فهو يصف حالة المحب ، وما أوصله إليه الحب ، إذ هو لا يدرى أهو في حالة تذكّر أم نسيان ؟ وقد دلّ على حيرته وتردده بهذا الاستفهام ، الذى أدخل فيه الهمزة الاستفهامية على اسم الفاعل " ذاكر" ، ليبين أن ما وصل إليه من حب ، ومما يعانيه من التدلّه والوله قد غطّى على عقله وتبصّره ، فصار كأنه لا يدرى من الأمر شيئاً ، حتى ن هل عن حالة لا يغفل عنها إنسان واع عاقل مدرك ، ألا وهي التذكر والنسيان . وهذا يجعل الاستفهام بالهمزة هنا مع "أمْ" دالاً على الحيرة والتردد .

ب ـ الاستفهام بأدوات أخرى غير الهمزة :

من أدوات الاستفهام الأخرى التي استعملها سابق البربرى في شعره : هل ، كيف ، متى ، ما . وسنعرض لهذه الأدوات في شعره ، لنلحظ دقته في استخدامها .

فمن هذه الأدوات " هل " في قوله (١) :

لا ينفعُ الذكْر قلباً قاسياً أبداً
وهلْ يلينُ لقولِ الواعِظِ الحَجَرُ ؟

والاستفهام ب "هل" هنا يراد به النفي ، ولكن الشاعر أدخل أداة الاستفهام على جملة تصويرية أراد بها تأكيد الحقيقة التي قالها في صدر البيت ، فهو يقول في صدر البيت : إن الذكر لا يؤثر إلا في

---

(١) انظر شعره قصيدة ١٢ ، البيت : ٢٠

القلوب الرقيقة ، أما الذين قست قلوبهم ، وأصبحت كالحجارة فلا تأثير للذكر فيها . ثم يؤكد هذا القول ويحققه في عجز البيت بجملة استفهامية مستعملاً " هل " التي يراد بها تصديق النسبة ، وقد أتى بهذه الجملة في صورة تمثيلية رائعة ، نفى فيها أن يلين الحجر لقول الواعظ. ولهذا : فإن الشاعر لا يقصد مجرد النفي ، وإنما يأتي به على سبيل التمثيل والتشبيه ، للاستدلال على الحقيقة التي قررها في صدر البيت ، وهذا أسلوب عربي فصيح مثّل له عبد القاهر الجرجاني بقول ابن أبي عُيَيْنَةَ :

فَدَعِ الوعيدَ فما وعيدُكَ ضَائِـــرِي
أَطَنِينُ أَجنحةِ الذُّبابِ يَضِيـــرُ؟ ! [1]

وقد أدخل شاعرنا " هل " على جملة فعلية ،ذلك أن هل يراد بها تصديق النسبة ،وتخصيص المضارع بالاستقبال ، وفي هذا يقول الخطيب القزويني : " ولهذين - أعنى اختصاصها بالتصديق ، وتخصيصها المضارع بالاستقبال - كان لها مزيد اختصاص بما كونه زمانياً أظهر ، كالفعل . أما الثاني فظاهر ،وأما الأول فلأن الفعل لا يكون إلا صفة ، والتصديق حكم بالثبوت أو الانتفاء ، والنفي والإثبات إنما يتوجّهان إلى الصفات لا الذوات " [2] .

ومن أدوات الاستفهام الأخرى التي وردت في شعر سابق " متى " وقد وردت في بيتين من شعره ،أحدهما [3] :

حتّى متَى أنا في الدُّنْيا أخو كَلَــفٍ
في الخدِّ مني إلى لذّاتها صَعَــرُ

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٢١ .
(٢) انظر الإيضاح ٢٢٩/١ تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٢٤ .

وقد أبدع الشاعر في بيان هذا الإقبال الكامل على الدنيا ،بدقته في اختيار الألفاظ الدالة الموحية ، فهو يستخدم في الاستفهام "متى" الخاصة بالسوءال عن الزمن (١) . والسوءال بهذه الأداة دال على استطالة هذا الكلف بالدنيا ، وإنكار لطول هذه الحالة ، وتوبيخ عليها ويزيد الشاعر الإيحاء بهذه الاستطالة باستعماله "حتى" قبل أداة الاستفهام ،وحتى لتحديد الغاية . وكأنه بهذه الصياغة يسائل نفسه : إلى متى هذا اللهو ، وما الغاية منه ؟ ذلك لأن أداة الاستفهام ما زالت تحتفظ ببقية من معناها الأصلي الذى وضعت له . ويزيد الإيحاء باستطالة هذا الكلف المدود المتتالية في الألفاظ : حتى ،متى ،أنا ، الدنيا ، أخو . . . وكذلك إضافة الكلف إلى الأخوة "أخوكلف" .

ثم يبين شاعرنا أن ميله إلى الدنيا قوىّ ، وإفراطه في اللهفة على لذاتها شديد ، إذ يأتي بعجز البيت في صورة حسية موحية تبيّن إقباله على الدنيا بوجهه . والإقبال بالوجه على الشيء دليل على فرط الحفاوة والاهتمام به . وفي هذا تصوير للاتصراف إلى زينة الدنيا ، وبه تزيد مزية الاستفهام الدال على الاستطالة والإنكار والتوبيخ ، والعتاب للنفس على هذا الإفراط في الاهتمام بالدنيا .

وفي المعنى نفسه يأتي بيته الآخر (٢) :

فحتّى متى تلهو بمنزلِ باطِلٍ
كأنّكَ فيه ثابتُ الأصلِ قاطِنُ

---

(١) انظر الإيضاح ، للخطيب القزويني ١/ ٢٣٤ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ٣٣ ، البيت : ١ .

وفيه يدل على استطالة اللهو في الدنيا ،وإنكاره لهذه الحال ، وتوبيخه وعتابه لنفسه على هذا اللهو الممتد مستعملاً الطريقة التي استخدمها في صياغة البيت السابق .

ونجد "ما" الاستفهامية من الأدوات التي استعملها سابق ، وذلك في قوله (١) :

فما باله يفدى من الموتِ نفسَهُ
ويأمَنُ سيفَ الدهرِ ، والدهرُ قاتِلُه

والاستفهام بـ" ما " دال على التعجب والإنكار لهذه الحال التي عليها الغافلون اللاهون في الدنيا ، فهو يتساءل متعجباً ومنكراً عن هذه المغالطة التي يعيش فيها الإنسان ، يخاف من الموت ويخشاه ، ويتجنب كل ما يؤدي إليه مع أنه موقن بأن الموت حق عليه . ولهذا فهو يتعجب من هذا الخطأ الذي لا يدركه الإنسان الغافل ،وينكر عدم الوعي والفطنة لهذا الموقف الخطر .

وفي قوله "يأمن سيف الدهر" ، استعارة مكنية رائعة ، إذ جعل للدهر سيفاً ،وجعله قاتلاً ، فهو يشبهه بالرجل يحمل سيفاً ويقتل ، ويحذف المشبه به ،ويبقي من لوازمه السيف والقتل . وهذه صورة فنية نكاد نتحسسها ونلمسها ،ونرى الدهر يحمل سيفاً مسلّطاً على كل نفس ،ويتربص الحيْن لها ليقتلها . وفي تكرار لفظة "الدهر" مغزىً لطيف ودقيق ،فالدهر هو الذي فيه الريب ، وهو الذي فيه

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ البيت رقم : ٥ .

الهلاك والفناء ، وفي تكراره بث للرهبة والروع والخوف في النفس ، وإيقاظ لها من هذه الغفلة التي تسدر فيها ، ولا تفطن لخطورتها .

ومما يسير في هذا السياق من الاستفهام بما قوله (١) :

مالي أرى الناسَ ، والدنيا موليـــة
وكلُّ جيلٍ عليها ســوفَ ينبترُ

لا يشعرون بما في دينِهم نقصُـوا
- جهلاً - وإن نقصت دنياهم شعروا

فهو يتعجب من هذا الحشد من الناس ، الذين طغت عليهم الغفلـة ، وانساقوا في الضلال ، فهم يتعلقون بالدنيا مع علمهم بأنها مولّية فانيـة ، ولا يعتبـرون بما يرون من انقطاع الأجيال . وفي غمرة هذا الانجذاب إلى الدنيا يفقدون إحساسهم ، فكأن نفوسهم جامدة ميتة لا تشعـر بما يعتريها من نقص في الدين ، ولكنهم في يقظة وتربّص لكل ما يتعلق بدنياهم . وقد دلّ الشاعر على تعجبه وإنكاره لهذه الحال بهذا الاستفهام الذى وجهه إلى نفسه يسائلها ويستنطقها الجواب ، ليدل على ألمـه وحسرته من هذه الغفلة التي يرتع فيها الناس . مما استدعى أن يواجههم الشاعر بهذا الاستفهام الذى ينم عن شدة التعجب والإنكار لما هم فيـه .

----

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيتين : ٤٩ ، ٥٠ .

٢ - أسلوب النداء :

من الأساليب الإنشائية التي ظهرت في شعر سابق البربري - أسلوب النداء ، وفيه يركز الشاعر على المعاني الإسلامية المتصلة بالموت والقبر ، والمتصلة بالدنيا والمستفرقين في لهوها ، بحيث يجمع بين الحالين المتناقضين اللذين تعيش فيهما النفس الإنسانية . فهو ينادى هذه النفس الغارقة في الملاهي الدنيوية ، ليذكرها بأن مآلها هو الموت ومستقرها القبر .

وقد استعمل في ندائه ياء النداء مفردة ، أو متصلة ب "أى" ولم يستعمل غيرها أىّ أداة من أدوات النداء . ولهذا الاستعمال دلالة فنية ، تعكس لنا أبعاده النفسية ، مما يتطلب دراسة النداء عنده لنتبين ما فيه من المزايا البلاغية .

ولنستمع إليه وهو ينادى النفس فيقول (١) :

وبعدَ دخولِ القبْرِ - يا نفسُ - كربةٌ
وهولٌ يشيبُ المرضَعِينَ زلازِلُه

وفيه ينادى النفس ب "ياء "النداء ، وهي امتداد للصوت ، ينادى به البعيد . وفي هذا إيحاء بما يشعر به من غفلة هذه النفس واستغراقها في نومها ، فهو يناديها بما ينادى به البعيد ليحضرها ، ويوقظها مما هي فيه سادرة . وبه يهيوءها لتصحو من رقادها ، وتطيل التأمل في المعنى الذى ينقله إليها ، ذلك أنه يعلم هذه النفس بأنها ستقابل بأهوال ومفظعات بعد موتها ، ستقابل بالقبر ، وفيه الويل

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ٧ .

كل الويل ،فيه الكربة التي تشيب المرضعين . فنداء النفس بهذا النداء الموحي يقصد منه إيقاظها و تربية الخوف فيها لتعد العدة لهذا الموقف العظيم.

وفي نداء النفس هنا إيحاء بصورة تخيلية تجسد لنا النفس شخصاً ماثلاً أمام الشاعر ،يتجه إليه بالخطاب ، فقد قيل : "إن نداء العين كنداء القلب ونداء النفس ،أسلوب بني على لون من الخيال تصير به أبعاض الإنسان كأنها أناس ، لها تميزها المستقل ، وتشخصها المتميز ، وبهذا يتسنى للأديب والشاعر أن يتجه بالقول إلى هذه النفس أو العين ، ويسوق لها الحديث لائماً أو ناصحاً ،أو مستعيناً .." (١) .

ويلحظ في نداء النفس هنا أن شاعرنا قد نادى النفس منكّرة ، ولم يقيّدها بالإضافة إلى ياء المتكلم ،ولعله أراد بهذا الإطلاق في ندائه للنفس التعميم ،بحيث يعمّ خطابه كل نفس إنسانية ، فكل إنسان يعنيه المعنى الذى ينادى من أجله . ويحتمل - وهو الأرجح عندى - أنه أراد نفسه هو ،وإن لم يقيدها بالإضافة إليه ، وذلك لأسباب أهمها : أن الإنسان مكلف - أولا - بحماية نفسه من العذاب ، وتوجيهها إلى الصواب عملاً لقوله تعالى : ﴿ ياأيُّها الذين آمنُوا قُوا أنفُسَكم وأهْليكم ناراً ... ﴾ (٢) ، وقد ورد مثل هذا الخطاب للنفس في قول عبدالله ابن رواحة عند غزوة مؤتة ، إذ قال :

يا نفسُ إلا تُقتلي تموتي
هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيتِ

---

(١) انظر قراءة في الأدب القديم ،للدكتور محمد أبو موسى ١٠٥ .
(٢) سورة التحريم ، من الآية : ٦ .

وما تمنيتِ فقدْ أُعطيتِ
إنْ تفعلي فعلهما هُديتِ (١)

فخاطب نفسه بدون أن يضيفها إلى ياء المتكلم .

ومن هذا اللون من النداء للنفس أيضًا قول سابق (٢) :

* يا نفسُ كلُّ قابرٍ مقبورُ *

وفيه إحضار للنفس ونداء لها لتتصور حالها في القبر ، إذ هو يخبر الإنسان بأن مصيره إلى القبر ، ولكنه يبلغه هذا الخبر في وقت مناسب لتمثُّل هذا المصير ، ألا وهو لحظة دفن الميت ، فهو يقول : إن كل من رأى هذه الصورة فليتمثَّل نفسه في مكان من يُقبَر ، لأنه لا بد للحي من أن ينتقل إلى هذه الدار التي انتقل إليها غيره .

وأما نداء غير النفس في شعر سابق فيتركز في نداء السادر في غيه ، بحيث يكد في سعيه الدنيوي ، مع علمه بأن الآخرة خير وأبقى ، فالشاعر يناديه ليوقظه من غفلته ، وينبهه إلى خطورة موقفه .

ومن هذا اللون من النداء قوله (٣) :

يا عامِرَ الدنيا أتعمرُ منزِلاً
لم يبقَ فيهِ مع المَنيةِ ساكِنُ

---

(١) انظر السيرة النبوية ، لابن هشام ٢/٣٧٩ ط ٢
(٢) انظر شعره ، مقطعة ١٣ ، البيت : ١ .
(٣) انظر شعره ، مقطعة ٣٤ ، البيت : ١ .

وفيه ينادى عامر الدنيا بهذا النداء للبعيد ، ليكون أقدر على الإيقاظ ولفت الانتباه ، وجعل المنادى " عامر الدنيا " ليكون النداء موجهاً إلى كل غافل استهواه حُبُّ الدنيا ومتاعها ، فنسي حقيقتها ونسي مصيره الذى سيؤول إليه . ويردف هذا النداء الموحي باستفهام يضمنه التوبيخ على هذه الغفلة التي تسقط الإنسان في بؤرة التناقض ، فهو يعمر المنزل مع علمه علماً حقيقياً بأنه منتقل منه ، وراحل عنه . وقد ركّز الشاعر على تعمير الناس للدنيا ، فكرره في ندائه وفي استفهامه ، ليبيّن أن هذا مظهر من مظاهر حب الإنسان للخلود في الدنيا . وفي إضافة المنادى إلى الدنيا إيماءة إلى ملازمة الإنسان لهذا العمل ، فهو جاد دؤوب على مواصلة هذا العمل .

ومما يسير في هذا الاتجاه من النداء قوله (١) :

يا مُبتني الدارَ الذى	هو مُسرِعٌ عنها الرّحيلا
إنْ لم تُنِلْ خيرًا أخا	كَ فكنْ له عبدًا ذليلا
وتجنَّبِ الشّهواتِ واحْـ	ـذرْ أن تكونَ لها قتيلا

وقد صيغ هذا النداء صياغة موحية معبّرة و تجسّم لنا هذا المنادى ، وقد شغله الاهتمام بأمر الدنيا ، فراح يكد نفسه و يشقيها في بنائها وتعميرها ، ذلك أن الشاعر ينادى بحرف النداء "يا" وهو حرف ينادى به البعيد ، ليدل على أن المنادى مستغرق في مطامعه وآماله . وقد

---

(١) انظر شعره قصيدة ٢١ ، الأبيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

وصف المنادى بأنه "مبتنٍ" ولم يقل "بانٍ" وفي هذه الصياغة بيان لشدّة اهتمامه، ومعاناته في هذا الأمر الذى يشغل به نفسه، ذلك لأنّ صيغة "مفتعل" تدل على المحاولة والتطلب . وقد كشف سابق عن غفلة هذا الإنسان المشتغل بأمر دنياه، المتناسي لعاقبته، إذ قال: "الذى هو مسرع عنها الرحيلا" أى: يا من تعيش في تناقض تام مع نفسك، فأنت تبني وتهتم بإعمار هذه الدنيا مع علمك أنك سرعان ما ترحل عنها .

وقد أتبع الشاعر نداءه الموقظ بأمرين يوجههما للمنادى، إذ يأمره بالإحسان، وتقديم الخير لإخوانه، ويأمره بالابتعاد عن شهواته، وتجنّب السقوط في الإغراق فيها ... وفي هذه الصياغة بيان لأهمّيّة الأمر الذى يلفت إليه، فهو يسبق أمره بالنداء، وفي هذا تقوية وتعضيد للأمر، ذلك أنه: "مما يقوى به أسلوب الأمر وقوعه بعد النداء"(١) . وكأنه بندائه يهيئ النفس للأمر ويمهدها لامتثاله .

وبعد: فإننا نكتفي من الأساليب الإنشائية عند سابق البربرى بأسلوبي الاستفهام والنداء، ولن نعرض للأمر والنهي عنده، ذلك لأنّ فيما درسناه من الاستفهام والنداء ما يكشف لنا عن منهج الشاعر، ويعكس شيئاً من انفعالاته، ويبيّن مدى قدرته على نقل إحساسه وتصوير مشاعره باستخدام الأساليب البلاغية، مما يدل على اقتداره وتمكّنه

---

(١) انظر دلالات التراكيب، للدكتور محمد أبوموسى ٢٧٢ .

من فنه ، لنقل ما تمور به نفسه من معان . أما أساليب الأمر والنهي عنده فلا تخرج عن المعتاد ، ولا تعدو أن تكون توجيهاً وإرشاداً خالياً من الصبغة الفنية ،أو المعاني الجانبية ، ولهذا لم نجد في أبيات الأمر والنهي ما يدعو إلى دراستها تحت الأساليب الإنشائية ، وسندرس بعضاً منها في طريقة الاستدلال عنده ، لما فيه من جمل استدلالية تكمن فيها مزايا فنية ، تعطيها صبغة بلاغية تستحق بها الدراسة .

ثانيا - طريقة الاستدلال في شعر سابق :

من الظواهر الأسلوبية البارزة في شعر سابق البربري طريقته في الاستدلال .

وطريقة الاستدلال عند سابق البربري لا تدخل تحت ما يسمى بالمذهب الكلامي في علم البديع ، كما أنها ليست هي الاستدلال المنطقي الفلسفي ، الذي نجده في أساليب المناطقة ، ذلك لأن المذهب الكلامي كما عرّفه الخطيب هو : " أن يورد المتكلم حجّة لما يدّعيه على طريق أهل الكلام "(١) . وهذا التعريف واضح فيه أن المذهب الكلامي يجرى على طريقة علم الكلام ، وعلم الكلام أسلوب فلسفي يعتمد على البراهين العقلية ، وهذه صفات لا تنطبق على أسلوب الاستدلال الذي نجده عند سابق البربري . الأمر الذي حدانا أن نقول : إن طريقة الاستدلال عند سابق البربري مقصداً

---

(١) انظر الإيضاح ، للخطيب القزويني ٢/٥١٦ .

خاصاً ينبع من حرصه على إيصال معانيه والاحتجاج لها ، وإثباتها وتحقيقها في نفس مخاطبه حتى يقتنع بها وينفذها .

وقد أطلقت على هذا المبحث عنوان " طريقة الاستدلال "، وعنيت بدراستها ، لأن طريقة الاستدلال هذه ظاهرة أسلوبية برزت في شعر سابق البربري بروزاً واضحاً ، يستدعي تخصيصها بمبحث خاص نلسم فيه أطرافها ، ونبيّن منهجه فيها ، ونكشف عن هدفه منها .

وقد تنوعت طرق سابق البربري في الاحتجاج لمعانيه ، فهو قد يحتج لمعناه عن طريق استخدام إنّ في جمل مستأنفة ، تقع موقع التعليل لما قبلها ، وقد يحقق فكرته السابقة بجمل تقوم على التمثيل ، أو تخرج من الخصوص إلى العموم ، أو تقوم على القصر باستخدام إنما .

هذا التنوّع في طرق الاستدلال عند سابق البربري يجعل الأبيات المتضمنة له موزعة على المباحث الأسلوبية المختلفة التي يمكن أن يدرس فيها شعر الشاعر ، ولكننا لشيوع الاستدلال عند شاعرنا آثرنا أن نجمع الأبيات التي تدخل تحته في هذا المبحث الخاص حتى يمكننا توضيح هذه الطريقة الأسلوبية ، مع الإشارة إلى المباحث التي ضمت هذه الأبيات قدر الإمكان .

أ - الاستدلال بجمل مستأنفة يدخل عليها إن :

الاستدلال عن طريق استخدام إن في جمل مستأنفة جاء عند سابق البربري في أبيات متضمنة أمراً أو نهياً أو استفهاماً ، مما يدخل هذه الأبيات تحت الأساليب الإنشائية ، ولكننا آثرنا أن ندرسها

في هذا المبحث نظراً للقيمة الفنية التي برزت من استعماله " إن " في هذه الجمل التي تقوم مقام التعليل للمعنى السابق لهـــا ، كما أنها تأتي تذييلًا لهذا المعنى ، فتكون مستقلة بذاتها يمكن أن تسير مسير المثل .

ومن هذه الأبيات قوله (١) :

لا تَدْفَعَنَّ لَجُوجًا حِينَ تَزْجُـــرُه

إِنَّ اللَّجُوجَ لَه في الدَّفْعِ إِغْـراءُ

والبيت نهي عن مدافعة اللجوج ، بمعنى أن كثير اللجج والمهاتـــرة لا ينبغي مجاراته في فعله ، حتى لا نغريـه بالاستمرار في اللجج . وقد عقّب الشاعر على نهيه بما يعلله ويبيّن سببه بقوله : " إن اللجوج له في الدفع إغراء " . وفي هذه الجملة تقويـة وتعضيد للنهي الذى بدأ به الشاعر بيته ، ذلك أن التعليل بعد الأمر أو النهي يقويهما ، ويحث على التزامهما .

وافتتاح جملة التعليل للنهي بإن "إن اللجوج ..." أسلوب الأعراب البدويين ، فقد روى أن خلف الأحمر قال لبشار بن بــرد حين أنشد قوله (٢) :

بَكِّرا صاحِبيَّ قَبْلَ الهَجِيـــرِ

إِنَّ ذاكَ النجاحَ في التبكيـرِ

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٣ ، البيت : ١ .

(٢) انظر ديوان شعر بشار بن برد ص ١٢١ جمع وتحقيق السيد بدر الدين العلوى ، دار الثقافة بيروت لبنان .

فقال له خلف : " لو قلت يا أبا معاذ مكان " إن ذاك النجاح في التبكير " " بكّرا فالنجاح في التبكير " كان أحسن . فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت : إن ذاك النجاح في التبكير ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : بكّرا فالنجاح ... كان هذا من كلام المولّدين .. " (١)

وفي هذا دليل على أن شاعرنا حين افتتح جملة التعليل في بيته ب " إن " سار على أسلوب العرب الفصحاء ، ثم إن استخدام " إن " في جملته له قيمة فنية دقيقة نلمسها من هذا الربط المعنوي الدقيق بين معناه السابق وجملته اللاحقة ، ذلك أن من شأن " إن " كما قال الإمام عبد القاهر : " إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غناء " الفاء " العاطفة مثلا ، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً ، فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف ، ومقطوعاً موصولاً معاً .. " (٢) . ولهذا تجد أن افتتاح جملة سابق ب " إن " أضفى على الجملة حسناً وبلاغة وربطها بالمعنى السابق عليها ربطاً وثيقاً ، وإن جاء بها الشاعر مفصولة غير موصولة .

ومن هذا النوع من الاستدلال قوله :

فكنْ دافِناً للشرِّ بالخيرِ تَسْتَرِحْ
من الهمِ ، إنّ الخيرَ للشرِّ دافِنُ

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ٢٧٢-٢٧٣ .
(٢) انظر المصدر نفسه ٢٧٣ .

فهذا أمر بإغفال الشر وإهماله ، ولكنه يحتج لأمره ببيان حقيقة عامة هي : أن الخير يقتل الشرّ ويقضي عليه مهما استفحل أمره . وقد جاء الشاعر لتعليل أمره بجملة مستأنفة بعد أن قطع الكلام ، ثم استأنف حديثه بجملة مفتتحة بـ "إن" التي لها فضل كبير في الربط بين معناه السابق وجملته المعللة . والذى يلحظ في هذه الجملة المستأنفة المعللة لما قبلها أنها تصلح لأن يستشهد بها مستقلة بذاتها ، كقوله تعالى : ﴿ ... وأقِمِ الصلاةَ إنّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمُنكرِ .. ﴾ (١) .

ومن هذا اللون من الاستدلال قوله (٢) :

وكيف يأمَنُ ريبَ الدهرِ مُرتهَنٌ
بِعَدْوةِ الدهرِ ، إنّ الدهرَ عَدّاءُ

فهذا تحذير من الغفلة عن حقيقة الدهر ، وقد جاء في صورة الاستفهام التعجبي ، والذى يهمنا فيه قوله : "إن الدهر عدّاء" ، وهي جملة مستأنفة ، احتج بها الشاعر على معناه السابق فجاءت تذييلاً مؤكداً لهذا المعنى . وقد أكد الشاعر جملته باستعمال "إن" المؤكدة التي ربطت بين الجملتين ربطاً وثيقاً .

والذى يلحظ في هذا البيت تكرار كلمة "الدهر" بحيث ردّدها الشاعر ثلاث مرات ، مع إمكانه أن يعدل عنها إلى المضمر ، ولكن التكرار

---

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٤٥ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ٢ ، البيت : ١ .

هنا له مزية بلا غية ،إذ به يلح الشاعر على تصوير الدهر في صورة مهولة مخيفة ، حتى يتنبّه الغافل عنه ،ويحترس من عداوته . ثم إن جملة "إن الدهر عدّاء" خرجت بالمعنى من الخصوص إلى العموم ، بحيث تصلح لأن يتمثل بها ، مع ما فيها من التوكيد والتحقيق ، والحث على الاقتناع . كما يلحظ في جملة الاستدلال هذه أنها لم تأت عقب أمر أو نهي ، لتقوم منهما مقام العلة والسبب ، وإنما جاءت عقب استفهام أراد به الشاعر التعجب من حال من أخذته الغفلة فسها عن سطوة الدهر المهلك . وفي هذا دليل على حفاوة الشاعر بمعناه ، مما جعله يجمع بين أكثر من فن بلاغي ليشد الذهن ،ويلفته إلى معناه حتى يقتنع به .

وعلى هذا النمط من الاستدلال قوله (١) :

إذا زجرتَ لجوجاً زِدْتَهُ علقـاً
ولجّت النفسُ مِنْهُ في تمادِيهـا

فعدْ عليهِ إذا ما نفسهُ جمحت
باللين مِنْكَ ، فإنَّ اللينَ يثنيهـا

والبيتان يكشفان عن معرفة سابق البربرى بطبيعة النفس البشرية المائلة إلى اللجج والخصام. والبيت الثاني يدخل تحت الأساليب الإنشائية لأن الشاعر يأمر فيه بترك مجاراة اللجوج ، والذى يهمنا فيه هنا مافيه من طريقة الاستدلال ، فالشاعر يعقب الأمر بما يعلله ويحث عليه ،

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٣٧ .

فيقول : " فإن اللين يثنيها " . وهي جملة مستقلة بذاتها ، قائمة مقام التعليل والبرهنة على أمره ، إذ المعنى : عليك بمقابلة جموح هذا اللجوج بالملاينة والملاطفة ، لأن اللين سبب في إثنائه عن طيشه . والجملة المعللة هذه افتتحها الشاعر ب" إن " متصلة بالفاء ، وفي هذا تعضيد للأمر ، وتحقيق له ، وحث على الامتثال به ، ذلك أن بدء الجملة ب " إن " يربطها بما قبلها ربطاً دقيقاً ، ويعطيها حسناً لا تجده لو حذفت " إن " إلا أن تأتي ب" الفاء " بدلاً منها كما قال الإمام عبد القاهر : " أفلا ترى أنك لو أسقطت " إن " من قوله : " إن ذاك النجاح في التبكير " لم تر الكلام يلتئم ، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء بالفاء ، فتقول : " بكّرا صاحبيّ قبل الهجير ، فذاك النجاح في التبكير "(١) . وشاعرنا قد جمع بين " الفاء " و " إن " فزاد ربط الجملة بما قبلها ، وأعطاها مزية فنية تشد المخاطب ، وتقنعه ، وتحمله على الامتثال .

ونلحظ في هذا الأمر تأكيداً آخر يكمن في تكرار الشاعر لكلمة " اللين " ، فهو يكررها في قوله : " باللين منك ، فإن اللين ... " حيث وضع المظهر في موضع المضمر لحفاوته بمعناه ، وعنايته به .

ومما يجرى مجرى هذه الطريقة في الاستدلال قوله(٢) :

وأغْضِ في حُسْنِ عَفْوٍ عن نوادِرِه
فالحُرُّ فيه عن الآفاتِ إغْضاءُ

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ٢٧٣ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ٣ ، البيت : ٢ .

فهو أمر بالإغضاء عن خطأ اللجوج ، والعفو عنه ، وقد استدل الشاعر على صحة هذا الأمر بجملة استئنافية تبيّن أهمية هذا العفو وقيمته ،فيقول : " فالحر فيه عن الآفات اغضاء " أى أن الصفح والتسامح عن أخطاء الغير يرقى بمن يتسم بهما إلى مستوى الأحرار سليمي الفطرة . وهذا التعليل يحض على التحلي بهذا الأمر ، ويقوّي داعي التمسك به ، ذلك لأن "أسلوب الأمر يقوى إذا وقع بعده ما يحث عليه ،ويدعو إلى امتثاله "(١) .

والذى يلحظ في جملة الاستدلال هذه أنها لم تأت مفتتحة ب "إن " المؤكدة التي تربط الجملة بما قبلها ربطاً معنوياً ،وإنما جاءت الجملة بعد " فا " الاستئناف ، وهي سبيل من سبل الربط تنوب عن "إن " . ولكن وجود "الفاء " عوضاً عن "إن " لا يعطي الجملة الحسن والمزية الذى نجده مع استعمال "إن " ، ذلك ما نفهمه من قول الإمام عبد القاهر : " ثم لا ترى "الفاء " تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة ، ولا ترد عليك الذى كنت تجد "بإن " من المعنى "(٢) . وهذا لا ينزل بالبيت عن مستوى الفصيح من الكلام ،ولكنه لا يعطيه نفس المستوى البلاغي الذى كانت عليه الأبيات السابقة . وجملة التعليل لأمره مستقلة بنفسها خرج فيها المعنى عاماً متكاملاً بذاته ،فهي متصلة بما قبلها اتصالاً معنوياً وثيقاً ،ومستقلة بذاتها منفردة بمعناها انفراداً كاملاً . وهذا النوع من الجمل يصلح أن يسير مسير الأمثال ، ويدل على عقل حكيم موهوب ،ويكشف عن مقدرة فنية عالية .

---

(١) انظر دلالات التراكيب ، للدكتور محمد أبو موسى ٢٧٢ .
(٢) انظر دلائل الإعجاز ٣١٦ .

ب - الاستدلال عن طريق التمثيل :

وسابق البربرى في طريقة الاستدلال هذه يأتي بجمل تقريرية تتضمن حقيقة بدهية على سبيل التمثيل . وطريقة الاحتجاج هذه تدخل تحت علم البيان ، إذ هي مما يسمى بالتشبيه الضمني أو التمثيل الضمني ، فالتشبيه الضمني هو: "تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة ، بل يلمح المشبّه والمشبّه به ، ويفهمان من المعنى ، ويكون المشبّه به دائماً برهاناً على إمكان ما أسند إلى المشبّه".(١)

والجمل التي نتناولها هنا تسير على هذا النهج من التشبيه ، ولذلك أطلقت عليها "الاستدلال عن طريق التمثيل" . وهي جمل مستأنفة تبرز المعنى السابق عليها في صورة حسية واضحة ملموسة ، وتكون هذه الجمل إما مسبوقة بواو الاستئناف أو بـ "هل".

ومن هذا اللون من الاستدلال قوله (٢) :

ولا أرى أثراً للذِّكْرِ في خَلَدي
والحبلُ في الحَجَرِ القاسي له أَثَرُ

وفيه ينعى عدم تأثره بالذكر ، ويألم لما في قلبه من الصلابة والقسوة ، ثم يعقّب على هذا المعنى المجرد بصورة حسية ملموسة تبرز لنا الحجر القاسي وقد ترك الحبل فيه أثراً . وهذا يبين أن الشاعر يشبه قلبه

---

(١) انظر جواهر البلاغة ، للسيد أحمد الهاشمي ٢٧٤ ط ١٢.
(٢) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٢٥.

بالحجر الأصم ، ولكنه لم يصرّح بالتشبيه ، ولم يدل عليه . بل جاء بالجملة الاستدلالية مستقلة بذاتها ، تمثل المعنى أمامنا حتى نحس بما في هذا القلب من قسوة وصلابة استعصى معها تأثره بالذكر .
وقد جاءت جملة الاستدلال هذه متصلة بالمعنى السابق برباط معنوى دقيق عن طريق التمثيل ، الذى جمع بين الحسي والمعنوى جمعاً لطيفاً يحرك النفس ، ويدعو القلب إلى الامتثال . وهذه فائدة التمثيل التي أوضحها عبد القاهر حين قال : " واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه : أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبّهة ،وأكسبها[1] منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشبّ من نارها ،وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبةً وشغفاً .."[2] .

ويبدو أن سابقاً قد آثر هذه الصياغة في الاستدلال ،واعتمد عليها في نقل معانيه في الوعظ والإرشاد .

فمن هذه الطريقة في الاستدلال قوله[3] :

إذَا الجَسدُ المَعْمورُ زايلَ روحَــهُ
خوَى ، وجمالُ البيتِ يا نفْسُ آهِلُــهْ

---

(١) في الأصل "كسبها" ويبدو أن هذا من خطأ الطباعة والصواب ما أثبته .
(٢) انظر أسرار البلاغة ١ / ٢٢٥ تحقيق د / محمد عبد المنعم خفاجي .
(٣) انظر شعر قصيدة ٢٢ ، البيتين : ١٠ ، ١١ .

وقد كانَ فيه الروحُ حِيناً يزينُه
وما الغِمْدُ لولا نَصْلُه وحَمائِلُهْ

وفيهما يصور منزلة الروح من الجسد ، وقد مثّل الشاعر هذا المعنى في صورتين حسيتين مختلفتين ، فهو يشبّه الروح في الجسد بالمنزل وسكانه تشبيهاً ضمنياً في البيت الأول ، إذ عقّب على معناه بقوله : " وجمال البيت يا نفس أهله " أي : كما أن المنزل لا قيمة له إذا خلا من سكانه ، كذلك الجسد لا قيمة له إذا زالت منه الروح . وجملة الاستدلال هذه مصوّرة للمعنى السابق تبرهنه وتقويه ، إذ يتمثلها المخاطب في حسه ، كأنه يعاينها ببصره ، وهي قضية مسلّمة لا جدال فيها . بحيث تصلح لأن تسير مسير المثل . وكذلك الحال مع جملة الاستدلال في البيت الثاني ، فالشاعر يحتج بها لمعناه ، وهي حقيقة معلومة يتمثلها المخاطب ويحسها ، إذ يقول : كما أن الغمد لا يكون غمداً الا بنصله وحمائله ، كذلك الجسد لا قيمة له إلا بالروح ، فهي التي تزينه .

ويلحظ في هذين البيتين التناسب الدقيق بينهما ، فهما في صدريهما ينهضان بمعنى واحد ، وفي عجزيهما يهدفان إلى تقرير المعنى ، والبرهنة عليه عن طريق التمثيل الضمني بجملتين مستأنفتين يبدأهما بواو الاستئناف ، ويضمنهما صورتين مختلفتين . وهذا دليل على حفاوة الشاعر بمعناه ، وحرصه على إيصاله لمخاطبه في قوالب فنية متشابهة في الصياغة ، مختلفة في المضمون .. بحيث يكشف لنا عن مقدرة فنية بارعة تميز بها سابق البربري ، فهو يركّز على المعنى ويلح عليه مستخدماً في تحقيقه كل ما وسعه من سبل الإقناع والتحقيق .
وعلى هذا النمط من الاستدلال قوله في أبيات أخرى :

وليس ذو العِلْمِ بالتّقوى كَجاهِلِـه
ولا البصيرُ كأعمى ما لَهُ بَصَـرُ (١)

إذاً لداويتُ قلباً قد أضرَّ بـه
طولُ السَّقامِ ، وهيضُ العظمِ ينجبرُ (٢)

والعِلْمُ يشفي إذا استشفى الجَهولُ به
وبالدواءِ قديماً يُحسَمُ الـداءُ (٣)

وهناك لون آخر من الاستدلال عن طريق التمثيل تبدأ فيه جملة الاستدلال بالاستفهام بهل كقوله (٤) :

لا ينفعُ الذِكْرُ قلباً قاسياً أبـداً
وهلْ يلينُ لقولِ الواعظِ الحَجَـرُ

أبعدَ آدمَ ترْجونَ الخُلودَ ، وهـلْ
تبقى فروعٌ لأصلٍ حِينَ يَنْقعِـرُ

لكم بيوتٌ بمستَنِّ السيولِ ، وهـلْ
يبقى على الماءِ بيتٌ أسُّهُ مَـدَرُ

والذى يلحظ أن هذه الأبيات الثلاثة من قصيدة واحدة ، وأن البيتين الثاني والثالث يقرران أن الفناء حتم على هذه البشرية ، والبيت الأول

---

(١) انظر شعره قصيدة ١٢ ، البيت : ١١ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٢٧ .
(٣) انظر شعره مقطعة ٧ .
(٤) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، الأبيات : ٢٠ ، ٣٦ ، ٣٧ .

يقرر معنى آخر. ولكن الصياغة واحدة في الأبيات الثلاثة ، فالشاعر فيها يأتي بالمعنى أولا . ثم يردفه بمثل يؤكده ويحققه ، ويبرهن عليه . وكل الأمثال مفتتحة بالاستفهام الدال على النفي . وهذا يكشف لنا عن طريقة خاصة في أسلوب سابق البربرى في صياغة معانيه ، فهو إذا اهتدى إلى أسلوب من أساليب التأثير الوجداني ، التي تساعده على إبراز معانيه ألحّ عليه ، واستخدمه فيما يناسبه . وهذا لون من ألوان التأثر بالأسلوب القرآني في تكرار أداة الاستفهام في سياق واحد ،كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ... أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ .... أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ... ﴾ (١)

وجملة الاستدلال في هذه الأبيات جمعت بين أسلوبين بلاغيين هما : الاستفهام الدال على النفي ، والتمثيل المصوّر للمعاني في صورة حسية ،بحيث استعمل الشاعر في النفي أداة الاستفهام "هل" ولم يأت بأداة النفي المباشرة ، وذلك لأن الاستفهام الدال على النفي تكمن فيه قيمة فنية ترجع إلى أن الشاعر عن طريق الاستفهام يطالب المخاطب بأن يرجع إلى نفسه ويسألها عن الحقيقة

---

(١) سورة الطور ،الآيات : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦.
وانظر أيضا الآيات : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣.
وانظر أيضا آخر سورة الواقعة . وقد كثر هذا الأسلوب في القرآن الكريم.

التي يخاطبه بها ، هل يبقى فرع بعد اجتثاث أصله ؟ وهل يبقى على الماء بيت أساسه من الطين ؟ وهل يلين الحجر بقول الواعظ ؟ . وسيكون الجواب بالنفي طبعاً . وبهذا يكون النفي نابعاً من المخاطب ذاته ، ولم يفرضه عليه الشاعر فرضاً . وهذا مايجعل جمل الاستدلال هذه غنية بالعناصر الفنية التي تؤثر تأثيراً قوياً في القلب حتى يخضع ويلين . مما يبيّن الدقة البلاغية والحس المرهف لسابق وعنايته بتمكين معانيه والإقناع بها .

ج ـ الاستدلال عن طريق القصر باستعمال إنما :

وفي هذه الطريقة نجد الشاعر يحتج لمعانيه ، ويبرهن عليها بجمل تقوم على القصر "بإنما" وتنطوى على حقائق بدهية معلومة ، تقرر المعنى السابق لها ، وتحققه في نفس المخاطب . وقد درسنا هذه الأبيات تحت مبحث استعمال إنما (١) ، لذا فإننا نكتفي هنا بالإشارة إليها على أنها طريقة من طرق الاستدلال عند سابق البربرى ، والأبيات هي قوله (٢) :

وقد يَنعِشُ الذكْرُ القلوبَ ، وإنما
يكونُ حياةَ العودِ في الماءِ وابِلُهْ

فإنْ كنتَ قد أبصرتَ هذا ، فإنما
يُصدِّقُ قولَ المرءِ ما هو فاعِلُهْ

---

(١) انظر المبحث الخاص باستعمال إنما ص ٢٩٠ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ الأبيات : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٠ .

وفيكَ إلى الدنيا اعـتراضٌ ،وإنمـــا
تَكالُ لدى الميزانِ ما أنتَ كائِلُـهْ

وعاقبـةُ اللذّاتِ تَخشى ،وإنمـــا
يُكدِّرُ يوماً عاجِلَ الأمرِ آجلُـــهْ

ومنها قوله أيضا (١) :

ياأيُّها الظّاعِنُ في حظّـــــه
إنما الظاعـــنُ مِثْلُ المُقيـــمْ

ويلحظ في هذه الأبيات أن أربعة منها من قصيدة واحدة ، والخامـــس من مقطعة أخرى . كما يلحظ أن جمل الاستدلال القائمة على القصـــر "بإنما " في الأبيات الأربعة الأولى موصولة بما قبلها بالواو أو الفاء. أما الجملة في البيت الخامس فهي مفصولة عما قبلها . ولكل من الأسلوبين موقعه البلاغي المرتبط بالمعنى .

د - الاستدلال بجمل تخرج بالمعنى من الخصوص إلى العموم:

وفي هذه الجمل الاستدلالية ،نجد الشاعر يأتي بالمعنى فـــي نطاق محدد . ثم يعقب عليه بجملة استدلالية تتضمن المعنى نفسه فـــي إطار عام ،بحيث يكون المعنى السابق داخلاً في إطار هذا المعنـــى العام لجملة الاستدلال .

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٢٤ ، البيت : ١ .

وقد وجدت له من هذا اللون عدة أبيات في قصيدته الرائية ، وأبيات أخرى متفرقة .

والأبيات التي من هذا اللون من قصيدته الرائية هي (١) :

قد يوبقُ المرءَ أمرٌ وهو يحقِرُه
والشيءُ بالنفسِ يَنْمي وهو يُحْتَقَرُ

والمرءُ يصعدُ رَيْعانُ الشبابِ بـه
وكلُّ مُصْعَدةٍ يوماً سَتَنْحَدِرُ

كَمْ مِنْ جَميعٍ أشتَّ الدهرُ شَمْلَهُمُ
وكلُّ شَمْلٍ جميعٍ سوفَ يَنْتَشِرُ

وليس يزجُرُكم ما تُوعَظُونَ بـه
والبَهْمُ يزجُرُها الراعي فَتَنْزَجِرُ

لا تَبطَروا واهْجُروا الدنيا فإنَّ لَهَا
غِبًّا وَخيمًا ،وكُفْرُ النّعْمةِ البَطَرُ

ثم اقتدوا بالأُلى كانوا لكم غُررا
وليس مِنْ أُمةٍ إلا لهَا غُرَرُ

وقد ذكرت هذه الأبيات متتالية ،لأن بعضها قد درس في مباحث أخرى ، والذى يهمنا الآن من ذكرها هو بيان طريقة الاستدلال فيها ، إذ نجد

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، الأبيات : ١٣، ٢٩ ، ٣٢، ٤٤، ٤٦، ٤٧ .

جمل الاستدلال فيها تأتي تعقيباً عاماً على المعنى الخاص الذى يبدأ به الشاعر قوله .

والذى يلحظ على جمل الاستدلال هذه أنها تتضمن معاني حكمية ، وتقرر حقائق معلومة شائعة ،بحيث أنها إذا اقتطعت من سياقها الذى وجدت فيه تصلح لأن يُتمثّل بها . وهذا أسلوب رائع في صياغة المعاني كثر وروده في شعر سابق البربرى ، مما يدل على ملكته الفنية ، وقدرته على تطويع أسلوبه .

ولننظر إلى هذه الجمل الاستدلالية لنبين فائدة كل جملة منها فهو في البيت الأول يقرر معنى خاصاً هو : أن الأمور المحتقرة ربما أوبقت صاحبها ، ثم يعقّب على هذا المعنى بجملة تقريرية تتضمن حقيقة بدهية عامة ،فيقول : "والشئ بالنفس ينمي وهو يحتقر" أى : لا تعجب من هذا المعنى ،لأن الواقع أن الأمور المحتقرة تنمو في النفس وهي غافلة عنها . . وهذا تعقيب عام يزيل التعجب الذى يطرأ في النفس من معناه الأول . وفي البيت الثاني يقرر أن فتوّة الشباب قد تميل بالإنسان إلى الطيش والنزق ، ثم يعقّب على هذا المعنى بحقيقة بدهية عامة هي : أن كل ما يصعد مصيره إلى الانحدار.وهذا يدل على أنه لا يريد بالصعود هنا السمو والرفعة ،لأنهما صعود لا انحدار فيه ،وإنما يريد طيش الشباب ، وعدم اتزانه ، وهذا مصيره الانحدار. وفي البيت الثالث يخبر عن الأمم التي تشتتت شملها واندثرت ، ثم يردفه بما يقرره ، ويحققه ، فيقول : إن مصير كل جمع أن ينتشر ويتفرق . وفي البيت الرابع يخبر شاعرنا عن عدم تأثر الناس بالوعظ الموجّه إليهم ،ثم يردف هذا الخبر بجملة استدلالية عامة ، تهدف إلى التوبيخ على هذه الغفلة ،إذ يقول : إن البهم يزجرها

الراعي فتنزجر وكأنه يقول لمن أخذته الغفلة فلم يتعظ بما يوعظ به : أنت بهذه الغفلة تنحط عن مرتبة البهائم ،لأن البهائم ترتدع من زجر الراعي ، وهذا يبين أن للتعقيب هنا مكانته في تأكيد المعنى والاحتجاج له ،إذ فيه توبيخ ينبه الغافل ، ويوقظ حسه . وفي البيت الخامس ينهى الشاعر عن البطر بالنعمة ، ويأمر بهجر متع الحياة الدنيا ، ثم يعقّب على نهيه عن البطر بجملة تتضمن حقيقة تعلل لهذا النهي ، فيقول : إن من كفر النعمة البطر بها .. وفي هذا بيان أن جملة الاستدلال تقوم من النهي مقام العلة والسبب . وفي هذا التعقيب تقوية وتعضيد للنهي الذى بدأ به الشاعر بيته . وفي البيت السادس ،يأمر الشاعر بالاقتداء بالسلف الصالح ، ثم يردف هذا الأمر بما يقرره ،ويحققه ،فيأتي بجملة استدلالية تتضمن حقيقة مسلّمة ،إذ يقول : وليس من أمة إلا لها غرر" بمعنى : أن الأمم لا تخلو ممن يقتدى بهم ، وكأنه يحض على هذا الاقتداء ،ويؤكد لهم أن من سبقهم فيهم غرر صالحون يستحقون الاقتداء بهم ... وهذا يبين أن التعقيب بهذه الحقيقة البدهية العامة يحض على الامتثال للأمر ، ويشجع عليه .

والذى يلحظ في طريقة الاستدلال هذه أن معظم الأبيات التي برزت فيها كانت من القصيدة الرائية التي جمعت خلاصة مواعظه .

ومن هذه الطريقة في الاستدلال قوله [1] :

إذا العِلْمُ لم تَعملْ بهِ صارَ حجّـــةً
عليكَ ، ولم تُعذَرْ بما أنتَ جاهِلُهْ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، الأبيات : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

وَقَدْ يُنعِشُ الذِّكْرُ القلوبَ ، وإنمـــا
يكونُ حياةَ العودِ في الماءِ وابلُـهْ

أرى الغصنَ لا يَنمي إذا اجتُثَّ أصلُه
وليس بباقٍ من أُبيحتْ أوائلُـهْ

فإنْ كنتَ قد أبْصرتَ هذا فإنمـــا
يُصدِّقُ قولَ المرءِ ما هو فاعِلُـهْ

والبيت المقصود هو البيت الثالث منها ، ولكننا ذكرنا هذه الأبيات لارتباط البيت الذى يعنينا بها . وهي تبدأ بالحض على طلب العلم مع العمل به . ثم تتدرج تدرجاً دقيقاً في البيت الثاني ، حين يبين الشاعر فضل الذكر في إحياء القلوب ، إذ أن الذكر هو في حقيقته العمل بالعلم . ثم يستدل الشاعر على قيمة الذكر بصورة تمثيلية محسوسة ، هي أن حياة العود وانتعاشه بالوابل الذى يسقيه . وقد ناسب هذه الصورة المحسوسة أن يلحقها الشاعر بما يقرب منها ، وهي ذكر الغصن ونمائه ، واتصاله بأصوله . ومن ثمّ ينتقل الشاعر انتقالة غريبة تتصل بموضوع الجذر وفروعه ، ليعقّب على معناه بحقيقة بدهية عامة لا تنكر أبداً ، وهي قوله : وليس بباقٍ من أبيحت أوائله ، بمعنى : أن من جعل ماضيه مباحاً معرّضاً للنقص والفناء لا وجود له ولا بقاء .. وهذا قول حكيم يطوى وراءه الكثير من المعاني والفكر ، وهي جملة رائعة بليغة يمكن أن تنقطع من سياقها وتسير مسير المثل . وقد انتقل فيها الشاعر من المعنى المحسوس المصوّر إلى معنى تقريرى يدرك بالعقل والتأمل . ثم إنه في البيت الأخير يطلب من مخاطبه أن يبرهن على اقتناعه بالفكرة التي ألحّ عليها وتدرج في عرضها ، فيقول له : إن وقع هذا في نفسك ، واستحسنته فليصدق عملك قولك .

وقد عمدت إلى ذكر هذه الأبيات الأربعة ، التي ترتبط ببعضها ارتباطاً معنوياً دقيقاً ، لأبين خاصة من خصائص أسلوب سابق البربري . هذه الخاصة هي : أن شاعرنا إذا طلق بنفسه معنى من المعاني ركّز عليه ،وألحّ على إبرازه مستخدماً كل ما وسعه من وسائل التأكيد والتحقيق ، فيبرزه في تراكيب مختلفة ، وفي صور متنوعة ، وفي أبيات مختلفة ، حتى يعمّقه في نفس مخاطبه ، ويرسّخه في وجدانه . وكأنه يأخذ على مخاطبه العهد بالاقتناع والتطبيق . وقد لحظنا هذه الخاصة في كثير من المعاني التي كررها في مواضع مختلفة ،وأبرزها في صور متنوعة. وهذا دليل على التزام الشاعر بهدف سام يسعى إليه ويرمي إلى تحقيقه من خلال موهبته الشعرية.

وبعد : فهذه هي طرق الاستدلال التي برزت كظاهرة أسلوبية في شعر سابق البربري . وقد حاولت من خلال دراسة الأبيات التي ظهرت فيها هذه الظاهرة تجليتها ، وكشف بعض أسرارها الفنية . وقد لحظت أن جمل الاستدلال هذه متنوعة في أساليبها ، وطرق صياغتها ولكنها - مع ذلك - تنتهي إلى هدف واحد هو : تحقيق المعنى وتقريره ، وإخضاع النفس لقبوله. وهذا يدل على أن شاعرنا حذق في صياغة معانيه ،عالم بأسرار لغته ،خبير بدلالات الكلم. كما يدل على أنه متمرس بأساليب القرآن ، ذلك أن طرق الاستدلال في القرآن الكريم متنوعة ، وقد اقتدى سابق البربري ببعض هذه الطرق .

ثالثا ـ أسلوب الخطاب في شعر سابق :

من الأساليب البارزة في شعر سابق البربرى أسلوب الخطاب .
ولأسلوب الخطاب الذى برز في شعره دلالة فنية ، تكشف نهج مقصود ، ذلك أن معظم معانيه التي يدور عليها شعره تهدف إلى التوجيه ، والوعظ ، والإرشاد ، والتذكير . وهذه كلها مقاصد نبيلة ، يحرص الشاعر على إيصالها لمن يسمعه ليفيد منها مما دفعه إلى تحري الأسلوب الأمثل لإيصال معانيه . وليس كأسلوب الخطاب في هذا التوصيل ، إذ في الخطاب إحضار للشخص ، ولفت لانتباهه وإعلامه بالاهتمام به ، والحرص على إسماعه الخبر مباشرة .

ولا يشترط أن يكون الشخص الموجه إليه الخطاب شخصاً معيناً ، فقد يكون المخاطب شخصاً افترضه الشاعر ليفتح الباب لمعانيه ، حتى تنفذ إلى كل من يتأتى إليه الخطاب . ولهذا نقول : إن أسلوب الخطاب في شعر سابق البربرى لم يكن موجهاً إلى مخاطب معين ، كما أن من يسمعه ليس شخصاً معيناً ، وإنما هو خطاب عام توجه به الشاعر إلى كل من يتأتى منه السماع . وفي هذا دليل على عناية الشاعر بإبلاغ معانيه ، واهتمامه بمخاطبه ، والحرص على إيصال الدعوة إليه .

وأسلوب الخطاب عند سابق البربرى لم يعتمد على المخاطب الفرد فحسب ، وإنما تنوعت ضمائر الخطاب ما بين مفرد ، ومثنى ، وجمع . وقد يتجه بالخطاب إلى نفسه . ولم يعتمد سابق البربرى في توجيه الخطاب منهجاً معيناً ، بل راوح ما بين المخاطب المفرد والجمع في القصيدة الواحدة ، معتمداً في ذلك على حقيقة المعنى الذى ضمّنه شعره . وهذا يدعونا إلى دراسة الأبيات المبنية على أسلوب الخطاب ، لنحاول معرفة شئ من أسرار توجيه الخطاب إلى مفرد أو جمع أو إلى نفسه .

أ - خطاب المفرد :

ويلحظ أن أكثر خطاب سابق البربرى كان موجهاً إلى مفرد ، ولا يعنينا هنا أن يكون المخاطب شخصاً حقيقياً أو افتراضياً ، وإنما الذى يعنينا أننا نلحظ أن الخطاب إلى المفرد كان في معظمه متضمناً توجيهاً ، وإرشاداً يتعلق بالأخلاق النبيلة ، وتنبيهاً إلى ما يتعلق بالعلاقات الإنسانية ، والتوجيه السلوكي الداعي إلى المبادىء الإسلامية السمحة .

ومن هذا اللون من الخطاب قوله [1] :

تعاونْ على الخَيراتِ تَظْفَرْ ولا تكُنْ
على الإثمِ والعُدوانِ ممن يُعاوِنُ

وداهِنْ إذا ما خِفْتَ يوماً مُسلَّطاً
عليكَ ،ولا يَحْتالُ مَنْ لا يُداهِنُ

ولا تَكُ ذا لَونين يُبْدى بشاشةً
وفي صَدْرِه ضبٌّ من الغِل كامِنُ

وقوله [2] :

ألَمْ تَرَ أنَ الحِلْمَ زَينٌ مُسَوِّدٌ
لصاحبه ، والجهلَ للمرءِ شائنُ

فكُنْ دافِناً للشرِّ بالخَيرِ تَسْتَرِحْ
من الهمِّ ، إنَّ الخيرَ للشرِّ دافِنُ

---

(١) انظره شعره ، مقطعة ٢٩ .
(٢) انظر شعره ،مقطعة ٣٠ .

وهَجْرُ الهَوى للمرءِ ، فاعلمْ ، سعادةٌ
وطولُ الهَوى رينٌ على القلبِ رائِنُ

وهاتان مقطّعتان من مجموعة الأبيات النونية ، التي وردت له متفرقة ، وهما كما يلحظ تتضمّنان توجيهاً ،وإرشاداً يتعلق بالعلاقات الإنسانية ، كما يلحظ أن الشاعر متجه فيهما إلى مخاطب مفرد غير محدد ،والمغزى من هذا الأسلوب التعميم كما يقول الخطيب القزويني : "أصل الخطاب أن يكون لمعيّن ، وقد يترك إلى غير معين ، كما تقول : " فلان لئيم ، إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك " فلا تريد مخاطباً بعينه ، بل تريد : إن أُكْرِمَ ، وإن أُحْسِنَ إليه ، فتخرجه في صورة الخطاب ، ليفيد العموم ،أى سوء معاملته غير مختص بواحد دون واحد"(١). فالقصد هو تعميم الخطاب فعلاً ، ولكن الأهم من التعميم مشاركة المخاطب في سماع هذا الأمر ، بحيث يشعر كل مخاطب بأنه شريك في تحقيق المعنى الذى يطرحه الشاعر،وفي هذا إشعار له بالعناية والاهتمام، يجعله أطوع للانقياد ، وأخضع للتنفيذ . وفوق هذا كله أن توجيه الخطاب أسلوب واضح في القرآن الكريم ، فكثير من الآيات القرآنية صيغت على أسلوب الخطاب لكل من يتأتى خطابه وإن كان المخاطب بها في الأصل هو النبي - صلى الله عليه وسلم - مثل قوله تعالى : ﴿ لا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ولا تَحْزَنْ عليهم واخْفِضْ جنَاحَكَ للمؤْمنين ﴾(٢) . فالخطاب في الآية موجّه أساساً إلى النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم -إلا أنه لم يبدأ بندائه بصفة

---

(١) انظر الإيضاح للخطيب القزويني ١/ ١١٤.
(٢) سورة الحجر ،آية : ٨٨ .

النبوة ،وذلك لكي ينال الخطاب كل فرد يسمعه ، فيتأثر به لشعوره أنه معنى بهذا الخطاب ، لإشعار الإنسان بالأمر الذى يوجه من أجله الخطاب ، ومشاركته فيه ، وهذا أكثر نفعاً من أن يوجه المعنى في صورة ذهنية تقريرية جامدة .. ولهذا كان استعمال سابق البربرى أسلوب الخطاب في توصيل معانيه أعمق أثراً في النفس، وأكثر حثاً على التنفيذ .

ومن هذا اللون من الخطاب المفرد قصيدته الرائية ، وهي موجهة إلى عمر بن عبد العزيز ، وتبدأ بقوله (١) :

بِسْمِ الذى أُنزِلَتْ من عِنْدِه السُّوَرُ
والحَمْدُ للهِ ،أمَّا بعدُ يا عمرُ

إنْ كنتَ تعلمُ ما تأتى وما تَذَرُ
فكُن على حَذَرٍ ، قد ينفعُ الحَذَرُ

واصْبِرْ على القَدَرِ المَجْلُوبِ وارضَ به
وإنْ أتاكَ بما لا تشتهي القَدَرُ

وهذه القصيدة - وإن كان المخاطب مقصوداً فيها- فإننا نلمس أن الشاعر لم يخصص بها عمر بن عبد العزيز وحده ، ذلك لأن الأبيات التالية - لهذه الأبيات الثلاثة - تنوّع فيها الأسلوب ، فجاء من غير توجيه إلى مخاطب أصلاً ، أو موجهاً إلى جمع .. كما أن الشاعر ختم القصيدة موجهاً خطابه إلى جمع ، ليبيّن أن القصد تعميم معانيها ، والتوجه إلى كل من يتأتى منه سماع هذه الموعظة.

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ .

ومن خطاب المفرد خطابه نفسه في مطلع قصيدته اللامية ، إذ يقول (١) :

تأوبني همٌّ كثيرٌ بلابلُهْ
طروقاً ، فغال النومَ عني غوائلُهْ

فويحي من الموتِ الذي هو واقعٌ
وللموتِ بابٌ - أنتَ - لا بدَّ داخلُهْ

أيأمنُ ريبَ الدهرِ يا نفسُ واهنٌ
تجيشُ له بالمفظعاتِ مراجلُهْ

فلمْ أرَ في الدنيا وذو الجهلِ غافلٌ
أسيراً يخافُ القتلَ واللهوُ شاغلُهْ

وهذا حديث عن نفسه ، يصور فيه موقفاً ذاتياً ، يصف فيه الهموم التي تجتاح قلبه ، والأرق الذي ينتابه من جراء التفكير في الموت . وقد اتجه في الحديث مع نفسه بضمير الخطاب " أنت " وكأنه يجرد من نفسه شخصا آخر يحاوره ، ويتجه إليه بالخطاب ليقول له : وللموت باب أنت لا بد داخله " والمغزى من هذا الخطاب دقيق ، نلمح وراءه إيماءة لطيفة ، تذكّر كل من يسمع هذا البيت بحقيقة الموت ، الذي هو مآل كل مخلوق . ثم يتحدث عن الغفلة التي غطت على بصره ، فأفقدته التمييز بين الحق والباطل ، مما رمي به في مهاوى الضلال . إلى أن

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

يتجه إلى نفسه فيناديها ليوقظها من غفلتها ، وعماها ، وليضع أمامها مشاهد عنيفة صارخة ، تتمثل في القبر وأهواله ، والقيامة ومفظعاتها ، إذ يقول (١) :

وبعدَ دخولِ القبرِ يا نفسُ كُربةٌ
وهولٌ يُشيِّبُ المُرْضِعِينَ زَلازِلُهْ

إذا الأرضُ خفَّتْ بعدَ ثقلِ جبالِها
وخلَّى سبيلَ البحرِ يا نفسُ ساحِلُهْ

فلا يَرْتجي عوناً على حَمْلِ وِزْرِهِ
مسيءٌ ، فأولى الناسِ بالوِزْرِ حامِلُهْ

إذَا الجَسدُ المعمورُ زايلَ روحَهُ
خوى ، وجمالُ البيتِ يا نفسُ آهِلُهْ

وقَدْ كانَ فيه الروحُ حِيناً يَزينُهُ
وما الغِمْدُ لولا نَصْلُهُ وحَمائِلُهْ

وبعد التحديق ، والوصف لهذه الأمور العظام ، التي رآها ببصيرته النافذة وقلبه الواجف ، يرجع ليقرر لها ما ينفعه ويبقى معه بعد الموت ، فيقول (٢) :

يُزايلُني مالي إذَا النفسُ حشرجتْ
وأهلي وكَدْحي لا زِمي لا أُزايِلُهْ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، الأبيات : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ١٢ .

وهكذا يستمر في حواره مع نفسه فيحدثها وتحدثه ، إلى أن ينتهي بحديث عام يجمع فيه صوته إلى أصوات من اعتصر الندم قلوبهم عند الصحوة من الغفلة ، إذ يقول (١) :

وقد خَتَلَتْنا باللطيفِ من الهَـــوى
كما يَخْتِلُ الوحشيَّ بالشيءِ خَاتِلُهْ

رَضِينا بِما فيها سَفاهًا ولم يكُـــنْ
يَبيعُ سمينَ اللحمِ بالغثِّ آكِلُـــهْ

ثم يختم بالموعظــة العامة التي توجّـه في حقائق موحية مصورة ، حتى ينتفع بها كل من تأتى له سماع القصيدة . وبهذا تتحول القصيدة مــن موقف ذاتي الى موعظــة عامة بالغة التأثير .

ب ـ خطاب المثنى :

ولم يتجه بالخطاب الى مثنى إلا في بيتين منفردين في شعره الذى بقي لنا ، وهما قوله (٢) :

وإنْ جاءَ ما لا تَسْتَطيعانِ دَفْعَــهُ
فلا تَجْزَعَا مما قضَى اللهُ واصْبِـرَا

وقوله (٣) :

فلا تيأَسَا واسْتَغْفِرَا اللهَ ، إنــــه
إذَا اللهُ سَنَّى عَقْدَ أمرٍ تيسَّـــرا

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ البيتين : ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ١٠ .
(٣) انظر شعره ، مقطعة : ١١ .

وقد جاءنا هذان البيتان منفردين ،مقطوعين من سياقهما . وهذا يجعل الحديث عنهما من باب الافتراض ، أى أننا نفترض أن هذين البيتين ربما كانا في ثنايا قصيدة وجه فيها الخطاب إلى صاحبيه ، فيكون بهذا محاكياً للعنصر الفني ، المتوارث عن الشعراء الجاهليين الذين افتتحوا مقدماتهم الطللية بالحديث إلى الصاحبين . وفي هذا دلالة فنية قيّمة تكشف عن أن شاعرنا جرى مجرى أهل السليقة العربية ، وهو منهم. وقد يكون هذان البيتان من قصيدة واحدة وجههما إلى مخاطبين حقيقيين ،ويكونان مسبوقين بأبيات توضح المعنى الذى جرى بين شاعرنا ومخاطبيه. وأيّاً ما يكون السبب فإننا لا تملك القطع في أىّ الوجهين ،ولكننا نسجل : أن ما عثرنا عليه من هذااللون من الخطاب لا يعدو هذين البيتين .

جـ - خطاب الجماعة :

و خطاب الجماعة لم يرد في افتتاح قصيدة من شعر سابق البربرى ، الذى انتهى إلينا ،وإنما ورد في ثنايا قصائده ، بعد أن يبدأها بخطاب المفرد . مما يدل على أنه يرمى إلى تعميم معانيه وشيوعها ، لاحتفاله بها ، واهتمامه بإذاعة دعوته .

ومن هذا اللون من الخطاب قوله في آخر قصيدته الرائية (١) :

أبعدَ آدمَ ترجونَ الخُلودَ ، وهلْ
تبقى فروعٌ لأصلٍ حينَ ينقعرُ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيتين : ٣٦ ، ٣٧ .

لكم بيوتٌ بمستنِّ السيولِ ، وهَلْ
يبقى على الماءِ بيتٌ أُسُّهُ مَدَرُ

وبعد عدة أبيات يتحدث فيها عن قضايا عامة ،من غير أن يوجه الخطاب إلى معيَّن ، يقول (١) :

وليس يَزْجُرُكم ما توعَظُون بــه
والبَهْم يزجُرها الراعي فَتَنْزَجِرُ

أصبحتُم جُزُرًا للموتِ يَقْبِضُكُم
كما البَهائِمُ في الدنيا لكم جُزُرُ

لا تَبْطَروا واهْجُروا الدنيا فإنَّ لها
غِبًّا وخِيمًا ،وكُفْرُ النعمةِ البَطَرُ

ثم اقتدوا بالأُلى كانوا لكم غُررًا ،
وليس من أُمَّةٍ إلا لها غُرَرُ

حتى تكونوا على مِنْهاجِ أَوَّلِكم
وتَصْبِرُوا عن دَمَ الدنيا كما صَبَرُوا

والذى يلحظ في هذه الأبيات أنها وردت في آخر القصيدة الرائية ، وقد سبقها الشاعر بمجموعة أبيات تضمنت حقائق عامة ،دون أن يوجهها إلى مخاطب معين ، وعند مراجعتها تجد أن سابقًا البربرى يتحدث عن فضل العلم وطلبه ، وفضيلة التقوى ، ونهاية الظلم ،وأهمية الذكر في إحياء القلوب ، كما يتحدث فيها عن حتمية الموت على البشر ،

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، الأبيات : ٤٤ ،٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،٤٨ .

مع ذكر شيء عن اندثار الأمم ، وشتات أمرها . وهذه كلها قضايا عامة ، يتساوى في أهميتها وحقيقتها جميع البشر ، ولهذا ناسب أن يتجه الشاعر بعدها في مواعظه للناس عامة ، فخاطبهم بضمير الجمع عندما وجه موعظته . ثم إن الموعظة التي خاطب فيها الجمع تضمنت أمورًا عامة ، لا ينفرد بها واحد من الناس ، فهو يلومهم على حب البقاء في الدنيا ، ويذكرهم بأن الموت مصير كل حي ، ويتحدث عن طول الأمل في الدنيا ، وعن عدم الارتداع بما يزجرهم ، ويأمر بالاقتداء بأهل الفضل . وهذه أمور لا تتضح إلا بالنظر في أحوال البشر جميعًا ، لأنها مضطردة فيهم ، لذا فلا يتأتى إبرازها من خلال مخاطبة الفرد ، لأن الحكم فيها ينظر إليه من زاوية العموم . وليس هذا بغريب ، بل هو أسلوب القرآن الكريم ، إذ نجد معظم الآيات التي تتضمن أمورًا تبدو كظاهرة عامة ترد بخطاب الجمع ، والأمور التي تبدو في بعض الناس ترد على صيغة المفرد ، مثل قوله تعالى : * قد أفلحَ من تزكّى ، وذَكَرَ اسمَ ربهِ فصلّى . بل تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا * (١) ، ومثل قوله تعالى : * فأمّا الإنسانُ إذا ما ابْتَلاه ربُّه فأكْرَمَهُ ونَعّمَهُ فيقول ربي أكْرَمَنِ . وأمّا إذا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عليه رِزْقَهُ فيقولُ ربي أهَانَنِ . كلاَّ بلْ لا تُكْرِمونَ اليتيم . ولا تَحَاضون على طَعَامِ المِسْكين * (٢) . ولهذا كانت أبيات سابق البربري في خاتمة القصيدة الرائية متجهة إلى جمع لتناسب المعاني التي سبقتها ، والمعنى الذى تضمنته . الأمر الذى جعل قصيدته هذه موعظة دينية قيمة يستفيد منها كل من تأتى له سماعها .

---

(١) سورة الأعلى ، الآيات : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة الفجر ، الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

رابعا - التكرار في شعر سابق البربرى :

من الظواهر الأسلوبية البارزة فيما بقي لنا من شعر سابق البربرى ظاهرة التكرار .. فالذى يلحظ في شعره أنه يميل دائماً إلى تكرار معانيه أو مفرداته أو تراكيبه ،حتى أن السامع ليشعر أن هذا الشاعر ملحّ على أفكاره ، يهدف إلى تأكيدها في ذهن كل من يصل إليه شعره ، وذلك لاحتفاله بهذه المعاني ، وشعوره بأن الشعر رسالة ينبغي أن تتضح في المجتمع المسلم.

والتكرار فن دقيق من فنون التعبير ، به يرقى الكلام إلى مستوى بلاغي رفيع ، كما قال فيه العلوى : " ويقال له التكرير أيضا ، وليس يخفى موقعُه البليغ ، ولا علُوُّ مكانه الرفيع ، وكم من كلام هو عن التحقيق طريد ،حتى يخالطه صفوُ التأكيد ، فعند ذاك يصير قلادة في الجيد ، وقاعدة للتجويد "(١).

وقد كثر التكرار في القرآن الكريم ،وهو النموذج الأعلى في البلاغة العربية ،وذلك لأن القرآن يهدف إلى التحقيق والتأكيد وترسيخ المعانى في القلوب ، وإمالتها للخضوع .. ولهذا فليس بغريب أن يلجأ إليه شاعرنا لتحقيق معانيه وتأكيدها ، فهو شاعر يتخذ القرآن الكريم مثاله الذى يقتدي به في صياغته لفنه الذى يهدف من ورائه تهذيب النفس البشرية ،وصقلها ، والرقي بها إلى المستوى الخلقي المثالي الذى ينادى به الإسلام.

---

(١) انظر الطراز ، للعلوى ٢/١٧٦-١٧٧.

والتكرار الذى لحظناه في شعر سابق البربرى متنوّع ، فمنه تكرار للمعاني ، ومنه تكرار للمفردات ، ومنه تكرار لأنماط تركيبية معينة .
وعلينا أن نقف أمام كل نوع من هذه الأنواع لنتبين إلى أىّ مدىّ وُفِّق شاعرنا في هذه الظاهرة التي برزت كثيراً في شعره .

أ - التكرار في المعاني :

أوضحنا فيما سبق أن شاعرنا سابق البربرى قد قصر شعره في الزهد ، والوعظ ، والتذكير . وهذا يؤدى به حتماً إلى تكرار معانيه ، ولكن هذا التكرار يأتي مناسباً مع الهدف الأسمى الذى يسعى إليه الشاعر ، ذلك أن الموعظة لكي تحقق نتائج مؤثرة لا بد أن ترسخ في القلب ، ويقتنع بها العقل . وترسيخها يكون عن طريق تأكيدها ، وتكرارها ، لهذا فإن شاعرنا لم ير حرجاً أن يكرر معانيه ، خاصة وأنه ممن اتخذ القرآن الكريم مثالاً له في معانيه وصياغته . والقرآن -كما نعرف - قد أكد معانيه بتكرارها في سور كثيرة ،فمثلاً نجد الحديث عن الإيمان بالله ، وتوحيده قد تكرر في سور كثيرة ، وكذلك الحديث عن الجنة والنار ، والدنيا وحقيقتها . بل إن القصص القرآني تكرر في صور مختلفة ، وكيفيات تتراوح بين الإيجاز والتطويل ، وكل هذا لتحقيق المعاني وتأكيدها ، حتى تستقر في النفوس ، وتنقاد لها العقول . . وهكذا نجد سابقاً البربرى يكرر بعض معانيه منوعاً في صياغتها ، حتى يثبتها في الأذهان . مع نفض غبار الرتابة والملل عنها بتنويع أساليب الصياغة لها .

وأكثر المعاني تكراراً في شعره حديثه عن الدنيا وبيان حقيقتها ، والدهر وتصاريفه ، والحديث عن الموت وتقرير حتميته ، والحض على طلب العلم ، وبيان فضل الذكر والهدى والرشد ، والدعوة إلى الحلم والعفو واللين في معاملة الآخرين ، والحديث عن الصداقة والحرص عليها ،

واختيار الصديق . وكل هذه المعاني مبادئ إسلامية نبيلة تستحق أن تؤكد وتحقق في نفس السامع حتى يقتنع بها ، ويلتزمها في سلوكه .

ولنضرب مثلاً لهذه المعاني التي كرر الحديث عنها في قوافٍ متنوعة ، وفي صياغات مختلفة ، فندرس حديثه عن الدنيا وحقيقتها ، لأنه أكثر المعاني التي تكررت في شعره .

وقد تبين لي أن حديثه عن الدنيا شمل : التحذير من طول الأمل فيها ، وبيان مغبّتها ، مع ذمّ الإقبال على الدنيا مع إدراك أنها فانية منقطعة .

فمن حديثه عن طول الأمل في الدنيا قوله (١) :

وللنُّفوسِ - وإنْ كانت على وَجَلٍ - مِنَ المنيةِ آمالٌ تُقَوِّيها

فالصبرُ يَبسُطُها ، والدهرُ يَقْبِضُها والنفسُ تَنشُرُها ، والموتُ يطْويها

والمعنى هنا عام ، إذ هو إثبات لهذه الحقيقة في صورة مجردة ، دون أن يشفعه بتوجيه معين .

ويقول في هذا المعنى بنفس القافية (٢) :

تَرجُو ونأْمُلُ أياماً تُعَدُّ لنا سريعةَ المرِّ تطْوِينا ونَطْوِيهَا

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٣٨ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ٣٦ ، الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ .

واللهِ ما قَنِعَتْ نفسٌ بما رُزِقَتْ
من المعيشةِ إلا سوفَ يكفيها

النفسُ تكلفُ بالدنيا ، وقدْ علِمتْ
أن السلامةَ منها : تَركُ مافيها

هذه الأبيات تتحدث عن طول الأمل في الدنيا ، مع تقرير كلف النفس البشرية بها ، والإقبال على أسباب المعيشة فيها . ولكن الصياغة فيها جاءت كاشفة عن حال المتكلمين ، الذين باسمهم ينطق الشاعر ثم جاء التوجيه إلى القناعة التي تكفي من بؤسها على الطمع.

ويعود الشاعر الى تناول الموضوع نفسه ، مع صور جديدة تتضح فيها عواقب الطمع المردية ، وذلك اذ يقول (١) :

لا يُشبِعُ النفسَ شيءٌ حينَ تُحْرِزُهُ
ولا يَزالُ لها مِنْ غيرِهِ وَطَرُ

ولا تَزالُ -وإن كانت لها سَعَةٌ-
لها إلى الشيءِ لم تَظْفَرْ به نَظَرُ

والمرءُ ما عاشَ في الدنيا له أَمَلٌ
إذا انْقضى سفرٌ منها أتى سَفَرُ

لها حلاوةُ عيشٍ غيرُ دائِمةٍ
وفي العواقبِ منها المُرُّ والصَّبِرُ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، الأبيات : ١٤ ، ١٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

إذا قضتْ زُمرٌ آجالها نزلـــت
على منازلِها مِنْ بعدِها زُمَـــرُ

وفي هذه الأبيات حديث عن طول أمل الإنسان في الدنيا ، مع بيان أن الدنيا غرور لا يؤمن لها ، بدليل تعاقب الأجيال عليها . وفي الأبيات بيان أن طول الأمل في الدنيا ينتج عن عدم القناعة بالرزق ، والتطلع إلى الزيادة فيه . وقد ساق الشاعر معانيه في صورة تقرير الحقائق المجرّدة ،ولكنه نوّع في الصياغة ،فجاء بالمعنى في أسلوب التقرير تارة . . وعن طريق التشبيه تارة أخرى ، ولهذا لا تجد في الأبيات جفافاً ولا ملالة .

ومن المعاني المتعلقة بالدنيا ما أخبر به سابق البربرى عن حقيقتها ،وأنها غرور ينخدع بها الإنسان حتى يؤخذ منها على حين غرّة ، وفي هذا المعنى يقول (١) :

وقد خانتِ الدُّنيا قروناً تتابعـوا
كما خانَ أعلى البيتِ يوماً أسافِلُهْ

وتُصْبِحُ فيها آمِناً ثم لَمْ تكُـنْ
لِتأْمَنَ في وادٍ بهِ الخوفُ نازِلُـهْ

وقد خَتلتْنا باللطيفِ مِنَ الهـوى
كما يَخْتِلُ الوحشيَّ بالشيءِ خاتِلُهْ

رَضينا بما فيها سَفاهاً ولم يكـنْ
يَبيعُ سمينَ اللحمِ بالغثِّ آكِلُهْ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ،الأبيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

وعاقبةُ اللذّاتِ تخْشى ، وإنّما
يكدِّر يوماً عاجلَ الأمرِ آجِلُهْ

وإنْ فرِحتْ بالمرءِ يوماً حلائلُهْ
فلا بُدَّ يوماً أن تُساءَ حلائِلُهْ

فكم مِنْ فتىً قد كانَ في شِرّةِ الصّبى
فأقْصَرَ بعدَ العذْلِ عنه عواذِلُهْ

والأبيات تتحدث عن انخداع الإنسان بالدنيا ، وأخذه منها على غفلة ، ولكنها متنوعة السياق ، فمرة يأتي المعنى بأسلوب الحكاية عن خيانة الدنيا للأمم السالفة ، وأخرى يأتي المعنى بأسلوب الخطاب للمفرد ، وثالثة بأسلوب المتكلم . كما اختلفت الصياغة ، فتارة يكون المعنى ظاهراً ، وأخرى متوارياً خلف الصور البيانية . وهذا التنوّع في الأسلوب هو الذى يذهب عن المعنى آثار الملالة التي قد يحدثها التكرار .

وهكذا لو تتبعنا كل ما قاله شاعرنا في شأن الدنيا ، وطول الأمل فيها ، وانخداع الإنسان بها ، لوجدناه في كل مرة يلجأ إلى نوع من التحديد ، ومعالجة المعنى من زاوية خاصة ، حتى لا يمل السامع من حديثه عن الدنيا ، ودعوته الملحّة إلى ترك الانخداع بها والغفلة عن حقيقتها .

وإذا علمنا أن النفس البشرية ميالة - بطبعها - إلى النفور من التكرار ، وغير مقبلة على التزهيد في الدنيا والنصح في صورته المجردة - أدركنا فطنة سابق البربرى وخبرته بأساليب التأثير ، إذ لجأ إلى التنويع في صياغة معانيه ، ليذهب عنها ثقل النصح ورتابة التكرار ، الذى عرف - بفطرته السليمة - أنه لازم له في شعره ، حتى يثبت هذه

المعاني في النفوس ، ويخضعها على الاقتناع بها والتزامها . مقتدياً في هذا بالقرآن الكريم الذى هو النموذج الأعلى في البلاغة .

ب - التكرار في المفردات :

من أنواع التكرار التي برزت كثيراً في شعر سابق البربرى تكرار المفردات ، إذ تجده يكرر اللفظة الواحدة في البيت مرتين أو ثلاث مرات . وهذا اللون من التكرار قد يبعث الملل في النفس ، أو يدل على فقر في المعجم اللغوى للشاعر ، ولكنه إذا كان وارداً لغرض فني ، أو تصرف فيه الشاعر تصرفاً بارعاً استطاع أن ينفض عنه غبار الملل ، وأن يثبت حذقه وقدرته الفنية التي تبرهن على صدق موهبته ، ذلك لأن التكرار عامة كما قيل : "أسلوب حذر لا يسلم من عثراته إلا صادق الموهبة" (١) .

وتكرار المفردات الذى وجدناه في شعر سابق البربرى يدل معظمه على سلامة فطرته ، وحسه الفني اليقظ ، ذلك أنك تجده ينوع في اللفظ المكرر ، فقد يكرره بالاشتقاق نفسه ، مع التنويع في مكانه من سياق البيت ، أو التنويع فيما يتعلق به من المفردات غيره . وقد يكرره منوعاً في اشتقاقه ، أو منوعاً في صياغته ، ولهذا تجد أغلب ما يكرره طيعاً سهلاً عفوياً ، يعكس سلامة فطرة المطبوعين ، الذين لم تقيدهم الصناعة .

وعلينا الآن أن نشير إلى بعض الأبيات التي كرر فيها سابق المفردات ، لنتحقق من سلامة ما لحظناه على تكراره .

---

(١) انظر خصائص التراكيب ، للدكتور محمد أبو موسى ١٥٤ .

فمن تكراره لألفاظ معينة من غير تنويع قوله [(١)] :

فما بالهُ يَفدى من الموتِ نَفْسَهُ
وَيأمَنُ سيفَ الدهرِ ،والدهرُ قاتِلُهْ

وفيه كرر كلمة " الدهر " مرتين من غير أن ينوع في تصريفها . ولكن التكرار هنا مفيد رائع ، ذلك أنه أراد من ترديده لكلمة الدهر أن يشيع في بيته معناه الذى هو محتفل به ، وهو التخويف والتهويل من مغبة الدهر وأحواله ، فهو يجعل للدهر سيفاً ، ويثبت أنه قاتل . كما أنه راعى أن يوالى اللفظة المكررة ليثبت وقعها في النفس .

ومثل هذا التكرار لكلمة الدهر نفسها نجده في قوله [(٢)] :

وكيف يأمَنُ ريبَ الدهرِ مُرتَهَنٌ
بِعدْوةِ الدهرِ ،إنّ الدهرَ عدّاء

و فيه كرر الكلمة نفسها ،ولكن مع زيادة توزيعها في البيت ، والتنويع فيما تعلق بالدهر، فهو أضاف الريب إلى الدهر ،وأضاف إليه العدوة ، ووصفه بأنه عدّاء . وهذا يجسّم أثر الصورة المخيفة للدهر ،ويُخلِّص البيتين مما قد يلحقهما من رتابة التكرار .

ومن هذا اللون من التكرار للمفردات قوله [(٣)] .

و ليس يَزْجُرُكُمْ ما تُوعَظُونَ بهِ
والبَهْمُ يَزْجُرُها الراعي فَتَنزَجِرُ

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ ، البيت: ٥ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ٢ ، البيت : ١ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٤٤ .

وفيه يكرر شاعرنا كلمة " يزجركم " مرتين من غير أن يغير في تصريفها . والتكرار هنا مقصود ومفيد ، ذلك أنه بتوحيده الفعل بين المخاطبين وهم من العقلاء ، والبهم وهم من غير العقلاء ، يُلمّح إلى ما بينهم من التساوي . وفي هذا ضرب من الإيجاع والإيلام ، فهو يقول للمخاطبين : إن زجر البهم أفلح وزجركم لم يفلح . وكأنه يقول لهم : إن البهائم أعلى مرتبة منكم ، لأنها انصاعت للزجر ، وأثّر فيها ، أمّا أنتم فلم ينفع معكم . وفي قوله "فتنزجر" بصيغة " ينفعل " بيان للمطاوعة والانصياع الذي أراد أن يثبته للبهائم . وفي هذا زيادة في النكاية والإيجاع للمخاطبين .

ومما يدخل تحت هذا اللون من تكرار المفردات قوله (١) :

إذَا الواشي نعى يومًا صديقـــًا

فلا تَدَعِ الصديقَ لقولِ واشـــي

إذ كرر فيه كلمتي "الواشي" و"الصديق" . وقد وزع الكلمات المكررة توزيعاً متساوياً بين شطري البيت ، مع عدم التغيير في تصريفهما . ويلحظ أن التكرار مقصود هنا ، إذ تكرار "الصديق" و"الواشي" في عجز البيت لغرض توصيل المعنى سليماً واضحاً ، خالياً من الغموض والإبهام . وفي هذا دليل على حفاوته بالمعنى ، وحرصه على نقله . ويبدو أن الشاعر أراد أن يضفي على التكرار نوعاً من التغيير حين بدّل بين الكلمتين في موضعهما من السياق .

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ١٥ .

أما تكرار المفردات مع التنويع في اشتقاقها ،أو في موضعها من سياق البيت فقد وجدت منه الكثير من الأبيات ، ولذا فإني أكتفي ببعض النماذج .

فمن هذه النماذج قوله (١) :

والعِلمُ يجلُو العَمَى عن قلْبِ صاحِبِه
كما يُجلِّي سوادَ الظُّلمةِ القَمَرُ

اذ تكررت كلمة " يجلو " في البيت ، مع عدم تغيير مكانها من السياق بين شطرى البيت ، فهي الكلمة الثانية في الشطرين ،ولكن التنويع كان في اشتقاق الكلمة ، اذ أن كلمة " يجلو " هي مضارع " جلا " بمعنى : خرج ، أما كلمة " يُجلِّي " فإنها مضارع " جلَّى " بمعنى كشف (٢) . وهذا التنويع في اشتقاق الكلمة يضفي عليها روحاً من التجديد يذهب رتابة التكرار . ثم إن الشاعر قد طعَّم البيت بنوع آخر من التكرار ، وهو تكرار حرف العين في ثلاث كلمات متوالية من صدر البيت ، فقال : " والعلم يجلو العمى عن " وتكرار هذا الحرف على هذا النحو جعل بين الكلمات ضرباً من التساوق النغمى الدقيق ، مما يعطي البيت نغمة إضافية غير نغمة الوزن . وفي البيت لمسة بلاغية أخرى تكمن في الطباق الخفي بين كلمتي " الظلمة " و " القمر " . وبهذا نجد البيت غنياً بالأسرار البلاغية التي برزت فيه طيعة سهلة ، تعكس صفاء الطبع ، وصحة الإحساس بالفن الشعرى .

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ١٢ ، البيت ١٨ .

(٢) انظر لسان العرب ، لابن منظور مادة جلا ١٤/١٤٩-١٥٠ .

ومما يجرى هذا المجرى من تكرار المفردات قوله (١) :

إذَا زَجرْتَ لجُوجًا زِدتهُ علَقــًـا
ولجّتِ النفسُ مِنْهُ في تمادِيهـــا

والكلمة المكررة في البيت " لجوجًا " ولكنه لم يكررها بنفس تصريفها ، اذ " اللجوج " اسم جامد ، أما " لجّت " فإنها فعل ، كما أنه نوّع في مكان الكلمة المكررة في سياق البيت ، فالأولى في حشو الصدر ، والآخرة في صدر العجز . وهذا يعطي التكرار نوعًا من التجديد يخلّصه من الرتابة . ويلحظ أن في البيت نوعًا آخر من التكرار وفّق إليه الشاعر ، وهو تكرار حرف الجيم في ثلاث كلمات : " زجرت ، لجوجًا ، لجّت " وحرف الجيم هنا جاء مناسبًا للضجة التي تجدها في اللجج الذى أشاعه سابق البربرى في معني البيت .

ومن هذا النوع من تكرار المفردات قوله (٢) :

والعِلْمُ يشفِى إذَا استشفى الجَهولُ به
وبالدواءِ قديمًا يُحسَمُ الـدّاءُ

وقد كرر فيه كلمتين ، تنوّعتا في اشتقاقهما وصياغتهما ، وقد صاغ البيت في تقسيم جيد ، بحيث وردت الكلمة مقترنة بشقيقتها في شطر مستقل ، فالكلمتان : " يشفي - استشفى " ، وهما من أصل واحد ومختلفتان في الصيغ تراهما في الصدر ، ومثلهما " الداء والدواء " تلقاهما في

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٣٢ ، البيت ١ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ٧ .

العجز .وهذا مما يحدث في البيت نغمة خاصة تذهب ملالة التكرار .
ثم إن الكلمتين المكررتين تُبيِّنا مقدرة الشاعر على الانتفاع بعناصر اللغة ،
فهو يجمع التكرار والجناس في قوله " يشفى ، استشفى " ويضيف إليهما
الطباق في قوله : " الدواء ، الداء " . وهذا يعكس مقدرة فنية في
الصنعة البلاغية في الشعر المطبوع قبل أن تُسنَّ القواعد والقوانين
في صناعة الشعر .

ومن هذا النوع من التكرار قوله (١) :

فلا يرتجي عَوْناً على حَمْلِ وِزْرِهِ
مُسيءٌ ، فأَوْلى الناسِ بالوِزْرِ حامِلُهْ

وهذا من تكرار المفردات مع التنويع في بنيتها ، ولكنه لم يغير في صيغة
كل الكلمات المكررة ، إذ " الوِزْر " كُرِّرَتْ بصيغة واحدة ،والاختلاف
بدا في " حمل ،حامله " وهما كما يبدو من أُصل واحد ،ولكنهما
مختلفتان في التصريف . وقد كرر الكلمات في شطرى البيت بنفس السياق .
وهذا مما يجعل هذا البيت داخلاً في فن البديع تحت مبحث رد العجز
على الصدر . وفي البيت علاقة معنوية بين " الوزر - المسىء " لأنهما
من فصيلة واحدة . وهذا يدخل البيت تحت مراعاة النظير في فنون البديع .

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ٩ .

جـ - التكرار لأنماط تركيبية معينة:

ومن أنواع التكرار التي وجدتها في شعر سابق البربري تكراره لنوع معين من أنواع الصياغة ، إذ نجده يكرر نمطاً تركيبياً واحداً عدة مرات ، إذا وجد أن لهذا النمط قيمة فنية تساعده على تأكيد معناه ، وترسيخه في النفوس ، فهو يكرر الجمل التي جاء بها للتأكيد على معنى سابق مستعملاً إنما (١) ،ويكرر الجمل التي استدل بها على معناه السابق ،وصاغها مستقلة بذاتها تصلح للتمثل بها (٢) ، ويكرر جمل الاستدلال المفتتحة بإن (٣) . وكل هذه الأنماط التركيبية درست في مباحثها الخاصة بها ،ولهذا اكتفيت بالإشارة إليها على أنها داخلة تحت مبحث التكرار .

خامسا - استعمال قد :

من الأساليب التي برزت في شعر سابق البربري ،ولها صلة بالبلاغة استعمال "قد" داخلة على الفعلين الماضي والمضارع . و"قد"حرف خصب له معان مختلفة ، ويفيد دلالات متنوعة تبعاً للفعل الداخل عليه ، فقد ذكر له ابن هشام خمسة معان هي : التوقع ، والتقريب للحال ، والتقليل ، والتكثير ، والتحقيق (٤) . وخصوبة

---

(١) انظر المبحث الخاص باستعمال إنما ص ٢٩٠ .

(٢) انظر مبحث الاستدلال عن طريق التمثيل ص ٢٤٦ .

(٣) انظر مبحث الاستدلال بجمل مستأنفة يدخل عليها إن ص ٢٢٢ .

(٤) انظر مغني اللبيب لابن هشام ١/١٧٣-١٧٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

هذا الحرف جعلت له مذهباً رائعاً في الدلالة ،إذ تتنوع دلالتــه تبعاً للفعل الداخل عليه : ماضياً أو مضارعاً ، وتبعا للسياق الذى يرد فيه .

وقد استعمل سابق البربرى " قد " في شعره بصورة بارزة ، وفي سياقات متنوعة ،وبدلالات مختلفة ، مما يحدونا أن ندرس بعــض الأبيات التي استعمل فيها قد مع الفعلين : الماضي والمضــارع، لنكشف عن قدرته في إيصال معانيه ، وتصرفه في دلالات كلماته ، بحيث استعمل هذا الحرف مع الفعل الماضي والمضارع ، مفيداً التحقيق في أكثر استعمالاته مع الماضي جرياً على القاعدة النحوية ، كمــا استعمله مع المضارع مفيداً به التوقع أو التحقيق ، بطريقة ذكية لطيفة ، فهو قد يستعمل الحرف في سياق و يريد به ضده مبالغة في تحقيق معناه .

أ ـ استعمال قد مع الماضي :

المعروف عند النحاة أن " قد " إذا دخلت على الماضي أفادت التحقيق دائماً (١) . وقد استعمله شاعرنا مع الماضي مفيداً به التحقيق . وكان استعماله مع الماضي أكثر من استعماله مع المضارع .

فمن استعمالات قد مع الماضي قوله (٢) :

لِسَانُكَ للدنيا عدوٌّ مُشَاحِنٌ
وقَلْبُكَ فيها للسانِ مُبَايِنُ

----

(١) انظر شرح الكافية ،للرضي ٢/٣٨٧ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ٣٢ .

وما ضَرَّها ما قُلْتَ فيها ، وقَدْ صَفَا
لها منكَ ودٌّ في فؤادِكَ كامِنُ

وفي البيتين تصوير لحال الإنسان المتعلق بالدنيا في قلبه مع تظاهره بالزهد فيها بلسانه .. ، فهو يصف حال هذا الإنسان بأن لسانه يذم الدنيا ، ولكن قلبه وهواه متعلقان بها . وهذا معنى دقيق رائع ، ارتبط فيه البيتان بحيث لا يمكن الفصل بينهما ، إذ المعني في عجز البيت الأول هو - تقريباً - معنى عجز البيت الثاني ، وهو الذى دخلت فيه "قد" على الجملة الحالية : "وقد صفا لها منك ود في فؤادك كامن" ، والمعنى ما يضر الدنيا ما قلت فيها ما دام حالك أنه قد صفا لها منك الودّ الكامن في فؤادك . ولهذا كانت جملة قد تحقيقاً وتثبيتاً للمعنى السابق ، ومع ذلك فهي مصورة للحال . وهذه الصياغة صورت لنا بلغة سهلة نفس الإنسان وفيها حب للدنيا دفين كامن ، لا يزعزعه ما يلفظ به لسانه من ذم لها على سبيل التظاهر بالزهد ... وكأنه يقول لكل متعلق بالدنيا متظاهر بالزهد فيها : إن حبها استحوذ على فؤادك وهواك ، ولن يضرها ما تقوله بلسانك عنها ، لأنها قد ملكت ما هو أعز من اللسان ، ولهذا فالأجدر بك أن تترك التظاهر بالزهد ، وتعمل على إزاحة هذا الحب للدنيا وتمنعها من قلبك .

ومما يجرى هذا المجرى من شعر سابق قوله (١) :

لو كان يُسْهِرُ عيني ذِكْرُ آخِرَتي
كما يُؤَرِّقني للعَاجِلِ السَّهَرُ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيتين : ٢٦ ، ٢٧ .

إذاً لداويتُ قلباً قد أضرَّ بـه
طولُ السَّقامِ ، وهيْضُ العظمِ ينْجبِرُ

وهو في الأول يصور حالة الندم والحسرة التي ملكت عليه نفسه بعد أن انهمك في دنياه ، وسعى وراء هواه ، حيث نسي آخرته وترك التزود لها ، وفي الثاني يعقب بأن هذه الحال قد أضرت بقلبه وأوجعته ، حتى احتاج إلى العلاج ، مبيناً أن ما أصاب قلبه متمكن فيه ،حتى سبب له الضرر حقيقة " قد أضرَّ به ... ". وهذا يبين أن " قد "أفادت التحقيق ، فقد دخلت " قد " على الفعل الماضي "أضرّ " والجملة صفة لقلب . وهذا الضرر ناجم عن طول غفلة وسقام لهذا القلب المهمل . ويلحظ في هذين البيتين أن الشاعر قد عقّب على معناه بحكمة دقيقة ، يومض من ورائها شعاع أمل ، فهو بقوله : "وهيض العظم ينجبر" يومئ إلى أن ما أصاب قلبه عميقاً بالغاً موئساً ، ولذلك فإنه محتاج إلى دفعة أمل تؤنس نفسه بأن العلاج ممكن ، وكأنه يقول : بما أن العظام يلتئم كسرها وتشفى ، فإن شفاء هذا القلب مما أصابه من الذنوب والآثام ليس مستحيلاً .

ومن استعمال " قد " مع الماضي قوله (١) :

وكم مِنَ اصْيدَ سامي الطرْفِ معْتصِبٍ
بالتاجِ ،نيرانُه للحرْبِ تسْتعِرُ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ،الأبيات : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

يَظَلُّ مفترِشَ الدِّيباجِ مُحتجِباً
عليه تُبنى قِبابُ المُلْكِ والحُجَرُ

قد غادَرتْه المنايا وهو مُسْتَلَبٌ
مجدَّلٌ تَرِبُ الخدينِ مُنْعفِرُ

والأبيات تصوير رائع دقيق لتبدل حال الإنسان وتغيرها بالموت ، وفيها يصف حال من عاش في العز والصون والوقاية ، متمتعاً بكل مظاهر العز والجاه ، فهو أصيد ، سامي الطرف ،معتصب بالتاج ، ويفترش الديباج ، وله حُجّابٌ يضمنون حمايته وراحته . وهذه كلها صفات ظاهرية تُمثِّل هيأته ، وتوضحها أمامنا ، لترى شخصاً قد حظي بكل ما يكفل له الحفظ والسعادة والراحة في الدنيا . ثم يقابل الشاعر هذا الوضع بحال أخرى ، تكشف عن حقيقة المآل الذى تنتهي إليه المظاهر الدنيوية كلها ،فيقلب الوضع المبهج إلى الكآبة والوحشة ،حيث نرى هذا الشخص في آخرته مسلوب العقل ، مصروعاً ترب الخدين ،متمرغاً في التراب . . . وهذه صورة سيئة شملت شكله الظاهرى ، وبينت سوء مآله . وقد لا تقبل النفس هذا التغيير في الحالين على هذه الصورة ، ولهذا فإن شاعرنا قبل أن يفجأها بهذا التغيير ، يسبق الصورة الثانية بما يؤكدها ويحققها ، فيبدأها بحرف " قد " الذى أدخله على الفعل الماضي : " قد غادرته المنايا . . " ليحقق معناه و يثبته ويؤكده ، وهذه هي فائدة " قد " ،إذ جاءت مناسبة لسياق المعنى ، مفيدة تحقيقه و تثبيته في موقف تشكك النفس في تصديقه ، وربما رفضته . وانظر إلى كلمة " المنايا " ، حيث جاءت غير مفردة لتدل على قوة السبب الذى بدّل حال الإنسان ، و قلب وضعه ، فمن تحدث عنه الشاعر لم تقتله المنية ، بل جمع من المنايا ، تعظيماً لهول الموت الذى غير حاله من العز والسعادة إلى الوحشة والكآبة .

وانظر إلى الفعل "غادرته" ، وكيف أسند إلى المنايا على سبيل الاستعارة المكنية ، إذ أن هذه الاستعارة تصور أمامنا المنية وهي تبطش بالإنسان ، وتستل روحه ثم تتركه في حال سيئة ، وقد انقلبت حاله . ولا ينبغي أن نغفل أثر المقابلة بين الصورتين اللتين رسمهما الشاعر ، لتوضيح حال الإنسان قبل الموت وبعد الموت ، إذ تلحظ في هذه المقابلة قدرة الشاعر على إيجاد العلاقة بين المعاني ، بحيث تمكّن - بما أوتي من خيال خصب ، وقدرة لغوية - من قلب الحال إلى ما يقابلها تماماً ، وفي هذا لفت للذهن ، وإخضاع للنفس حتى تقبل معناه .

ومن استعمال "قد" مع الماضي قوله (١) :

فكيفَ يَـبْقى على الأحداثِ غابِرُنـا
كأنّنا قد أظلّتنـا دَواهِيـهـا

وفي البيت بيان لقصة الإنسان مع الحياة ، بحيث يكشف أن الأحداث تنتهي بالإنسان إلى الفناء . وقد تضمن البيت عدداً من المزايا البلاغية فهو يبدأ بالاستفهام الذى يؤول إلى النفي عن طريق التعجب من حالة البقاء في ظل الأحداث ،إذ أن البقاء هنا أمر عجيب لا يمكن أن يُصدّق . كما أن قوله : "قد أظلتنا دواهيها" فيه تحقيق للمعنى ، وتثبيت وتأكيد له . وقد جاء التحقيق مناسباً بعد التعجب والاستغراب من حال من ظنّ البقاء في ظل الأحداث . وفي هذا القول مزية بلاغية أخرى تكمن في هذه الاستعارة المكنية ، بحيث جسّم الشاعر

----

(١) انظر شعره ، قصيدة ٣٦ ، البيت : ١٨

الدواهي حتى جعلها جسداً حياً ، يحس و يرى ،ثم جعل لها ظلاً يعلو الإنسان . وفي استعلائه الإنسان القهر والغلبة ، فالإنسان في هذه الصورة خاضع ذليل لهذه الدواهي ،لأنها علته وطحنته ، بحيث يعجز عن نيلها أو الفرار منها . وفي هذه الاستعارة زيادة في التحقيق للمعنى وإثبات له .

ب ـ استعمال " قد " مع المضارع :

إذا دخلت " قد " على المضارع أفادت التقليل أو التوقع ، وقد تفيد التحقيق أو التكثير (١) . وقد أدخلها سابق البربري على المضارع مفيداً بها التوقع أو التحقيق أو التقليل ، وذلك بطريقة ذكية دلت على مقدرته على التصرف في دلالات الألفاظ حسب ما تقتضيه معانيه .

فمن استعمال " قد " مع المضارع قوله (٢) :

مَنْ يطلبِ الجورَ لا يظفَرْ بحاجتِهِ
وطالبُ الحقِّ قد يُهدى له الظَفَرُ

وفيه دعوة لتجنب الظلم ، وتحريض على المطالبة بالحق . وقد جاء هذا المعنى عن طريق بسط النتائج أمام السامع ، ليعرف أن المطالبة بالحق في حدود العدل توصله إلى غايته ، أما الظلم والاعتداء على حقوق الغير فلن ينال بهما شيئاً . وقد أكد الشاعر هذا المعنى عن طريق

---

(١) انظر معاني " قد " في : مغني اللبيب لابن هشام ١/ ١٧١-١٧٥ ، وشرح الكافية ، للرضي ٢/ ٣٨٨ .

(٢) انظر شعره ،قصيدة ١٢ ، البيت : ٩ .

استعمال " قد " ، بحيث أدخلها على المضارع المبني للمجهول : " قد يُهدى له الظفر " - مريداً تثبيت معناه وتحقيقه ، وهو في هذا الاستعمال لم يخالف القاعدة النحوية ، إذ أن حرف " قد " إذا دخلت على المضارع المجرد أفادت التقليل في الغالب ، وقد تفيد التحقيق ، كما يقول الرضي : " وتدخل أيضاً على المضارع المجرد من ناصب وجازم وحرف تنفيس ، فينضاف إلى التحقيق في الأغلب التقليل .. .. وقد تستعمل للتحقيق مجرداً عن معنى التقليل "(١) . وهذا الاستعمال أعطى معناه مزية بلاغية ترجع إلى أنه استعمل الحرف ضد معناه الشائع المألوف مبالغة في تحقيق المعنى وتكثيره . ثم إن إدخال " قد " على المضارع المبنى للمجهول " يُهدى " إيماء إلى أن هذا الظفر بالحق محبب مرغوب ، لأنه يُهدى ، والهدية شيء محبب من النفس .

ومن استعمال " قد " مع المضارع قوله(٢) :

وقد يأْمُلُ الراجي فيكْذِبُ ظَنَّــــهُ
أمورٌ ، ويلْقى الشيءَ ما كانَ يأْمُلُهْ

والبيت بيان لنتائج الآمال ، فالإنسان قد يرجو أملاً ، وتُخيّب الأيام رجاءه ، وقد ينال ما لم يأمله . والراجي للآمال يكون متوقعاً تحقيقها ، ولهذا نقول : إن " قد " الداخلة على المضارع " يأمل " تفيد التوقع ، وكذلك إكذاب الأيام للآمال أمر متوقع . وبهذا يكون استعمال " قد " هنا مناسباً لسياق المعنى ، والفعل الداخلة عليه . ويلحظ في هذا

---

(١) انظر شرح الكافية ٣٨٨/٢ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ٣٤ .

البيت أن فيه تقسيماً منطقياً دقيقاً للمعنى ، ذلك أن أساس المعنى : الأمل المرتجى ، ثم إن هذا الأمل المرتجى ينقسم إلى قسمين : أمل تكذبه الأيام ، ويخيب الرجاء فيه ، وأمل يحظى بالتحقيق وإن لم يتعلق الرجاء فيه .

ومن استعمال "قد" مع المضارع قوله (١) :

قد يَرْعوى المرءُ يوماً بعد هَفْوتِهِ
وتُحْكِمُ الجَاهِلَ الأيامُ والعِبَرُ

والبيت إخبار عن توقع ارعواء من وقع في الزلات ، وفيه تجد الشاعر يستخدم "قد" في الإخبار عن هذا المرء الذى سيرعوى ، ليدل على توقعه هذا الارعواء . ويثبت هذا التوقع بقوله :" بعد هفوته ". والهفوة : السقطة والزلة (٢) ، وهذه يحتمل الرجوع منها سريعاً . وكأنه يقول : إن هذا المرء الذى سيرعوى لم ينحرف الانحراف الكامل عن الحق ، وإنما كانت له هفوات ، ولم يكن ذا غىٍّ أو ضلال ، ومثله يتوقع رجوعه إلى الحق . مما يدل على دقة شاعرنا في اختيار ألفاظه ، لتناسب سياق المعنى الذى يريد . ثم إنه يؤكد معناه السابق ويدلل عليه بحكمة بليغة عميقة تبين : أن الأيام كفيلة بإحكام كل جاهل نزق طائش .

و من هذا الاستعمال لـ "قد" قوله (٣) :

فلا تَغْتَرِرْ ما عِشتَ مِنْ مُتَجَمِّلٍ
بِظاهِرِ وِدٍّ قد تُغطى البَطائِنُ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٧ .
(٢) انظر لسان العرب ، لابن منظور ، مادة هفا ١٥/٣٦٢ .
(٣) انظر شعره ، مقطعة ٣١ ، البيت : ٢ .

وهذا نهي عن الاغترار بظاهر الود قبل التأكد من حقيقته في الباطن . وهذا النهي عام شامل ، إذ يمده الشاعر على العمر كله بقوله : " فلا تغترر ما عشت من متجمل " ، ثم إنه يدلل على نهيه ويثبته بقوله : " بظاهر ود قد تغطى البطائن " ، وكأنه يقول لمخاطبه : عليك ألا تغتر بأى متجمل في عمرك كله ، لأنه ليس هناك امرؤ ظاهره كباطنه . وهذا يدل على أن " قد " تفيد التوقع مع الفعل الداخلة عليه . بمعنى أن تغطية باطن الناس بظاهرهم أمر متوقع في نفس الشاعر . وهذا البيت - وإن كان دالاً على نظرة تشاؤمية من الشاعر - فإنه يدل على براعة سابق البربرى في استخدام ألفاظه وصياغة جمله .

ومن استعمال قد مع المضارع قوله (١) :

قد يُوبِقُ المرءَ أمرٌ وهو يحقِرُهُ
والشيءُ بالنفسِ يَنْمي وهو يُحتقَرُ

وفيه بيان أن صغائر الأمور قد تهلك الإنسان إذا هو أغفلها ، ولم يهتم بمعالجتها . وتعرّض الإنسان لأن توبقه صغائر الأمور أمر يحدث قليلاً ، ولكنه متوقع ، ينبغي ألا يركن الإنسان لندرة حدوثه . مما يبين أن إدخال قد على المضارع : " قد يوبق " يفيد التقليل المتضمن مع التوقع ، فالشاعر هنا يقلل من حدوث مثل هذا الأمر ، ولكنه يحذّر من الاعتماد على هذه القلة . ولأن النفس لا تأنس إلى هذا الخبر ، ولا تؤمن بأن محتقرات الأمور ربما أهلكتها ، فإن الشاعر يعضّد معناه ويعلل له : بأن لا غرابة في هذا المعنى ، لأن الشيء ينمو ويترعرع في النفس في حال غفلتها عنه واحتقارها له . ولهذا جاء قوله :

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ١٣ .

: " والشيء بالنفس ينمي وهو يحتقر " في مقام التعليل والاستدلال والتحقيق لمعناه السابق .

وبهذا البيت نختم دراسة الأبيات التي استعمل فيها سابق البربري "قد " مع الفعلين الماضي والمضارع ، بعد أن تبيّن لنا أن هذا الحرف الخصب في معانيه خاضع لشاعرنا ، حيث استعمله بدلالات مختلفة تكشف عن تمكنه من لغته ، وامتلاكه عنان أسلوبه ، بحيث يصوغ جمله بحسب المعنى المتفاعل في نفسه .

سادسا - أسلوب القصر "بإنما ":

من الأساليب البليغة التي برزت في شعر سابق البربري القصر "بإنما ". وإنما من الأدوات اللغوية الدقيقة التي تحتاج إلى دقة وبصيرة لغوية في استعمالها ، فهي ذات مسلك دقيق في الكلام البليغ إذ وضعت على : " أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطَب ولا يدفع صحته أو لما يُنزّل هذه المنزلة "(١) . فقد جرى استعمالها في الكلام العالي مع المعاني القريبة من النفوس ، ولذلك نجدها - غالبا - وقد أشار إليها ما قبلها إشارات خفية .

وقد استعمل سابق البربري "إنما " في شعره استعمالاً أجرى فيه هذه الأداة اللغوية العصية على حر سليقتها ، بحيث جاءت في شعره على السليقة العربية في أرقى أساليبها . الأمر الذى حدانا أن نعرض لها بالتحليل ، لنلحظ مدى قدرته اللغوية ، وتمكنه من فنه ، حتى جاء بإنما في شعر عربي بليغ .

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني ٣٣٠ .

فمن استعمال إنما قوله (١) :

فإنْ كنتَ قد أبصرتَ هذا ،فإنمـــا
يُصـدِّقُ قـولَ المرءِ ما هـو فاعِلُـــهْ

وفيه ينبّه إلى أن المعرفة لا يكفي فيها العلم فحسب ، وإنما لا بد أن يكون لها ترجمة عملية ،فالعلم علمان : علم هو معرفة الأشياء ،والآخر هو ترجمة هذه المعرفة بالسلوك العملي ،لأنّ العلم بدون عمل يكون علماً كاذباً . وهذا معنى متعلق بعضه ببعض ، ألا ترى أن عجز البيت متصل بصدره ، بحيث جاء العجز كأنه صياغة ثانية للصدر ،ولكن في سياق أعم يمكن أن يتمثل به . والرابط الذى ربط بينهما هو "إنما "التى أدخلها الشاعر على جملة متضمنة معنى قد ألفته النفس ، ورحبت به بعد أن هيأتها له الجملة التي سبقتها . وهذه هي وظيفة "إنما " كما قيل عنها : " تجدها دائماً أداة أليفة تقع على ما دنا من القلب ،وخالط الأفهام ، ولتمكن هذا المعنى فيها تجد الكلام السابق عليها في أكثر الأساليب كأنه تهيئة للفكرة التي دخلت عليها ،وتمهيد لها" (٢) . كما أن حرف "الفاء "الداخل على "إنما " سبيل من سبل الربط بين المعنيين ،إذ جعل علاقة الترتب ظاهرة مكشوفة بين الشطرين ،مما وطّد الصلة بينهما .

ومما يجرى هذا المجرى أيضا قوله (٣) :

وفيكَ إلى الدنيا اعْتراضٌ ،وإنمـــا
تُكَالُ لدى الميزَانِ ما أنتَ كائِلُـــهْ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ البيت : ٢٠ .

(٢) انظر دلالات التراكيب ، للدكتور محمد أبو موسى ١٥٢ .

(٣) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ ، البيت : ٢٢ .

فهو ينبه إلى ما يجب أن يكون عليه المؤمن من اجتناب اللهو الدنيوى والاعتراض عليه ،ثم يؤكد هذا ويحققه بمعلومة معروفة بداهة عند كل المؤمنين ،ألا وهي : الإيمان بالبعث والحساب على الأعمال . وقد ربطت "إنما" بين معنى الشطرين ربطاً جعل العجز متعلقاً بالصدر و متصلاً به ،فالجملة التي دخلت عليها "إنما" تجدها مأنوسة في النفس ،قريبة من القلب بعد أن عرّفت بها الجملة السابقة عليها . ثم إن التذكير بالحساب والجزاء على الأعمال لم يأت في صورة مباشرة تباغت القلب و تنفّره من الرضوخ والإصغاء ،وإنما جاء متخفياً يلوح من وراء المعنى القريب الذى ترمي إليه الجملة التي دخلت عليها "إنما" ،إذ أن المعنى القريب المتضمن في جملة "إنما" هو : أن كل إنسان محصِّل نتيجة كيله ، ولكن المعنى المراد هو: أن الأعمال محصية على المرء ،وأنه مراقب من الله ،ثم هو محاسب على عمله حسب نوعه ، لذا لا بد له من مراقبة الله ، والتقوى في الدنيا ليحسِّنَ عاقبته في الآخرة . وفي هذا تعريض بتهديد وخسران من خالف وعصى ،والذى أوجد هذا التعريض "إنما" التي دخلت على الجملة ، ذلك لأن أفضل مواقع "إنما" هو التعريض الذى قال فيه عبد القاهر : " ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون ،وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ،ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه "(١) .

هذا مع ما أضافه حرف العطف " الواو " الداخل على إنما من

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ٣٥٤ .

جمع بين المعنيين ،و ربط بينهما حتى صار وجها الكلام ملتئمين .

و في السياق نفسه جاءت إنما في قوله (١) :

وعاقِبَـةُ اللذَّاتِ تخشَى ، وإنمـــــا
يُكَدِّرُ يوماً عَاجِلَ الأمرِ آجِلُـــــهُ

إذ أراد شاعرنا التحذير من عاقبة الإسراف في اللهو والسعي وراء الملذات ، ولكنه جاء به في عبارة رقيقة لطيفة تقبل عليها النفس ،و تأنس لها ،ذلك أنه استعمل "إنما " في جملة تتضمن حقيقة معروفة بداهة ، يعاينها الإنسان مما مرّ عليه من تجارب ومما يعرفه من ثقافات ، وقد هيأ لها المعنى السابق عليها ، حتى صارت جملة "إنما " متعلقة بالجملة السابقة عليها ، إذ المعنيان -وإنْ اختلفت الصياغة فيهما- ينتهيان بصورة ما إلى معنى واحد . كما يومئ المعنى المباشر لجملة "إنما "إلى معنى خفي هو المقصود من الجملة ،لأنّ المراد بالعاجل هنا الحياة الدنيا ، والمراد بالآجـــل هو الحياة الآخرة ،والمقصود هو النظر في هذه العاقبة ، والتقدير لهـا . إلى ما هنالك من أسرار ودقائق نتلمسها من جملة "إنما " وما دخل عليها من حرف العطف ، وما دخلت عليه من معان .

ويمثل هذا الاستعمال لإنما جاء قوله (٢) :

وقد يُنْعِشُ الذكْرُ القلوبَ ، وإنمـــــا
يكونُ حياةَ العُودِ في الماءِ وابِلُـــــهُ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ٣٠ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ١٨ .

وسابق البربرى فيه يحض على ذكر الله ،ويبيّن مزيته وفضله ، ولكنه جاء بموعظته في أسلوب فني رقيق ،تعشقه النفس ،و تتطامن إليه ،حتى يكون هذا داعياً للالتزام بالموعظة و تطبيقها . والكثير من هذا يعود إلى استعمال "إنما " التي ربطت بين المعنيين في شطرى البيت ، إذ دخلت على معنى قد مهّدتْ له الطريق جملة سابقة عليه ،كما عطفت جملة "إنما "بحرف العطف "الواو " الذى يعني الجمع والمشاركة للمعنيين ، مع ما يلوح من وراء المعنى المباشر لجملة "إنما "من تنبيه لطيف إلى ضرورته وأهميته في إحياء القلوب وانتعاشها . هذا إلى ما في جملة "إنما " من تمثيل دقيق رائع ، وهو تصوير الذكر بالماء ، فكما أنه بالماء تقوم حياة العود ، وبدون الماء ييبس و يذبل ، فكذلك ذكر الله به تحيا القلوب و تنتشي . ثم ما يومض في هذه الجملة التمثيلية بذكر العود من الخضرة والنداوة والحياة ،فكذلك قلب المرء من يصيّره الذكر أخضر ندياً . والخضرة مثل للحياة والصلاح والنفع . ثم إن كلمة "ينعش" لها موقع جيد دقيق هنا ،فهي -وإن كانت من الكلمات المبتذلة التي كثر استعمالها- فإنها مراد بها عند سابق البربرى ما يبعثه الذكر في القلوب من رَوح وأريحيّة ،بحيث أن هذه القلوب تطرح بالذكر همومها وأثقالها ،وتصير منتشية و في حالة من الخفة والانتعاش . هذا إلى ما في تقديم خبر يكون على اسمها من أسرار معنوية دقيقة أخرى .

ومن استعمال انما قوله (١) :

يا أيُّها الظاعنُ في حظّهِ
إنما الظاعِنُ مِثْلُ المُقِيمْ

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٢٤ ،البيت: ١ .

وفيه يخاطب من يُشقي نفسه في طلب الرزق ، ليخبره بأنه لن يُحصِّل أكثر من حظـه ، إذ الأرزاق مقدرة من الله .

وقد جاءت هذه الموعظة في أسلوب ليِّن رقيق يدعو إلى تقبلها ، إذ هو لم ينفذ إلى معناه بطريقة مباغتة تُنفِّر المخاطب ، وإنما قال : إن الساعي في رزقه يتساوى مع المقيم تماماً ، أى أن رزق الناس قد قدّره الله ، فمن أرهق نفسه في طلبه سيأتيه المقدّر لا غير ، وكذلك من تعقّل ، ولم يشقِ نفسه فإنه سيحظى بالمقدّر له أيضاً .

ويلحظ في "إنما" هنا : أنها لم تدخل على معنى مألوف هيأت له الجملة السابقة ، بل إن المعنى في جملة "إنما" ليس مسلّماً عند الناس ، بدليل أن كلاً منهم يركض وراء رزقه . ولكن حكمة سابق البربرى ، ومقدرته ودقته في استخدام اللغة ، جعلت هذا المعنى ، الذى تنكره النفس من الحقائق المسلّمة بداهة . بحيث يلفت المخاطب بطريقة ذكيـــة لطيفة إلى أن من ينكر هذا عليه أن يراجع فهمه لحقائق الدين ، التي تبيّن أن الرزق واصل لصاحبه لا محالة . كما يلحظ في جملة "إنما" هذه خلوها من الحروف الرابطة مثل : "الفاء" "أو" "الواو" "كغيرها مـن الجمل التي سبقت ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه أراد أن يبرز هذه الحقيقة منفصلة مستقلة بذاتها .

والذى يلفت الانتباه في هذا البيت أيضا النداء بقوله : " يا أيُّها الظاعن " ، ففي هذا النداء أسرار كثيرة ، منها أنه جعل المخاطب جوالاً ، يكثر التنقل والضرب في الأرض بحثاً عن الرزق ، وكأن هذا الوصف إنمـا أطلق عليه ، لأنه على هذه الحال أبداً ، لا يهدأ ولا يقر له قرار ، فهو يخاطب شخصاً أستبد به القلق والطمع حتى أنكر هذه الحقيقة المسلّمـة فهو منكر لهذه الحقيقة ـ التي أدخل عليها الشاعر "إنما" ـ إنكاراً

بالفناً لأنه لو كان مقراً لها لما أشقى نفسه في التجوال والرحلة بحثاً عن الرزق . وفي تكرار كلمة "الظاعن" في البيت مزية بلاغية جيدة ، فهي تفيد تحقيق المعنى وتأكيده ،إذ أن تكرارها تأكيد على معنى الظعن والترحال في طلب الرزق . كما أن قوله : " إنما الظاعن " بدلاً من " إنما أنت " ، وضع للمظهر في موضع المضمر ،وهذا ربما يُعلّل بالمحافظة على الوزن ،ولكنه سبب ظاهر ليس للشاعر فيه فضل ، إذ هو فيه مضطر . وربما يُعلّل بسبب آخر هو الأهم ، وفيه تظهر براعة الشاعر في نقل معناه وإيصاله ،إذ أن الشاعر بتكرار لفظ " الظاعن " يخرج المعنى من التخصيص بالمخاطب وحده ، إلى التعميم الذى يشمل الجنس عامة بحيث يدّعي الشاعر بهذا التركيب اللغوى قِدَم هذه الحقيقة ورسوخها ، وكأنه يقول : إن شأن كل ظاعن في رزقه كشأن كل مقيم ، في أنهما ينتهيان إلى ما هو مقدّر لهما . وبهذا تصبح مزية التكرار هنا هي إضفاء صفة العموم على المعنى حتى صلح أن يكون مثلاً ، إذ أن طبيعة ما يتمثل به أن يكون عاماً .

ثم إننا لا نغفل ما جاء في النداء من أدوات التنبيه إلى عظم الأمر الذى عنى به الشاعر في بيته ،فالنداء جاء بـ " يا " الممتدة الخاصة بنداء البعيد ، وقد أضاف اليها " أى " التي للابهام ، مضافاً إليها " ها " التي للتنبيه ،حيث قال : " ياأيها الظاعن " ولم يقل : " يا ظاعن " . وفي هذا النداء لفت للذهن وتنبيه من الغفلة ، ذلك أنه أراد أن يقول : إن هذا الظاعن في حظه غافل سادر في سعيه ، ولا بد من ندائه بصوت ممتد ،ونداء قوى ،حتى ننتزعه من هذه الغفلة السادر فيها لدرجة أنسته الحقيقة الثابتة ، وجعلته في قلق دائم ، وترحال مستمر لا تهدأ فيه ركائبه .

وبعد : فهذه الاستعمالات المتنوعة "لإنما" في أسلوب القصر تدل على أن شاعرنا سابق البربري متمكن من لغته ، بارع في فنه ، لم يكن واعظاً يكتفي بتقديم مواعظ جامدة فاترة ، تزهد فيها النفس ، وتنصرف عنها ، وإنما هو شاعر واعظ يسخِّر فنه لهدف نبيل هو إصلاح حال الناس في أمور الدنيا والآخرة .

الفصل الثالث

الصور البيانية في شعر سابق

أولا : التشبيه :

التشبيه لون من ألوان التصوير البياني ، شاع في الفنون الأدبية المتنوعة ،فضلاً عن كثرته في القرآن الكريم ،وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد تنوعت طرق التشبيه ،وتعددت أساليبه حتى صار الإبداع فيه ،والابتكار في صوره دليلاً على قدرة الأديب ، وخصوبة خياله ،ودقة إحساسه بلغته وأسرارها . وأمارة على تفوقه وصحة طبعه ، وصدق ملكته التي تمكنه من إدراك العلاقات الخفية بين الأشياء.

وقد استعمل سابق البربري التشبيه في شعره كثيراً ،وأبدع في الكثير من صوره ،وافتنّ في أنواعه ، مما دل على جريانه على السليقة العربية في شعره ،وتمكنه من لغته ،وإدراكه لأسرار التعبير بها ، ومواطن التأثير فيها . وهذا يدعوني إلى دراسة بعض صور التشبيه عنده ، للكشف عن مقدرته الفنية ، ولبيان صوره المبتكرة .

وقد تنوعت أساليب سابق البربري في التشبيه ،فاستعمل الأداة في معظم تشبيهاته ، وجاء بتشبيهات مؤكدة (١) في القليل منها .

---

(١) التشبيه المؤكد هو: ما حذفت أداته ،كقوله تعالى * وهي تمر مرّ السحاب * . انظر الإيضاح ، للخطيب القزويني ٣٨٧/١ ، والتشبيه المؤكد هذا ،هو ما يسميه البلاغيون المحدثون بالتشبيه البليغ . وهي تسمية لم ترد عند القدماء.

ولم ينوع في أدوات التشبيه كثيراً ،إذ أكثرمن استعمال كاف التشبيه ،فأتى بها موصولة بـ "ما " الموصولة في أكثر صوره التمثيلية ،أو جاء بها متصلة بغير "ما " الموصولة في القليل من تشبيهاته المفردة . ولم يستعمل غير "الكاف " إلا "كأن " في صورة واحدة .

كما اختلفت أنواع التشبيه عند سابق البربرى ،إذ جاءت أكثر تشبيهاته تمثيلية ،حيث وجد في التمثيل المجال الفسيح الذى يتيح له تلوين صوره التي صاغ فيها معانيه الروحانية الدينية ،فأبدع فيه ،وجاء بلمسات فنية بارعة. وتعدد طرفا التشبيه التمثيلي عنده ، ففترّق بين مركّب ومركّب ،أو بين مفرد و مركّب.

و في مقابل التشبيه التمثيلي قلّت عنده التشبيهات المفردة ،و قرن فيها بين المعنوى والحسي ، فشبّه المعنوى بالحسي ، أو الحسي بالحسي .

و تعددت المنابع التي انتزع سابق البربرى صوره التشبيهيه منها ، إذ استمد صوره من البيئة الطبيعية حوله ، كتبديد ظلام الليل بنور القمر ،وإحياء الأرض الميتة بالغيث ، وخداع الصياد للوحش .واستخدم في بعض صوره ما علق بذهنه من أمثال أمته ، كقياس النعل بالنعل ، و ذبح البهائم ، وتغيير لون اللمة ، والتخزين في الدنيا . واستلهم بعض صوره من القرآن الكريم ، كما في تمثيله بنكث الحبل بعد القوة ، وانصداع ظلمة الباطل بنور الحق .

و هو في استمداده لصوره جامع بين الأصالة والتقليد جمعاً جيداً ، إذ جاءت بعض صوره تقليدية معروفة قريبة المأخذ ، تدل على تأثره بميراثه العربي في التشبيه ، ومع هذا تظهر فيها لمسات فنية ،تبرهن على أنه لم ينقل لنا صوراً جامدة ميتة . و جاءت بعض صوره

جديدة مبتكرة [١] ، تثبت أن خياله الخصب قادر على استحداث الصور، واختيار الغريب منها .

وقد جاءت تشبيهات سابق البربرى عفوية طيعة ، بحيث لا نلمس فيها روح التكلف الصناعي ، والمبالغة الزخرفية . وإنما هي تشبيهات تجمع بين البساطة والعناية جمعا يدل على أن شاعرنا لم يجعل التصوير غاية في ذاته ، بل استحال التشبيه على يديه أداة من أدوات التجسيم والتصوير لأفكاره ،ومعانيه الساميةالهادفة إلى الوعظ والإرشاد والتوجيه ، والحض على التقوى ،وإيقاظ القلوب الغافلة .

وسنحاول في دراستنا لصور التشبيه عند سابق البربرى بيان ما جدده من صور ، وما ابتكره منها ، مع بيان تقسيمات التشبيه عنده ،وتلمس ما في جمله من طرق الصياغة ،التي تنعكس على صوره فتكسبها خلابة ،وتزيدها مزية ،نستطيع أن نرى فيها رؤى بعيدة ،ونستخرج من صورها معاني عميقة . وهذه هي وظيفة الدراسة البلاغية ، " فالغاية من دراسة البلاغة هي التعرف على كيفية استخراج المعاني من الصيغ والصور... الغاية هي إدراك دقائق الدلالات ،وشرح المعنى ،وهذه ليست غاية ذاتية وإنما هي المشكلةالأم في الدراسة الأدبية .." [٢] .

---

(١) لا أقصد بالابتكار الخلق على غير مثال ،وإنما أقصد أنها تشبيهات خاصة وليست مبتذلة .

(٢) انظر التصوير البياني للدكتور محمد أبو موسى ١٠٣ .

أ ـ التشبيه التمثيلي :

أول ما نتطرق إليه من التشبيهات عند سابق البربري التشبيه التمثيلي ،الذي كثر عنده ، وبرع في العديد من صوره . والتشبيه التمثيلي كما عرّفه الخطيب : " ما وجهه منتزع من متعدد أمرين أو أمور" (١) . وعلى هذا المنهج في التمثيل سنسير في دراستنا شعر سابق البربري في التشبيه التمثيلي .

فمن هذا اللون من التشبيه قوله (٢) :

وتَطْلُبُ في الدنيا المنازلَ والعُلا ... وتَنْسى نعيماً دائِماً لا تُزايِلُه

كَمَنْ غَرَّهُ لَمْعُ السرابِ بِقيعَةٍ ... فيقصرُ عَنْ وِرْدٍ تَجيشُ مناهِلُه

ففي هذا التشبيه صورة دقيقة للإنسان الذي يسعى ويكد نفسه في طلب المتاع الدنيوي ،حيث خدعته الحياة الدنيا بما فيها من متع زائلة فانية ، فنسي النعيم المقيم الذي أعدّه الله لعباده الساعين للآخرة ، والطالبين لها . فهذا مثله مثل من سار في قفرة يشتد فيها وهج الشمس و لفح الحر ، مخدوعا بسراب يجره للتوغل في الصحراء دون أن يصل إليه ، فهو يكابد المشقة ، ويصارع العناء ليصل إلى لا شيء في النهاية ،ويترك ما يعرفه من موارد تجيش بالماء الزلال .

---

(١) انظر الإيضاح ، للخطيب القزويني ١ / ٣٧١ .

(٢) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ البيتين : ٢٤ ، ٢٥ .

فهذه صورة تمثيلية في غاية الدقة والروعة ،تبعث في النفس ألماً وحسرةً على المخدوعين بالدنيا عن الآخرة . وقد تكونت هذه الصورة التمثيلية من صورتين مترابطتين ،الأولى منهما عقلية ، تعلم بالفكر ، وتدرك بالتبصر . والأخرى حسية ملموسة تراها العين ويدركها البصر. وبهذا التأليف بين الصورتين تُنقَلُ النفس من المعقول إلى المحسوس ، فتأنس له ،وتتقبله ،ويترك أثره جلياً فيها . وهذه هي فائدة التمثيل كما بينها عبد القاهر الجرجاني في قوله : " فأول ذلك وأظهره أنّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأنّ العلم المستفاد من طرق الحواس ،أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة، يُفضُل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام "(١) .

وفي التشبيه التمثيلي في البيتين ومضات بلاغية أخرى تشع من دقة اختيار الشاعر للألفاظ ،ومن ترتب المعاني بعضها على بعض ، ففي الأول تجد قوله "تطلب " والطلب : محاولة وجدان الشيء وأخذه(٢) ، وفي قوله هذا بيان لتحفز الإنسان وإقباله على الدنيا ،فهو مطالب لها لا يني ولا يتعب من اللحاق بمتعها ، ولا يصدّه شيء عن الإقبال عليها

---

(١) انظر أسرار البلاغة ،لعبد القاهر الجرجاني ١/ ٢٣٤.

(٢) انظر لسان العرب ،لابن منظور مادة طلب ١/ ٥٥٩.

ونيل غرضه منها ،إذ الفعل يفيد التجدد والحدوث . والإنسان في غمرة هذا المتاع الزائل ينسى ما يعلم حقيقة دوامه . وقد وُفِّق شاعرنا أيما توفيق في قوله : " بقيعة " ،إذ أن القيعة : أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية حرّة ، لا حزونة فيها ولا ارتفاع ولا انهباط ، تنفرج عنها الجبال والآكام ، ولا حصى فيها ولا حجارة ،ولا تنبت الشجر ،وما حواليها أرفع منها ،وهو مصب المياه (١) . وهذه الأرض أدعى لظهور السراب فيها ، وفيها يشعر الإنسان بشدة حاجته إلى الماء ، وفيها أيضاً أن الماء يوجد حواليها . وهذا مما يجعل اختيار كلمة "بقيعة" دقيقاً موفقاً ، يشف عن الصورة التي أراد الشاعر رسمها وتوضيحها في تمثيله . هذا الى ما في قوله: "تجيش مناهله "من بيان الفزارة وفيض نعيم الآخرة ، فهو يفور ويتطاير من مناهل عدة وليست منهلاً واحداً ،وهذا مقابل للمتاع الدنيوى القليل الآيل للزوال ،ولا يزيد عن كونه سراباً خادعاً .

ومما يجرى مجرى التشبيه التمثيلي قوله (٢) :

فلا تَنْتَكِثْ بعد الهُدَى عن بَصيرةٍ
كما نَكَثَ الحَبْلَ المُضاعَفَ فاتِلُهْ

وفيه نهي عن تنكب طريق الحق والهدى بعد الهداية إليه . وقد جاء هذا النهي في صورة تمثيلية مستوحاة من صور القرآن البيانية ،

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور مادة قوع ٨/ ٣٠٤ .
(٢) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ ، البيت : ٢٣ .

وفيها تظهر براعة الشاعر في استلهامه لهذه الصورة من القرآن الكريم ، فهو يبين أن الناكث عن الحق والهدى بعد أن هداه الله ووفقه، مثله مثل من فتل حبلاً فجعله قوياً متيناً بعد أن ضاعف الفتل وشده ، ثم أضاع نتيجة جهده ،وأهدر قيمة عمله بأن فرط الحبل مرة أخرى .

وهذا تشبيه تمثيلي رائع ،صاغ فيه الشاعر الفكرة العقلية النظرية في صورة تمثيلية محسوسة . وهذا يترك أثره في النفس قوياً ،ويدعوها إلى الامتثال والخضوع بعد أن رأت المعنى النظرى في صورة مرئية . وهذا أدعى لتمكين المعنى من النفس ،وأوجب لإخضاعها له ، كما يقول عبد القاهر الجرجاني : "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ،ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ،كساها أبهة ، وأكسبها منقبة ،ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ،وضاعف قواها في تحريك النفوس ، ودعا القلوب إليها ..."(١) .

ومما يلفت في صياغة هذا التشبيه قدرة الشاعر على توثيق الصلة بين المشبه والمشبه به ،فهو يبين أن الهداية إلى الحق بعد التبصر تبنى على قواعد راسخة صلدة من الإيمان ،ولهذا تصعب زحزحة النفس المؤمنة عن هذا الحق الذى قد رسخ في وجدانها بعد تفكير عميق وتبصر دقيق . يظهر هذا من استعمال الشاعر للفعل الذى أدخل عليه أداة النهي "لا تنتكث" ،إذ نكث العهد : نقضه بعد إحكامه(٢) ،

---

(١) انظر اسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ١/ ٢٢٥ ، وانظر هامش (١) ص ٢٣٠ .

(٢) انظر لسان العرب ، لابن منظور مادة نكث ٢/ ١٩٧ .

فالنقض بعد الإحكام دليل على أن ضلال المؤمن كان بعد رسوخ العقيدة الذى نتج عن تبصُّر عميق ، ولذا وجدنا الشاعر يكرر النكث مرة أُخرى مع المشبه به الذى جعله حبلاً تضاعف فتله ثم نُكِثَ .

ومن هذا اللون من التشبيه التمثيلي قوله (١) :

وقد خَتَلْتنا باللطيفِ من الهَوى
كما يَخْتِلُ الوحشيَّ بالشيء خاتِلُهْ

وهذه صورة تمثيلية ابتدعها خيال شاعرنا الخصب ، إذ مثَّل الإنسان وقد غافلته الدنيا بلطيف متعها ،وخدعته عن حقيقة مآله ،فأغرق في طلب زينتها واطمأن لها فطوته في أعطاف فتنتها وإغوائها إلى أن يفجأه الموت ، فيعلم أن الحساب حق ،وأنه ماثل بين يدى الله لا محالة. هذا الإنسان مثله مثل الوحشى الذى لا يأنس للإنسان ،ويجفل منه هارباً ، ولكن الصياد يعمل على خداعه ومخاتلته بما يطمئن به ويأنس له ،حتى إذا ألف واستأنس أخذه على حين غفلة منه . وقد ألّف سابق البربرى بهذا التشبيه التمثيلي بين صورتين متباعدتين ، فحطّم الفوارق بينهما ، وأدناهما من بعض ،حتى أنك ترى المعنى النظرى والفكرة العقلية متعانقة مع الصورة الحسية التي رسمها الشاعر ، وذلك بأن كشف عن مواطن التلاقي بين الصورتين . وهذا يشد النفس ويعجبها ، ويترك أثره عميقاً فيها ، إذ فيه جمع بين مختلفين ،وتأليف بين متباعدين . وقد ألمح الإمام عبد القاهر إلى هذا الارتياح ، الذى يحدثه في النفس الجمع بين المتباعدين بقوله :" وهكذا إذا استقريت التشبيهات وجدت

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ٢٨ .

التباعد بين الشيئين كلما كان أشدّ ، كانت إلى النفوس أعجب ،وكانت النفوس لها أطرب ،وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ،وذلك أن موضع الاستحسان ،ومكان الاستظراف ،والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ،والمؤلف لأطراف البهجة ،أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ،ومؤتلفين ومختلفين . وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ،وفي خلقة الإنسان وخلال الروض" (١) .

وربط صورتين متباعدتين يحتاج إلى دقة في التصور ،وبراعة في اكتشاف العلاقات بين الأشياء ، وقد نجح شاعرنا في أن يوثق العلاقة بين صورتيه ،وأن يحدث خيطاً معنوياً دقيقاً بينهما . نلحظ هذا الرابط المعنوى في روح التمرد والتأبّي التي نلمسها في الصورتين ،تأبّياً المرء من على ملذات الدنيا حتى يؤخذ ختلاً ،وتمرد الوحش على الصياد حتى يصطاد على غفلة ،هذا لأن الختل هو : التخادع عن غفلة (٢) . وقد كرر الشاعر معنى الختل في ثلاث كلمات من البيت.

وفي هذا المسار المعنوى يصور الشاعر صورة تمثيلية أخرى ، فيقول (٣) :

وقد خانتِ الدنيا قُروناً تتابعوا
كما خانَ أعلى البيتِ يوما أسافِلُهْ

---

(١) انظر أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ١/ ٢٤٥- ٢٤٦.
(٢) انظر لسان العرب لابن منظور ،مادة ختل ١١/ ١٩٩.
(٣) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ ، البيت : ٢٦.

وفي البيت إخبار عن هلاك الأمم الماضية ،واندثار آثارها مع ما كانت فيه من العظمة والجبروت . وليؤكد الشاعر هذا المعنى ، ويحققه في النفس ابتدع صورة مرئية محسوسة تمثّل فكرته الذهنية تمثيلاً حياً ، إذ رسم صورة المنزل ، وقد انهارت أركانه وزواياه بعد أن خانه أساسه . ومع أن الصورتين مختلفتان ، إحداهما عقلية تدرك بالفكر ،والأخرى حسية تدرك بالحس - فإن العلاقة محسوسة بينهما ،فالأمم التي هلكت كان لها عزها وعظمتها وقوّتها ، وكذلك البيت له من رسوخه وكبره وقوة بنيانه ما يجعله شامخاً صامداً أمام الرياح والعواصف ،ولكن إذا ما ضعف أساسه وتآكل ،إنهار المنزل ، وتساقطت أركانه . والعلاقة المحسوسة بين الصورتين هى الفناء المشترك بين الأمم التي أهلكتها القرون ، والمنزل الذى عجز أساسه عن حمله . وبين الصورتين تشابه آخر هو التتابع في الدمار ، إذ أن الأمم تفنى على التوالي كلما فنيت أمة لحقتها أخرى ،وكذلك جدران البيت واسقفه وزواياه ،نجدها تتساقط على درجات . ثم إن الصورتين بينهما خيط معنوى دقيق ،ذلك أن العامل في بلاء كل من الأمم والمنازل هو الدهر ، فالأمم تفنى بالسنين ، والبيوت تبلى بمرورالسنين عليها ، وكل منهما يخونه الدهر ويُغيِّر حاله .

هذه كلها علاقات تشابه تتثال على الذهن عندما يقرن الصورتين مع بعضهما ، مما يجعل الفوارق بين المعقول والمحسوس تتحطّم فتدنو بعضها من بعض حتى تُرى متعانقتين . وهذا يجعل لموعظة شاعرنا أثراً عميقاً في النفس بعد أن أنست لها .

ب ـ التشبيه البليـــغ :

من صور التشبيه عند سابق البربرى التشبيه البليغ ، ونقصد به : التشبيه الغريب البعيد الذى يجمع بين طرفين متباعدين ، وهـــو الذى عرّفه الخطيب القزويني بقوله : "والبليغ من التشبيه ما كان مــن هذا النوع ـ أعني البعيد لغرابته ـ ، ولأنّ الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه ، كان نيلُه أحلى ، وموقعه من النفس ألْطف ، وبالمسرّة أوْلى . . . والمراد بعدم الظهور في التشبيه ما كان سببه لطف المعنى ، ودقته ، أو ترتيب بعض المعاني على بعض" (١) . فكل تشبيه يجمع بين طرفين متباعدين ، ويؤلف بين متنافرين تأليفاً تتعانق فيه المعاني فتعطي معنى لطيفاً ، سماه البلاغيون الأوائل تشبيهاً بليغاً ، وعلى هذا الأساس نسير في دراستنا لتشبيهات سابق البربرى البليغة ، فنرى فيها صوراً جديدة مبتكرة له جمع فيها بين العقلي والحسي المتباعدين جمعاً لطيفاً دقيقاً ، يوحي بتأثره بالمعاني الإسلامية ، وتعمّقها في وجدانه حتى انعكست في إبداعات خيالية جميلة .

فمن هذه التشبيهات ننظر الى قوله (٢) :

والموتُ جِسْرٌ لِمَنْ يَمْشِي على قَـــدَمٍ
إلى الأمورِ التي تُخْشَى وتُنْتَظَـــرُ

---

(١) انظر الإيضاح ١/٣٨٣ - ٣٨٤ ، ولا نريد بالتشبيه البليغ : التشبيه الذى حذف منه وجه الشبه والأداة كما يعرفه البلاغيون المحدثون ، ذلك لأنّ هذا التعريف غير صحيح كما يبدو من تعريف القدماء له .

(٢) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٢١ .

والبيت إخبار عن حتمية الموت لكل البشر ،ولكنه جاء في صورة حسية مبتكرة ،يتأملها الإنسان بعقله ،ويدركها ببصره ، إذ نرى المخلوقات وهي تسير فوق هذا الجسر لتصل في نهايته إلى النهاية التي تنتظرها مع خشيتها لها . ولهذا التشبيه مزية بلاغية عظيمة ،تكمن في إثبات حقيقة الموت ، ولزومه لجميع البشر ،إذ هو جسر يعبره كل من يمشي على قدم. كما أن فيه إشارة إلى قصور إدراك الإنسان عن معرفة حقيقة مآله في الآخرة إذ أن السائر على الجسر عليه أن يلتزم القواعد الصحيحة في سيره ، وهو بعد ذلك جاهل أيصل إلى بر آمن ،أم أن وراء الجسر ما فيه هلاكه . وكذلك الإنسان عليه أن يتقيد بالأوامر الإلهية قدر استطاعته ،ثم هو لا يعلم بعد ذلك ما هي نتيجة عمله عند الله . . فالجزاء من عند الله ،والأمل والرجاء متعلقان به ، والخوف والرهبة منه ، لذا فإن ما بعد الموت أمور يخشاها الإنسان ،ومع ذلك ينتظرها . وهذا هو المعنى الذى عبّر عنه شاعرنا بقوله : " إلى الأمور التي تخشى و تنتظر ". وفي البناء للمجهول للفعلين " تخشى ، تنتظر " تصوير رائع لهذا المعنى .

و من هذه التشبيهات البليغة ذات الصور المبتكرة قوله (١) :

والرشدُ نافِلَةٌ تُهدى لِصَاحِبِهِ
والغَيُّ يُكرَهُ منه الوِرْدُ والصَّدَرُ

البيت إخبار عن فضيلة التماس الحق والهدى . وقد أخبر شاعرنا فيه : أن الهداية إلى الحق منّة من الله على عباده ، وأن الغي والضلال عن

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ١٢ البيت: ١٢ .

الحق مذموم بكل صوره . أخبر سابق البربرى بهذين المعنيين في صورتين ملموستين ، توضحان الفكرة العقلية في إطار حسي ، فالأولى جاءت عن طريق التشبيه البليغ ، إذ جعل الرشد عطية يهبها الله -سبحانه- لصاحبه . والأخرى برزت عن طريق الاستعارة المكنية ، إذ جعل الغيّ شيئاً مبهماً يتحرك صدوراً وروداً في حركة رتيبة معجوجة ، تبعث الملل في النفس ، بحيث تتحول الفكرة الذهنية إلى أشياء مبصرة محسوسة تتحرك في صورة جديدة . مع ما بين الصورتين من مقابلة لطيفة ، فالرشد هبة محببة إلى النفس ، لأنها مهداة إليها ، والغي شيء غامض مبهم مكروه في كل صوره .

و في البيت معنى ديني دقيق ، فهو محاولة من سابق لجلاء الفرق بين الرشد والغي كما يراه المرء من في عاقبته ونهايته تأثراً بقوله تعالى : ﴿ لا إكْرَاهَ في الدِّين قد تَبَيَّنَ الرشدُ مِنَ الغَي .. ﴾ (١) توضح هذا المعنى صياغة البيت التي صب فيها الشاعر فكرته ، إذ التشبيه فيه المشبه والمشبه به مبتدأ وخبر ، والفعل المبني للمجهول "تُهدى" صفة للخبر ، ونائب الفاعل فيه : الضمير المستتر العائد على الخبر وهو المشبه به ، "الرشد نافلة تهدى". أما الاستعارة ففيها : المشبه مبتدأ و خبره الفعل المبني للمجهول ، ونائب الفاعل : الجار والمجرور العائد على المبتدأ ، وهو المشبه في الجملة ، والمشبه به محذوف دل عليه بشيء من لوازمه . "والغي يُكره منه".

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٥٦ .

ومما يسير هذا المسار من التشبيهات قوله (١) :

موتُ التّقي حياةٌ لا انقطاعَ لهـا
قد ماتَ قومٌ ، وهُمْ في الناسِ أحياءُ

و فيه إخبار عن استمرار حياة التقي ببقاء ذكره الطيب بعد موته ،أى أن بقاء عمل الإنسان بعده بقاء له . وهذا تشبيه بليغ ، جاء في صورة غريبة تلفت الذهن ،و تطرب النفس ، إذ تحول الموت فيها إلى حياة مستمرة . وهذا خارج عن المألوف لا تقبله النفس إلا بأن يدعّم بما يؤيده ويوضحه ، ولذا قال شاعرنا بعد هذا التشبيه الذى فجأ فيه النفس : " قد مات قوم وهم في الناس أحياء " ،ليبين أن ما أراده بالحياة ليس الحياة بالجسد ،وإنما الحياة بالعمل الصالح ،ولهذا فإنه نكّرها " حياة " لتكون عامة . وهذا دليل على حذق الشاعر لفنه ، وإدراكه لأسرار لغته ،ودقائق الصياغة بها ، ذلك أن عبد القاهر قد أثنى على هذا اللون من التشبيه الذى تجد فيه الشبه خارجًا مما لم تألفه النفس فيفجأها ، إذ قال : " وكفى دليلاً على تصرفه فيه باليد الصّناع ، وإيفائه على غايات الابتداع ،أنه يريك العدم وجودًا ،والوجود عدمًا ،والميت حيًا والحي ميتًا . أعني جعلهم الرجل إذا بقي له ذكر جميل ،وثناء حسن بعد موته كأنه لم يمت ،وجعل الذكر حياة له " (٢) .

و في البيت ومضة فنية أخرى تأتي من المقابلة اللطيفة التي أجراها الشاعر بين ميت هو من الأحياء وحي هو من الأموات ، ليشعر بأن حياة الإنسان لا تكون جسدًا بلا عمل صالح ،وإنما الحياة هي العمل الصالح ، ولذا فإنه يؤكد موت كل خامل جامد من صالح الأعمال : " قد مات قوم ... ".

---

(١) انظر شعره ،مقطعة : ٦ .

(٢) انظر أسرار البلاغة ١/ ٢٥١ .

جـ - التشبيهات الجديدة :

ومما يدخل ضمن التشبيه البليغ عنده صور تشبيهية أحسب أنه مبتكرها ، إذ هي صور بديعة مستلهمة من المناظر الكونية الحية ، جمع فيها بين المتباعدات الذهنية والحسية بمقدرة دقيقة ، تبين بعد نظره في اكتشاف العلاقات بين الأشياء ، وهي إلى ذلك تشبيهات هادفة تقصد إلى الوعظ والتبصير بمآل البشر ، وتستثير الذهن إلى التفكير في أحداث الزمان ومتقلباته . وهذا يدعونا إلى دراسة بعض هذه الصور الجديدة عنده ، لتظهر قدرته على التجديد ، وتمكنه من تفتيت الحواجز بين الأشياء .

فمن هذه التشبيهات المبتكرة قوله في التذكير بالموت (١) :

وللموتِ تَغْذو الوالِداتُ سِخالَها
كما لخرابِ الدهرِ تُبْنى المَساكِنُ

وفيه يقرن بين هلاك الإنسان ، وخراب المساكن بتشبيه جمع بين العقلي والحسي المتباعدين بدقة متناهية ، بحيث كان الجامع بينهما التساوى في النشأة ، وتصرف الدهر فيهما ، فالإنسان يولد طفلاً عاجزاً يحتاج إلى الرعاية والعناية لبناء جسده وعقله ، فإذا كبر واشتد عوده قوي على مواجهة الصعاب ، وتحمّل المشاق ، وبمرور الزمن عليه يَهِنُ عظمه وتضعف قواه إلى أن ينتهي به الحال إلى الفناء بالموت . وكذلك المسكن يبدأ صغيراً يُبنى ، ويعلّى حتى يعظم ويشتد على الصعاب ،

---

(١) انظر شعره ، مقطعة : ٢٨ ، البيت : ١ .

ويقي الإنسان ،إلى أن يُضعِفَ تحمّله مرور الزمن عليه ،ثم ينتهي به الحال إلى الفناء . فالإنسان يولد ليموت ، والمنزل يُبنى ليتهدّم والعامل في الاثنين الدهر.

هذه المشابهة بين الانسان والمسكن حطّمت الفوارق بينهما ، وأدنتهما من بعض ،حتى تعانقت الفكرة الذهنية مع الصورة المرئية في إطار بياني مثّل الفكرة وأشخصها بارزة للعين ، حتى تخضع النفس للامتثال للفكرة وتطبقها .

والذى يروع في هذا البيت الصياغة التى تفجأ النفس بقلب المعنى ، فالمألوف أن الأم ترضع ابنها وتغذيه ليحيا لا ليموت ،ولكن شاعرنا يقلب هذا المعنى بقوله :" للموت تغذو الوالدات سخالها " ، ذلك ليلفت الذهن إلى الحقيقة التي يتغافل عنها الإنسان ،فيذكره بها ويثبتها أمامه . وكذلك الحال في الصورة المشبه بها ،إذ المعتاد أن المساكن تُشيَّد للسكن لا لخراب الدهر ،ولكن الشاعر يذكر الخراب الذى ستؤول إليه ردعاً للقلب الغافل وتنبيهاً إلى أن الفناء والدمار هو مصير كل مخلوق .

وفي المعنى السابق يقول تشبيهاً آخر (١) :

أصْبحتمُ جُزُراً للموتِ يَقْبِضُكُمْ
كما البَهائِمُ في الدُّنْيا لكم جُزُرُ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٤٥ .

فالإنسان جزور يقبضه الموت متى حان أجله ،بمعنى أن الإنسان لا حيلة له في دفع المنية إذا جاءته . وليوضح الشاعر هذه الفكرة الذهنية مثّل لها بشىء محسوس مشاهد في كل زمان ومكان ،فقرن بين قبض الموت للناس ، و ذبح الناس للبهائم ،بجامع التساوى في الخضوع وعدم الحيلة .. وهذه صورة فنية مبتكرة يجد فيها العقل لذّته بعد أن يلحظ تفتيت الفوارق بين الإنسان والحيوان ،إذ يصبحان في يد الموت شيئاً واحداً . وفي تكرار لفظة "جزر" في البيت تأكيد على إذابة الفوارق بينهما ،إذ فيه إيماءة لطيفة تلفت الذهن إلى التساوى في المجازاة بين الإنسان والحيوان ، فهو يقول للأناسي : كما أن البهائم جزر في أيديكم وأنتم لا ترحمونها ،فإنكم تجازون على ذلك بأن تصبحوا جزراً في يد الموت فلا يرحمكم .

ونلحظ في هذا التشبيه أن الشاعر قد ضمّن المشبه حديثاً صريحاً عن وجه الشبه الذى يربط بين المشبه والمشبه به ، فقوله في صدر البيت : "أصبحتم جزراً للموت يقبضكم" دال على وجه الشبه في المشبه به : "كما البهائم في الدنيا لكم جزر" . وهذا من تداعي المعاني بين المشبه والمشبه به . كما نلحظ في هذا التشبيه أن وجه الشبه بدا غريباً غير مألوف ،مع أن تشبيه الناس بالبهائم من التشبيهات الشائعة في القرآن والسنة واللغة والأدب ، ذلك أن المعروف أن يشبه الإنسان بالحيوان إذا أريد بيان غفلته وإهمال عقله ،وعدم تفكره في حاله ، ولكن شاعرنا أتى بالمشبه به الشائع واستخرج منه صورة غير مألوفة ، فالناس في تشبيهه كالبهائم ،ولكن ليس في أنهم يهملون عقولهم وقلوبهم ،وإنما هم كالبهائم في أنهم يُجزرون كما تُجزر البهائم . وبهذا يسخّر تشبيهاً مألوفاً لمعنى غير مألوف ، ولذلك احتاج إلى تحديد هذا المعنى فقال : "للموت يقبضكم" وقال "كما البهائم في الدنيا لكم جزر".

وهذا يدل دلالة واضحة على خصوبة خيال سابق البربرى ، وتحرر عقله من التقليد الجامد .

وننظر إلى البيت فنلحظ مزية بلاغية أخرى ترجع إلى الاستعارة المكنية في قوله : " أصبحتم جزراً للموت يقبضكم " ، إذ تبرز الموت شيئاً حياً يتحرك ليقبض من حان أجله في وقته ، كما تظهر الموت مهولاً مفزعاً يتحول الناس أمامه إلى جُزُر لا تملك الدفاع عن نفسها أو الهروب من الموقف العصيب الذى هي فيه .

ومن هذه التشبيهات التي بدت مبتكرة قوله (١) :

قِسْ بالتّجارِبِ أحْدَاثَ الزمانِ كَمَا
تَقيسُ نعلاً بِنَعْلٍ حِينَ تَحْذُوهَا

والبيت أمر بموازنة أحداث الزمان ومقارنتها بالتجارب . وقد جاء سابق البربرى في هذا الأمر بصورة تشبيهية محسوسة في إطار معنوى جديد ، ربط فيه بين مقايسة أحداث الزمان على التجارب ، ومقايسة النعلين عند احتذائهما ، ذلك أنه أراد أن يقول : كن واعياً حذراً منضبطاً عند قياسك التجارب على أحداث الزمان ، ولا تجد قياساً دقيقاً مثل قياس النعل بالنعل عند احتذائهما ، ولهذا قرن الشاعر بينهما في تشبيهه ، مستلهماً صورته مما خزنه عقله من أمثال شاعت في مجتمعه ، فجاءت صورته دقيقة مبتكرة دالة على ثقافته .

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٣٦ ، البيت : ١١ .

والذى يلحظ في هذا التشبيه أن المشبه والمشبه به غير متلائمين عند النظرة الأولى لهما . ولكن المعنى الدقيق الذى أراد الشاعر إيصاله من تشبيهه يخلق بينهما - المشبه والمشبه به - شبهاً صحيحاً معقولاً يربط بين المتباعدين ربطاً دقيقاً ، وهذا ما اشترطه عبد القاهر الجرجاني عند الجمع بين المتباعدات ، بقوله : " واعلم أني لست أقول لك : إنك متى ألّفت الشيء ببعيد عنه في الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسنت ، ولكن أقوله بعد تقييد وبعد شرط ، وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس وفي ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولاً ، وتجد للملاءمة والتأليف السوى بينهما مذهباً ، وإليهما سبيلاً ، وحتى يكون ائتلافهما الذى يوجب تشبيهك من حيث العقل والحدس ، في وضوح اختلافهما من حيث العين والحس "(١) فالمشبه والمشبه به متباعدان - عقلي وحسي - تقاربا من حيث التساوى في التطابق العقلي ، وهذا يجعل الجمع بينهما ملائماً في العقل ، وإن اختلفا في الحس ، وهذا يدل على مقدرة الشاعر الفنية التي حطّمت الفوارق بين المتباعدين فجعلتهما متعانقين .

د - التشبيهات القريبة المبتذلة :

من ألوان التشبيه عند سابق البربرى تشبيهات مختلفة جاءت في صور مألوفة قريبة المأخذ ، توحي باقتباس شاعرنا من مناهل تراثه ، وتدل على انطباعه بطابع غيره من الشعراء ، وتبين أنه متأثر بصور القرآن الكريم والسنة الشريفة . وهذه التشبيهات مع كونها مألوفة

---

(١) انظر أسرار البلاغة ١ / ٢٧٨ .

فإننا نشير إليها ، ونحاول أن نتلمس فيها أصابع شاعرنا التي أعطتها روحاً تجديدية ميّزتها عن غيرها من المألوفات .

فمن هذه التشبيهات قوله [1] :

وَالعِلْمُ يَجْلُو العَمَى عَنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ
كَمَا يُجَلِّي سَوَادَ الظُّلْمَةِ القَمَرُ

وهذا من التشبيه المركب ، حيث يقرن صورة جلاء عمى الجهل والضلالة عن القلب ،بصورة القمر حين يطلع و يبدد ظلام الليل . ولكن صورة المشبه به قريبة من صورة المشبه ، بحيث يدركها الذهن دون أدنى مشقة ،فالعلاقة بينهما وطيدة ،ووجه الشبه ظاهر . وكثيراً ما ذُكِرَ هذا التشبيه ودار على ألسنة الناس ،وهذا يجعل الصورة التشبيهية مطبوعة بطابع الإلف الذى يقلل من قيمتها الفنية ولفتها للذهن ،إلا إذا نجح الشاعر في أن يضفي عليها شيئاً من انعكاساته النفسية ليطبعها بطابعه الخاص ،وهذا ما وصل إليه شاعرنا ،إذ نلمس من صورته الأولى أنه نافر من الجهل ينظر إليه على أنه عمى يغشى القلب ،و يحجب عنه أيّ نور للهداية والرشاد ، بحيث يجعل الجاهل يعيش في ظلام دامس ،يتخبط في أرجائه فزعاً مما يحيطه من غموض وإبهام . فالجهل في رأيه غم يفقد الإنسان سيطرته على ما حوله . يبدو هذا من تمثيله تبديد عمى الجهل وظلامه بالعلم ، بتبديد ظلام الليل وما فيه من مخاوف بنور القمر. كما تنعكس نفسية الشاعر وعاطفته على الألفاظ التي استخدمها ،فهو يقول :

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ١٨ .

" العمى " ولم يقل : " الجهل " . كما يقول : " سواد الظلمة " ولم يقل : " سواد الليل ". ثم إن في ذكر " القمر " إيناس للنفس ، وتلطيف للمشاعر ، لأنه يبعث وميضه الخافت الناعم ليجلو ظلمة النفس ومخاوفها من سواد الليل ، وكذلك العلم يفعل بالجهل .

ومن هذه التشبيهات القريبة المأخذ قوله (١) :

والذِّكْرُ فيه حياةٌ للقلوبِ كَمَا
يُحْيِي البِلادَ إذَا مَا مَاتَتِ المَطَرُ

وهو من التشبيه التمثيلي ، إذ شبّه فيه صورة إيقاظ الذكر للقلب الغافل ، بصورة إحياء المطر للأرض الميتة . ولكن المشبه به صورة قريبة المأخذ مألوفة للنفس ، وردت كثيراً في القرآن ، والسنة ، وعلى ألسنة الشعراء ، وهذا يجعلها شائعة مبتذلة ، يطفئ تأثيرها الإلف . إلا أن كثرة الترداد والشيوع لا تحط من قيمتها الفنية وجمالها ، إذ أن الشيوع كما قيل : " دليل من وجه آخر على قوتها وجمالها ، فإن الناس لا يرددون إلا ما يحبون . ولو كانت مستكرهة ثقيلة لما كان لها أن تشيع .. " (٢) .

والجمال الكامن في هذا التشبيه كونه مستوحىً من أشياء عامة في الوجود ، ولها كيان يُحسه الإنسان حيث يكون ، إذ أن الصورة المشبه بها صورة الأرض الخراب الموات التي ذبل نضارها ، ومات وهج الحياة

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ١٧ .
(٢) انظر التصوير البياني ، للدكتور محمد أبو موسى ١١٠ .

فيها بسبب انعدام الماء ، ولا حياة لهذه الأرض إلا بالماء . وكذلك صورة المشبه ، قلب قد نضب فيه نبع الإيمان ، وانعدمت منه الحياة لجفاف منابعها الروحية ، فلا حياة لهذا القلب إلا بالذكر ، فالذكر للقلوب ، كالماء للأرض ،كلاهما سبب في الانتعاش .

وهذا ملحوظ في الحياة يدركه كل حي ،ولهذا كان التشبيه هنا حيًّا ملموسًا فيه حس جمالي ، لم يُخْفِ ضوءه إلا كثرة التكرار والإلف، وهذا لا يقلل من قيمته الفنية .

ومن هذا الضرب من الصور الفنية قوله (١) :

وفي الهُدَى عِبَرٌ تُسْقَى القلوبُ بها
كالغيثِ يَنْضُرُ عن وَسْمِيِّهِ الشَّجَرُ

وفيه نبض جمالي يكمن في قوله :" وفي الهدى عبر تسقى القلوب بها " ، إذ المعنى : إن القلب المهدي السائر على الصراط المستقيم يكون هادئًا مطمئنًا متدبرًا ، تتوافد عليه العبر ويُسقى من مائها ،فيزداد هدوءًا وخصوبة وحياة . وهو في هذا كالشجر الذى تجرى في أوصاله مياه الغيث في المواسم ،فينضر و يزهر ويثمر .

فالصورة المشبه بها هنا صورة حافلة مليئة بالحياة والنضارة ، وهي صورة شائعة مألوفة ،إلا أن الشاعر وظّفها توظيفًا جديدًا حين استعملها في معنى دقيق ، فهو لم يقل : الهدى يُحيي القلوب ،

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ،البيت : ١٠ .

إنما قال: "في الهدى عبر تسقى القلوب بها"، وبهذا التعبير لم يرِدْ مطلق الهدى، بل العبر المستقاة من الهدى، ولم يرد مطلق العبر، بل العبر التى تسقى بها القلوب، وكأن القلوب تروى من رحيق الرحيق المستقى من الهدى، فهذا التحديد الدقيق أعطى من الصورة المألوفة، معنى خفياً طبعها بطابع الطرافة والجدة.

وهذا المعنى عند تأمله وإمعان النظر فيه يعكس لنا شخصية سابق البربرى، فنجد فيه رجلاً عاكفاً على نفسه وتجاربه عكوفاً كاملاً دقيقاً، فهو مصغٍ إلى حركة نفسه وقلبه إصغاءً غريباً، جعله يُعبِّر عن أدقِّ أحاسيسه تجاه ما يجده في طريق الهداية والرشاد الذى اختاره، فهو يرى في الهدى ماء الحياة تسقاه القلوب من طريق مجهول لا يعلم سرّه إلا من أحسّ به وجرّبه.

ومن هذه التشبيهات المستلهمة من الطبيعة قوله (١) :

يا نفسُ إن سبيلَ الرشدِ واضِحَـــةٌ
منيرةٌ كبياضِ الفَجْرِ غـــرّاءُ

فيه يقرن طريق الهداية والرشد ببياض الفجر، وهذا من التشبيه المفرد والمشبه به قريب المأخذ، تحسه كل نفس حية، إذ ما من حي إلا ورأى بزوغ الفجر من بين أعطاف ستار الليل المظلم.

---

(١) انظر شعره، مقطعة ٤.

قد يلحظ في هذا التشبيه قول سابق البربرى : "كبياض الفجر.." فيبدو أن "بياض الفجر" ليس قوياً ليضرب مثلاً في الوضوح كما لو قال: "ضياء الشمس" أو "بياض الأفق" . ولكن إذا نظرنا إلى بياض الفجر في أعقاب ظلمة الليل ووحشته ،وجدنا أن أثره في النفس قوياً عميقاً ، ولهذا نجد الشاعر يدقق المعنى ،فيكرر صفات الوضوح والبيان للمشبه : "سبيل الرشد ،واضحة منيرة ،غرّاء" ، فيصف سبيل الرشد بأنها واضحة ،منيرة ،غرّاء . وأصل الغُرّة : البياض الذى يكون في وجه الفرس[1] ،أى : في مقدمته . وهذا يثبت أنه أراد : بياض الفجر في أول النهار ،أى : النور الذى يصدع ظلمة الليل عن جبين الفجر.

وبعد: فالذى يلفت النظر في الأبيات السابقة : أن شاعرنا قد استوحى صِبَغ تشبيهاته من الظواهر الكونية ،كالليل ،والظلام ،والغيث، والشجر ،والفجر . وهذه كلها ظواهر عامة يراها الإنسان في كل زمان ومكان. وهو في هذا مقتدٍ بالقرآن الكريم ،إذ أن تشبيهات القرآن الكريم كما قيل : " بنيت على هذه العناصر الباقية ،ترى فيه الماء والبحر ،والظلمات ،والرماد ،والحجارة ،والعهن ،وما إلى ذلك من الصور الحية في كل نفس.."[2] . وهذا التأثر بالقرآن في استلهام الصور البيانية من المشاهد الطبيعية العامة أدعى لبقاء تشبيهات سابق البربرى ، وترك أثرها في النفس.

---

(١) انظر لسان العرب ،لابن منظور ،مادة غرر ١٩/٥.
(٢) انظر التصوير البياني ،للدكتور محمد أبو موسى ٥١.

ثانيا : الاستعارة :

الاستعارة : أداة هامة من أدوات التصوير الأدبي ،بها يستطيع الأديب نقل المعاني الخفية ،والفكر المحتجبة في باطن النفس ،فيصورها في ظواهر حسية تجلوها ،وتزيل الضباب الحاجب لها . وهي كثيرة الورود في الشعر والنثر ، فضلاً عن كثرة ورودها في القرآن الكريم ،والحديث الشريف ، ذلك أن الاستعارة بلغتها المجازية قادرة على كشف الجوانب الخفية من المعاني الدقيقة التي تثقل كاهل الأديب ،ويعجز عن الإبانة عنها بالأساليب اللغوية المباشرة ،إذ الاستعارة لون من تصرف الشاعر في اللغة ، فهو يحرك فيها الألفاظ عن دلالاتها المألوفة ،ويضفي عليها مضامين جديدة ،وهذا معنى قولهم في تعريف الاستعارة أنها : " نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره "(١) ،فالأديب باستعارته ينتزع اللفظة من مجالها المعلوم إلى آخر غير معلوم .وبهذا يزيد في المعجم اللغوى دلالات جديدة للألفاظ . ولكن هذا النقل للألفاظ لا يعني مجرد التلاعب بها ،وإنما الاستعارة : " تشكل الأشياء تشكيلاً آخر ،وتمحو طبائعها ،وتعطيها صفات وأحوالاً أخرى ، يفرغها الشاعر والأديب عليها وفقاً لحسه وضروب انفعالاته وتصوراته "(٢) .

وهذا ما أومأ إليه عبد القاهر الجرجاني بقوله : " فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً ،والأجسام الخرس مبينة ،والمعاني الخفية بادية جلية "(٣) .

---

(١) انظر الصناعتين ،لأبي هلال العسكري ٢٩٥ ، تحقيق د .مفيد قميحة .
(٢) انظر التصوير البياني ،للدكتور محمد أبو موسى ١٨٣ .
(٣) انظر أسرار البلاغة ١/ ١٣٧ .

هذا الصنع الجديد لدلالات الألفاظ ليس أمرًا هينًا ، بل يحتاج إلى تمكُّن دقيق من اللغة ،وقدرة على الإحساس بطبيعة الأشياء ،وإدراك العلاقات الدقيقة بينها ،ولهذا كان إبداع الشاعر في استعاراته دليلًا على مقدرته الفنية ،وعلامة على رهافة حسه ، الذى يمكّنه من رؤية الأشياء بمنظار جديد تنعكس عليه انفعالاته وتصوراته .

وقد اعتمد سابق البربرى الاستعارة في شعره كثيرًا مستخدمًا إياها في نقل معانيه الإسلامية السامية و نظرته إلى حقائق النفس والحياة . وهذا يدعونا إلى دراسة بعض صور الاستعارة عنده ،لتتضح موهبته الفنية ، وقدرته على إدراك العلاقات بين الأشياء .

و نستطيع أن نقسم استعارات سابق البربرى إلى قسميها البارزين : الاستعارات المكنية ، والتصريحية . وقد لحظت أن الاستعارة المكنية عنده أعلى نسبة من التصريحية . ثم إن التصريحية وردت عنده بقسميها : المفردة ،والمركّبة . وقد وجدت المفردة عنده أكثر ورودًا من المركّبة . ثم إن المفردة وردت في شعره بقسميها : الأصلية ،والتبعية .

هذه التقسيمات التي أشير اليها في استعارات سابق البربرى تقسيمات اصطلاحية لم نركز عليها اهتمامنا في الدراسة ، ذلك أن الهدف من دراسة استعارات شاعرنا هو بيان مدى قدرته الفنية في صياغة عباراته الشعرية ،وإظهار مدى إبداعه في صوره الفنية ، لأن : " أهم ما تهدف إليه الفنون البلاغية في دراستها : هو تبيين مدى قدرة العبارة على الوفاء بالفكرة التي يحمل الأديب والشاعر أثقالها "(١) . و هذا

---

(١) انظر التصوير البياني ،للدكتور محمد أبو موسى ٣٢٢ .

ما نحاول اتباعه في دراسة استعارات سابق البربرى ،حيث سنحاول تبيين الجوانب الخفية التي كشفت عنها استعاراته ،وتبيين ما أبدعه من صور ،وما اخترعه من معان في استعاراته .

أ - الاستعارة المكنية :

وقد كثر ورودها في شعر سابق البربرى ،وجاء في بعضها بصور جديدة ،ومعان مبتكرة . والاستعارة المكنية كما عرّفها السكاكي : " أن تذكر المشبّه وتريد به المشبّه به ،دالاً على ذلك بنصب قرينة تنصبها ،وهي أن تنسب إليه ،وتضيف شيئاً من لوازم المشبه به المساوية"(١). وفيها : يشبه القائل الشيء بالشيء ،ثم يحذف المشبه والمشبه به ،ويبقي شيئاً من لوازم المشبه به .

وعلى هذا النمط من الاستعارات يقول(٢) سابق :

إذا الأرضُ خفّتْ بعدَ ثِقْلِ جبالِها
وخلّى سبيلَ البحرِ يا نفسُ ساحِلُهْ

وفي هذا البيت تصوير لذهاب الضوابط مع بدايات القيامة ، ولكنه جاء في صورة فنية بديعة ،توضح الموقف ،وتمثّله أمام السامع . والاستعارة فيه قوله : " خلّى سبيل البحر يا نفس ساحله " ،وفيها : أنزل الساحل منزلة العاقل المكلف بضبط البحر ،وحبسه عن الاندفاع وإغراق الأرض ،

---

(١) انظر مفتاح العلوم ،للسكاكي ١٦٠ .
(٢) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ ، البيت : ٨ .

ثم حذف المشبه به ،وأبقى "التخلية" التي هي من لوازم العقلاء ،وبهذا انتقل لفظ "التخلية" من مجاله المتعارف المألوف الخاص بالأحياء العقلاء إلى مجال آخر جديد هو مجال الجماد غير العقلاء ، بحيث صار له مجال آخر تحرك إليه ،ومعنى جديد تشرّبه . وهذا ما قلناه من أن الاستعارة : هي إعطاء الألفاظ مضامين جديدة ،ثم إن في تشبيه الساحل بالإنسان ،وحذف المشبه به تغييراً لهيئة الساحل ،ونقلاً لها من حالة الجمود إلى حالة الحركة. وفي هذا تعظيم لمهمة الساحل .

ثم إن استعمال الفعل "خلّى" في قول : "وخلّى سبيل البحر." ،وهو بمعنى : ترك ، إيماءة إلى أن الترك للساحل كان بعد ضبط وحبس شديدين ،وكأن الساحل كان مأموراً بحبس البحر ومنعه من الاندفاع. وعند اضطراب نظام الكون في بدايات قيام الساعة أُمِرَ بترك البحر. وهذا الأمر لا يكون إلا من خالق هذا الكون.

وفي هذه الاستعارة مزية بلاغية أخرى ترجع إلى التخويف من هول يوم القيامة ، إذ ترى فيها البحر بعظمته وجبروته وهوله يندفع بعد -حبس شديد- على الأرض فيغرقها ،ويغرق كل من فيها ، دون أن يستطيع أحد مقاومة هذا البحر بهوله وشدّته. وهذا موقف رهيب تحسه النفس ولا تستطيع اللغة التقريرية كشف كل جوانبه . ومن هنا تأتي مزية التصوير في هذا المقام.

ومما يدخل تحت هذا الضرب من الاستعارة قوله (١) :

نويحي من الموتِ الذي هوَ واقِعٌ
وللموتِ بابٌ أنتَ لا بدَّ داخِلُهْ

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ ، البيت : ٢ .

وفيه إخبار عن حتمية وقوع الموت على البشر، وخطاب لبني الإنسان بأنهم صائرون إلى الموت لا محالة. وقد جاء هذا الإخبار مؤكداً ومحققاً، بحيث لا يدع مجالاً للتشكيك فيه، فهو يحقق وقوع الموت في صورة فنية يبدعها خياله الخصب، إذ يتصور الموت بناء، وله باب يتحتم على البشر الدخول منه. وبهذا فهو يشبه الموت بالبناء، ثم يحذف المشبه به، ويبقي من لوازمه "الباب" على سبيل الاستعارة المكنية. وفي هذه الاستعارة تصوير لإحساس الشاعر فيما يتعلق بالموت، فهو يراه عظيماً شامخاً، يتحدى البشر، ويرغمهم على الدخول من بابه. وبهذا ينقل الموت من المجال المعنوي إلى المجال الحسي المشاهد، وينقل "الباب" من مجاله الحسي إلى مجال آخر معنوي. فيتصرف في المعجم اللغوي ببراعة ودقة تعكس انفعالاته وتصوراته عن الموت. ثم إن صياغة العبارة فيها الكثير من التأكيد والتثبيت للمعنى الذي أراد الشاعر نقله، في تقديم المسند على المسند إليه "وللموت باب" ثم إن ضمير الخطاب "أنت" تأكيد على أن الخطاب موجه إلى بني الإنسان، وفي قوله "لا بد" إثبات وتحقيق للتأكيد. وتأكيد الجملة بعدة مؤكدات يعكس عمق إيمان سابق البربري بحقيقة الموت، بحيث يراه في هذه الرؤية الخاصة المبتكرة التي نقلها في هذه الاستعارة المكنية.

ومما يدخل ضمن الاستعارات المكنية قوله (١):

تأوّبني هَمٌّ كَثِيرٌ بَلا بِلُـــــهْ
طَرُوقاً فَغَالَ النومَ عنّي غَوائِلُـــهْ

---

(١) انظر شعره، قصيدة ٢٢، البيت: ١.

وفيه تصوير لنفسية الشاعر المتألمة من تزاحم الهموم على قلبه .
وقد صوّر هذه النفس المعذّبة من تراكم الهموم في صورة واضحة جاءت عن طريق الاستعارة المكنية ، إذ جعل الهم حياً يتأوّب على نفسه ، ينازعها الراحة والسكينة ،ثم حذف المشبه به ،وأبقى من لوازمه " التأويب ". وفي اختيار هذه الاستعارة تهويل وتعظيم لهذا الهمّ الذى ركب نفسه ، فالهمُّ هنا حي غشوم يغيب عنه فترة الصباح ليطرق نفسه في الليل ،ويجثم على قلبه . وقد وصف هذا الهمّ بصفات ترجع كلها إلى القادم في الليل ، فهذا الهم طروق ،والطروق : هو الذى يأتي ليلاً ،وهذا الهمُّ يغتال نومه بغوائله ،فهو بدواهيه يسرق النوم منعينيه ويهلكه . وهكذا يمضي الشاعر في تصوير الهمّ في هذه الصورة ،ويمدها ،وينميها بصفات آدمية ،ليقوي عندنا الوهم الذى خلقه خياله الخصب . فهذه الصفات التي كررها الشاعر للهمّ هي بمثابة ترشيح لاستعارته ،وفي هذا الترشيح مبالغة في تناسي التشبيه الذى بنيت عليه الاستعارة ،بحيث يوهم النفس أن الحديث يجرى على الحقيقة ، وفي هذا زيادة لحسن الاستعارة كما يقول الإمام عبدالقاهر : "واعلم أن من شأن الاستعارة أنك كلما زدت إرادتك التشبيه إخفاءً ،ازدادت الاستعارة حسنًا ، حتى إنك تراها أغرب ما تكون إذا كان الكلام قد أُلفَ تأليفاً إن أردت أن تفْصِحَ فيه بالتشبيه ،خرجت إلى شيءٍ تعافه النفس ويلفظه السمع"(١) .

ومما يجرى مجرى الاستعارات المكنية قوله(٢) :

تِلْكَ المَدائِنُ بالآفاقِ خَالِيةً
أمْسَتْ خَلاءً ،وذاقَ الموتَ بانِيهَا

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ٤٥٠ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ٣٦ ، البيت : ١٣ .

وهذا إخبار عن هلاك الأمم وفنائها ،وقد دخلته الاستعارة في قوله : " ذاق الموت بانيها " ، فشبه الموت بشيء من المطعومات ، وحذف المشبه به ،وأبقى من لوازمه " الإذاقة " ، وفي هذه الاستعارة مبالغة في بيان شدة الإصابة في الموت ،فهو محسوس يُطْعَم ويُذَاق ، يخرج من جنس المعنويات إلى المحسوسات تهويلاً له . وفي اختيار " ذاق " بدلاً من " طَعِمَ " إيماءة إلى جهل الإنسان بحقيقة الموت ، فهو يذوقه ، بمعنى : يتبين حقيقة طعمه . كما أن سابقاً متأثر بالقرآن في التعبير بالذواق في الأمور المستكرهة ،كقوله تعالى : ﴿ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (١) . وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٢) .

والذى يلفت النظر في هذا البيت هذه المقابلة اللطيفة بين شطريه ، فصدر البيت تبدو فيه المدائن مائجة بالحيوية والحركة والعمار ، بحيث تأنس إليها النفوس. ولكن الحال تنقلب في عجز البيت ،فتبدو المدائن في صورة موحشة ، فهي خلو من الحركة ، يسودها الخراب ،و يعشش فيها الموت . وهذا التقابل بين الصورتين ينبه الإنسان إلى عدم الاغترار بمجده وقدرته ،فلا دوام لحال من الأحوال .

---

(١) سورة ص ،الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) سورة الدخان ، الآيتان ٤٨ ،٤٩ .

ب - الاستعارة التصريحية :

في مقابل الاستعارة المكنية نجد عند سابق البربري استعارات تصريحية ، وهي التي عرّفها عبد القاهر الجرجاني بقوله : " أن تنقله عن مسمّاه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه ، وتجعله متناولاً له .. "(١) . وهذا التعريف يتلخص في قوله : " تجعل الشيء الشيء ليس به "(٢) .

فالاستعارة التصريحية : هي تسمية الشيء باسم غيره ، ولكن هذا لا يعني نقل اللفظ من دلالة إلى أخرى فحسب ، بل هو في جوهره : رؤية الأشياء بمنظار جديد ، يحوّل الأسماء عن مدلولاتها ، ويعكس إحساس الأديب وانفعالاته(٣) .

وقد وجدت الاستعارة التصريحية في شعر سابق البربري بقسميها المركّبة والمفردة . وإن كانت المركبة أقل نسبة من المفردة .

فمن الاستعارات المركبة قوله(٤) :

وفِيكَ إلى الدُّنْيا اقْتِراضٌ ، وإنما
تُكَالُ لَدى المِيزانِ ما أنْتَ كَائِلُهْ

---

(١) انظر أسرار البلاغة ١٣٨/١ .
(٢) انظر دلائل الإعجاز ٦٧ .
(٣) انظر التصوير البياني ، للدكتور محمد أبو موسى ١٨٣ .
(٤) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ٢٢ .

وفي البيت إخبار عن ملاقاة الإنسان نتيجة عمله ، ومحاسبته عليه يوم القيامة . وقد جاء هذا الخبر في صورة فنية في إطار استعارة تمثيلية ،توضّح وتمثّل هذا الموقف ، حيث شبّه حالة مجازاة الإنسان على أعماله ،إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً ، بحالة من يكتال حصاد زرعه الصالح وغير الصالح . والشبه بين الحالتين قوى يشد من آصرة الاستعارة ، ويعضّدها ويحسّنها ،ذلك أن الكيل عند ميزان الحساب يشمل الأعمال بخيرها وشرها ،والكيل عند ميزان الحصاد يشمل الثمار صالحها وفاسدها . ثم إن كلمة الميزان مشتركة بين الحالتين تمدّ كلاً منهما بالمعنى المطلوب منها . وهذا الترابط بين طرفي التشبيه الذى بنيت عليه الاستعارة ، مما يُقوي من الصورة ،ويزيدها حسناً ومزية ، ذلك أن أهم ما ذكره علماء البلاغة من وسائل تحسين الاستعارة : أن يكون الشبه بيناً بين الطرفين ، ليكون المستعار له صالحاً لأن يجعل من المستعار ،يقول على بن عبدالعزيز الجرجاني : " وملاكها تقريب الشبه ،ومناسبة المستعار له للمستعار منه "(١) .

وفي البيت مزايا بلاغية أخرى يرجع جزء منها إلى أسلوب القصر بإنما ، وقد سبق بيانه (٢) ،وجزء يرجع إلى قوله في الصدر : " وفيك إلى الدنيا اعتراض " وما تبعثه كلمة " اعتراض " من إيحاءات كثيرة ، ورؤىً بعيدة ،وأسئلة عدة عن كنه الاعتراض على الدنيا ، إذ كيف يعترض الإنسان على الدنيا ؟ وما هو حقه في الاعتراض ؟ وهل يعترض على متعها

---

(١) انظر الوساطة ٤١ ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، على محمد البجاوى .

(٢) انظر مبحث استعمال إنما ص ٢٩٠ .

الزائلة ؟ أم يعترض على مصائبها التي تفجأه بها ؟ . ثم إن هذه الاستعارة جاءت بعد أن مهّد لها المعنى السابق عليها في صدر البيت. فكان لهذا الأثر العميق في قبول النفس لها وأنسها بها .

ومما يدخل تحت هذا النوع من الاستعارات قوله (١) :

إذَا قَضَتْ زُمَرٌ آجالها نَزَلَتْ
على منازِلِهَا مِنْ بَعْدِهَا زُمَرُ

وفيه إخبار عن توارث الأجيال للدنيا ،وهذه مسألة تحدث في غفلة عن الناس ،ولا يكاد أحد يحس بها . ولكن شاعرنا مثّلها ،وصوّرها في هذه الاستعارة التمثيلية التي توضّحها ،فهو يشبّه حالة تتابع الأجيال على الدنيا ،بحالة جماعة كبيرة يتناوبون على النزول بساحة أو ميدان. كلما نزلت زمرة ، وانتهى وقت نزولها تبعتها زمرة أخرى .

وهذه الصورة المحسوسة التي رسمتها لنا استعارته كشفت هذا التتابع الخفي ، الذى لا يكاد يحسه الإنسان ،لأنه يحدث في تدرُّج وتسلسل بطيء لا يفطن له إلا من تنبّه ذهنه ،وراقب سير الأيام والسنين ،وأعمار الأجيال وأعمالها . وهذا يعكس لنا صفاء البصيرة التي تنبّهت لرسم هذه الاستعارة ،كما يعكس رؤية شاعرنا للدنيا وحال الناس معها . وهي رؤية تنبع من منبع إسلامي محض . مما يجعل استعارات شاعرنا ذات المضمون الإسلامي في مستوىً بلا غي عالٍ ، يدل على مقدته الفنية ،ونقاء ذهنه ،وتمكنه من الإبداع في إطار الإسلام وضمن حدوده .

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ١٢ ، البيت : ٤٣ .

أما الاستعارات المفردة فسنعرض لها بقسميها : التبعية ،والأصلية اللذين وجدا في شعره بنسبة أعلى من المركّبة ،وفي تصور جديد للأشياء، مما يعكس لنا روحاً شفافة ،وخيالاً خصباً ،امتاز بهما سابق البربري .

فمن الاستعارات التبعية (١) عنده قوله (٢) :

نَرْجُو ونأْمُلُ أيامًا تُعَدُّ لَنَا
سَرِيعةَ المَرِّ تَطْوِينَا وَنَطْوِيهَا

وفيه إخبار عن انقضاء الدنيا مع طول أمل الإنسان فيها ، وقد صوّر الشاعر سرعة انقضائها في صورة فنية جميلة ، إذ شبّه "الإذهاب" بالطي ، ثم قال : " تطوينا ونطويها " بدل " تذهبنا ونذهبها ".

وفي قوله : " تطوينا ونطويها " الكثير من الإيحاءات ، والرؤى ، إذ فيه معنى طريف وجديد ، فهو تعبير عن الهلاك ، ولكنه جاء في صورة المجازاة ،فالدنيا كما تهلكنا نهلكها ،وكيف نهلكها بعد أن أهلكتنا ؟ والطرافة تكمن هنا ،أى كما قهرتنا وغلبتنا ، فالمفروض أن نقهرها ونغلبها . وهذا يوحي بالفناء الكامل الذى سيلفّ الدنيا ، فهو فناء مطلق يشمل الغالب والمغلوب ،بحيث يتهالك الكل .. ثم إن هذه المجازاة حدثت بين متفاوتين : الإنسان ،وهو ضعيف عاجز . والدنيا ،ومن صفاتها القهر والغلبة . ولكن الإنسان - مع ضعفه - يستطيع أن يقهر الدنيا ،

---

(١) الاستعارة التبعية : هي بكون اللفظ فيها فعلاً أو صفة مشتقة منه . انظر الإيضاح ٤٢٩/١ .

(٢) انظر شعره ،قصيدة ٣٦ ، البيت : ١ .

ويتمكن منها بقوة إرادته ،وامتلاكه لزمام شهواته ،وسيطرته على رغباته . وفي هذا ما يعكس روح الشاعر المتمردة على الشهوات المسيطرة وعلى الرغبات.

وفي البيت بيان لسرعة مرور الأيام على الإنسان وهو غافل ،وهذا البيان يأتي بالتدريج عن طريق بناء العبارة ،والألفاظ المستعملة ، فالشاعر قال تمهيداً لمعناه: " أياماً تُعَدُّلنا " والتعداد يومئ بالسرعة في مرور الأيام . ثم وضّح هذه السرعة باللفظ المباشر عن طريق الوصف. "سريعة المرّ" . وأخيراً أكّد معناه وحقّقه باستعارة الطي للإذهاب. وهذه السرعة في مضي الأيام تقابل طول الأمل فيها ،وقد ألمح الشاعر إلى طول أمل الإنسان في الدنيا عن طريق استعماله لفعلين معناها واحد: " نرجو ونأمل " ،فالرجاء هو الأمل ،والأمل هو الرجاء ،ولكن الشاعر عطفهما على بعض ،ليوحي بتطاول الأمل في الدنيا ، الذى يقابل سرعة مرورها .

ومن هذه الاستعارات قوله (١) :

والمرءُ يَصْعَدُ رَيْعانُ الشبابِ به
وكلُّ مُصْعَدَةٍ يوماً سَتَنْحَدِرُ

وفيه إخبار عما يؤدى إليه الشباب من طيش و نزق وانحدار ، ما لم يتمكن الإنسان من مَلْك زمام نفسه . وقد جاء هذا المعنى في صورة حسية نتلمسها ، إذ شبّه الارتفاع والتطاول المعنوى ، الذى يكون في أول الشباب، وروائه بالصعود الحسي ،واستعار الصعود الحسي للسمو والتعالى

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٢٩.

المعنوى . و في استعارة " يصعد " الحسية إرادة لتجسيد هذه الحالة وتوضيحها ، فهو يجعلها في صورة الصعود الحسي ،ويرتب معناه في الشطر الثاني عليه "وكل مصعدة يوماً ستنحدر" . وقد رشّح الشاعر استعارته ،وقوّى معناه بقوله : " ستنحدر " ، إذ بيّن أنه يريد فتوّة الشباب وأوله مع ما فيه من طيش و نزق و خِفّة ، ولا يريد السمو والرفعة ، لأن السمو لا انحدار فيه . ولهذا كان قوله "ستنحدر" ترشيح يُقوي آصرة الاستعارة و يعضّدها .

و من هذه الاستعارات قوله (١) :

فكُنْ دَافِنًا للشرِّ بالخيرِ تَسْتَرِحْ
مِنَ الهَمِّ ،إنَّ الخيرَ للشرِّ دَافِنُ

وهذا نصح بالابتعاد عن الشر واتقائه ،وقد جاء في صورة فنية مثّلت الشر أمامنا في صورة الجثة الهامدة التي تدفن ،وذلك أنه استعمل لفظ الدفن ، وهو للمحسوسات بدل الستر أو الإخفاء .. وفي استعمال كلمة الدفن هنا مع الشر بدل الإخفاء أو الدفع دلالات معنوية دقيقة ، فالأمر بدفن الشر يفصح عن حقيقة روح الشاعر الداعية للسلام والأمن ، فهو يميت الشر ،ويأمر بدفنه ،وكأنه يقول : عليك بالابتعاد الكلي عن الشر وإبادته من النفس ،وعدم العودة إليه أو إثارته ،لأن المدفون لا يعود إلى الحياة و نبش قبره أمر مبغوض و فإثارة الشر في نظر سابق البربرى كأنه نبش لقبور الموتى ،وبعث لهم .

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٣٠ ، البيت : ٢ .

أما الاستعارات التصريحية الأصلية (١) فقد وجدت منها أبياتاً قليلة في شعره الذى بقي لنا ،ولذا فإني أدرس بيتاً واحداً منها ، لنتبين طريقته في تصور الأشياء تصوراً يعكس انفعاله بها ،والبيت قوله (٢) :

وتَجنَّبِ الشَّهواتِ واحْـ
ـذَرْ أنْ تكونَ لها قَتِيلا

وفيه أمر بالابتعاد عن الشهوات ،وقد قُدِّمَ هذا الأمر في صورة فنية تمثّل المعنى وتوضحه في صورة محسوسة ، ذلك أنه جعل اتباع الشهوات ، والخضوع لها ،وما فيه من إذهاب لفضائل النفس ، وإطفاء لروح الإدراك فيها ،قتلاً للنفس ، وكأن الحياة في النفس الإنسانية قائمة على ما فيها من استقامة لسلامة الفطرة ،ومعرفة لسبيل الحق والخير ،وبُعْدٍ عن الانغماس في الشهوات. وهذا مفهوم جديد للحياة يختلف عن المعنى المتعارف ، ولهذا فإن الشاعر يأمر بتجنب الشهوات لئلا تقتل النفس وتحرمها من الحياة على المفهوم الذى يفهمه هو من الحياة. وهذا يعكس روحاً معتدلة ميّالة إلى الزهد والعفة ،والترفع عن متع الحياة.

وبهذا البيت نختتم دراسة الاستعارة في شعر سابق البربرى ، بعد أن تبيّن لنا أن الكثير من صوره الفنية مبتدع ومبتكر أو مجدد ،كما تبيّنت لنا قدرته على التخيل والطرافة في التصوير . لإيصال معانيه السامية وأفكاره الهادفة في صورة محببة قريبة من النفس تجذب إلى الاقتناع بها والتزامها . كما أن دراسة استعارات سابق البربرى قد كشفت عن بعض ملامح شخصيته ،وتصوراته للحياة والموت ومبادىء الأخلاق الإسلامية.

---

(١) الاستعارة الأصلية : هي التي يكون اللفظ فيها اسم جنس كأسد ، وقَتْل . انظر الإيضاح ٤٢٩/١ .

(٢) انظر شعره ،قصيدة ٢١ ، البيت : ١٢ .

الفصل الرابـــع

الصنعة البديعية في شعر ســـابق

المتأمل لما انتهى إلينا من شعر سابق البربرى يجد فيه صنعة بديعية بارزة ، تظهر في استخدام كثير من الفنون البديعية في صياغته الأسلوبية . وهذا يدفعنا إلى دراسة هذه الصنعة البديعية باعتبارها من الظواهر الأسلوبية البارزة في شعره .

والصنعة البديعية التي ظهرت في شعر سابق البربرى ،ليست هي الصنعة المتكلّفة التي وُسِمَ بها شعر المُحْدَثين من أمثال أبي تمـــام ومسلم بن الوليد ، الذين قيل فيهم : " فإن رام أحدهم الإغـــراب والاقتداء بمن مضى من القدماء ، لم يتمكن من بعض ما يرومه إلاّ بأشدّ تكلّفٍ ،وأتمّ تصنّع ، ومع التكلّفِ المقْت ،وللنفس عن التصنّع نُفْرة ،وفي مفارقة الطبع قِلّةُ الحلاوة ، وذهاب الرونق ،وإخلاق الديباجة . وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن ، كالذى نجده في شعـــر أبي تمام "(١) ، وإنما المقصود من الصنعة البديعية عند شاعرنا داخل تحت الصناعة الفنية التي أطلقها القدماء على تثقيف الشعر وصقله حين قالوا : " وللشعر صَناعة وثَقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلـــم والصناعات : منها ما تَثْقَفُه العين ،ومنها ما تَثْقَفُه الأذُن ،ومنها مـــا تَثْقَفُه اليد ،ومنها ما يثْقَفُه اللسان"(٢) . فقولنا : " الصنعة البديعية "

---

(١) انظر الوساطة ،للجرجاني ١٩ .
(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ،لابن سلام ١/ ٥ .

اقتداء بالقدماء حين قالوا : صنعة امرئ القيس ،وصنعة زهير ، ذلك لأن شاعرنا من المتقدمين أهل الطبع ،وأهل السليقة العربية السليمة كما يبدو من شعره .

والفنون البديعية التي برزت في شعر سابق البربري تندرج تحت المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ، فمن المعنوية ظهر عنده الطباق ، والمقابلة ،ومراعاة النظير . ومن اللفظية برز عنده الجناس ،ورد العجز على الصدر . وقد استخدم شاعرنا الفنون البديعية بطريقة تعكس مدى قدرته على استثمار عناصر الجمال في اللغة ، فهو قد يدمج في البيت أكثر من فن بديعي إضافة إلى ما فيه من الفنون البلاغية الأخرى ،وكلها تأتي في بساطة وعفوية ،تنم عن موهبة فنية صادقة .

هذا الاستعمال للفنون البديعية يدعونا إلى دراسة بعض الأبيات كنماذج على الصنعة البديعية التي برزت في شعره .

أولا ـ الطباق :

وقد استعمل شاعرنا الطباق كثيراً في شعره ،وذلك لما للطباق من قيمة فنية ،تكمن في إبراز المعنى وزيادة توضيحه ،فالطباق : جمع بين متضادين ،والجمع بين المتضادين يزيد المعنى جلاءً ووضوحاً ،لأن الأشياء تتميز بضدها .. فالحق يسطع نوره ويبهر إذا قوبل بالباطل ، ولهذا استخدم شاعرنا أسلوب الطباق ،ليزيد معانيه بياناً وجلاءً . وقد تنوّع الطباق عند سابق البربري ،إذ وجد عنده طباق السلب (١) ، وطباق الإيجاب (٢) ،وطباق آخر فيه شيء من الخفاء .. كما نوّع بين

---

(١) طباق السلب : الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت و منفي ،أو أمر و نهي . انظر الإيضاح ٢/ ٤٨٠ .

(٢) طباق الإيجاب : هو الجمع بين المتضادين سواء كانا فعلين ،أو اسمين أو حرفين .

المتطابقين ،فطابق بين الأسماء ،وطابق بين الأفعال ،وطابق بين الحروف .

فمن طباق السلب نمثّل بقوله (١) :

لا يَشْعُرونَ بما في دِينِهِمْ نَقَصُوا
- جَهْلاً - وإنْ نَقَصتْ دنياهُمْ شَعَروا

وفيه يطابق بين صورتي النفي والإيجاب للفعل "شعر" "لا يشعرون ، شعروا" . والبيت يمكن أن يدخل تحت المقابلة ،إذ هو يقابل بين حالين للناس : عدم إحساسهم بنقص دينهم ،وإحساسهم بنقص دنياهم .

ومن هذا النوع من الطباق قوله (٢) :

ويُغْسَلُ ما بِالجِلْدِ من ظَاهِرِ الأَذَى
ولا يَغْسِلُ الذنْبَ المُخَالِفَ غَاسِلُهْ

وطباق السلب فيه بين "يغسل ،ولا يغسل" . وفيه بالإضافة إلى الطباق ما يُسمى في البديع بالمشاكلة (٣) ،لأنه عبّر عن محو الذنب بالغسل ليشاكل الفعل السابق "يفسل". هذا إلى ما بين "يغسل وغاسله" من تشابه في الحروف يلحقه بالجناس .

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ١٢ ،البيت : ٥٠ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ،البيت : ١٤ .
(٣) المشاكلة : هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً . انظر الإيضاح ٢/٤٩٣ .

وأما طباق الإيجاب ففيه الكثير من الشواهد المتنوعة ،التي طابق فيها بين الأسماء ،أو بين الأفعال ،أو بين الحروف .

فمن المطابقة بين الأسماء قوله (١) :

والرشدُ نافِلةٌ تُهْدى لِصَاحِبِه
والغَيُّ يُكْرَه مِنهُ الوِرْدُ والصَّدَرُ

و فيه طابق بين "الرشد " و "الغي " كما طابق بين "الوِرْدُ "و "الصَّدَرُ ". والبيت يدخل تحت المقابلة أيضاً ،إذ يلحظ فيه أنه يقابل بين نتيجة الرشد ونتيجة الغي . وبهذا الجمع بين المتضادين تبرز قيمة الرشد وأهميته في مقابل الغي .

و من المطابقة بين الأسماء قولَه (٢) :

و قَدْ خَانَتِ الدُّنْيا قُروناً تتَابعوا
كما خانَ أعلى البيتِ يوماً أسافِلُهْ

رَضِينَا بِما فيها سَفاهاً ولم يكُنْ
يَبيعُ سمينَ اللحمِ بالغثِّ آكِلُهْ

وَعاقِبةُ اللَّذاتِ تُخْشى وإنما
يُكَدِّرُ يوماً عاجِلَ الأمرِ آجِلُهْ

----

(١) انظر شعره ،قصيدة ١٢ البيت : ١٢ .
(٢) انظر شعره قصيدة ٢٢ ،الأبيات ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ .

وفيها يطابق في البيت الأول بين "أعلى البيت" و"أسافله". وفي الثالث بين "عاجل الأمر" و"آجله". أما البيت الثاني فيطابق فيه بين السمين والغث، وإنما المطابقة تكون بين الطيّب والغث، أو بين السمين والمهزول. ولكنه حينما طابق بين السمين والغث افترض أن السمين لا بد أن يكون طيباً. وهذا يمكن أن يؤخذ عليه، لأن السمين قد يكون غثاً، فقد يمرض الحيوان السمين ويكون لحمه غثاً. ولكن يمكن أن يجاب عن سابق البربري بأنه ترك دلالة السمين على الطيب للسياق، وأن الغالب أن يكون السمين معافىً طيباً.

ومما طابق فيه سابق البربري بين الأسماء قوله (١):

فكُنْ دافِناً للشرِّ بالخيرِ تَسْتَرِحْ
مِنَ الهمِّ، إنَّ الخيرَ للشرِّ دافِنُ

وفيه يطابق بين "الشر والخير"، ويلحظ أنه يكرر الطباق بينهما في الشطرين. وفي هذا زيادة تحقيق لوضوح المعنى وجلائه.

أما ما طابق فيه بين الأفعال فهو أقل نسبة من طباق الأسماء، وسنعرض بعضاً من الأمثلة عليه.

فمن هذا اللون من الطباق قوله (٢):

فالصَّبْرُ يبسطُها، والدهرُ يَقْبِضُها
والنفسُ تَنْشُرُها، والدهرُ يَطْوِيها

---

(١) انظر شعره، مقطعة ٣٠، البيت: ٢.
(٢) انظر شعره، مقطعة ٣٨، البيت: ٢.

والطباق فيه بين الفعلين : " يبسط و يقبض " والفعلين: " ينشر ويطوى " . ويلحظ أن الطباق هنا قد كُرِّرَ في الشطرين مع أن المعنى المقصود واحد . و في هذا إلحاح من شاعرنا على إبراز المعنى وتوضيحه .

ومن المطابقة بين الأفعال قوله (١) :

وكلُّ نَفْسٍ لها زَوْرٌ يُصَبِّحُهـا
مِنَ المنيةِ يوماً أوْ يُمَسِّيهـا

و فيه طباق بين الفعلين : " يصبحها ويمسيها ". وفيه فن بديعي آخر هو التجريد (٢) ، إذ جرد من المنية شخصية زوّارة في الصباح أو في المساء .

ومن هذا اللون من الطباق قوله (٣) :

إنْ كُنتَ تَعْلَمُ ما تأْتي وما تَـذَرُ
فكُنْ على حَذَرٍ ، قَدْ يَنفعُ الحَـذَرُ
فإنْ أقَمْتَ على الأمْساءِ لـة
فلستَ تَعْرِفُ ما تأْتي وما تَـذَرُ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٣٦ ،البيت: ٧ .
(٢) التجريد : وهو أن يُنْتَزَعَ من أمرٍ ذي صفة أمرٌ آخر مثله في تلك الصفة ،مبالغة في كمالها فيه . انظر الإيضاح ٢/ ٥١٢ .
(٣) انظر شعره ،قصيدة ١٢ ، البيتين ٢ ، ٦ .

وفيهما نلحظ أنه يُكرِّر المطابقة بين الفعلين : " تأتي وتذر " . وهذا يمكن أن يؤخذ عليه ، ولكن يجاب عنه بأن هذا قد يعود إلى ما ظهر في شعره من تكرار لأنماط تركيبية معينة .

أما الطباق الذى فيه شيء من الخفاء ، فهو الذى تفهم المطابقة فيه بعد شيء من التأوُّل لمعنى المتطابقين . وقد وجدت منه في شعر سابق البربرى بعض الشواهد ، يطابق فيها بين الأسماء ، أو بين الأفعال .

فمن المطابقة بين فعلين قوله (١) :

وإنْ فَرِحَتْ بالمرءِ يوماً حلائـلُـه
فلا بدّ يوماً أن تُساءَ حلائِلُـهْ

والفعلان المتطابقان : " فرحت وتساء " ولكن الفرح يقابله الحزن (٢) ، والإساءة تقابلها المسرّة (٣) . إلا أن الإساءة تؤدى إلى الحزن ، ومن هنا طابق بينهما سابق البربرى ، فجاء الطباق فيه فضل خفاء ، يدركه الذهن بعد شيء من التأوُّل . هذا مع ما في البيت من فن بديعي آخر هو رد العجز على الصدر ، إذ كرر الشاعر كلمة " خلائـل " في آخر الصدر وآخر العجز .

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت: ٣٤ .
(٢) انظر لسان العرب لابن منظور مادة فرح ٢ / ٥٤١ .
(٣) انظر المصدر نفسه ، مادة سوأ ١ / ٩٥ .

ومن المطابقة بين اسمين قوله [1] :

فلا الإقامةَ تُنْجي النفسَ من تَلَفٍ
ولا الفِرَارَ من الأحداثِ يُنْجِيهـا

وفيه مطابقة بين : "الإقامة والفرار" وهي مطابقة فيها نوع خفاء ، اذ الاقامة يقابلها المغادرة [2] ،والفرار يقابله الثبات [3] . ولكن الفرار ضرب من المغادرة التي تقابل الإقامة . وهذه المطابقة أدركها الفكر بعد شيء من التأول ،لذلك قيل : إن فيها فضل خفاء .

أما المطابقة بين الحروف فنذكر منها بيتاً واحداً هو قوله [4] :

إذا ما سَاحقٌ إليكَ وباطِلٌ
عليكَ ، فلا يَذْهبْ بِحقِّكَ باطِلُهْ

وفيه مطابقة مكررة بين "الحق والباطل" وهما من طباق الأسماء . أما الحرفان المتطابقان فهما : "إليك وعليك" ، إذ هما ضدان . والبيت فيه مزية بلاغية تكمن في هذا التكرار للحق والباطل ، بحيث يدخله تحت ما يسمى برد العجز على الصدر ، ويزيد من توضيح الفرق بين الحق والباطل .

----

(١) انظر شعره ،قصيدة ٣٦ ، البيت : ٤ .
(٢) انظر لسان العرب ،مادة غدر ٥/٨ ومادة قوم ٤٩٨/١٢ .
(٣) انظر المصدر نفسه مادة ثبت ١٩/٢ ،ومادة فرر ٥٠/٥ .
(٤) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ ، البيت ٣٣ .

ثانياً ـ المقابلة :

والمقابلة فرع من الطباق [1] ،ولكنها أبعد مدىً منه ،وأعمق غوراً في التضاد . ولها قيمتها الفنية في جلاء المعنى وتوضيحه أمام النفس ببعد أعمق من الطباق ،لأنها تقابل بين معنيين أو أكثر. وقد وجدت في شعر سابق عدداً من المقابلات الفنية التي يعتمد عليها في تحقيق معانيه ،وإبرازها أمام النفس.

فمن هذه المقابلات قوله [2] :

وهَجْرُ الهوى للمرءِ ،فاعلمْ ،سَعادةٌ
وطولُ الهوى رَيْنٌ على القلبِ رائِنُ

وفيه يقابل بين نتيجة هجر الهوى ،وعدم الانصياع للشهوات ،ونتيجة هذا اللهث على تحقيق الرغبة ،والحظوة بالشهوة . فالسعادة الحقيقية تأتي من وراء مخالفة الأهواء وتجنبها ،أما اتباع الشهوات ، والانقياد لأهواء النفس فإنه مجلبة للتعاسة والشقاء . والمقابلة في هذا البيت فيها شيء من الخفاء ، إذ عبّر الشاعر عن الشقاء والتعاسة ، بإحاطة القلب بالغشاوة من الذنوب والمعاصي ،وذلك لأن الشقاء لازم للرّيْن على القلب . وقد كرر الشاعر بعضاً من ألفاظه لاهتمامه بتثبيت المعنى في النفس ،فهو يكرر كلمة "الهوى" في حالين : "الهجر ،والطول" وكل

---

(١) انظر الإيضاح للخطيب القزويني ٢/ ٤٨٥.
(٢) انظر شعره ،مقطعة ٣٠ ، البيت : ٣.

منهما له نتيجته . وفي البيت تكرار آخر يلحق بالجناس بين "رَيْن وراثن" ، وفيه تحقيق وإثبات لنتيجة الانقياد للشهوات ، وذلك لخطورة هذا الخضوع لأهواء النفس.

ومن المقابلة أيضا قوله (١) :

وربّما جاءني ما لا أؤمّله
وربّما فاتَ مأمولٌ ومُنتظَرُ

وفيه مقابلة بين نتيجة ما يؤمله الإنسان ، ونتيجة ما لا يأمله ، فالإنسان قد ينال أمراً لم يفكر في تحقيقه ، وقد يفشل في تحقيق ما عقد الآمال فيه . وقد كثّر الشاعر معناه بتكرار "ربما" التي بمعنى التكثيرهنا . ويضاف إلى المقابلة التي في البيت ما بين الكلمتين : "مأمول ومنتظر" من مراعاة النظير (٢) ، لأن المأمول والمنتظر من رهط واحد ، تربطهما علاقة معنوية واحدة .

ومما يدخل تحت المقابلة من شعره قوله (٣) :

العِلْمُ زَيْنٌ وتَشْرِيفٌ لِصَاحِبِه
والجَهْلُ والنَّوكُ مَقْرونانِ في قَرَنِ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ١٩ .
(٢) مراعاة النظير : وهي أن يُجْمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد . انظر الإيضاح ٢/٤٨٨ .
(٣) انظر شعره ، مقطعة ٢٦ .

وفيه مقابلة بين منزلة العالم ،وما يحظى به من المراتب التي تُعْلي شأنه . ومنزلة الجاهل ،وما يُبْتلى به من الحماقة والضعة . والمقابلة التي في البيت لا تظهر إلا بعد شيء من التأمل ، إذ أن الشاعر يُعبِّر عن الجهل والحمق بأنهما مقرونان في قرن ،أى من الضعة والمذلّة والمهانة . وهذا يقابل الزّيْن والتشريف و علو المنزلة التي في العلم .

ومن الأبيات التي بناها سابق على المقابلة قوله: (١)

لو كانَ يُسْهِرُ عَينِي ذِكْرُ آخِرَتي
كما يُؤَرِّقني لِلعَاجِلِ السَّهَرُ

و فيه يعقد المقابلة بين السهر والتفكير في الأمور الدنيوية ، مع الغفلة والنسيان لأمر الآخرة ،وما سيقفه من المواقف فيها . و في هذه المقابلة تلميح إلى حقارة شأن الدنيا ،بحيث لا تستحق هذا الإقبال عليها والتفكير في متاعها .

ثالثا - مراعاة النظير :

وقد وجدت في شعره بعضاً من الأبيات التي تدخل تحت مراعاة النظير من الفنون البديعية . وفيها تجده يوالي بين الكلمات التي يربطها رباط معنوى دقيق .

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ،البيت : ٢٦

والأبيات الداخلة تحت هذا الفن يمكن أن تدخل في فنون أخرى ، مثل التكرار ،أو الجناس ،لأن الشاعر قد يذكر الكلمات القريبة المعاني ، وقد يذكر الكلمات المتشابهة المعاني والحروف .

فمن هذا اللون البديعي قوله (١) :

لا تَدْفَعَنَّ لَجُوجاً حِينَ تَزْجُرُه
إِنَّ اللجوجَ له في الدَّفْعِ إِغْــرَاءُ

والكلمات التي في البيت معظمها متراحم في المعنى ، إذ نجد أن الكلمات : " الدفع ، الزجر ، اللجج " متقاربة المعنى ،بل إن بعضها مرتبط بتشابه في الحروف ،فالجيم مشترك بين الزجر واللجج . هذا إلى ما في التكرار من قيمة بلا غية .

و من مراعاة النظير قوله (٢) :

وَقَدْ خَتَلْتَنا باللطيفِ من الهَوَى
كما يَخْتِلُ الوحْشِيَّ بالشيء خَاتِلُــهْ

و فيه جمع الشاعر بين الكلمات المتقاربة في المعاني جمعاً رائعاً ، فهو يوالي بين : " الختل ، واللطيف ،والهوى " ،وكلها تعطي إيحاء بالخفية ، واللين ،واللطف . مما يجعلها متراحمة مترابطة في المعنى . ولهذه الموالات بين الكلمات المتراحمة قيمة فنية ، إذ النفس لا تجهد ،

---

(١) انظر شعره ،مقطعة ٣ ، البيت : ١ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ،البيت : ٢٨ .

والذهن لا يَثِبُ وثَباتٍ بعيدة بين الألفاظ ، بل إن ما يتداعى إلى الذهن من المعاني تجده النفس أمامها ماثلاً ،وبهذا تتحقق رغباتها دون إعياء أو جهد .

ثم إن شيوع كلمة الختل ومشتقاتها - " ختلتنا ،يختل ،خاتله " - يحدث تناغماً رقيقاً يضفي على البيت نغمة غير نغمة الوزن . بحيث يكون البيت ذاخراً بالمزايا الفنية ،التي تجعله صالحاً للتمثل به في أكثر من فن بلاغي ،ولكنه - مع ذلك - جاء عفوياً بعيداً عن التكلف والاعتساف مما يعكس لنا صفاء الفطرة ،وجمال الطبع لشاعرنا ، خاصة وأنه من المطبوعين ،أهل السليقة الصحيحة .

رابعا - الجناس :

والجناس من المحسنات اللفظية المندرجة تحت الفنون البديعية ، وله قيمة فنية لطيفة ،تكمن في تنويع الإيقاع ،وإضافة نغمة غير نغمة الوزن ،وذلك لأن تكرار حرف أو أكثر يضفي على الكلام رنّة خاصة ، كما يفهم من قول عبدالله الطيب : " واللفظ من حيث كونه جملة واحدة ، تغلب عليه الصبغة المكانية ،ولكنه يصحبه وزن متوهّم ،وفيه بَعْدُ نغمات جزئية ، ورنّات تفصيلية ،وإنت حين تقابل بين رنّة الوزن ورنّة اللفظ ،إنما تقابل بين النغم المجرّد الكامن في الوزن ،والنغمات الجزئية التفصيلية ،وعنصر الوزن الذى في جملة القول المسرود . وهذه الناحية اللطيفة إن خفيت على النقاد ،فإنها لم تخف على الشعراء ، ومن أجلها حلّوا كلامهم بالقوافي ،والتمسوا له المحسنات من السجع والتجنيس والطباق "(١) .

---

(١) انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب ، لعبدالله الطيب ٢/ ٤٩٣ .

والتكرار للحروف والألفاظ ظاهرة ملموسة بارزة في شعر سابق البربرى ، ذلك أنه كثيراً ما يكرر ألفاظه وحروفه ، منوّعاً في طرق التكرار ،بحيث تجد أن بعضاً من هذا الشعر يدخل تحت التكرار ،وشيئاً يدخل تحت رد العجز على الصدر ،والآخر يدخل تحت الجناس.

وسنعرض الآن لبعض النماذج التي تدخل تحت الجناس ،لنتبيّن طريقة التجنيس عند شاعرنا . خاصة وأنه من الذين لم يلحقوا التكلف والاعتساف الذى أفسد هذا الفن.

و نستطيع أن نصنف الجناس عند سابق البربرى إلى : جناس في الألفاظ ،وهو الجناس المعروف عند البلاغيين الأوائل . و جناس في الحروف ، وهو الذى وسمه الأستاذ عبدالله الطيب بالجناس السجعي الحرفي ،وعرّفه بأنه : "تكرار حرف واحد أو حرفين ،من دون تعمّدٍ إلى أن تتشابه الأصول .."[1]

فمن الجناس في الألفاظ قول شاعرنا[2] :

وكلُّ شيءٍ له حالٌ تُغيِّرُه
كما يُغيِّرُ لونَ اللِّمّةِ الغِيَرُ

والجناس بين كلمتي "يُغيِّر والغِيَر" ،فإن يُغيِّر بمعنى : يُحوِّل و يُبدِّل ، والغِيَر : الأحوال المُتغيِّرة[3] . وهو من الجناس الناقص ،[4]

----

(١) انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب ، لعبدالله الطيب ٥٧٩/٢.
(٢) انظر شعره ،قصيدة ١٢ ، البيت : ١٦.
(٣) انظر لسان العرب ،لابن منظور مادة غير ٤٠/٥.
(٤) الجناس الناقص : ما اختلف فيه المتجانسان في أعداد الحروف فقط. انظر الإيضاح ٥٣٨/٢.

وقد جاء هذا التجانس بين الفعل والاسم عفواً طيّعاً . كما أن تكرار الفعل "يُغيِّر" أوجد تناغماً لطيفاً بين الكلمات الثلاث "تُغَيِّره ، يُغيِّر ، الغِيَر" ، حيث أعيدت حروفها ثلاث مرات ، مما أضاف إلى نغمة الوزن رنّات أخرى جزئية منتظمة.

ومن جناس الألفاظ قوله أيضا (١) :

قَدْ قِيلَ قَبْلي في الكَلامِ الأَقْدَم
إنّي وَجدتُ العِلْمَ بالتّعلُّمِ

والجناس بين الكلمتين : "العلم والتعلم" ، وهو من الجناس الناقص ، لزيادة حرف ، ويلحظ أن التجانس حصل بين مصدرين متتالين في آخر العجز . وهذا يضفي على البيت نغمة خاصة توحي بالترديد لهذه النصيحة التي تحض على طلب العلم.

ومن جناس الألفاظ أيضاً قوله (٢) :

يا نَفْسُ كُلُّ قابِرٍ مقْبُورُ
ويَهْلِكُ الزائرُ والمَزُورُ
ويَقْبِضُ العَارِيةَ المُعِيرُ
والبِرُّ مَعْروفٌ بِهِ المَبْرُورُ

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٢٥ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ١٣ ، الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ .

وهذه الأبيات تدخل في مبحث الطباق ،لأن الجناس حدث بين المتضادات -تقريباً- ،وتدخل تحت التكرار ،وهو تكرار مفيد . ولكن الأرجح أن ندخلها في الجناس ،لأن الإلحاح الذى نلمسه من تكرار هذه الألفاظ المتجانسة في أبيات متتالية يدل على الرغبة في تقرير المعنى عن طريق هذا الالتزام بنغمة واحدة .

ومن تجانس الألفاظ قوله (١) :

وَصُبِّحَتْ قومُ عادٍ في دِيارِهِـمُ

بِمُقَطِّعٍ ،يومَ عادتهمْ عوادِيهـا

والجناس هنا بين الكلمات : " عاد ، عادتهم ،عواديها " ،وهو جناس ناقص ، جمع بين ألفاظ ثلاثة في عفوية وبساطة ،مما يدل على أن للجناس جذوراً رائعة في شعر المطبوعين ،قبل أن يفسده المحدثون بتكلفهم .

وينبغي ألا نغفل حرف العين الذى تردد بين الكلمات المتجانسة ، وفي كلمة "مقطع" فهو يضيف إلى تجانس الألفاظ تجانساً آخر في الحروف .

أما تجانس الحروف فنذكر منه قول سابق (٢) :

ولِلحُتوفِ تُرَبِّي كلُّ مُرْضِعَـةٍ

ولِلحِسَابِ بَرَى الأرواحَ بارِيهـا

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ٣٦ ، البيت : ١٦ .

(٢) انظر شعره ،القصيدة نفسها ،البيت : ٨ .

والبيت جامع بين لوني الجناس ، إذ بين : " يرى وباريها " جناس ناقص ،وتضاف إليهما :" تربي " فهي - وإن لم تكن من الجناس المعروف - فإنها توشك أن تكون منه ،لتشابه الحروف . أما جناس الحروف فنلمسه في الكلمات : " الحتوف ، الحساب ، الأرواح " ، إذ تكرر فيه حرف الحاء فيها ، فربط بينها بنغمة جزئية خاصة . كما أن لشيوع حرف الراء نغمة أخرى تربط بين الكلمات : " تربي ،مرضعة ، برى ،الأرواح ،باريها ".

ومن تجانس الحروف قول سابق أيضاً (١) :

إِنْ كُنتَ مُتَّخِذاً خَليــــــلا

فَتَنَقَّ وانْتَقِدِ الخَليــــــلا

وجناس الحروف حاصل بين الكلمات : "متخذاً ،خليلاً ، الخليلا " ، إذ تكرر حرف "الخاء " فربط بين الكلمات الثلاث . وكذلك حرف " التاء " موجود في الكلمات :" كنت " ،متخذاً ، انتقد " والنون مكررة في الكلمات : "إن ،كنت ، فتنق ،وانتقد " . وهذا التجانس بين حروف الكلمات يربطها برباط نغمي يكاد يجعلها موحدة .

خامسا - رد العجز على الصدر :

من المحسنات اللفظية التي وجدت في شعر سابق البربري ، الذى بقي لنا ، رد العجز على الصدر . وهو كما عرّفه الخطيب :

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ٢١ ، البيت: ١ .

" في النثر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين ،أو المتجانسين ، أو الملحقين بهما في أول الفقرة ،والآخر في آخرها ... وفي الشعر : أن يكون أحدهما في آخر البيت ،والآخر في صدر المصراع الأول " أو حَشْوِه ، أو آخره ،أو صدر الثاني "(١) .

والقيمة الفنية لرد العجز على الصدر هي : تنظيم الإيقاع وتنويعه ، إذ هو تكرار للألفاظ وفق تقسيمات معينة ،كما بينها الخطيب آنفاً . وتكرار حرف أو لفظ في الكلام بطريقة منتظمة يضفي عليه نوعاً من التلاؤم في النغم ،وهذا بدوره يعطي البيت رنَّات نغمية خاصة تتلاءم مع نغمة الوزن .

والذى وجدته في شعر سابق البربرى من هذا الفن يتضمّن التقسيمات السابقة التي ذكرها الخطيب ،وفي هذا دليل على رغبة سابق البربرى تنظيم النغم وتنويعه في شعره ،حتى يقرّبه من النفوس لتستفيد منه .

فمن النوع الأول ،وهو ما تكرر اللفظ فيه في آخر البيت وأول المصراع الأول قوله (٢) :

يُزَايِلُني مَالي إذَا النَّفْسُ حَشْرَجَتْ
وأْهلي وكَدْحِي لا زمي لا أُزَايِلُهْ

وقد يأْمُلُ الراجي فَيكْذِبُ ظَنَّهُ
أُمورٌ ،ويلْقى الشىءَ ما كان يأْمُلُهْ

---

(١) انظر الإيضاح ٥٤٣/٢ .
(٢) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ ، البيتين : ١٢ ، ٣٤ .

وفيهما تتكرر الكلمة في طرفي البيت ،مما يحدث بين الطرفين تناغماً خاصاً منتظماً يزيد من وقع الإيقاع و تنظيمه .

وقد تكرر استعمال هذا النمط من رد العجز على الصدر في أبيات متعددة من شعر سابق البربرى .

ومن الصنف الثاني ،وهو ما تكرر فيه اللفظ في آخر البيت ،وحشو المصراع الأول ،قوله (١) :

لا تَبْرحُ النّفْسُ تُنْعَى وهي سَالِمةٌ
حتّى يقومَ بِنَادِى القَومِ ناعِيهَا

إذ تكرر اللفظ : " تنعى ،ناعيها " في حشو الصدر ،وآخر العجز .

ومن القسم الثالث من رد العجز على الصدر ،قوله (٢) :

فالماءُ يُخمِدُ حرَّ النارِ يطْفِئُهَا
و ليسَ للجَهْلِ غيرُ الحِلْمِ إطْفَاءُ

اذ تكررت كلمة : " يطفئها و إطفاء " في آخر الصدر ،وآخر العجز .

ومن القسم الرابع : وهو ما تكررت فيه الكلمة في صدر العجز ، وآخره قوله (٣) :

و ليس ذو العِلْمِ بالتّقْوى كَجاهِلِه
ولا البصيرُ كأعْمَى ما لَهُ بَصَرُ

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ٣٦ ، البيت : ٩ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ١ ،البيت : ٢ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ،البيت : ١١ .

والكلمة المكررة : " البصير والبصر " ،وبينهما جناس ناقص .
وبين : " البصير والأعمى " طباق . وبهذا يصلح البيت للتمثّل به
في أكثر من فن بديعي . ولكن قد يؤخذ على سابق البربري قوله :
" ولا البصير كأعمى ماله بصر " ،لأن الأعمى : هو نفسه من نقول عنه :
ما له بصر . ويمكن أن يجاب عن سابق : بأن تكرار المعنى بين الكلمتين
جاء اضطراراً من أجل القافية ،ويغطي على هذا الاضطرار ما في البيت
من صنعة بديعية لم يتعسف فيها الشاعر أو يتكلف .

وبهذا البيت نختم حديثنا عن الصنعة البديعية في شعر سابق
البربري . وقد تبيّن لنا من دراسة البديع عنده : أنه يعكس بفنه ما امتاز
به شعر المطبوعين من أصالة وعدم تكلف في صناعة الشعر ، فالمطبوع
من الشعراء ،كما قيل : " من سَمَح بالشعر واقتدر على القوافي ،
وأراك في صدر بيته عجزه ،وفي فاتحته قافيته ،وتبيّنتَ على شعره
رونق الطبْع ووشْيَ الغريزة "(١) وشاعرنا من الشعراء المطبوعين ،أهل
السليقة الذين لم تقيدهم القوانين البلاغية ،ولم يتكلّفوا صناعة الشعر.

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٩٦ . تحقيق : أحمد شاكر .

الفصل الخامس

الوزن والقافية في شعر سابق

الشاعر المجيد من ذوي الفطر السليمة يصوغ معانيه في أوزان تناسبها ، ويستخدم من القوافي ما ينسجم مع صياغته ، بحيث لا يقتصر على بحر واحد ، أو بحرين من بحور الشعر التي ضبطها الخليل بن أحمد . وإنما يحاول التنويع في أوزانه وإيقاعاته تبعًا لمعانيه ومعاناته .

وقد نوّع سابق البربري في أوزانه وقوافيه ، منتهجًا فيهما نهج الفحول من الأوائل . وهذا يدعونا إلى دراسة أوزانه لنحدد البحور التي استخدمها ، والزحافات والعلل التي لجأ إليها ، محاولين الكشف عن مدى قدرته على صياغة أفكاره في قوالب يتلاءم فيها الوزن مع المعنى . ومن ثمّ نُعرِّج على قوافيه ، لنحدد أنواعها ، ونبيّن تصرفه فيها ، لنتبيّن قدرته على خلق التوازن في صناعة شعره .

أولا - الوزن :

لدراسة الوزن في شعر سابق البربري ينبغي بيان البحور التي استخدمها ، ونسبة استخدامه لها .

فنقول : إنه استخدم سبعة أبحر هي : البسيط ، والطويل ، والكامل ، والرجز ، والسريع ، والمنسرح ، والوافر . وذلك بنسب متفاوتة ، بحيث كان بحرا الطويل والبسيط أكثر استعمالاً ، ويليهما الكامل ، ثم السريع ، ثم الرجز ، ثم المنسرح ، ثم الوافر .

وعلينا أن نُبيِّن كيفية استعمال هذه البحور ، من حيث أنواع الأضرب ونسبة الاستعمال .

فمن بحر البسيط استخدم ضربي العروض الأولى منه ، وكان استخدامه للثاني أكثر من الأول ، إذ كان عدد الأبيات من الضرب الثاني ستة وثلاثين بيتاً ، موزعة ما بين قصيدة واحده (١) وعشر مقطّعات (٢) ، بينما كان عدد الأبيات من الضرب الأول واحد وخمسين بيتاً ، منها خمسون في قصيدة واحدة (٣) ، وبيت واحد في مقطّعة (٤) ، بحيث أصبح عدد الأبيات من بحر البسيط سبعة وثمانين بيتاً .

ومن بحر الطويل استخدم الضرب الثاني من العروض الأولى منه ، بحيث كان عدد الأبيات ستين بيتاً ، موزعة بين قصيدة واحدة (٥) ، وثلاث عشرة مقطعة (٦) .

ومن بحر الكامل استخدم الضرب الأول من العروض الأولى ، والضرب الأول من العروض الثالثة " المجزوء المرقّل " ، فله من الضرب الأول من العروض الأولى مقطّعة من أربعة أبيات (٧) ، ومن الأول في العروض الثالثة " المجزوء المرقّل " قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً (٨) ، بحيث أصبح عدد الأبيات في هذا البحر سبعة عشر بيتاً .

---

(١) انظر شعره ، قصيدة : ٣٦ .
(٢) انظر شعره المقطّعات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ ، ٣٧ ، ٣٨ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ١٢ .
(٤) انظر شعره ، مقطعة ١٩ .
(٥) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ .
(٦) انظر شعره ، المقطعات : ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ .
(٧) انظر شعره ، مقطعة ٣٤ .
(٨) انظر شعره ، قصيدة ٢١ .

ومن بحر السريع استخدم الضرب الأول من العروض الأولى ، والعروض الرابعة " المشطور المكشوف " فله من الضرب الأول مقطّعة من أربعة أبيات (١) ،وله من العروض الرابعة " المشطور المكشوف " مقطعة من ثمانية أبيات (٢) ،بحيث يكون عدد الأبيات من بحر السريع اثنى عشر بيتاً .

ومن بحر الرجز استخدم العروض الأولى ،والعروض الرابعة " المشطور منه " فله من العروض الأولى مقطّعتان (٣) ، وله من العروض الرابعة " المشطور " مقطّعة من ستة أبيات (٤) ، بحيث أصبح مجموع الأبيات من بحر الرجز ثمانية أبيات .

ومن بحر المنسرح استخدم الضرب الأول من العروض الأولى في مقطّعة (٥) من أربعة أبيات .

ومن بحر الوافر استخدم الضرب الأول في مقطّعتين (٦) ، بحيث كان عدد الأبيات من بحر الوافر ثلاثة أبيات.

----

(١) انظر شعره ، مقطّعة ٢٤ .
(٢) انظر شعره ،مقطّعة ١٣ .
(٣) انظر شعره ،المقطّعتين : ٢٠ ، ٢٥ .
(٤) انظر شعره ،مقطّعة : ٢٧ .
(٥) انظر شعره ،مقطّعة : ١٨ .
(٦) انظر شعره ، المقطعتين : ٩ ، ١٥ .

وبعد هذا العرض للبحور التي استعملها سابق البربري في صياغة معانيه وأفكاره ، نستطيع أن نقول : إنه استخدم من بحور الشعر التي ضبطها الخليل ما عدّه القدماء من أشرف البحور وأحسنها ، فقد كان استخدامه لبحري البسيط والطويل عالياً كثيراً عن غيرهما . وهو في هذا مقتد بالفحول من الشعراء الأوائل ، الذين كان أكثر شعرهم من بحري البسيط والطويل ، كما قال أبو العلاء : " والبسيط والطويل ليس في الشعر أشرف منهما وزناً ، وعليهما جمهور شعر العرب . وإذا اعترضت الديوان من دواوين الفحول كان أكثر ما فيه طويلاً وبسيطاً ... ويقال : إن العرب كانت تسمي الطويل الرّكوب لكثرة ما كانوا يركبونه في أشعارهم".(١) كما أن الأضرب التي استخدمها سابق البربري في هذين البحرين : " البسيط والطويل " كانت من الأوزان المتقدمة في الشعر ، كما نفهم من قول أبي العلاء : " والأوزان التي تتقدم في الشعر كله خمسة : ثلاثة هي ضروب الطويل بأسرها ، والضربان الأولان من البسيط ...".(٢)

و يلي هذين البحرين في استخدام سابق البربري للبحور : الكامل ثم الوافر ، وهما من البحور المستحسنة عند القدماء ، لقول أبي العلاء : " ويلي هذه الخمسة في القوة ثلاثة أوزان ، وهي : الوافر الأول .... والكامل الأول ... والكامل الثاني ...".(٣)

---

(١) انظر الفصول والغايات ٢١٢ .
(٢) انظر المصدر نفسه ٢١٣ .
(٣) انظر المصدر نفسه ٢١٣- ٢١٤ .

الزحافات المستخدمة في هذه الأبحر السبعة :

لجأ سابق البربرى إلى الزحافات في الأبحر التي استخدمها ، لينوّع في إيقاعاته ،وقد استخدم شاعرنا الزحافات في شعره كثيراً ، إذلم تسلم من الزحافات إلا أبيات قليلة من شعره .

وعلينا أن نحدد أنواع الزحافات التي لجأ إليها شاعرنا في أبحره السبعة ،مع ضرب الأمثلة لكل نوع من الزحافات.

ففي بحر البسيط استخدم من الزحافات الخبن (١) فقط ، حيث خبن فاعلن ومستفعلن ،ولكن نسبة خبن فاعلن كانت أعلى من خبن مستفعلن ، فمن خبن مستفعلن وفاعلن ما ظهر في هذين البيتين من قوله (٢) :

وكيفَ يأمَنُ رَيْبَ الدَّهْرِ مُرْتَهَنٌ
متفعلن فعلن مستفعلن فعلن
يعدُ وَقِ الدَّهْرِ إنَّ الدَّهْرَ عَدّاءُ
متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

أَلْقَى على الجيلِ مِنْ عَادٍ كَلاكِلَهُ
مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن
وقَوْمِ هُودٍ فَهُمْ هامٌ وأَصْداءُ
متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

---

(١) المخبون : ما سقط ثانيه الساكن (فاعلن ـ فعلن ، مستفعلن ـ متفعلن) أنظر الوافي في العروض والقوافي ،للخطيب التبريزى ٢٠٧ .

(٢) انظر شعره ،مقطعة : ٢ .

وموطن خبن مستفعلن ،حيث أصبحت مُتَفْعِلُنْ : في الجزء الأول من شطرى البيت الأول ،وفي الجزء الأول من عجز البيت الثاني . وموطن خبن فاعلن ،حيث أصبحت فَعِلُنْ في الجزء الثاني من صدر البيت الأول .

وزحاف الخبن في البسيط غير منكر ، لقول أبي العلاء في حديثه عن أوزان المتنبي : " وأما البسيط (الأول) فجاء فيه بزحاف يسمى الخبن ، ولا تأثير له في الغزيرة "(١) .

و في بحر الطويل استخدم من الزحاف القبض(٢) ،ومن العلل الجارية مجرى الزحاف : الثّلْم(٣) .

فمن القبض قوله(٤) :

أَلاَ رُبَّمَا صَارَ البَغِيضُ مُصَافِيَا

فعولن مفاعيلـــــن فعولُ مفاعلن

وحَالَ عَنِ العَهْدِ الصَّدِيقُ المُنَافِقُ

فعولُ مفاعيلـــــن فعولن مفاعلن

وموطن القبض ،حيث قبض فعولن فأصبحت : فعولُ ،في الجزء الثالث من صدر البيت . وفي الجزء الأول من النصف الثاني من البيت .

---

(١) انظر أوزان المتنبي وقوافيه ٣١ ،تحقيق د .السعيد السيد عبادة ، مجلة كلية اللغة العربية ١٤٠١هـ.

(٢) المقبوض : ما سقط خامسه الساكن (فعولن ــ فعولُ ،مفاعيلن ــ مفاعلن) انظر الوافي ٢٠٥ .

(٣) الأثلم : فعولن إذا خُرِمَ (فعولن ــ عولن) . انظر الوافي ٢٠٥.

(٤) انظر شعره ،مقطعة ٣١ ،البيت : ١.

والثّلْم في قوله (١) :

لَا تَحْفِرَنْ بِئْراً تُرِيْدُ أَخَاً بِهَا

عولن مفاعيلـــن فعولُ مفاعلن

فَإِنّكَ فِيهَا ،أَنْتَ ،مِنْ دُونِهِ تَقَعْ

فعولُ مفاعيلن فعولـــن مفاعلـــن

حيث خرم (٢) فعولن في أول جزء من البيت ،فأصبحت : عولن ،وهذا يسمى الثّلْم ،وهو جائز (٣) .

واستخدامه القبض من الزحاف في الطويل ليس بمستنكر عند الشعراء العرب ،وإنما هو كثير في الشعر العربي ،لقول أبي العلاء في حديثه عن أوزان المتنبي : " فأما الطويل فلم يزاحف فيه زحافاً تنكره الغريزة ، إنما جاء بما لا تنكره الغريزة ،وهو سقوط نون الجزء الخماسي (٤) ، وذلك كثير في الشعر القديم والمحدث " (٥) .

و في بحر الكامل استخدم من الزحاف : الإضمار (٦) ،والوقص (٧) ، ونسبة الإضمار أعلى من الوقص .

---

(١) انظر شعره ،مقطعة ١٧ ،البيت : ١ .

(٢) الخرم : حذف أول متحرك من الوتد المجموع في أول البيت . انظر الوافي ٢٠٥ .

(٣) انظر الوافي في العروض والقوافي ،للخطيب التبريزى ٤٢-٤٣ .

(٤) هذا من القبض ،لأن القبض : سقوط الخامس الساكن من الخماسي والسباعي انظر الوافي : ٢٠٧ .

(٥) انظر أوزان المتنبي وقوافيه ٣١٠ تحقيق د/ السعيد السيد عباده مجلة كلية اللغة العربية ، ١٤٠١هـ العدد الأول .

(٦) المضمر : ما سُكِّن ثانيه : (مُتَفَاعلن ـ مُتْفاعلن) انظر الوافي ٢٠٧ .

(٧) الموقوص : ما سقط ثانيه بعد سكونه (مُتْفاعلن ـ مفاعلن) الوافي ٢٠٧ .

فمن الإضمار قوله (١) :

يا عَامِـرَ الدُّنْيـا أتعمُرُ مَنْـزِلاً
مْتفاعلن مْتفاعلـن متفاعلـن

لم يبق فيه مع المنية ساكـن
مْتفاعلـن متفاعلـن متفاعلـن

وموطن الإضمار في الجزء الأول والثاني من صدر البيت ،وفي الجزء الأول من النصف الثاني من البيت .

ومن إضمار متفاعلاتن قوله (٢) :

ومن اسْتَخَفَّ بِنفسِـهِ زَرَعتْ لَهُ قَالاً وقِيـلا
متفاعلـن متفاعلـن متفاعلـن مْتفاعلا تـن

فالإضمار في الجزء الثاني من عجز البيت ،وهو مُتَفَاعلاتن فأصبحت مْتفاعلاتن ، وتُحوّل إلى مستفعلاتن .

ومن وقص متفاعلن قوله (٣) :

إنْ كُنْتَ مُتَّخِذًا خَلِيـلاَ فَنَقِّ وانْتَقِـدِ الخَلِيـلاَ
مْتفاعلـن متفاعلا تـن متفعلن متفاعلا تـن

فالوقص في الجزء الأول من النصف الثاني من البيت متفاعلن ،فأصبحت متفعلن ،وتُحوّل إلى مفاعلن .

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٣٤ ،البيت : ١ .
(٢) انظر شعره ،قصيدة ٢١ ،البيت : ٤ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ٢١ ،البيت : ١ .

وكثرة استخدام سابق البربرى للإضمار في الكامل دليل على انتهاجه نهج الأوائل في أوزانه ، يقول أبو العلاء في حديثه عن أوزان أبي الطيب : " وأما الكامل فإنه زاحف فيه الزحاف الذى يسمى الإضمار ، وهو كثير جداً في كل وزن من الكامل "(١) .

وفي بحر السريع استخدم من الزحاف : الطي (٢) ، والخبن ، كما استخدم زحافاً فيه إشكال . وقد كانت نسبة الخبن أعلى من الطي .

فمما اجتمع فيه الخبن والطي قوله (٣) :

ومِنْ جَهُولٍ مُكْثِرٌ مَالَهُ

متفعلن مستفعلن فاعلن

ذلك تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمْ

مستعلن مستفعلن فاعلان

فالخبن في الجزء الأول من صدر البيت " متفعلن " ، والطي في الجزء الأول من النصف الثاني من البيت " مستعلن " .

وأما قوله (٤) :

يا أيُّها الظَّاعِنُ في حَظِّهِ

مستفعلن مستعلن فاعلن

إنَّما الظَّاعِنُ مِثْلُ المُقِيمْ

تفعلن مستفعلن فاعلان

---

(١) انظر أوزان المتنبي وقوافيه ٣١٣ .

(٢) المطوى : ما سقط رابعه الساكن : (مستفعلن ـ مستعلن أو مفتعلن) انظر الوافي ٢٠٦ .

(٣) انظر شعره ، مقطعة ٢٤ ، البيت : ٣ .

(٤) انظر شعره ، المقطعة نفسها ، البيت : ١ .

فزنة الجزء الأول من النصف الثاني من البيت " تفعلن " . والأصل فيه أن يأتي على زنة "مستفعلن" ،فكأن الشاعر خبن الجزء ثم خرمه : "مستفعلن — متفعلن — تفعلن " . والخرم لا يدخل إلا في كل جزء أوله وتد ،وذلك ثلاثة أجزاء : فعولن ،مفاعلتن ،مفاعيلن ،وإنما منعه أن يدخل في السبب ،أنه إذا سقط من السبب حركة بقي ساكن ،ولا يبدأ بساكن أبداً (١) .

ولكن الشنتريني أجازه فيما رجع إلى لفظ الوتد المجموع ، إذ قال : "فأما النقصان الذى يخص أول جزء في البيت فهو حذف الحرف الأول منه ،ولا يكون إلا في وتد مجموع أو ما رجع إلى لفظه نحو "مفاعلن " في المنسرح "(٢) .

ففي قوله : " أو ما رجع إلى لفظه " ما يدل على أنه يقبله في السريع ،إذ آلت " مستفعلن " بالخبن إلى " متفعلن " كما حدث في بيت سابق البربرى .

ويحتمل أن يكون البيت : " وإنما ،أو فإنما " ،ولا خرم حينئذ ،وإنما خبن فقط ولا إشكال فيه .

---

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٦/٢٣٨ .
(٢) انظر المعيار في أوزان الأشعار ،للشنتريني ٣٠-٣١ .

وفي بحر الرجز استخدم من الزحاف : الطي ،والخبن بنسبة متساوية .

فمن الزحاف بالطي قوله (١) :

قَدْ قَالَ كَعْبٌ لِزُهَيْرٍ فِي المَثَلْ

مستفعلن مستعلن مستفعلن

أَوْسَعْتَهمْ سَبًّا وأَوْدَوْا بالإِ بِلْ

مستفعلن مستفعلن مستفعلن

وموطن الزحاف في الجزء الثاني من صدر البيت ،حيث أصبحت "مستفعلن" بالطي "مستعلن ".

ومن الزحاف بالخبن قوله (٢) :

قَدْ قِيلَ قَبْلي في الكَلَامِ الأَقْدَمِ

مستفعلن مستفعلن مستفعلن

إنّي وَجَدْتُ العِلْمَ بالتَّعَلُّمِ

مستفعلن مستفعلن متفعلن

حيث خبن الضرب فتحول " مستفعلن " إلى" متفعلن ".

والخبن والطي في الرجز غير قبيح ،يقول أبو العلاء عن أوزان المتنبي : " وأما الرجز فجاء فيه بالطي والخبن ،وكلاهما غير قبيح (٣) ".

وفي بحر المنسرح استخدم من الزحاف الخبن والطي ،ونسبة الطي أعلى من الخبن .

---

(١) انظر شعره ،مقطعة ٢٠ .
(٢) انظر شعره ،مقطعة ٢٥ .
(٣) انظر أوزان المتنبي وقوافيه ،لأبي العلاء ٣١٤ .

فمن الزحاف بالطي قوله (١) :

الحِلْمُ والعِلْمُ خَلَّتا كَــرَمٍ
مستفعلن فاعــلاتُ مفتعلــن

لِلمَــرْءِ زَيْـنٌ إذا هُمَا اجْتَمَعَــا
مستفعلن فاعــلاتُ مفتعلـــن

وموطن الزحاف في الجزء الثاني والثالث من صدر البيت ، حيث " فاعلات " طي " مفعولات " ،و " مفتعلن " طي " مستفعلن " . و في الجزء الثاني من نصف البيت الثاني " فاعلات " طي " مفعولات " .
والطي في الجزء الثاني من المنسرح - كما يقول أبو العلاء (٢) - أحسن من تمامه .

و من الزحاف بالخبن قوله (٣) :

و مِنْ رَفِيْعِ البِنَـا أَضَاعَهُمَــا
متفعلـن فاعــلاتُ مفتعلــن

أَخْمَلَــهُ ما أضــاعَ فاتَّضَعَـــا
مفتعلـن فاعــلاتُ مفتعلـــن

فالجزء الأول من صدر البيت " متفعلن " خبن " مستفعلن " ،أمــا " فاعلات " و " مفتعلن " فهي من الطـي .

---

(١) انظر شعره ،مقطعة ١٨ ،البيت : ١ .
(٢) انظر أوزان المتنبي وقوافيه ،لأبي العلاء ٣١٥ .
(٣) انظر شعره ،مقطعة ١٨ ،البيت : ٤ .

وفي بحر الوافر استخدم من الزحاف : العصب [١] بنسبة ضئيلة ، ومنه قوله [٢] :

إذَا ما كُنْتَ طَالِبَ كُلِّ ذَنْبٍ
مفاعلْتن مفاعَلَتَن فعولن

ولَمْ تُحلِلْ أخَاكَ عَنِ العِتَابِ
مفاعلْتن مفاعَلَتَن فعولن

وموطن الزحاف في الجزء الأول من شطرى البيت ،حيث " مفاعلْتن " عصب " مفاعَلَتَن " وتُحوّل إلى " مفاعيلن ".

واستخدامه العصب في الوافر جاريا على المشهور في الشعر العربي ،يقول أبو العلاء عن أوزان أبي الطيب : " وأما الوافر فاستعمل فيه العصب ، . . . . وقد كثر في الشعر القديم والمحدث " [٣] .

وبعد هذا العرض لأنواع الزحافات في شعر سابق البربرى ، وبعد تبيّن نسبتها في شعره ، يمكن أن نقول : إنه قد لجأ إلى الزحاف كثيراً ، لينوّع إيقاعاته في أوزانه المختلفة ،إذ يلحظ أن الزحاف في البيت قد يرد في أكثر من جزء ،وقد يتكرر في الأبيات المتتالية من المقطّعة أو القصيدة . ولكنه في استخدام الزحافات لم يخرج عن المنهج الذى اتبعه الشعراء الأوائل في زحافاتهم ،ولم تؤد كثرة الزحافات إلى انكسار الوزن عنده .

---

(١) العصب : سكون الخامس من السباعي (مفاعَلَتَن ـ مفاعلْتن أو مفاعيلن) .
(٢) انظر شعره ،مقطعة ٩ ، البيت : ١ .
(٣) انظر أوزان المتنبي وقوافيه ٣١٢ .

مناسبة أوزانه لمعانيه :

نعرض -بإيجاز -إلى مناسبة أوزان سابق البربرى لمعانيه .
وقضية التناسب بين الوزن والمعنى قضية معروضة على بساط البحث النقدى منذ القدم ،ولم ينته فيها البحث إلى قبول تام ،أو رفض تام ، إذ الآراء ما زالت مختلفة في قبولها أو رفضها ، فالقُدامي -ونمثّل لهم بقول حازم القرطاجني - يميلون إلى أن يختار الشاعر الوزن المناسب للمعنى ،يقول حازم القرطاجني : " ولما كانت أغراض الشعر شتّى ،وكان منها ما يُقْصد به الجدّ والرصانة ،وما يُقْصد به الهزل والرشاقة ،ومنها ما يُقْصد به البهاء والتفخيم ،وما يُقْصد به الصّغار والتحقير ، وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ،ويخيّلها للنفوس . فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة ، الباهية الرصينة ،وإذا قصد في موضع قصداً هزلياً أو استخفافياً ، وقصد تحقير شئ أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء . وكذلك في كل مقصد .." (١) .

أما الدارسون المحدثون فإنهم اختلفوا في هذه القضية ،فمنهم من يؤيد القدماء ،ومنهم من يرفض هذه القضية ،ويرى فيها تقييداً لحرية الشاعر .

ولن نعرض لهذه القضية بتوسع ،وإنما يكفينا فيها الإشارة إلى ما قدّمه الباحث جريدى سليم سالم الثبيتي في رسالته للماجستير ، (٢)

---

(١) انظر منهاج البلغاء ٢٦٦ .

(٢) الرسالة مخطوط بجامعة أم القرى -كلية اللغة العربية ،فرع الأدب ، نوقشت عام ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م بإشراف الدكتور مصطفى عبد الواحد وهي بعنوان : "التناسب بين عناصر القصيدة عند النقاد والبلاغيين وقيمته في الفكر الحديث".

حيث ناقشها بتوسع عرض فيه لآراء القدامى ،والمحدثين وناقشهم إلى أن انتهى إلى نتيجة نميل إلى تأييده في جزء منها ،إذ قال في خاتمة مبحثه عن التناسب بين الوزن والمعنى : " إن النظرة الحديثة تعد الأوزان الشعرية قوالب عامة ،قابلة لاحتواء شتى المعاني ،حتى في الوزن الواحد ،تبعًا لما يمليه الإيقاع ،وهذه النظرة لا تعيب الأوزان العربية ولكنها تكشف عن الجوانب الحيوية فيها ،مما يكفل لها الاستمرار والبقاء والتجدد في الاستعمال ،لأنها غنية بطبيعتها هذه ،وبما لها من إمكانات تتسع لكل المعاني في مختلف الحالات النفسية على نحو ما رأينا في الزحاف والعلل .

وهذا المجال الواسع - الذى يفتح أمام الشاعر في كثرة الأوزان ، وكثرة صور الوزن الواحد في ظل المقبول من الزحاف والعلل - يتيح لهم حرية الإبداع والتجديد في الرؤية والصياغة ،ويحفظ لهم حقوقهم في التقييم من غير إغفال لتفاوت درجاتهم فيه ، وبالتالي يستطيع الشاعر أن يجد ذاته في فنه رغم كثرة الشعراء الذين ينظمون في هذه الأوزان عبر التاريخ الطويل ،وهو أمر لا يتحقق لو اختص كل وزن بغرض معيّن ، إذ يجد الشاعر المتأخر نفسه أمام أمرين: إما أن يكون صورة مكررة لغيره ، وإما أن يحاول الخروج عن هذا الارتباط فينظم المعنى على غير الوزن المحدد له ،أو يتمرد على الأوزان في محاولة للتجديد أو غير ذلك ." (١)

---

(١) انظر التناسب بين عناصر القصيدة ... ، للباحث جريدى سليم سالم الشبيتي ٣٦٤ - ٣٦٥ .

و نحن نوافق الباحث في ضرورة إتاحة الحرية للشاعر عند صياغة معانيه ،وعدم التزامه بأوزان خاصة لكل معنى من معانيه ،ولكنا نقول : إن نقادنا الأوائل لم يُلزموا الشعراء بأن يتقيدوا بوزن خاص لكل غرض من الأغراض ،كأن يكون بحر الطويل للفخر ،وهكذا . . وإنما بيّنوا صفات البحور وما يناسبها من المعاني ،فالحزن -مثلاً- تناسبه البحور ذات التفعيلات الطويلة التي تتسع للآهات والأنّات ، والفرح تناسبه البحور ذات التفعيلات القصيرة التي تُصوِّر حالة النشوى والسعادة . . وهكذا . فهم لم يعيّنوا بحراً لكل غرض ، وإنما حدّدوا صفات البحور وما يلائمها من المعاني (١) . وللشاعر -بَعْدُ- حرية اختيار الوزن الذى يحس بأنه قادر على تصوير إحساسه ونقل معاناته ، فيصب معناه في القالب المناسب له ، وسيجد في البحور -بما تتيحه من زحافات وعلل- ما يساعده على تنويع إيقاعاته وفق انفعالاته المختلفة .

وتكفينا مراجعة أوزان سابق البربرى في قصائده الطويلة التي نُقِلتْ إلينا ، لنثبت صحة تصوّر نقادنا الأوائل الذى بنوه على الاستقراء العام للشعر القديم . . ولننظر مثلاً إلى قصيدة شاعرنا الرائية التي وجهها الى عمر بن عبد العزيز ،ومطلعها (٢) :

بِسْمِ الذى أُنْزِلَتْ مِنْ عِنْدِهِ السُّوَرُ
والحمدُ للهِ ،أمابعدُ يا عُمَرُ

---

(١) انظر قول حازم القرطاجني فيما سبق ص ٣٥١ .

وقد بناها على الضرب الأول من العروض الأولى للبسيط ،وتفعيلاته[1] :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

وهي تفعيلات تتراوح بين الطول والقصر ،وتميل إلى الطول ، مما يعكس فيها نوعاً من الهدوء والرصانة ،وهذا يناسب المعاني التي تضمنتها القصيدة ، إذ الشاعر فيها يزجي مواعظه لمخاطبه ، و يتخذ من التعقّل والتّروى والاسترسال في تقديم النصح مؤ يداً بالأمثلة والبراهين من قصص الأمم السالفة ،والعبر المستقاة من المشاهد اليومية - ما يساعده على إخضاع النفس ، و تليينها للاستجابة ،خاصة وأن مواعظه تتعلق بالتزهيد في الدنيا ،والترغيب في الآخرة ، والدعوة إلى التطلع إلى ما بعد الموت ، والتزوّد للآخرة بالترفع عن الدنيا و متاعها .. وهذه معان لا تُقْبِلُ عليها النفس - المفطورة على الإقبال على الدنيا- إلا بعد تأنٍّ و تروٍّ وهدوء ، في توضيح قيمة هذه النصائح و فضلها . وفي اختيار العروض والضرب " فعلن " ما يوحي بالقرع الذى تتطلبه النفس حتى تستيقظ من غفلتها ، وتعي فضل هذه النصائح وأهميتها ،فترضخ وتمتثل .

و ننظر إلى قصيدته الطويلة الثانية ،ومطلعها[2] :

تأوّبني همّ كثيرٌ بلابلُهْ
طُروقاً فغال النّومَ عني غوائلُهْ

فو يحي منَ الموتِ الذى هو واقِعٌ
وللموتِ بابٌ أنتَ لا بُدَّ داخِلُهْ

---

(١) انظر الوافي في العروض والقوافي ،للخطيب التبريزي ٥٨ .
(٢) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ .

وقد بناها على الضرب الثاني من الطويل ،وتفعيلاته (١) :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

وهي تفعيلات تميل إلى الطول ،بحيث أصبح هذا الوزن مناسباً للتأوّهات والأنّات التي تموج في نفس الشاعر وهو يتحدث عن ذاته ،وما غمّ على نفسه من الهموم . وتناسب أيضاً هذه التأملات البعيدة التي سرح فيها ذهن الشاعر ، حتى تخطّى الحياة الدنيا إلى الآخرة ، فراح يتفكّر في مآل الإنسان بعد الموت عندما يقف بين يدي ربّ العالمين للحساب ، وقد ترك وراءه الأهل والمال ،مصطحباً عمله فقط . وفي ثنايا هذا الحديث عن خوف النفس واضطرابها من هذا الانغماس في اللهو الذى يصرفها عن التزوّد لليوم الآخر - تجد الوصايا والمواعظ منثورة ،يقدمها الشاعر في رفق ولين ، يحرّض النفس على الامتثال لها . وكل هذه المعاني تأتي في الضرب الثاني من بحر الطويل فيحتويها بما فيها من انفعالات نفسية ، تزداد حدتها حيناً ،وتنخفض في حين آخر .

ونعرض بالنظر الى قصيدة أخرى له ،مطلعها (٢) :

إنْ كُنْتَ مُتّخِذاً خَليلا فَتَنَقَّ وانْتَقِدِ الخَليلا

من لم يكنْ لكَ مُنْصِفاً في الوُدّ فابْغِ بهِ بَديلا

وقد بناها سابق البربرى على مجزوء الكامل المرفّل ،وتفعيلاته (٣) :

متفاعلن متفاعلن متفاعلاتن

---

(١) انظر الوافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزى ٣٩ .

(٢) انظر شعره ، قصيدة ٢١ .

(٣) انظر الوافي ،للخطيب التبريزى ٨٩ .

وهذه تفعيلات طويلة ، ولكنها خفيفة . مما يجعلها توحي بالقرع الخفيف المتواصل ، الذى يؤدى إلى نوع من الترنم الرتيب . وقد ضمّن الشاعر في هذا الوزن نصائح تتعلق بالصداقة ، فهو يوصي باختيار الصديق الحسن الذى يحفظ المودة . ويُبيّن صفات اللئيم البخيل الذى ينبغي اجتنابه . مع الحض على تهذيب النفس ورعايتها لترقي إلى المستوى الإنساني المثالي . وهذه النصائح لا تحتاج إلى التأنّي والرّوية اللذين احتاجتهما المواعظ الدينية السابقة ، وإنما تحتاج إلى التلميح الخفيف الذى يمس النفس من بعيد ، ولا يضغط عليها ، فتحتاج إلى جمل خفيفة مقطّعة ، تميل إلى الترنم الخطابي الذى فيه شيء من الأناة . وتفعيلات مجزوء الكامل المرفّل تستطيع احتواء هذه المعاني ، مع ما تحتاجه النفس فيها . نفهم هذا من قول الدكتور عبدالله الطيب : " والكامل المذيّل والمرفّل يزيدان على الكامل الأصلي " متفاعِلُن متفاعِلُن " بشيء من أناة ، مع ما يشبهانه فيه من روح الترنم والنشيد ، ولهذا فإنهما يصلحان لأن تجيء فيهما القصائد الطويلة الرقيقة التي تذهب مذهباً بين الخطابة والترنم . (١) "

وهكذا تجد قصائد سابق البربرى الطويلة يظهر فيها التوازن والتلاؤم بين الوزن والمعنى ، ذلك أنه يختار في صياغة معانيه القالب الوزني الدقيق ، الذى يستطيع أن يحتوي المعنى مع ما يصاحبه من التموجات النفسية المختلفة ، ومع ما تحتاجه فيه نفس المخاطب ، مستعيناً في هذا بأنواع الإيقاع الذى تتيحه العروض بما فيها من أضرب ،

---

(١) انظر المرشد إلى فهم أشعار العرب ١/ ٩٩ .

ولهذا فهو لم يتقيد بوزن معين ليصب فيه معنى واحدًا ،وإنما هو - مع تقارب معانيه - قد نوّع في البحور التي استخدمها ،ليتمشى كل وزن مع المعنى الذى يريد نقله ،والأثر الذى يريد أن يعكسه على نفس السامع . وهو في هذا الاختيار متبع للشعراء الجاهليين الفحول ، الذين قيل فيهم : " والحق أن القدماء من العرب لم يتخذوا لكل موضوع من هذه الموضوعات وزنًا خاصًا أو بحرًا خاصًا من بحور الشعر القديمة . فكانوا يمدحون و يفاخرون ويتغازلون في كل بحور الشعر . وتكاد تتفق المعلقات في موضوعها ،وقد نظمت من الطويل والبسيط والخفيف والوافر والكامل . ومراثيهم في المفضليات جاءت من الكامل والطويل والبسيط والسريع والخفيف . والأمر بعد ذلك للشاعر" (١) .

ثانيا - القافية :

يلحظ في قوافي سابق البربرى أنها منوّعة الحروف والحركات ، ففي الحروف نوّع في الرّوى والردف ،وغير ذلك من الحروف اللازمة في القافية . وفي الحركات نوّع قوافيه من حيث الإطلاق والتقييد ،و في المجرى المطلق مفتوحًا ،أو مكسورًا أو مضمومًا .

وهذا يدعونا إلى دراسة القافية عنده ،من حيث حروفها وحركاتها لنتبيّن مدى توفيقه في التزام منهج الأوائل .

---

(١) انظر النقد الأدبي الحديث ،للدكتور محمد غنيمي هلال ٤٦٨-٤٦٩ .

أنواع القافية من حيث الحركات والحروف :

تقسّم قوافي سابق البربرى إلى : مقيّدة ،ومطلقة ،و من خلال هذا التقسيم نحاول تبيين الحروف التي التزمها في قوافيه المقيّدة ،والمطلقة.

١ - القوافي المقيّدة :

كانت نسبة القوافي المقيّدة فيما بقي لنا من شعر سابق البربرى قليلة ، إذ لم نجد في شعره إلا أربع قوافٍ مقيّدة ، والبقية مطلقة.
والقوافي المقيّدة عادة ثلاثة أضرب (١) :

ضرب مؤسس ،وضرب مردف ، وضرب مجرد .

وقد استخدم شاعرنا في قوافيه المقيدة الضربين : الثاني والثالث ، بحيث وردت عنده قافية مقيّدة مردفة في مقطعة من أربعة أبيات ،مطلعها (٢) :

يا أيُّها الظّاعِنُ في حَظِّــــه   إنّما الظّاعِنُ مِثْلُ المُقِيــمْ

فالقافية هي : " المقيمْ " ،والروى فيها هو : الميم الساكنة ،والردف هو: الياء التي قبل الروى.

---

(١) انظر كتاب القوافي ،للقاضي التنوخي ،تحقيق د/ عوني عبد الرؤف ١١٢-١١٣.
والتأسيس : ألف بينها وبين الروى حرف يكون بعدها وقبله ، ويسمى الدخيل ،تعاقبه جميع الحروف . القوافي ٧٦. والردف : أحد ثلاثة أحرف (الواو ،والألف ، الياء) وهو ما كان الرويّ بعده بغير حاجز في المطلق والمقيّد - القوافي ٨٤. والتجريد : معناه أنه خال من التأسيس والردف . القوافي ١١٣.
(٢) انظر شعره ، مقطعة ٢٤.

أما القافية المقيدة المجردة فقد وجدت منها مقطعة من خمسة أبيات ،مطلعها (١) :

فَكَمْ مِنْ صحيحٍ باتَ للمَوتِ آمِنـــًا
أَتَتْهُ المَنايا بَغْتةً بَعْدما هَجَــعْ

فالقافية هي " هَجَعْ " حيث جاءت مجردة من التأسيس والردف .
والروى فيها هو : العين الساكنة .

ومن القوافي المقيدة المجردة بيتان آخران ، وعلى قافية العين ، ومطلعهما (٢) :

لا تَحْفِرَنْ بِئْراً تُريدُ أخاً بهــا
فإنَّكَ فيها ،أنتَ ،مِنْ دُونهِ تَقَــعْ

والقافية فيه : "تقع" حيث جاءت مجردة من التأسيس والردف ،ورويها العين الساكنة .

ويلحظ في القوافي المقيدة لسابق البربرى ،أنها من الضرب الأول من السريع ،ومن الضرب الثاني من الطويل ،والآخر مستحسن عند العرب ،كما يفهم من قول أبي العلاء : " إنهم استحسنوا التقييد في الطويل الثاني ،فاستُعمِل وكَثُر ،كما قال امرؤ القيس :

لَعمرُكَ . ما قَلْبي إلى أَهْلِه ،بِحُرْ
ولا مُقْصِرٍ يوماً ، فيأتِيني بِقُــرْ (٣)

---

(١) انظر شعره ،مقطعة ١٦ .
(٢) انظر شعره ،مقطعة ١٧ البيت : ١ .
(٣) البيت في ديوانه بشرح أبي الأعلم الشنتمري ١٤١ ، تصحيح الشيخ ابن أبي شنب .

... ولا يُعلم شيء من الشعر القديم جاء فيه الطويل الأول مقيداً إلا أن يكون شاذاً مرفوضاً"(١) .

كما يلحظ أن ما قبل قافيته المقيدة المجردة جاء مفتوحاً ، وهذا مستحسن أيضا في الشعر العربي لقول حازم القرطاجني : "ويستحسن في القوافي المقيدة أن تكون حركة ما قبل الروي : إما فتحة ملتزمة ، وإما ضمة وكسرة متعاقبتين . وقد وردت الفتحة معهما في مقيدات شعراء الإسلام. فأما شعراء الجاهلية فيقلّ ذلك في قوافي أشعارهم"(٢) .

وفي هذه الملحوظات على قوافي سابق البربرى المقيدة دلالة على انتهاجه نهج الشعراء الأوائل الفحول ، والتزامه بالمستحسن المفضل من طرقهم في استخدام قوافيهم.

٢ - القوافي المطلقة :

والقوافي المطلقة نسبتها أعلى كثيراً من المقيدة في شعر سابق البربرى . وقد تنوّعت قوافيه المطلقة ، فجاءت على أضرب متنوعة من الأضرب الستة التي حُدِّدتْ للقوافي المطلقة(٣) ، وهي :

----

(١) انظر اللزوميات ، لأبي العلاء ١/٣٧ .
(٢) انظر منهاج البلغاء ٢٧٥ .
(٣) انظر كتاب القوافي للتنوخي ١١٣-١١٤ ، وقد سبق تعريف التأسيس أما الصلة : فهي حرف يكون بعد الروي ، متصل به ، ويكون أحد أربعة أحرف : (الواو ، والألف ، والياء ، والهاء) انظر القوافي ٨٩ .
والخروج : حرف متولِّد من هاء الصلة المتحركة . انظر القوافي ٩٨ .
والردف : سبق تعريفه . والمجرّد : سبق تعريفه أيضاً .

مؤسس موصول ، مؤسس له خروج ، مردف موصول ، مردف موصول وله خروج ، مجرّد لا تأسيس له ولا ردف ،مجرد له خروج .
حيث ورد لسابق البربرى من القوافي المطلقة الأضرب : الأول ،والثالث والخامس .

فمن الضرب الأول : وهو : المؤسس الموصول ،وردت له قافية النون المضمومة في ثمان مقطعات (١) ،قوافيها مثل : المساكِنُ ،باطِنُ ، فاتِنُ ، يعاوِنُ ،يداهِنُ ،كامِنُ ،شائِنُ ،دافِنُ ،رائِنُ ، المتافِسْ .
فالتأسيس فيها : الألف ،والصلة : الواو الناتجة عن المجرى (٢) . ومن المؤسسة الموصولة أيضًا قصيدته اللامية ،ومطلعها (٣) :

تأوّبني همٌّ كثيرٌ بلا بِلُه
طَرُوقًا فَقَالَ النومَ عنّي غوائِلُهْ

فالتأسيس فيها : الألف ، والصلة : الهاء الساكنة .

ويلحظ في قافيته المؤسسة الموصولة أن حركة الدخيل (٤) فيها كلها : الكسرة ،إلا في بيت واحد من القصيدة اللامية ،وهو :

وقد يأْمُلُ الراجي فَيَكْذِبُ ظَنَّه
أمورٌ ، ويلْقى الشيءَ ما كانَ يأمُلُه (٥)

---

(١) انظر شعره ، المقطعات : ٢٨ ، ٢٩ ،٣٠ ، ٣١، ٣٢ ، ٣٣، ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) المجرى : حركة الروى . انظر القوافي ١٠٣ .
(٣) انظر شعره قصيدة ٢٢ .
(٤) الدخيل : هو الحرف المتحرك الذى بين ألف التأسيس والروى ، وحركته تسمى : الإشباع .
(٥) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ،البيت : ٣٤ . ويلحظ ان حركة الدخيل فيه : الضمة .

والتزامه الكسرة في حركة الدخيل جار على المستحسن المشهور في الشعر العربي ،كما يفهم من قول أبي العلاء : " وأكثر ما جاءت حركة الدخيل كسرة ، فإذا جاءت الضمة أو الفتحة فذلك هو المكروه ، والضمة مع الكسرة أيسر ، لأنهما أختان ، والفتحة معهما أشنع ،ويدلك على ذلك أن مجيئهم بالضمة مع الكسرة أكثر من مجيئهم بالفتحة مع إحدى الحركتين "(١) .

كما يلحظ في القافية المؤسسة الموصولة هذه أن شاعرنا قد التزم التأسيس في كل القوافي ،وكان حرف التأسيس والروي من كلمةواحدة ، بحيث بَعُدَ عن القبيح المكروه في التأسيس ،والتزم بالمشهور فيه ،ذلك لقولهم فيما يتعلق بالتأسيس : " ومن ذلك أيضًا وجوب التزام حروف العلة الواقعة سواكن بين أقرب متحرك يتلوه ساكن إلى الروي ،وبين حرف الروي ،واختصاص الألف بأول محل من ذلك . . . وقد وقع ما فيه الألف مع ما ليس فيه على قبح . . . إذ الوضع العريق في التأسيس أن يكون المتحرك بين التأسيس والروي مكسورًا . وأن يكون حرف التأسيس وحرف الروي من كلمة واحدة "(٢) .

ومن الضرب الثالث من القوافي المطلقة ،وهو المردف الموصول وردت له سبع مقطعات(٣) على قافية الهمزة المضمومة ،قوافيها مثل : أشياءُ ، إطفاءُ ، إصغاءُ ، عدّاءُ ،أصداءُ ، إغراءُ . ومقطعة(٤) على قافية الباء المكسورة مثل : العتابِ ، اجتنابِ . ومقطعة(٥) على السين المكسورة ،

---

(١) انظراللزوميات لأبي العلاء ١/ ١٨ .
(٢) انظر منهاج البلغاء لحازم القرطاجني ٢٧٢-٢٧٣ .
(٣) انظر شعره ،المقطعات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .
(٤) انظر شعره ، مقطعة : ٩ .
(٥) انظر شعره ، مقطعة : ١٤ .

مثل : آسِ ،أُسداسِ . ومقطعة[١] على الشين المكسورة قافيتها : واشِ . و قصيدة[٢] على اللام المفتوحة ، قوافيها مثل : الخليلا ، بديلا ، وقيلا ،مستطيلا . ومقطعة[٣] على النون المكسورة ،قافيتها مثل : أعوانِه ،غلمانِه ،دعانِه ،خوانِه .

و في هذه القوافي نلحظ تنويع حروف الردف والصلة ،مع عدم الخروج عن القاعدة في القافية المردفة الموصولة . ومن الضرب الخامس ، وهو المجردة من الردف والتأسيس ،وردت له قصيدة[٤] على قافيـــة الراء المضمومة ،قافيتها مثل : عمْرُ ، الحذرُ ، القدرُ ، الكدرُ ،العِبَرُ ، بَشرُ ، الظَفرُ ، الشَجرُ . . . ومقطعة[٥] على قافية الميم المكسورة ، قافيتها : التعلمِ. ومقطعة[٦] بقافية النون المكسورة وهي : قرنِ.

و بعد هذا التحديد لقوافي سابق البربري المقيدة ، والمطلقة ، وبعد بيان ما استخدمه فيها من الحروف اللازمة ـ نستطيع أن نقول : إنه في استخدام القوافي كان متبعاً للقواعد الأصلية السليمة التـــي التزمها الشعراء الأوائل ،فهو لم يخرج عن المستحسن المعروف من قواعدهم ،ولم يقع في أخطاء القافية القبيحة التي نبهوا عليها ، حيث لم نجد عنده العيوب المكروهة ، كالإقواء[٧] والإكفـــــاء[٨]

---

(١) انظر شعره ،مقطعة : ١٥ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة : ٢١ .
(٣) انظر شعره ،مقطعة : ٢٧ .
(٤) انظر شعره ،قصيدة ١٢ .
(٥) انظر شعره ،مقطعة ٢٥ .
(٦) انظر شعره مقطعة ٢٦ .
(٧) الإقواء : اختلاف الإعراب مثل أن يأتي الشاعر بالضم مع الكسر ، أو بالكسر مع الضم . انظر القوافي ١٣٤ .
(٨) الإكفاء: اختلاف الرويِ ،القوافي ١٤٠ .

والتضمين (١) . اللهم إلا شيئاً يسيراً مقبولاً من الإبطاء (٢) ،والسناد (٣) ، إذ وقع الإيطاء عند تكراره كلمة: " العِبَر " في قصيدته الرائية (٤) ،وكلمة " الجميلا " في قصيدته اللامية (٥) . وحدث السناد عند تغيير الردف من الياء إلى الواو في قصيدته "الهاء المفتوحة" (٦) في بيت واحد ، وعند تغييره حركة الدخيل من الكسرة إلى الضمة في بيت واحد من قصيدته اللامية (٧) .

---

(١) التضمين : هو تمام وزن البيت قبل تمام المعنى . انظر القوافي ١٦٣.

(٢) الإيطاء : هو إعادة القافية في الشعر ،واقبحه ما تقارب ،مثل أن يكون البيتان متجاورين ،أو بينهما بيت أو اثنان أو ثلاثة . انظر القوافي ١٤٨.

(٣) السناد : وهو على ضروب ،منها ما ليس بمكروه وهو تعاقب الواو المضموم ما قبلها والياء المكسور ما قبلها في ردف القيدة . وذلك مجمع على استعماله ،وهو ما حدث عند سابق البربري . ومنها ما هو مكروه ،وينقسم أقساما ،منها اختلاف حركات الدخيل . كما حدث عند سابق ،في اختلاف الكسرة والضمة في قصيدته اللامية رقم ٢٢ . وانظر القوافي ١٥٥-١٥٧.

(٤) انظر شعره ،قصيدة ١٢ البيتين : ٧ ، ٤٠ وقد تناهى البعد بينهما .

(٥) انظر شعره ،قصيدة ٢١ ،البيتين : ٣ ، ٦.

(٦) انظر شعره ،قصيدة ٣٦ ،البيت : ١١.

(٧) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ٣٤.

مناسبة قوافيه لمعانيه :

استخدم سابق البربرى في روي قوافيه الحروف الشائعة عند الشعراء العرب ،إذ حروف الروي عنده : الهمزة ،والباء ،والراء ،والسين ، والشين ،والعين ،واللام ، والميم ، والنون ،والهاء . وهذه الحروف - وإن كانت تتفاوت في نسبة الشيوع في الشعر العربي - فإن معظمها ليست من القوافي النفر أو الحوشى (١) ، التي استخدمها الشعراء الأوائل قليلاً أو نادرًا ،ذلك أن القوافي تنقسم - حسب نسبة شيوعها - إلى أربعة أقسام كما استنتج باحث معاصر ،إذ قال : " ونحن حين نستعرض الشعر العربي قديمه وحديثه نلحظ أن معظم حروف الهجاء مما يمكن أن يقع رويًّا ،ولكنها تختلف في نسبة شيوعها ،فوقوع الراء رويًّا كثير شائع في الشعر العربي ،في حين أن وقوع الطاء قليل أو نادر ،ويمكن أن تقسّم حروف الهجاء التي تقع رويًّا إلى أربعة أقسام حسب نسبة شيوعها في الشعر العربي :

أ - حروف تجيء رويًّا بكثرة ، وإن اختلفت نسبة شيوعها في أشعار العرب ،وتلك هي : الراء ، والميم ، النون ، الباء ، الدال ، السين،العين .

ب - حروف متوسطة الشيوع ،وتلك هي : القاف ، الكاف ، الهمزة ، الحاء ، الفاء ،الياء ، الجيم .

جـ - حروف قليلة الشيوع ، الضاد ، الطاء ، الهاء ، التاء ، الصاد ، الثاء .

د - حروف نادرة في مجيئها رويًّا : الذال ، الغين ، الخاء ، الشين ، الزاي ، الظاء ، الواو " (٢)

---

(١) انظر اللزوميات لأبي العلاء ١/ ٣٧ .

(٢) انظر موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ٢٤٧-٢٤٨ الطبعة الرابعة .

وهذه الأقسام الأربعة لحروف الروي حسب نسبة الشيوع ، تبيّن لنا أن شاعرنا قد استخدم من الحروف الكثيرة الشيوع : الراء ، الميم ، النون ، العين . وهي نسبة تفوق نسبة استعماله لغيرها من الحروف متوسطة الشيوع ، كالهمزة ، أو قليلة الشيوع كالهاء ، أو نادرة الاستعمال روياً كالشين . مما يدل على أنه شاعر ملتزم بنهج الجمهور من الشعراء لا يحيد عنه .

واختيار الشعراء بعض الحروف المعجمية لتكون روياً أكثر من غيرها لم يكن خاضعاً لما سمي بقضية التناسب بين القافية والغرض ، ذلك أنه لا توجد حروف معينة تناسب معنى معيناً أو غرضاً محدداً ، كما ذهب بعض الدارسين المحدثين ، حين لحظ : "أن القاف قد تجود في الشدة والحرب ، والدال في الفخر والحماسة ، والميم واللام في الوصف والخبر ، والباء والراء في الغزل والنسيب" (١) .

بل إن سرّ كثرة شيوع بعض الحروف عن غيرها يرجع إلى طبيعة الحرف نفسه ، وما يكمن فيه من صفات ، كما بيّن باحث معاصر (٢) .

لذا تجد الشاعر المجيد هو الذى يوفّق إلى اختيار قافية تناسب الجو العام للبيت خاصة ، والقصيدة عامة . وهنا نوضح أننا لا نقصد باختيار القافية المناسبة أن يهيء الشاعر قوافي قصيدته قبل البدء

---

(١) انظر مقدمة سليمان البستاني ، لترجمة الإلياذة ٩٧ . والنص منقول عن النقد الأدبي للدكتور محمد غنيمي هلال ٤٧١ .

(٢) انظر خصائص الأسلوب في الشوقيات لمحمد الهادي الطرابلسي ٤٦ .

بانشائها (١) كما يُفهم من قول ابن طباطبا : " فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً ،وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه ، والقوافي التي توافقه ، والوزن الذى يسلس له القول عليه . فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يرومه أثبته ،وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني " (٢) ، وكما يُفهم من الخبر الذى يرويه أبو الفرج الأصفهاني عن الأحوص : " . . . سمعت الأحوص يهمهم بشيء فتفهمته فإذا هو يقول : " خيمتي أم معبد ، محمد " كأنه يهيئ القوافي ،فأمسكت راحلتي حتى جاءني محمد - يقصد محمد بن عباد بن عبدالله بن الزبير - فقلت : إني سمعت هذا يهيئ لك القوافي " (٣) . فهذا الخبر ،وقول ابن طباطبا قبله يدلان على أن الشاعر يعد قوافيه قبل إنشاء القصيدة ، وكأنه يحضّر لصناعة ، وهذا أمر يخرج بالشعر من نطاق الإبداع الشعوري إلى نطاق الصناعة ،بحيث يتجرد هذا النوع من الشعر من رونق الطبع ، وروعة العفوية . مما يقلل من قيمته الفنية ،ويحيله إلى النظم التقريرى الذى يخلو من الخيال الرائع ، والإيحاء اللطيف . الأمر الذى يعكس نقص الموهبة عند الشاعر ، ويدل على عجزه اللغوى ،مما ينزل به عن مرتبة الشعراء المطبوعين . والشاعر المجيد هو من جاء شعره سمحاً عفوياً يظهر عليه رونق الطبع ، بحيث يخلق التناسب الرائع بين عناصره دون أن يخضع لقيود الصناعة.

---

(١) انظر رسالة الماجستير المقدمة من الباحث جريدى سليم سالم الثبيتي وعنوانها : " التناسب بين عناصر القصيدة عند النقاد والبلاغيين " حيث ناقش هذه القضية بتوسع ٣٩٩-٤٢٦ ، وانتهى إلى رأى نوافقه عليه .

(٢) انظر عيار الشعر ١٩ تحقيق د . محمد زغلول سلام .

(٣) انظر الأغاني ٤/ ٨٥ طبعة دار الفكر .

وهذا ما نحاول تلمّسه في شعر سابق البربرى بعامة ، وفي اختيار قوافيه بخاصة ،ذلك أنه لم يصلنا خبر يكشف عن منهجه في صياغة شعره ، لنعرف إن كانت صناعة شعره تبعاً للمنهج الذى أشار اليه ابن طباطبا (١) ، أم لا . وإنما الذى بين أيدينا هو ما بقي لنا من شعره ،ومنه نستطيع الحكم على مدى توفيقه في اختيار قوافيه ، بحيث تناسب المعنى الذى يريد ،والنغم الذى يتبع.

لذا فإننا نعرض الآن لبعض شعره لنتبيّن حسن اختياره للقوافيه ، ومنه قوله (٢) :

فَكَمْ مِنْ صحيحٍ باتَ للموتِ آمنــًا
أَتَتْهُ المَنايا بَغْتةً بَعْدما هَجَــعْ

فلمْ يَسْتطِعْ إذْ جاءَهُ الموتُ بغْتــةً
فِرارًا ، ولا مِنْهُ بِقوّتِهِ امْتَنَــعْ

فأصْبحَ تَبْكِيه النِّساءُ مُقنّعــًا
ولا يَسْمعُ الداعي وإنْ صوتَهُ رَفَــعْ

وقُرِّبَ مِنْ لَحْـدِ فصارَ مقِيلَـهُ
وفارقَ ما قدْ كانَ بالأمسِ قَدْ جَمَعْ

فلاَ يتركُ الموتُ الغنيَّ لِمَالِـهِ
ولا مُعْدِمًا في المالِ ذا حاجةٍ يَدَعْ

---

(١) انظر قول ابن طباطبا فيما سبق ص ٣٨٥ .

(٢) انظر شعره ،مقطعة ١٦ .

والأبيات تتحدث عن مباغتة الموت للإنسان ، حيث يأتيه الموت فجأة ، وهو غافل في غيّه ، فيقلب حاله ويغير وضعه .

وقد اختار الشاعر لقافيته روى العين الساكنة ، المفتوح ماقبلها ، لتكون هذه العين مناسبة بسكونها بعد الفتح لهذه المفاجأة التي تحدث للإنسان حين يطرقه الموت ، وهو سادر في غفلته .

ومن القوافي المناسبة قصيدته التي مطلعها (١) :

إنْ كُنتَ مُتّخِذًا خَليــلا فَنَقّ وانْتَقِدِ الخَليــلا
منْ لم يكُنْ لكَ مُنْصِفًــا في الوُدّ فابْغِ بهِ بَديــلا
وعليكَ نفْسَكَ فارْعَهــا واكسبْ لها عَمَلًا جَميــلا

والأبيات نصائح خلقية ، يوصي فيها الشاعر بحسن الخلق والرعاية للنفس ، وحفظ المودة بين الأصدقاء . وهي مواعظ تعكس طول التأمل في العلاقات التي تربط الناس ، وتصلهم بعضهم ببعض ، ولهذا ناسب أن يقفّيها الشاعر باللام المتصلة بالمد ، لتكون مناسبة للتفكر في التجربة الإنسانية التي خاضها الشاعر ومنها استخلص هذه المواعظ.

وفي القصيدة الرائية التي وجهها الشاعر إلى عمر بن عبد العزيز ، جاء حرف الروى " الراء " مناسباً لاسم عمر بن عبد العزيز الذى وُجِّهتْ إليه القصيدة ، ومطلعها (٢) :

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢ .

(٢) انظر شعره ، قصيدة ١٢ .

بسمِ الذى أُنْزِلتْ مِنْ عِنْدِهِ السُّوَرُ
والحمدُ للهِ ،أمّا بعدُ يا عُمَرُ

وفي هذه القصيدة تجد الإيطاء في تكرار كلمة "العِبَر"(١) ،وتجد بعض القوافي التي ربما أُخِذتْ عليه ،مثل قوله(٢) :

وليس ذو العِلْمِ بالتَّقْوى كَجَاهِلِهِ
ولا البصيرُ كأعمى ما لَه بَصَرُ

إن القافية "ما له بصر" قد تؤخذ عليه على أنها تكرار لمعنى "كأعمى" إذ الأعمى : فاقد للبصر ، ولكن يبدو أن الشاعر جاء بقوله "ما له بصر" من أجل مناسبة القافية الرائية فقط.

ومثل قوله(٣) :

ورُبّما جاءَني مالا أؤمّلُه
ورُبّما فاتَ مأمُولٌ ومُنْتَظَرُ

فقوله : " مأمول ومنتظر " - وإن كان من مراعاة النظير - فإن الشاعر في قوله : "منتظر " كان مراعياً للروي الذى اختاره.

ومثل هذه المآخذ على قافية القصيدة لا تقلل من قيمتها الفنية ، أو مكانتها في شعر سابق البربرى ، فهي من أجمل قصائده ،ولها منزلة رفيعة في شعر المواعظ ، وفيها الكثير من المزايا البلاغية ،كما تبيّن خلال الدراسة الفنية السابقة.

---

(١) انظر ما سبق ص ٣٨٢ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ،البيت : ١١ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ١٩ .

الفصل السادس

افتتاحيات قصائد سابق

من الظواهر الفنية التي تقتضي أن نبرزها في شعر سابق البربري، افتتاحيات قصائده، ذلك أن التقليد المتعارف في بناء القصيدة العربية افتتاحها بالمقدمات الطللية، كما يفهم من قول ابن قتيبة: "وسمعت أهل الأدب يذكر أن مقصّد القصيد، إنما ابتدأ فيها الديار، والدِّمَنْ، والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الرَّبْعَ، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ...(١)"

ولكن هذا التقليد الفني لم يكن ملتزماً عند جميع الشعراء الجاهليين، كما وَهِمَ بروكلمان، حين قال: "والقصيدة المؤلفة على نظام دقيق، ينبغي استهلالها بالنسيب، والحنين إلى الحبيبة النائية، ذلك الحنين الذى يعترى الشاعر عند رؤية أطلالها الدائرة ..(٢)" فقد بيّن الاستقراء العام الذى أجراه بعض الدارسين(٣) المعاصرين للشعر الجاهلي والإسلامي، أن كثيراً من الشعراء لم يتقيدوا بهذه المطالع في قصائدهم، بل إن بعض الشعراء المسلمين ابتكروا لقصائدهم مقدمات

---

(١) انظر الشعر والشعراء ١/ ٨٠.

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي ١/ ٥٩.

(٣) منهم الدكتور حسين عطوان في كتابه "مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي" ١١٤. والدكتور مصطفى عبد الواحد في كتابه: "الوقوف على الأطلال بين شعراء الجاهلية والإسلام حتى القرن الخامس الهجرى" ١١٢.

تعكس مدى تأثرهم بالإسلام . وفي هذا الابتكار ردّ لما زعمه كارل بروكلمان ، حين قال : " وإذا كان تساوي الطابع الفني عند شعراء الجاهلية لم يترك إلا مجالاً ضيقاً لبروز الخصائص الفردية ، فقد اختفى هذا المجال بالكلية بعد أن صار ذلك الطابع الفني سُنّة متّبعة . ولكن أكثر شعراء العصر الأموي ، قد اتخذوا هذا الطابع الفني القديم إطاراً لا معدل عنه للأشعار المعبِّرة عن بيئتهم "(١) .

هذه المقدمات التي ظهرت في قصائد الشعراء المسلمين ويمكن أن نسميها مقدمات دينية ، أو افتتاحيات دينية ، ظهرت في البدايات الأولى للشعر الإسلامي ، إذ نجدها في مطلع قصيدة للنابغة الجعدي(٢) ، وهي قوله(٣) :

الحَمْدُ للهِ لا شَريكَ لــهُ   مَنْ لَمْ يقُلْها فنَفْسهُ ظَلَمــا

المولجِ الليلَ في النّهــارِ   وفي الليلِ نهاراً يُفرِّجُ الظُّلَمــا

الخافضِ الرافعِ السماءَ على الـ   أرضِ ولم يَبْنِ تَحْتَها دِعَمــا

إذ افتتح الشاعر قصيدته بحمد الله وتوحيده ، ممهداً للحديث عن نعمه ودلائل وحدانيته ، بحيث تشابهت مقدمة القصيدة بمقدمة الخطبة الدينية .

----

(١) انظر تاريخ الأدب العربي ١/١٨٧ .

(٢) النابغة الجعدي : هو قيس بن عبد الله الجعدي ، أبو ليلى ، شاعر مفلق ، صحابي من المعمّرين ، اشتهر في الجاهلية وسمي النابغة ، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسلم ، وجاوز المئة ، وتوفي نحو سنة ٥٠ هـ . انظر الأعلام للزركلي ٥/٢٠٧ .

(٣) القصيدة في ديوانه ١٣٢-١٣٣ .

كما نجد هذه المقدمة الدينية في أرجوزة أبي النجم العِجْلي (١)، ومطلعها (٢) :

الحَمْدُ للهِ الوَهُوبِ المُجْزِلِ
أعطَى فلَمْ يَبْخَلْ ولم يُبخَّلِ

فافتتحها بالحمد لله على جزيل هباته ونعمائه على الخلق .

ولعل هذه القصائد المفتتحة بالمقدمات الدينية كانت الأصل الذى نظر إليه سابق البربرى ،حينما بدأ قصيدته الوعظية التي وجهها إلى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ،ومطلعها (٣) :

بسمِ الذى أُنْزِلَتْ مِنْ عِندِه السُّوَرُ
والحَمْدُ للـه ، أما بعْدُ يا عُمَرُ
إنْ كُنْتَ تعلَمُ ما تأتى وما تَـذَرُ
فكنْ على حذرٍ ، قَدْ يَنفعُ الحَذَرُ

فبدأ القصيدة بداية دينية تشبه بداية الخطبة الوعظية الدينية إلى حد بعيد ، فهو قد افتتح قصيدته بالبسملة ،ثم الحمدلة ، ثم قال :

---

(١) ابو النجم العِجْلي : هو الفضل بن قدامة العِجْلي ،أبو النجم من أكابر الرجاز ، نبغ في العصر الأموى وكان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان وولده هشام ،توفي سنة ١٣٠هـ. انظر الأعلام ٥/ ١٥١ .

(٢) الأرجوزة في الطرائف الأدبية للميمني ٥٧ ، وانظر ديوان أبي النجم العِجْلي ، صنعة وشرح : علاء الدين آغا ١٧٥ .

(٣) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ،البيتين : (١، ٢) .

أما بعد . مما جعل القصيدة أكثر شبهاً بالخطبة الدينية من القصيدتين السابقتين ، الأمر الذى يجعلنا نقول : إن شاعرنا مجدّد حين افتتح قصيدته بالبسملة ،والحمدلة ،وأما بعد . فبدأها بداية الخطبة الدينية ،وخصصها للوعظ والتذكير بالآخرة .

ولعل هذا ما جعل الدكتور مصطفى عبد الواحد (١) يميل إلى أن ابن الرومي في مقدماته الدينية ربما كان ناظراً الى نماذج سابقة كقصيدة سابق البربرى التي أشرت إليها آنفا . وإن كانت لي نظرة أخرى في مقدمتي ابن الرومي اللتين أشار إليهما الدكتور ،وهما : قوله في مدح الحسن بن عبيدالله بن سليمان (٢) :

أَحْمَدُ اللهَ نِيّةً وثناءً غُدوةً بل عشيةً بل مساءَ

بلْ جميعاً وبين ذلك ،حمدًا أبديًّا يُطبِّقُ الآناءَ

حَمْدَ مُسْتعظمٍ جلالاً عظيماً مِنْ مليكٍ وشاكرٍ آلاءَ

وقوله ، في مطلع قصيدة يمدح بها أبا سهل بن نوبخت (٣) :

أَحْمَدُ اللهَ حَمْدَ شاكرِ نُعْمى قابلٍ شكر ربِّهِ غيرآبي

فهاتان المقدمتان أحدهما أقرب شبهاً بمقدمة قصيدة النابغة الجعدى ، ومقدمة أرجوزة أبي النجم العِجْلي ، اللتين أشرت إليهما آنفاً ،

---

(١) انظر كتابه " الوقوف على الأطلال ... " ١٤٢-١٤٣ .

(٢) انظر ديوان ابن الرومي ١/ ٦٠ تحقيق د . حسين نصار .

(٣) انظر المصدر نفسه ١/ ٢٧٩ .

لأن أيًّا من هذه المقدمات لم تُفتتَحْ بالبسملة كما افتتح سابق البربرى قصيدته، ولم يُفصل فيها بين الحمد لله وما جاء بعدها بقول : أما بعد كما فعل سابق البربرى . وربما كان هذا ما جعل قول شاعرنا نموذجاً يُمثِّل به أبو هلال العسكرى عند كلامه عن قول "أما بعد" وأول من قالها (١) .

وبعد الحديث عن هذه المقدمة الدينية في قصيدة سابق البربرى التي كتبها لعمر بن عبد العزيز يمكننا أن نقول : إن شاعرنا في مقدمة قصيدته لم يكن متبعاً للقالب الفني المتعارف عليه بين شعراء العربية، بل إن قصائده الأخرى التي وجدناها كاملة لم تكن مفتتحة بالمقدمة اللطللية ، فقصيدته اللامية مطلعها (٢) :

تأوَّبني هَمٌّ كثيرٌ بلاَ بِلُه
طَروقًا فغالَ النومَ عنِّي غوائِلُهْ

فويحي مِنَ المَوتِ الذى هوواقِعٌ
وللمَوتِ بابٌ أنتَ لا بُدَّ داخِلُهْ

أيأمَنُ ريبَ الدهرِ يا نَفْسُ واهِنٌ
تجيشُ له بالمُفظِعَاتِ مراجِلُهْ

---

(١) انظر كتاب الأوائل ، لأبي هلال العسكرى ٣٥-٥٤ تحقيق : محمد السيد الوكيل .

(٢) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ .

وفيها يبدأ بالحديث عن نفسه ،ليدخل به مباشرة على المعنى الذى يريد التعبير عنه ،وهو التزهيد في الدنيا ،ووصف حال الإنسان بعد الموت .

وقصيدته اللامية الأخرى ،مطلعها (١) :

إنْ كُنتَ متَّخِذًا خَليــــــلا فَتنقّ وانْتَقِدِ الخَليــــــلا
من لم يكُنْ لكَ منْصِفــــًا في الوُدِّ فابْغِ به بَديــــلاَ
وعليكَ نَفْسَكَ فارْعَهــــا واكسبْ لها عمَلاً جَميــــلاَ

وفيها يبدأ بمقصده مباشرة ،فينصح بالتأني في اختيار الصديق ،وبمراقبة النفس . . . وما إلى ذلك من نصائح ضمّنها قصيدته .

وربما استطعنا أن نعلل لهذه المقدمات التي افتتح بها قصائده ، بأنه شاعر خصص شعره للتزهيد والوعظ والنصح والإرشاد ،وهذا لا يُسوِّغ له البدء بالمقدمات الطللية ، كما هو الحال في الأغراض الأخرى ،كالمدح والهجاء ،والرثاء ،والفخر التي كثر افتتاحها بالمقدمات الطللية . وربما يُعلل هذا : بأن الاستهلال بالمقدمات الطللية لم يكن منهجًا مفروضــًا على الشعراء التمسك به ، إذ وجد من الشعراء من تخلّى عنه في المدح والهجاء والفخر والرثاء ، وغير ذلك كما سبق أن ذكرنا (٢) . على أيــة حال : فإن مقدمات القصائد عند سابق قد جاءت مناسبة للمعانـــي التي ضمّنها قصائده ،وهذا هو المهم في نظرنا .

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢١ ،الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) انظر بداية الحديث عن افتتاحيات قصائده ص ٣٨٩ .

الباب الرابع

الاتجاه الاسلامي في شعر سابق البربري

الباب الرابع

الاتجاه الإسلامي في شعره

الفصل الأول : أغراض شعره .

الفصل الثاني : أثر القرآن والحديث في شعره .

الفصل الثالث : قضية ضعف الشعر في الإسلام .

الفصل الرابع : شعر سابق في ضوء قضية الالتزام .

*

الفصل الأول

أغراض شعره

إذا رجعنا إلى شعر سابق البربري لنتبيّن أغراضه ، فإننا لا نجد أغراضاً متفاوتة فيه ،بحيث يُقسّم الشعر إلى أصناف يأخذ كل منها بعضاً منه ،ذلك لأن شعره لا يتجاوز صنفاً واحداً من أصناف الشعر الأربعة التي ذكرها ابن رشيق بقوله : " وقال عبدالكريم: الشعر أربعة أصناف : فشعر هو خير كله ،وذلك ما كان في باب الزهد ،والمواعظ الحسنة ،والمثل العائد على من تمثّل به بالخير ،وما أشبه ذلك . وشعر هو ظَرْف كله ،وذلك القول في الأوصاف ، والنعوت ،والتشبيه ،وما يُفتنّ به من المعاني والآداب . وشعر هو شرّ كله ، وذلك هو الهجاء ،وما تسرّع به الشاعر إلى أعراض الناس . وشعر يتكسب به ،وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ،ويخاطب كل إنسان من حيث هو ، ويأتي إليه من جهة فهمه " (١) .

فشعر سابق البربري من الصنف الأول الذى يسير في اتجاه الخير . الأمر الذى جعل ابن المعتز يذكره مع محمود الورّاق ،وصالح ابن عبد القدوس في قوله : " وشعر محمود - أى الورّاق - كثير وأكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب ،وليس يقْصُر بهذا الفن عن صالح بن عبد القدوس وسابق البربري " (٢) . وهذا شعر يهدف إلى إصلاح السلوك

---

(١) انظر العمدة ،لابن رشيق ١/١١٨ .

(٢) انظر طبقات الشعراء ،لابن المعتز ٣٦٨ .

الإنساني ،وإلى التربية الخلقية . وكل هذا يُحدِث أثراً متشابهاً في النفس بحيث يصعب تحديد فواصل بين معانيه . ولهذا فإنه من الصعب أن نتصور حواجز فاصلة بين أغراض شعره كما هو الحال في أغراض الشعر الغالبة عند الشعراء الآخرين كالمديح ، والهجاء ، والفخر والرثاء ، والغزل .

وما محاولة تقسيم شعره إلى أغراض إلا من باب تغليب معنى على آخر ،مما يجعلنا نقسّمه تحت أغراضه المتقاربة فيما بينها ،فنقول : ان شعره ينضوى - في الغالب - تحت أغراض أربعة هي : الزهد ،والمواعظ، والحكمة والأمثال .

ولكنّا لا ندّعي وجود حدود فاصلة بين معاني هذه الأغراض ، ذلك لأنه يمزج بين هذه الألوان كلها في قصيدة ، أو في أبيات ، وربما في البيت الواحد . كما أن أكثر معانيه تسير في اتجاه التزهيد في الدنيا ،والتجافي عن ترفها وزخرفها . الأمر الذى جعل طابع الزهد غالباً على شعره .

ولم يخرج شعر سابق الذى انتهى إلينا عن هذا الغرض الواحد ذى الألوان المتعددة - إلا في أبيات قليلة تضمّنت مديحاً ونسيباً ، ولكنها لا تمثل نسبة ذات بال ،ولهذا كان تقسيم شعره على النحو الآتي : شعر الزهد ،وشعر المواعظ ،وشعر الحكمة والأمثال ،وشعر يتضمن هذه الأغراض الحكمية جميعاً ،وأخيراً شعر قليل ينتمي إلى أغراض أخرى .

وينبغي أن يلحظ أن الشعر الذى خضع للتصنيف والدراسة - هو الشعر الذى ثبتت نسبته إلى سابق البربرى فقط ولم ينسب إلى غيره .

ومجموع هذا الشعر ثلاث وتسعون ومائة بيت ،جاء أغلبها في الزهد والمواعظ ،ولهذا فإن شاعرنا يستحق أن نطلق عليه اسم شاعر الزهد والمواعظ ، بحيث يسبق بهذا الاسم أبا العتاهية الذى سمى برائد الزهد في الشعر العربي (١) ،وذلك لأن شاعرنا متقدم زمنياً على أبي العتاهية ،وشعره كله مبني على أساس خدمة الدعوة الإسلامية ،بتصوير حقائق الإسلام ،والدعوة إلى تقويم الأخلاق ،والتزهيد في متع الحياة الدنيا ،والترغيب في الآخرة . ثم إن أخبار سابق البربرى التي بينت أنه كان راوية للحديث ، وأنه تولى القضاء (٢) - تثبت صدق توجهه إلى هذا اللون من الشعر ،إذ أن من يرقى إلى هذه المناصب لا يُتَصوّر منه الهزل والمجون أو السفاهة في القول أو الكذب . فهو لم يكن شاعراً بالمعنى الفني كغيره من الشعراء الذين يخوضون في شعرهم مختلف الأغراض ويتعرضون لكل المعاني ،وإنما هو شاعر واعظ وجه فنه الشعرى إلى اتجاه واحد هو اتجاه الخير فقط.

---

(١) انظر دراسة أسامة عانوتي ،وهي رسالة ماجستير بعنوان : "أبو العتاهية رائد الزهد في الشعر العربي" الطبعة الاولى ١٩٦٢م - المكتبة الأهلية - بيروت . وقد شاعت تسمية أبي العتاهية بشاعر الزهد .

(٢) انظر ما كتب عن روايته للحديث ،وتوليه القضاء في الباب الاول .

((شعر الزهـــــد))

إذا نظرنا إلى شعر سابق البربرى نجده - في معظمه - دعوة إلى ترك نعيم الدنيا ومتاعها، وتذكيرًا بالموت، وأن الإنسان منته إليه لا محالة. لذا ينبغي للإنسان أن يسمو عن متع الدنيا الزائلة، وألا يغتر بالآمال الطويلة فيها، فالدنيا غرور كاذبة تخدع الإنسان وتجره إلى الهاوية إذا تتبع شهواته، وسار في ركاب آماله ومطامعه، ناسيًا الحقيقة التي لا محيد عنها. ولهذا فالعاقل من تجافى عن لهـــو حياة الفناء، وتطلّع إلى نعيم دار البقاء، واتعظ بالعبر من حياة الماضين من أسلافه من بني الإنسان، إذ لم يترك الموت منهم أحدًا، ولم يُحصّنهم ملك ولا مال، بل حصدهم الموت حصدًا، وترك من آثارهم ما يعظنا به ويذكّرنا.

وهذه المعاني الزهدية قد وردت في شعر غيره ممن سبقه أو عاصره، أو لحقه من الشعراء، ولكنها نسب متفاوتة قد تصدر عن اعتقاد غير صحيح، أو تظهر إلى جانب أغراض أخرى مناقضة لها. أما شعـــر سابق البربرى فيسير في معظمه في هذا الإطار من المعاني، ولهـــذا فانه يستحق أن نطلق عليه - بحق - اسم شاعر الزهد والمواعظ، فهـــو شاعر ملتزم وجّه إمكاناته الفنية لخدمة العقيدة الإسلامية مصورًا مبادئها السمحة، وداعيًا إلى التمسك بها ونبذ كل ما ينافيها. حتى جاء شعره في مجمله سائرًا في الاتجاه الإسلامي.

ونحن هنا نجتزئ قسمًا من شعره تظهر فيه هذه المعانـــــي الزهدية بجلاء لنحاول توضيحها، وتفصيل معانيها وما تهدف إليـــه.

وقد وجدت هذه المعاني تدور حول أربعة مقاصد هي : التذكير بالموت ،والتحذير من الاغترار بطول الأمل في الحياة ،واللوم على الفتنة بمتاع الدنيا والدعوة إلى تركه ، والدعوة إلى الاقتناع بالرزق المقسوم فيها ،وعدم اللهثة وراء رغد العيش .

ففي المعنى الأول يقول مذكراً بمصير الإنسان ،ومصير ما يسعى إلى تحقيقه في دنياه الفانية:

يا عامِرَ الدنيا أتَعْمُرُ منزلاً | لم يَبْقَ فيه مع المنيةِ ساكِنُ
الموتُ شيءٌ أنت تَعلمُ أنه | حقٌّ ،وأنت بذكْرِه متهاوِنُ
إنّ المنيةَ لا تُؤَامِرُ من أتَتْ | في نفسهِ - يوماً - ولا تستأذِنُ
اعْلَم بأنكَ -لا أبا لك- في الذي | أصبحتَ تجمعُهُ لغيرِكَ خازِنُ(١)

فالموت مصير كل حي ،والفناء مقدّر على البشر ،ورحيل الإنسان يأتي فجأة دون استئذان له . ولكن المغرور بدنياه السادر في غيّه يسعى لتعمير دار الفناء هذه ،وتحصيل ما يستطيع من متاعها ، مع علمه بأنه مسوق إلى المصير المحتوم بغير رضىً أو استئذان ،وأنه تارك مايُحصّله لغيره . إذ ما هو إلا محصل وخازن لورثته .

هذه هي نظرة الإسلام للحياة الإنسانية ،يُجلّيها سابق البربري في بساطة ويسر ، فيتوجه بخطابه إلى عامر الدنيا ،مبيّناً له أن الجهل والحماقة هي التي تجره إلى التفكير في تعمير دار هو راحل عنها

---

(١) انظر شعره مقطعة ٣٤ .

لا محالة ،ورحيله آتٍ على غفلة منه دون أن يأخذ شيئاً مما جمعه وخزّنه . وهو بهذا يضع الإنسان أمام حقيقة لا مفرّ له من الاقتناع بها وهي : السمو عن التعلق بزينة الحياة الدنيا الفانية ،وترك السعي الدائب لتحصيل متعها الزائلة ،والتطلّع إلى ما سيخلد فيه من النعيم . وهذه دعوة صريحة للزهد في الدنيا عن طريق التذكير بحتمية الموت والفناء .

وحقيقة الموت معنىً معروف تناوله الشعراء من قبل ، ودار على ألسنتهم ،لأن الفناء حقيقة أدركها البشر من خلال تجاربهم وتجارب الماضين قبلهم ،فأين من سبقنا من المخلوقين ؟ ... إنهم بادوا ولم يبق لنا منهم إلا العظة والاعتبار . ولننظر إلى هذه الأبيات من مرثية نظمتها سُعْدى بنت الشمردل اليربوعي -وهي شاعرة جاهلية - تؤكد فيها أن ما صادفته من تجارب أثبت حقيقة لا تحتاج إلى طول تفكر وتأمل . وهي أن فناء البشر حتم ،وأن الإنسان ما عليه إلا أن يتعظ بمن سبقه ،تقول (١) :

ولقد بَدا لي قَبْلُ فيما قد مضَى
وعَلِمتُ ذاك لو أنّ عِلماً يَنفَعُ

أنّ الحوادثَ والمَنُونَ كليهما
لا يُعتِبانِ ولو بكَى من يَجزَعُ

ولقد عَلِمتُ بأنّ كلَّ مؤَخَّرٍ
يوماً سبيلَ الأوّلينَ سيَتْبَعُ

---

(١) انظر الأصمعيات ١٠٢ تحقيق أحمد شاكر ، عبد السلام هارون .

ولقد عَلِمتُ لو انّ عِلْمـاً نافــعٌ
أنْ كلُّ حيٍّ ذاهبٌ فمــودّ ع

أفليسَ فيمنْ قد مضى أَلِيَ عِبْــرةٌ
هلَكُوا وقد أيقنتُ أنْ لنْ يرْجِعُــوا

كـم منْ جميعِ الشمْلِ مُلْتئمِ الهـوى
كـانوا كذلكَ قبْلَهمْ فتصدّعُــوا

فقد أدركت الشاعرة الحقيقة و عبّرت عنها بصورة تقريرية صادرة عـن تجربتها الذاتية التي عرفتها عن السابقين لها . و خلصت إلى أنها لا بد أن تتيقن من الرحيل والفناء . وهذا فرق ما بينها وبين شاعرنا ، الذى أدرك الحقيقة بعد أن تشرّبها من المنهل الإيماني العذب . وعبّر عنها مخاطباً الإنسان السادر في تحصيله وجمعه لغيره تعبيراً منطقيـاً متسلسلاً حاصربه النفس الإنسانية حصاراً تخلصُ منه إلى أنه لا منفـذ لها يُبعد عنها السماقة والجهل إلا الخضوع لدعوته بالتجافـي عن متاع الحياة الدنيا و زخرفها ، ذلك لأنه شاعر مسلم ملتزم يهدف إلى تقويم سلوك الإنسان وإصلاحه .

ويأخذ التذكير بالموت عند سابق البربرى صورة أخرى ، إذ يلجأ إلى الأمثلة الواقعية يضربها ، مذكراً الناس بالحقيقة الثابتة ، فيقول : (١)

فكمْ مِنْ صحيحٍ باتَ للموتِ آمِنــاً
أتتْه المنايا بغتةً بَعْدَما هجَعْ

---

(١) انظر شعره مقطعة ١٦ .

فلمْ يَستطِعْ إذ جاءهُ الموتُ بغتةً
فِرارًا ، ولا منه بقوّتهِ امْتنَعْ

فأصْبحَ تَبكيهِ النساءُ مقنّعًا
ولا يسمعُ الداعي ،وإنْ صوتَهُ رَفعْ

وقُرِّبَ من لَحْدٍ فصارَ مقِيلَهُ
وفارقَ ما قد كانَ بالأمسِ قد جَمعْ

فلا يتركُ الموتُ الغنيَّ لمالِهِ
ولا مُعْدِمًا في المالِ ذا حاجةٍ يَدعْ

والأبيات ذكرها أبو نعيم مقدمًا لها بقوله : " ... قال عمر بن ذر يذكر أنه بلغه عن ميمون بن مهران أنه قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز يوما ،وعنده سابق البربري الشاعر ، وهو ينشد شعرًا ،فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات ... قال : فلم يزل عمر يبكي و يضطرب حتى غُشِيَ عليه فقمنا فانصرفنا عنه "(١) .

فقد تأثر عمر بن عبد العزيز بهذه الأبيات حتى غُشِيَ عليه من البكاء ،كيف لا ؟ وشاعرنا يذكِّره الموت بصورة يرسم فيها الإنسان الجهول الغافل ،وهو مفتون بقوّته ظان أنه ممتنع بماله ،ولكنه لا يلبث أن يؤخذ على حين غرة ،إذ يأتيه داعي المنية فينتزعه من الحياة وهو ناعم في هدوء النوم وسكينته ،مطمئن إلى قوّته و منعته ،فيجيب

---

(١) انظر حلية الأولياء ،لأبي نعيم ٣١٨/٥ .

الدعوة مكرهاً ،حين لا يجد ملاذاً للفرار . ثم يبرز حال الإنسان وهو ضعيف ساكن في رقدته ،وحوله النساء تبكيه بعد أن فقدت الحيلة فيه . وهو هامد لا يسمع النعي منتظر مآله الذى اقترب ،إذ أضحى مقيله في القبر بعد أن كان ليله في فراشه الناعم ،وهو في رحيله لا يملك أن يأخذ شيئاً مما حصّله و خزّنه . . . حتى ينتهي إلى الحكمة البالغة وهي : أن الموت لا يدع غنياً ولا فقيراً .

وهذا قول صائب وحقيقة ثابتة عرفها البشر وتيقّنوها ،حتى لهجت ألسنة الشعراء بها ،فعبّروا عنها حسب إبداعهم ،فهذا خالد بن يزيد بن معاوية ، يدعو الغنيّ ألا يعجب من الموت ،لأن الأغنياء قبله قد أجابوا داعي المنية على كُرْهٍ منهم ،وإن كانت الحياة حبيبة إليهم ، فيقول (١) :

أَتعجبُ أَنْ كُنتَ ذا نِعْمةٍ وأنكَ فيها شريفٌ مَهيبُ ؟
فَكَمْ وردَ الموتُ من ناعمٍ وحُبُّ الحياةِ إليه عَجيبُ
أجابَ المنيةَ لمَّا دَعَتْ وكَرْهاً يُجِيبُ لها مَنْ يُجِيبُ
سَقَتْهُ ذَنوباً مِنَ انفاسِها ويذْخرُ للحيِّ مِنْها ذَنُوبُ

---

(١) انظر معجم الأدباء ،لياقوت الحموى ١١/ ٤٠ الطبعة الأخيرة .

والأبيات الأربعة تدور حول هذه الحقيقة ، وهي : أن الغنيّ لا يفلت من المنية ،بل يجيب داعيها على الرغم منه ،لأن الموت دَلْوٌ يشرب منه كل حيٍّ ،وهي نفس الحقيقة التي انتهى إليها شاعرنا . ولكنّ شاعرنا جاء بها خاتمة لتصوير رائع لحال الإنسان وهو يجيب هذا الداعي الذى يدعو كل مخلوق .

ثم إن شاعرنا حين صور الإنسان في رقدته الأخيرة ،ونساءه وأهله يبكون حوله ،وهو مسجىً لا يسمع ولا يحيط ، لم يستطع ماله ولا أهله أن يدفعوا عنه ما انتزعه من بينهم ،ولا يملكون إلا أن يُسلموه إلى مصيره . في رسم هذا المآل الذى ينتهي إليه الإنسان المغرور بقوته وماله ،تأكيد للحقيقة التي سبق أن دعا إليها وهي : أنه لا ينبغي للإنسان أن ينسى مآله ،ويلهث وراء أطماعه الدنيوية ،لأن هذا لن يدفع عنه الموت أو يمنعه من الرحيل الذى لا بد منه . بل هو راحل وتارك ماسعى في جمعه وتحصيله ،فمن الأجدى له أن يستعد لهذا الرحيل ويتزوّد له ،وهذا لن يكون إلا بالزهد في متاع الحياة الدنيا .

ونتتقل مع سابق البربرى إلى مقصده الثاني وهو : التحذير من الغرور بالدنيا ،وطول الأمل فيها ،إذ يتعجب من حال الإنسان الذى يركن إلى الدنيا آمنًا ريب الدهر ،مع أنه عارف أن الدهر عدّاء على البشر ، فيقول (١) :

وكيفَ يأمَنُ رَيبَ الدهرِ مُرْتَهَنٌ
بِعَدْوةِ الدهرِ ،إنّ الدهرَ عدّاءُ ؟

---

(١) انظر شعره ،مقطعة رقم ٢ .

فهذا تحذير من الغرور بالحياة الدنيا ،وطول الأمل فيها ، جاء عن طريق التوبيخ المتضمن في تعجبه من حال هذا الإنسان السادر في لهوه مع تيقّنه من حقيقة حاله مع الدهر .

ويأتي التحذير من الدنيا عن طريق وصف النفس الإنسانية ، وهي لاهية عن تذكّر نهايتها ،مغرورة بما احرزته من فوز في تحقيق أمانيها ، لا يزيدها التحقيق للآمال إلا طلباً في الزيادة ، فيقول (١) :

لا يُشْبِعُ النفْسَ شيءٌ حِينَ تُحْرِزُهُ ، ولا يزالُ لها مِنْ غيرِهِ وَطَرُ

ولا تَزالُ -وإنْ كانتْ لها سَعةٌ- لها إلى الشيءِ لم تَظْفَرْ بِهِ نَظَرُ

والمرءُ ما عاشَ في الدنيا لَهُ أَمَلٌ إذَا انْقَضى سَفرٌ مِنْها أَتى سَفَرُ

لها حلاوةُ عيْشٍ غيرُ دائِمةٍ وفي العَواقِبِ منها المُرُّ والصَّبِرُ

فهذه هي النفس البشرية يصورها سابق البربرى على طبيعتها جامحة مندفعة تميل مع أهوائها ،أمارة بالسوء ،لا تقف عن طلب الزيادة في رغباتها ، مغرورة بحلاوة الدنيا الزائلة مع أنها متيقّنة أن الرحيل محتوم ،ومواجهة المصير لازمة . وقد وصف سابق النفس البشرية وصفاً

---

(١) انظر شعره ، قصيدة رقم ١٢ ،الأبيات : ١٤ ، ١٥ ، ٤١ ، ٤٢ .

مختلفاً عن وصف أبي ذوءيب الهذلي ،إذ قال (١) :

والنفسُ راغِبةٌ إذا رغّبتَها
وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنَعُ

إذ جعل أبو ذوءيب زمام النفس بيد الإنسان يُسيِّرها كيف يشاء ، حينما وصفها سابق البربرى بأنها أمّارة بالسوء لا تقنع بما قُدِّر لها .

وتصوير سابق البربرى للنفس وهي سادرة في غيّها يوحي بعنف صراع الإنسان مع نفسه وضد رغباته ،ويبيّن أن جهاد النفس أقسى أنواع الجهاد ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : "المُجاهدُ مَنْ جاهدَ نَفْسَهُ في اللهِ عز وجل" (٢) .

ثم هو يذكر حال الإنسان مع الدنيا ،تغره بنعيمها الزائل فيطول أمله ، إلى أن ينتهي إلى العاقبة المرة عندما يواجه مصيره الذى صنعه سوء عمله في دنياه . وفي هذا تبصير للإنسان العاقل بخطورة ما تقوده إليه نفسه ،ويدعوه إلى مجاهدة رغباتها وطموحها .

كما أنه يوءكد وصف النفس الإنسانية بالاندفاع في طلب الرغائب والشهوات ، يدفعها الأمل الطويل في الدنيا ، فلا تصحو إلى أن يطويها الموت ،فيقول (٣) :

---

(١) انظر المفضليات ٤٢٢ ، البيت رقم ١٣ تحقيق أحمد شاكر ، عبد السلام هارون .
(٢) سنن الترمذى في فضائل الجهاد ٣ ،ومسند أحمد بن حنبل ٦/ ٢٠
(٣) انظر شعره مقطعة رقم ٣٨ .

وللنفوسِ - وإنْ كانتْ على وَجَلٍ
من المنيةِ - آمالٌ تُقوِّيها

فالصبرُ يَبْسُطها ، والدهرُ يَقْبِضُها ،
والنفسُ تَنْشُرها ، والموتُ يَطْوِيها

وهذا وصف رائع للنفس الإنسانية المؤمنة وهي حائرة بين المدّ والجزر ، فالأماني تغرها وتمدُّ الأيام لها ،وتزيّن لها الحياة الدنيا ، بحيث يكد الإنسان ويحصّل لاهياً مغموراً متقوّياً بالأمل ،ولكن التفكير في ساعة الأجل ،وملاقاة المصير ،والوقوف بين يدي الله للحساب يجزر نشاطه ، ويحد آماله ،ويبصّره بواقعه . وهكذا يعيش المرء بين المد والجزر ، بين الأمل واليأس إلى أن يطويه الموت ،أو تدركه رحمة ربه فيتوب عن غيّه ويهتدي إلى الطريق القويم .

وهذه فلسفة تجلّى حال الإنسان مع الإيمان والمعصية ، فالإنسان الذى تعمّق الإيمان في قلبه ،ثم جرفه تيار الحياة إلى المعاصي يعيش صراعاً مع نفسه ، يدفعه الأمل ،ويحفزه حُبُّ الحياة إلى طلب المزيد من النعيم ، فيصبح غافلاً سادراً في المعاصي ،ولكن إيمانه العميق الكامن في قلبه ينبّهه بين فترة وأخرى إلى خطورة اندفاعه ، ويبصّره بالعاقبة الوخيمة لجموحه فلا يلبث أن يرتد ويتعقّل ،ويؤوب إلى نفسه يحاسبها ويؤنبها ... وما يزال في اندفاع وتراجع إلى أن يقف وقفته الأخيرة عند نهاية حياته ،أو أن يتوب الله عليه .

والتحذير من اللهو بالأمل معنى دار على ألسنة الشعراء المسلمين كثيراً ، ذلك لأنهم تربوا على القرآن الكريم ،وهُذِّبتْ أخلاقهم بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فهذا أبو الأسود الدؤلي ينبه

المستميت في تحقيق أمله إلى سفاهة هذا السعي ،لأن الموت آتٍ ، وسيحول دون تحقيق هذه الأماني ،فيقول (١) :

أيُّها الآمِلُ ما ليسَ لَهُ ... ربَّما غَرَّ سَفيهاً أملُهْ

رُبَّ منْ ماتَ يُمنِّي نفسَهُ ... حالَ مِنْ دونِ مُناهُ أجلُهْ

والفتى المُخْتالُ فيما نابَهُ ... رُبَّما ضاقتْ عليه حِيَلُهْ

قُلْ لِمنْ مثَّل في أشعارِه ... يَهْلِكُ المرءُ ويَبْقى مَثَلُهْ

وهذا تحذير من طول الأمل في الدنيا ولهوها جاء مباشراً صريحاً يجابه به أبو الأسود الإنسان مجابهة تقف به على الحقيقة دون تبصر في الأمور أو تفكر في حال النفس . ولهذا جاء هذا الوعظ مباشراً قد تنفر منه النفس وتأباه لما فيها من حب للحياة ورغبة فيها ،بينما نجد سابقاً البربرى في وصفه للنفس الإنسانية وهي غارقة في آمالها لاهية عن التفكير في مآلها قد حذّر الإنسان من طول الأمل بطريق غير مباشر، بحيث يتأمل الإنسان العاقل في واقعه ،ويقتنع - دون إرغام - بأن طول الأمل في الدنيا مؤدٍّ به إلى الهلاك .

---

(١) انظر العقد الفريد ، لابن عبد ربه ٣/ ١٢٥ ،تحقيق محمد سعيد العريان .

ونأتي إلى مقصده الثالث ، وهو اللوم على الفتنة بمتاع الدنيا ، والدعوة إلى تركه . وفيه نلحظ سابقاً البربرى يتوجه بالخطاب إلى الآخرين واعظاً ولا ئماً ، فيقول [١] :

فحتّى متى تلْهو بمنزلٍ باطلٍ
كأنّكَ فيه ثابتُ الأصْلِ قاطِنُ

وتجْمعُ مالاً تأكلُ الدهرَ دائباً
كأنكَ في الدنيا لغيركَ خازِنُ

فهو يسأل اللاهي في دنيا الباطل ،ومن هو هذا اللاهي؟، غير الإنسان الجهول ، الذى يسعى للتحصيل والتجميع في دنياه متناسياً حقيقته ومآله ،وكأنّ الخلود مقدّر عليه في دنياه لا آخرته ،حتى أنه من طمعه يُحصِّل مالا ينفد أبد الدهر. وما ذلك إلا تخزين لغيره ،لأنه راحل حتماً و تارك ما حصّله .

وسابق البربرى في توجيهه الخطاب للإنسان عامة منطلق من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقول الله تعالى * كنتمْ خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ * تأْمُرونَ بالمَعْروفِ وتَنْهَوْنَ عن المُنْكر ... * [٢] .

وهذه خاصة من خصائص أسلوبه في الوعظ والتذكير ،وذلك لأنه شاعر هادف لإصلاح الإنسان وتقويم أخلاقه .

ومن هذا الباب أيضاً خطابه لمحب الدنيا الذى لا يصدّق عملُه قولَه ،إذ يقول [٣] :

---

(١) انظر شعره ،مقطعة رقم ٣٣ .
(٢) سورة آل عمران ،من الآية ١١٠ .
(٣) انظر شعره ،مقطعة رقم ٣٢ .

لِسانُكَ للدُّنيا عَدوٌّ مُشَاحِـــنٌ
وقلبُكَ فيها لِلّسانِ مُبايِـــنُ

وما ضرّها ما قُلْتَ فيها ،وقدْ صفَــا
لها مِنْكَ وُدٌّ في فُؤادِكَ كامِـــنُ

و في هذين البيتين تظهر معاناته و معاناة غيره من حُبِّ الدنيا وزينتها ، فالإنسان العاقل ذامٌّ للدنيا داعٍ إلى الترفع عن سرابها الخادع ، ولكنّ النفس - وهي أمارة بالسوء - تميل إليها و تتعلق بها ،وهذا يُحدِث صراعاً عنيفاً في النفس يُحدث لها معاناة ،وألماً شديدين عبّر عنهما سابق البربري في شعره حين توجّه باللوم للإنسان الكلف بحب الدنيا و نعيمها مع أن لسانه و عقله ذام لها .

و حبُّ الدنيا نتيجة للإغراق في الشهوات ،لأن النفس إذا حظيت بتلبية رغباتها فيما تشتهيه طال أملها في الحياة ،وزاد حبها للدنيا ، وإقبالها عليها طلباً للمزيد . وهذا يجرف الإنسان إلى الهاوية ،ولهذا حذّر سابق البربري من الخضوع لشهوات النفس ،إذ يقول (١) :

يا مُبْتنِى الدارَ الـــــذى	هو مُسْرِعٌ عنها الرَّحِيــــلا
إنْ لم تُنِلْ خيراً أخــــا	كَ فكن له عَبْداً ذَليــــلا
وتجنّبِ الشهواتِ واحْـــ	ـذَرْ أنْ تكونَ لها قَتِيــــلا
فلرُبَّ شهوةِ ساعـــةٍ	قد أوْرَثتْ حُزنًا طَويــلا

---

(١) انظر شعره ،قصيدة رقم ٢١ الأبيات : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

فهو نداء موجه إلى المؤمل في الدنيا ، الساعي إلى الخلود بالتعمير فيها تلبية لرغبات نفسه وشهواتها . ليلفت انتباه هذا الإنسان إلى أنّ الدائم له هو عمله الصالح ، أما الشهوات التي يُجْهد نفسه في تحصيلها فإن لذّتها وقتية سرعان ما تذهب ،ولا يبقى للإنسان منها إلا أثرها السيء ، فلذة ساعة قد تورث الإنسان حزناً أبدياً . وهذه دعوة قوية لتجنّب الخضوع للشهوات والسمو عنها ، والإقبال على الأعمال الصالحة المتمثلة في الخير الذى يقدمه المرء لغيره .

* * *

وأخيراً ننتقل مع شعر سابق البربرى الزهدى إلى مقصده الآخر وهو: الدعوة إلى القناعة بالرزق المقسوم ،وذلك حين يقول (١) :

واللهِ ما قَنِعتْ نفسٌ بما رُزِقَت
من المَعيشةِ إلا سوفَ يكْفِيها

فهو يرشد إلى سبيل الزهد في الدنيا و ويجعله القناعة في المعيشة ، فالإنسان إذا رضي بما قُسِمَ له من الرزق اكتفى به ،واستطاع أن يعيش سعيداً ،ذلك أن النفس الإنسانية إذا تعودت أن تقف عند الحد المعقول في رغباتها خضعت له ،وأذعنت ،ولم تتزيّد . بل اكتفت بما سُخِّر لها من الرزق . ولو نجح الإنسان في إقناع نفسه واكتفائها

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ٣٦ ،البيت : ٢ .

سَهُل عليه بعد ذلك ترك فتنة الدنيا ، والزهد في متعها .
ولم يطمح في آماله ، ولم يغرق في لهوه . بل إنه يترك
كل هذا محتسباً المثوبة والجزاء الحسن عند الله سبحانه .
وهذا هو المفهوم الصحيح للزهد تضمنه هذا البيت الحكمي
من شعر شاعرنا .

((شعر الزهد التأملـــي))

نجد في شعر سابق البربرى الزهدى قسمًا ينتمي إلى شعر التأملات ،ذلك أن الشاعر يطيل فيه التفكير في حاله وحال الناس مع الحياة الدنيا ،والحياة الآخرة . فهو يمعن النظر في غد الإنسان في الحياة الآخرة ،وما سيلاقيه هناك . ولهذا فإنه يعجب حينما يفكر في لهو الناس ،وانشغالهم بحياة الفناء التي يدركون رحيلهم عنها ، مع إهمالهم الاستعداد لحياة الخلود التي هم صائرون إليها . كما يعجب من كلفه بالدنيا ، وحُبّه لها مع معرفته لحقيقتها وذمّه لها .. إلى أن يصل به تأمله إلى اللوم والتعنيف لنفسه بعد أن يذكّرها بمصيرها المحتوم .

وهذا الشعر التأملي تظهر فيه روح إسلامية عميقة ،تدل على طول تفكر شاعرنا في الإنسان و مهمته في الحياة ،وتثبت عمق فهم الشاعر لمعاني القرآن الكريم ،والحديث النبوي الشريف ،حيث جاء بأفكار وصور جديدة لا تخرج عن الحقيقة الإسلامية .

فأما تعجبه من انشغال الناس بالدنيا ،فيظهر في قوله متحسرًا على ضلال الناس في سعيهم (١) :

مالي أَرى النّاسَ ، والدنيا مولّيةٌ
وكلُّ جيلٍ عليها سوفَ يَنْبتِـرُ

---

(١) انظر شعره ،قصيدة رقم ١٢ ، البيتين : ٤٩ ، ٥٠ .

لا يَشْعرونَ بِمَا في دِينِهِمْ نُقِصُوا
ـ جَهْلاً ـ وإِنْ نَقصتْ دُنياهُمُ شَعرُوا

فهو يتساءل بمرارة عن حال الناس مع الدنيا ،وهي تسير بهم إلى الفناء، وهم حريصون عليها مهتمون بها . يشغلهم الحرص على العاجلة عن العمل للآجلة ،فأمور دنياهم تلهيهم عن المحافظة على دينهم ،ولو نُقِصوا شيئاً من دنياهم لاهتموا له وندموا عليه ،وحزنوا لفقده . أما صحائف أعمالهم فلو شابتها الذنوب والآثام ،وشوهتها المعاصي ،فلا أهمية لذلك عندهم لانشغالهم عنها ،وعدم شعورهم بها .

وقد روى لأبي العتاهية قوله (١) :

أرى أُناساً بِـأَدْنى الدينِ قد قَنِعوا
ولا أَراهمْ رَضُوا في العيشِ بالدُّونِ

ومعناه قريب من قول سابق البربرى ،إذ يعبر عن ضلال الناس في عصره، ولكنّ تعبير شاعرنا كان أبلغ في الدلالة على حبهم الدنيا ولهوهم فيها، إذ بيّن أن التيار قد جرفهم وأنساهم حتى الشعور بهذا النقص في الدين .

ومن شعر سابق البربرى التأملي ،تأمله في حاله مع الدنيا ، وانشغاله بها ،مع إدراكه بأن الموت حق عليه ،وأنه لا بد محاسب على عمله ،فهو يجسد الهمّ الذى تردد على نفسه ،وحرمه النوم ، إذ يقول (٢) :

---

(١) انظر عيون الأخبار ،لابن قتيبة ٢/٢٧٣ .
(٢) انظر شعره قصيدة رقم ٢٢ .

تأوّبني همٌّ كثيرٌ بلاَ بلِـــه طَرُوقًا فغالَ النومَ عنّي غوائِلُهْ

فويْحي من الموتِ الذى هوواقعٌ وللموتِ بابٌ أنت لا بدّ داخِلُهْ

أيأْمَنُ ريب الدهرِ يانفسُ واهِنٌ تَجيشُ له بالمُفْظِعَاتِ مَراجِلُـهْ

فلم أَرَ في الدنيا وذو الجَهلِ غافِلٌ

أسيراً يخافُ القتْلَ واللهو شاغِلُـهْ

فما بالُهُ يَفْدِي من الموتِ نَفْسَــهُ

ويأْمَنُ سيفَ الدهرِ ,والدهرُ قاتِلُـهْ

ولا يَفْتدِي من مَوْقفٍ لو رَمى الرَّدَى

بهِ جَبلاً - أضْحَتْ سَرايا جَنادِلُـهْ

وبَعْدَ دخُولِ القَبْرِ يا نفْسُ كُرْبَــةٌ

وهَولٌ يُشيبُ المُرْضَعِينَ زَلازِلُـهْ

إذَا الارْضُ خَفّتْ بعد ثُقْلِ جِبَالِها

وخلّى سَبيلَ البحرِ يا نفسُ ساحِلُـهْ

فلا يَرْتجِي عَونًا على حَمْلِ وِزْرِه

مُسيءٌ ، فأوْلى الناسِ بالوِزْرِ حامِلُـهْ

يُزَايِلُني مَالِي إذَا النفسُ حَشْرجَتْ

وأهْلي وكَدْحي لا زِمي لا أُزَايِلُـــهْ

إذَا كلّ عِنْدَ الجُهْدِ يا نفسُ مَنْطِقي

وعاينتُ عِنْدَ الموتِ ما لاَ أُحاوِلُـــهْ

ويغسلُ ما بالجِلْدِ مِنْ ظَاهرِ الاذَى

ولاَ يَغْسِلُ الذنبَ المُخَالِفَ غاسِلُـــهْ

ومن ثُقْلتُ الامْراضُ يومًا فانـــه

سَيوشِكُ يومًا أن تُصابَ مقاتِلُـــهْ

فهذه الأبيات من الشعر التأملي تدل على أن الشاعر قد سمت نفسه بعد طول تفكر في واقعه وحاله حتى ارتقت إلى المنزلة العليا وهي منزلة النفس اللوّامة التي أقسم بها الله عز وجل في القرآن الكريم : * لا أُقْسِمُ بيومِ القِيامةِ * ولا أُقْسِمُ بالنفسِ اللوّامةِ * (١) . فهو قد لا م نفسه وأنّبها وأحصى ذنوبها حتى ركبه الهم ،وغال عنه النوم.

وقد عرض في تأمله إلى حال الإنسان مع الموت ، وعند قيام الساعة ،ولحظة المثول بين يدي الله ،ومواجهة الإنسان بذنوبه وآثامه .. وللتعبير عن هذه الحال يبتدع صوراً جديدة ، فهو سجين خائف من الإعدام الذى حُكِمَ عليه ،ومع ذلك مشغول بلهوه عن هذا الموقف ،ويفكر في وسيلة تنجيه من الموت الذى قُضِيَ عليه به ، ولا يفكر فيما سيُنْجِيه من الموقف العصيب الذى سيقفه بين يدي الله بعد الموت ... وهذا يدعو إلى التأمل في غفلة الإنسان ... فالإنسان لو لم يكن غافلاً لا فتدى نفسه من هذا الموقف العظيم الذى يشيب الولدان لا من الموت المحتوم عليه .

وفي هذه الأبيات تتجلّى الفلسفة الإسلامية ، إذ لا يقف سابق البربرى عند حد الحياة الدنيا ،بل يتعدّى إلى الحياة الآخرة ،فيتحدث عن مرحلة ما بعد الموت منطلقاً من مصادر إسلامية خالصة (٢) .

---

(١) سورة القيامة ،الآيتان : ١ ، ٢ .

(٢) سوف نبين مصادره الإسلامية في المبحث الخاص بأثر القرآن والحديث في شعره ص ٤٤٧ .

وقد عبّر الشاعر عن الموت بحشرجة النفس ، وهذا تعبير مألوف ورد في الشعر كثيراً ، ومنه قول الشاعر :

لَعَمْرُكَ ما يُغْني الثراءُ عن الفتى
إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ (١)

ولكن الجديد في شعر سابق معناه الإسلامي الذى يبيّن فيه أن المال والأهل لا يدومان للإنسان ، وإنما الملازم له بعد الموت عمله فقط . كما يُبدي الشاعر خوفه من الذنوب والآثام في صورة إبداعية جميلة تعكس طول تأمله وعمق تفكيره ، فهو يرى أن غسل القذر الحسي ، والدنس الظاهر أمر سهل يسير لا يقاس إلى جانب التطهير من قذر الذنوب والآثام التي تشوب صفاء القلب وتلوّثه ، لأن هذا لا يكون إلا بالتوبة ، والتوبة لا تكون إلا بالإقلاع التام عن المعصية ، والندم على الذنب . . . وهذا ليس سهلاً على الإنسان . . ومن هذا المنطلق انطلق سابق في معناه حتى خلص إلى ما يقرب من الحكمة .

وفي انتهائه بتأكيد حتمية الموت - وهو المعنى الذى يركز عليه دائماً في شعره - تذكير للإنسان بهذه الحقيقة ليضعها نصب عينيه ، مما يزهّده في الدنيا وزينتها ، ويحمله على الإقلاع عن كل قول أو فعل يجره إلى المعصية التي يُحاسب عليها .

وبهذا يخرج سابق البربرى من تأملاته في الإنسان وحاله مع الموت ، وفي اليوم الآخر ، وما فيه من هول القيامة ، وصعوبة المثول

---

(١) انظر العقد لابن عبد ربه ٥/١٦ .

بين يدي الله ،وفيما سيواجه الإنسان من عذاب شديد وعقاب أليم - إلى هدف سامٍ نبيل هو التزهيد في زينة الدنيا ،والترغيب في الآخرة وعملها .

وأما تعجبه من نفسه التي تحب الدنيا وتقبل عليها ،مع معرفتها لحقيقة هذه الدنيا ،وتعوذها من فتنتها ، فيظهر في قوله (١) :

عَجِبْتُ من الدُّنيا وذَمّي نَعيمَها
وحُبّي لها في مُضْمَرِ القَلبِ باطِنُ

وقولي أعِذْني رَبِّ مِنْ كلِّ فِتْنَةٍ
وأُكْلَفُ مِنْها بالذي هو فاتِنُ

وسابق هنا يجسّد المعاناة التي يجدها المرء من الزاهد ،وهي معاناة برزت كثيراً في العصر الأموي ،ذلك أن الناس كانوا حديثي عهد بالدعوة الإسلامية ،حريصين على اقتفاء أثر الرسول - صلى الله عليه وسلم- وأصحابه في سيرتهم العطرة . ولكن الاختلاط بحضارات الأمم الأخرى ، وكثرة الأموال ،وفّر للناس حياة ناعمة ،عاش أكثرهم في ظلها حياة الترف والرفاهية ،فظهرت عليهم آثار التفنن في جميع المظاهر ،وفتنتهم الدنيا بزخرفها ،فأقبل الكثير منهم عليها متنعمين هانئين . مما خلق صراعاً ومعاناة في نفوس من شدّتهم الحياة إليها ، مع أن قلوبهم متعلقة بسلفهم الصالح ترغب في احتذاء حذوهم . ويبدو أن سابقاً البربري كان من هؤلاء الذين عايشوا مرارة هذا الصراع ، فهو يعبّر عن معاناته

---

(١) انظر شعره مقطعة رقم ٢٨ ،البيتين : ٢ ،٣ .

من إقباله على الدنيا ، ولهفة نفسه إليها ،مع أنه راغب في التجافي عنها ، والسمو عن فتنتها . ولهذا فإنه يكثر من التأمل في وضع الإنسان الضال طريق الصواب ،ويكثر التعجب من الإغراق في طلب الحياة الدنيا ،والغلو في حُبّ هذه المتع الزائلة .

وأما لومة نفسه على الكلف بالدنيا ،والفتنة بزينتها فيبدو في هذه الأبيات ،إذ يقول (١) :

حتّى متَى أنا في الدنيا أخو كَلَفٍ
في الخَدِّ منّي إلى لَذّاتِها صَعَرُ

ولا أرَى أثرًا للذكرِ في خَلَدِي
والحبلُ في الحَجَرِ القاسي له أثَرُ

لو كانَ يُسْهِرُ عيني ذِكْرُ آخِرَتِي
كما يُؤَرِّقُني للعَاجِلِ السَّهَرُ

إذًا لداويتُ قَلْبًا قد أضرَّ بِهِ
طولُ السَّقامِ ،وهيضُ العَظْمِ يَنْجبِرُ

وهذا لوم للنفس وزجر لا يصدر إلا عن حكيم ،أبصر عيوب نفسه ،وسعى إلى تقويمها . فسابق البربرى في هذه الأبيات متجه إلى نفسه يعظها ويصحح سلوكها ،كما وعظ الآخرين وقوّم سلوكهم ،حتى لا يُعاب بأنه يأمر الناس بالبر و ينسى نفسه .

---

(١) انظر شعره ، قصيدة رقم ١٢ ،الأبيات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

((شـــعر المواعـــظ))

وُجِدَتْ الوصايا أو المواعظ في الشعر العربي الجاهلي على شكل مقطّعات صغيرة ،أو أبيات متناثرة في ثنايا القصائد . وفي صدر الإسلام تطور هذا اللون من الشعر من حيث الشكل والمضمون (١) . كما فـــي موعظة عبدة بن الطبيب التي جاءت في ثلاثين بيتاً فيها بعض المعانـــي الإسلاميـة ،إذ يقول فيها (٢) :

ونصيحةٌ في الصّدْرِ صادِرةٌ لكـــم
ما دُمْتُ أُبْصِرُ في الرِّجالِ وأسْـــمَعُ

أُوصِيكُمُ بِتُقَى الإلهِ فإنـــّـــهُ
يُعْطِي الرّغائبَ مَنْ يَشاءُ و يَمْنَـــعُ

و ببِرِّ والدِكُمْ و طَاعةِ أمـــرهِ
إنّ الأبَرَّ مِنَ البَنِيـنَ الأطْـوَعُ

ودَعُوا الضَّغِينةَ لا تكـنْ من شَأْنِكـمْ
إنَّ الضغائِنَ لِلقرابَـةِ تُوضَـــعُ

واعْصُوا الذى يُزْجِي النّمائِمَ بَيْنَكُمْ
مُتَنَصِّحاً ،ذاكَ السِّمامُ المُنْقَـــعُ

فهو يوصي أبناءه بتقوى الله ،وبطاعة الوالدين و برهما ،وتجنب الضغينة

---

(١) انظر الحكمة في الشعر العربي ،د/ محمد عويس ٢٧٩ ومابعدها ..

(٢) انظر المفضليات ١٤٦ ،الأبيات : ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ .

وعدم الانصات للنمام الذى يشيع الفتنة . . وهذه الوصايا مستقاة من التعاليم الإسلامية السمحة .

وفي العصر الأموى زاد تطور هذا اللون من الشعر على يد سابق البربرى ، حيث بلغت موعظته الرائية التي قدّمها إلى عمر بن عبد العزيز في خمسين بيتاً ، مطلعها (١) :

بسمِ الذى أُنزلَتْ مِنْ عِنْدِه السُّوَرُ ... والحَمْدُ للهِ ، أمّا بَعْدُ يا عُمَرُ

إنْ كُنتَ تَعلمُ ما تأْتي وما تَذَرُ ... فكنْ على حَذَرٍ ، قَدْ ينفعُ الحَذَرُ

فبدأها بداية الخطبة الدينية ، وجعلها في إطار الوعظ ، والتذكير بالموت والحض على الرضا بالقضاء والقدر ، والدعوة إلى ترك زينة الحياة الفانية ، والاستعداد للباقية .

وقد تناثرت له مواعظ أخرى في ثنايا شعره ، حيث تناول فيها الوعظ الديني ، والوصايا الأخلاقية ، والنصائح ذات العلاقة الاجتماعية فطرق بوعظه أمور الدين والدنيا ، وسخّر فنّه الشعرى للكشف عن حقائق النفس البشرية ، والعمل على تقويم العيوب الأخلاقية .

فسابق البربرى شاعر انطلق من قوله تعالى : ﴿ أُدعُ إلى سَبيلِ رَبّكَ بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ . . . ﴾ (٢) ، ومن قوله عليه الصلاة والسلام :

---

(١) انظر شعره قصيدة رقم ١٢ ، البيتين : ١ ، ٢ .
(٢) سورة النحل ، من الآية ١٢٥ .

" الدِّينُ النَّصِيحةُ قُلْنا : لمن ،قالَ : للهِ ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأَئِمَّةِ المسلِمين وعامَّتِهِمْ "(١) . لهذا كان أكثر ما وجدناه من شعره في الوعظ والتزهيد ،وتقويم السلوك ، حتى استحق أن يسمى شاعر الزهد والمواعظ .

وقد وجدت شعره الوعظي يدور على مقاصد متعددة هي : الوعظ الديني ،ويتصل به التذكير بضرورة الموت ،والاعتبار بقصص الأمم السابقة ، والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية كالحلم والسماحة ، والعفو ،وكتم السر ،والمواعظ التي تدخل تحت العلاقات الإنسانية كالنصيحة إلى اختيار الصديق الحسن ،ومراعاة حقوق الأصدقاء . ثم الحث على طلب العلم والعمل به .

ونبدأ بوعظه الديني الذى يذكِّر فيه بالموت مستلهمًا قصص الأمم السابقة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ،فهو يقول(٢) :

قِسْ بالتَّجارِبِ أَحْدَاثَ الزمانِ كما
تَقِيسُ نَعْلًا بِنَعْلٍ حِينَ تَحْذُوها

كم من عَزِيزٍ سَيلْقى بعدَ عِزَّتِهِ
ذُلًّا ، وضَاحِكَةٍ يومًا سَتُبْكِيها

تِلْكَ المَدائِنُ بالآفاقِ خالِيَةً
أَمْسَتْ خلاءً ،وذاقَ الموتَ بانِيها

---

(١) اخرجه مسلم ،باب الدين النصيحة ، ٣٧/٢ .
(٢) انظر شعره ،قصيدة رقم ٣٦ ،الأبيات : ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨ .

أينَ الملوكُ التي عَنْ حَظِّها غَفلتْ
حتى سَقاها بكأسِ الموتِ ساقِيهـا

غُـرَّتْ زماناً بِمُلْكٍ لا دوامَ لـهُ
- جَهْلاً - كما غَرَّ نفساً من يُمنِّيها

وصُبِّحَتْ قومُ عادٍ في دِيارِهُـمُ
بمقْطعٍ ،يومَ عادَتْهمْ عوادِيها

وتُبعاً وثمودَ الحِجْرِ غادَرهُـمْ
ريبُ المَنُونِ رميماً في مَغانِيها

فكيفَ يَبْقى على الأحْداثِ غابِرُنا
كأننا قد أظلَّتنا دَواهِيها

فالوعظ إنما يكون بالتذكير بحوادث الزمان وأحواله في الأمم الماضية ، إذ أن الاعتبار بأخطاء السابقين ينجي من الوقوع فيها . وأخبار الأمم الماضية تعطينا الكثير من العبر .

لهذا فإن شاعرنا يذكر هنا بعض ما نزل بالسابقين من مهالك جزاء لطغيانهم وعتوهم ليرتدع اللاحقون . فصاحب العز والكرامة قد يُذَل ويُهان إذا تدهور حاله ،وفقد عزّته ،لأنه لا دوام لمخلوق على حال . والمدن والآثار تُحدِّث عن الماضين ،وتدل عليهم بعد رحيلهم ، وشاعرنا يذكِّر بالأمم التي بادت وهلكت بعد قوّتها ومنعتها ،ويتساءل عن الملوك الذين غرَّهم الملك والمنعة ،فأنساهم مصيرهم إلى أن فاجأتهم المنية وسقتهم من كأسها على رغم منهم .

وقوم عاد وثمود كانوا في جبروت وطغيان يكذّبون الأنبياء ، ويكفرون بأنعم الله ،حتى أحاطت بهم خطيئتهم ،فأخذهم الله بذنوبهم أخذاً عزيزاً . . . وينتهي سابق إلى العبرة التي يريد تجليتها للناس وهي : عدم الغرور بالعز والمنعة و النعيم ،لأن هذا إلى زوال عاجلاً أو آجلاً ،ثم التذكير بمآل البشر ، وهو الموت لا أخذ الأهبة له .

والاستفادة من قصص الأمم الماضية في إثبات حقيقة الموت أمر عرفه الشعراء قبل سابق البربرى ،فهذا عَدِي بن زيد الشاعر الجاهلي يُذكّر بضرورة الموت مستخدماً ما عرفه عن الأمم التي مضت ،إذ يقول (١) :

أيُّها الشامِتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْـ ... ـرِ أأَنْتَ المُبَرَّأُ المَوْفُورُ

أمْ لديكَ العَهْدُ الوَثيقُ مِـنَ ... الأيامِ بلْ أنتَ جاهِلٌ مَغْرورُ

مَنْ رأيتَ المَنُونَ خلَّدْنَ أمْ مَنْ ... ذا عليهِ مِنَ أنْ يُضامَ خَفِيرُ

أينَ كِسْرىٰ الملوكِ أبُو شِـرْ ... وانُ أمْ أينَ قبلهُ سابُورُ

وبَنُو الأصْفَرِ الكِرَامِ ملوكُ ... الرومِ لمْ يَبْقَ مِنْهمُ مَذْكُورُ

وأخو الحَضْرِ إذْ بناهُ دجْـ ... ـلَةُ تُجْبى إليهِ والخابُورُ

شادَهُ مَرْمراً وجلَّلهُ كِـلْـ ... ـسًا فللطيرِ في ذُرَاهُ وُكُورُ

لم يَهبْهُ ريبُ المنُونِ فبادَ المُـ ... ـلْكُ عنهُ فَبابُهُ مَهْجُورُ

---

(١) انظر الأغاني للأصفهاني ٢/٦٣-٦٤ طبعة ١٩٥٦ م دار الفكر بيروت .

فهو يُذكِّر بكسرى أنوشروان وسابور ، و بني الأصفر ،وأخي الحضر الذين بادوا ،وخلَّفوا ممالكهم دون أن يستطيع الملك والجاه دفع المنية عنهم ، ولكنه لم يستق معانيه من منهل سابق البربري ،ولم يهدف إلى ما قصده سابق من وعظه ،ذلك أنه شاعر جاهلي استخدم موروثاته الثقافية في إثبات الحقيقة المؤكدة . أما سابق البربري فشاعر إسلامي اغترف من المعاني القرآنية ليذكِّر الناس بالموت وما ينتظرهم في حياتهم الأخرى .

وننتقل مع سابق البربري في وعظه إلى طريق آخر سلكه مذكِّراً بقصص الملوك والأمراء الذين بادوا وانتهوا بعد أن غرّتهم الحياة وما فيها من عز ومنعة وجاه ،فنسوا الاستعداد لملاقاة الله ، إذ يقول (١) :

كم منْ جَميعٍ أشتَّ الدهرُ شَمْلَهُمُ
وكلُّ شَمْلٍ جَميعٍ سوفَ يَنْتَشِرُ

وكمْ مِنَ اَصْيدَ سامي الطَّرْفِ مُعْتَصِبٍ
بالتَّاجِ نِيرَانُه لِلحَرْبِ تَسْتَعِرُ

يَظَلُّ مفترِشَ الديباجَ مُحْتَجِبًا
عليه تُبْنى قُبَابُ المُلْكِ والحُجَرُ

قد غَادرتْهُ المَنايا وهو مُسْتَلَبٌ
مُجدَّلٌ تَرِبُ الخدَّينِ مُنْعَفِرُ

أبعدَ آدمَ تَرْجُونَ الخُلودَ ،وهل
تَبْقى فروعٌ لأصْلٍ حِينَ يَنْقعِرُ

---

(١) انظر شعره ،قصيدة رقم ١٢ ،الأبيات ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٤٧ .

لكم بيوتٌ بمُسْتَنِّ السيولِ ، وهلْ
يَبْقى على الماءِ بيتٌ أُسُّهُ مَدَرُ

لا تَبْطروا واهْجُروا الدنيا فإنّ لها
غِبّاً وَخيماً وكُفْرُ النِّعْمةِ البَطَرُ

ثم اقْتَدُوا بالأُلى كانوا لكم غُرَراً ،
وليسَ من أُمّةٍ إلا لها غُرَرُ

حتى تكونوا على مِنْهاجِ أَوّلِكُمْ
وتَصْبُروا عدمَ الدنيا كما صَبَرُوا

والأبيات وردت متتالية في القصيدة الرائية التي وعظ بها عمر بن عبد العزيز ، وفيها نلحظ عدم تخصيص عمر بن عبد العزيز بالوعظ ، بل إنه عام لكل الناس . وهذا يدل على ما شغل به سابق نفسه من تبصير الناس بعيوبهم ، ووعظهم بما يُصلح دينهم ودنياهم . وفي الأبيات وعظ مستلهم من الحياة الواقعية ، فكم من أمة ملتئمة الشمل افترقت وتمزّق اجتماعها ، وكم من طاغية عتى وتجبّر واغترّ بملكه وسطوته فأشعل نيران الحرب ، واحتجب في القباب ولكن المنية استلبته من حياته وأخضعت خديه للتراب ، لأنه لا ثبات على حال إلا للخالق ملك الملوك الدائم . . . وهذه حقيقة لا مجال للشك فيها ، فآدم أبو البشر وأصلهم قد باد وانتهى ، فكيف بفروعه وسلالته بني الإنسان . والحياة الدنيا إلى زوال لا محالة ، لأنها في طريق الإبادة كالبيت الذى تأسس من طين يابس في مجرى السيل . والمعنى في البيتين الخامس والسادس من الأبيات السابقة من مبتكرات سابق البربرى وإبداعاته ، في حين أن البيت الأول منها قد جرى معناه على ألسنة الشعراء قبله ، إذ قد ورد في مرثية سُعْدَى بنت الشمردل اليربوعي

التي أشرنا اليها من قبل (١) ،وهو (٢) :

كَمْ مِنْ جميعِ الشَّمْلِ مُلْتَئِمِ الهَوى
كانوا كذلكَ قبْلَهمْ فتصدَّعُوا

كما ورد في عينية أبي ذؤيب المشهورة ،وهو قوله (٣) :

كَمْ مِنْ جَميعِ الشَّمْلِ مُلْتَئِمِ القُوى
كانوا بِعَيشٍ قَبْلَنا فتَصدَّعُوا

والدهْرُ لا يَبْقَى على حَدثَانِه
جَوْنُ السَّراةِ لهُ جَدائِدُ أَرْبَعُ

ثم ينتهي سابق البربرى إلى الموعظة التي أرادها من مقدماته السابقة، ألا وهي : ضرورة هجر الدنيا ومتعها ،وعدم الاغترار بزينتها لأنها إلى زوال .. ثم الاقتداء بالسلف الصالح الذين عرفوا أن الحياة الدنيا داررحيل فاستعدوا لدار المقام.

وموعظته هذه التي تدرج فيها تدرجًا منطقيًا محكمًا تدل على أن منهجه في الوعظ يقوم على الاستدلال العقلي الذى تصدّقه آيات القرآن ،والحوادث الواقعية ... وهو منهج أمر به الله سبحانه في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحِكْمةِ والمَوْعظةِ الحَسنةِ وجَادِلْهُمْ بالتي هِيَ أحْسَنُ ... ﴾ (٤)

---

(١) انظرالمرثية في مبحث شعر الزهد ص ٣٨٣ - ٣٨٤.
(٢) الأصمعيات ١٠٢ ،البيت : ١٠.
(٣) المفضليات ٤٢٢ ، البيتان : ١٥ ، ١٦.
(٤) سورة النحل من الآية : ١٢٥.

ومن مواعظه الدينية أبيات يجرد فيها من نفسه شخصاً آخر يعظه ،اذ يقول (١) :

وقد تُقْلِتُ الوحْشَ الحِبالُ وربما
تَقَبَّضتِ الوحْشِيَّ يوماً حبائِلُهْ

وفِيكَ إلى الدنيا اعتراضٌ وإنما
تُكالُ لدى المِيزانِ ما أنتَ كائِلُهْ

فلا تَنْتكِثْ بعدَ الهُدى عن بَصِيرَةٍ
كما نَكَثَ الحَبْلَ المُضاعَفَ فاتِلُهْ

وتَطْلُبُ في الدنيا المَنازِلَ والعُلا
وتَنْسى نعيماً دائماً لا تُزايِلُهْ

كَمنْ غرَّهُ لَمْعُ السرابِ بِقِيعَةٍ
فَقَصَّر عن وِرْدٍ تجيشُ مناهِلُهْ

وقد خانتِ الدنيا قروناً تتابعوا
كما خانَ أعلى البيتِ يوماً أسافِلُهْ

وتُصْبِحُ فيها آمِناً ثم لم تكُنْ
لِتأْمَنَ في وادٍ بهِ الخوفُ نازِلُهْ

وقد خَتَلَتْنا باللطيفِ من الهوى
كما يَختِلُ الوحشيَّ بالشوءِ خاتِلُهْ

---

(١) انظر شعره قصيدة رقم ٢٢ الأبيات : ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

رَضِينَا بما فيها سَفاهاً ولم يكُـــنْ
يَبيعُ سمينَ اللحْمِ بالغثِّ آكِلُـــهْ

وفي هذه الأبيات موعظة بالتجافي عن حب الدنيا ،والإجمال في طلبها والسعي إليها ... وفيها يجرد الشاعر من نفسه شخصاً آخر يعظـــه ، إذ يتجه ضمير الخطاب إلى كل من يسمع أبياته ، فتعم الموعظة بعد أن كانت خاصة لنفسه.

وفيها يبدأ بإثبات ضرورة الرحيل عن الدنيا في طريقة تمثيليـة جميلة ، فالوحش الذى ينجح في الإفلات من حبال الصيد لا بد أن يقع فيها .. وكذلك الإنسان فإنه لا بد أن يساق إلى حبائل المنية فيقع فيما يحذر وإن تحاشاه ... وهذه حقيقة يعرفها الجميع - وإن تغافلوا عنها - وهي تقتضي من الإنسان الإعراض عن متع الحياة الفانية ،إذ أن أعماله محسوبة عليه وسوف يواجه بها في دار البقاء ...

ثم يكشف للإنسان خطأه في الإقبال على متع الحياة الدنيا ، ونسيان نعيم الآخرة ،ذلك أن الدنيا إلى زوال والآخرة هي دارالمقام ، ونعيمها هو الدائم. ويؤكد له هذا الخطأ بتمثيله في صورة من قنـــع بلمعان السراب الخادع عن المنهل الفياض . ولا عجب في أن تخدعنـــا الحياة الدنيا الغرور ،لأن خديعتها سبقت للأمم قبلنا ،فهي دار مخافة، ولكن الإنسان مغرور بما يشيع فيها من أمان. والحقيقة أن هذه الـــدار الفانية تختلنا بالهوى لنقع في المعاصي التي تسوقنا إلى الهلاك .. وهذه هي السفاهة بعينها ،إذ فيها يستبدل الإنسان الغث بالسمين..

هذه الأبيات السابقة تزخر بالمعاني الإسلامية ، فهي دعـــوة صريحـة للزهد في زينة العاجلة ،وانتظار نعيم الآجلة .. وبيان لحقيقة

الدنيا الغرور . كما أن هذه الأبيات - وإن كانت تسير في إطار المواعظ - فإنها تشتمل على الحكمة والمثل أيضاً .

ونتنقل مع سابق البربري في مواعظه إلى مقصده الثاني ، الذي يعظ فيه بنصائح سلوكية تنبع من الدين الإسلامي الداعي إلى الأخلاق السمحة ، والمعاملة الحسنة لتكون منهج حياة سليمة بين المسلمين .

فهو يدعو الإنسان إلى الحِلْم والعفو عن الآخرين ، ودفن الشر بالخير ، إذ يقول (١) :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الحِلْمَ زَيْنٌ مُسَوِّدٌ
لِصاحِبِهِ ، والجَهْلَ للمرءِ شَائِنُ

فكُنْ دافِناً للشرِّ بالخيرِ تَسْتَرِحْ
من الهمِّ ، إنَّ الخيرَ للشرِّ دافِنُ

وهَجْرُ الهَوى للمرءِ ، فاعلمْ ، سَعادةٌ
وطولُ الهَوى رَيْنٌ على القَلْبِ رَائِنُ

والدين الإسلامي يحض على التحلي بالأخلاق الحسنة ، وقد وُصِفَ النبي - صلى الله عليه وسلم - في التنزيل الحكيم بحسن الخلق في قوله تعالى : * وإنكَ لَعلى خُلُقٍ عَظِيم * (٢) . كما جعل النبي الكريم حسن الخلق أعلى مراتب الإيمان ، إذ قال : " إنّ أكملَ المؤمنينَ إيماناً أَحْسَنُهم خُلُقاً " (٣) .

---

(١) انظر شعره ، مقطعة رقم ٣٠ .
(٢) سورة القلم ، آية : ٤ .
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٦/٩٩ .

ومن هذا المنطلق الإسلامي الصحيح انطلق سابق البربري يعظ بما يُحسّن الخلق من الصفات الإسلامية كالحِلْم ، والعفو ، إذ جعل الحِلْم زينة لصاحبه ، وطلب الصفح عن الخطأ ، ومقابلة الشر بالخير لدفنه والقضاء عليه .

والذي يلحظ في هذه الأبيات أن الشاعر يميل إلى الإقناع بموعظته ، فيستخدم من سبل الإقناع التدرج المنطقي في عرض الأفكار ، بحيث يجعل السفاهة والجهل والميل إلى الشر في معاملة الناس اتباعاً لهوى النفس الأمّارة بالسوء . وهذا يؤدي بالإنسان إلى الضلال ، ولذا فإنه ينبّه العاقل بأن السعادة تكمن في هجر هوى النفس. كما يستخدم من سبل الإقناع أسلوب المطابقة بين الأضداد ، فيطابق بين الحِلْم والجهل ، والخير والشر ، وهجر الهوى وطول اتباعه . ثم يختم ذلك بالحكمة البالغة . وفي هذا إقناع بالموعظة ، بحيث يجد الإنسان أن السيادة والراحة والسعادة تكمن في الالتزام بهذه المبادئ الإسلامية السمحة التي يدعو إليها الشاعر.

ومن مواعظه التي تتصل بالنصائح السلوكية طلبه مقابلة الجهل بالحِلْم ، إذ يقول (١) :

لا تُظْهِرَنَّ لذي جَهْلٍ معاتَبَةً
فربما هُيِّجَتْ بالشيءِ أشْياءُ

---

(١) انظر شعره ، مقطعة رقم ١ .

فالماءُ يَخْمِدُ حَرَّ النارِ يطْفِئُهــا
وليسَ للجَهْلِ غيرُ الحِلْمِ إطْفــاءُ

ترى السفيهَ له عن كلِّ مَحْلمــةٍ
زَيْغٌ ، وفيهِ إلى التَّسْفيهِ إصْغــاءُ

والأبيات تدل على خبرة عميقة بالنفس البشرية ، إذ معاتبة الجاهل الغِرّ لا تحد من جرأته وسفهه ، بل تزيد من تماديه في جهالته ، لأن السفيه لا يصغي إلا للسفه . ولذا فإن أفضل الوسائل في معالجة سفهه هي الحِلْم والعفو .

ويبدو أن سابقاً البربرى قد ابتدع هذا المعنى في أبياته ، فقد قدّم لها الشريشي بقوله ، بعد بيتين أوردهما الحريرى في مقاماته : "وهذان البيتان - بيتا الحريرى - من بدائع مزدوجاته التي نبّهنا على أنها من فائق شعره ، وسبقه سابق البربرى إلى معناهما بقوله . . "(١)

ونجد له مواعظ منفردة ينصح فيها بأخلاق حسنة تنبع من الدين الإسلامي ، وتتصل بالسلوك العام في المجتمع ، فهو يأمر بعدم الظلم للآخرين ، مبيّناً أن نتيجة الظلم تعود على الظالم ، إذ يقول(٢) :

لا تَحْفِرَنْ بِئْراً تُرِيدُ أخاً بهــا
فإنّكَ فيها ، أنت ، مِنْ دُونِهِ تَقَــعْ

كذاكَ الذى يَبْغي على الناسِ ظالماً
تُصِبْهُ على رَغْمٍ عَواقِبُ ما صَنَــعْ

---

(١) شرح مقامات الحريرى ، للشريشي ٢٥٩/٥ .
(٢) انظر شعره مقطعة رقم ١٧ .

فالظالم الذى يمكر بالآخرين ،ويدبّر لهم السوء عاقبته وخيمة ، إذ نتيجته تعود عليه كما قال تعالى : ﴿ . . . ولا يَحيقُ المكْرُ السيءُ إلا بأهْلِهِ . . . ﴾(١). وقد استقى شاعرنا معناه من المثل المشهور : "مَنْ حفر مغوّاةً وقع فيها"(٢) . والمغوّاة : البئر تُحْفرُ للذئب ، ثم يجعل فيها جَدْى أو غيره . فيسقط فيها ليأخذه فيصاد . وهو مثل لكل من أراد بصاحبه سوءاً .

وقد أكّد سابق موعظته بتوضيحها مثلاً بالظالم المستطيل على حقوق الآخرين بشأن عاقبة ظلمه عليه رغم تفاديها .

ومن مواعظه المفردة بيتان يحث فيهما على الرضا بالقضاء والقدر ،والإذعان لحكم الله بالصبر وعدم اليأس من رحمة الله ،إذ يقول :(٣)

وإنْ جاءَ ما لا تَسْتطِيعَانِ دَفْعَهُ
فلا تَجْزَعا مما قَضَى اللهُ واصْبِرَا

فلا تيأْسَا واسْتغْفِروا اللهَ إنَّهُ
إذا اللهُ سَنَّى عقدَ أمرٍ تَيسَّرا

وفي هذين البيتين نفس موءمنة بالله إيماناً كاملاً ، فهما يوحيان بمدى إذعان الشاعر للقدر ،ورضائه به ،فالبيت الأول يدعو إلى الصبر في

---

(١) سورة فاطر ،من الآية ٤٣ .
(٢) كتاب الأمثال ،لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢٧٠ ،تحقيق د /عبد المجيد قطامش.
(٣) انظر شعره مقطعة رقم ١٠ ، ١١ .

الملمات ،إذ بشّر الله الصابرين في قوله تعالى : ﴿ ولنبلونّكم بشيء من الخوفِ والجُوعِ ونَقْصٍ من الأموالِ والأنفُسِ والثّمراتِ وبشّر الصّابِرين ﴾ (١) . والبيت الثاني يأمر بعدم اليأس من روْح الله ،والإيمان بأن ما كتبه الله آتٍ ،وقد أمر الله على لسان يعقوب بعدم اليأس من روحه : ﴿ .. ولا تيأسُوا من رَوْحِ اللهِ . إنّه لا ييأسُ من رَوْحِ اللهِ إلا القومُ الكافِرُون ﴾ (٢).

والشعراء المسلمون كثيرًا ما لهجوا بالدعوة إلى التوكل على الله ، والإيمان بما عنده ،والرضا بما قسمه للعبد ، والصبر على ما نزل من عند الله ،وعدم اليأس من رحمة الله . وهذا نتيجة حتمية لتأثرهم بالمعاني الإسلامية السمحة التي صقلت روحهم وأنارت عقولهم . فهذه أبيات لأبي الأسود الدؤلي تفيض بالدعوة إلى التوكل على الله إيمانًا بما عنده ، واستسلامًا لقدره ،إذ يقول (٣) :

إذَا كُنتَ معنيًّا بأمْرٍ تُرِيــــدُه
فما للمَضاءِ والتوكُّلِ مِنْ مِثْـــلِ

توكّلْ وحَمِّلْ أمْـرَكَ اللهَ إنَّ مـا
يُرادُ له آتيكَ أنتَ لَهُ مُخْـــلِ

فلا تحسبنَّ السيرَ أقْربَ للـــرَّدى
مِنَ الخَفْضِ في دارِ المُقامَــةِ والثّمْـلِ

---

(١) سورة البقرة ،آية ١٥٥ .
(٢) سورة يوسف ،من الآية : ٨٧ .
(٣) انظر ديوان أبي الأسود الدؤلي ٣٥-٣٦ تحقيق حسن آل ياسين .

وتخبسنّي عن طريقٍ أُريـــدُه
بِظنّك . إنَّ الظنَّ يكْذِبُ ذا العَقْلِ

فإنّي مُلاقٍ ما قضى اللهُ أنني
مُلاقٍ ، فلا تَجْعَلْ لكَ العِلْم كالجَهْلِ

أما مواعظه التي تدخل تحت العلاقات الإنسانية ، فإنها تتصل بالصداقة وما يتعلق بها ، فهو ينصح باختيار الصديق الطيب ، إذ يقول (١) :

إنْ كنتَ مُتَّخِذاً خَليلا ... فَنقِّ وانْتَقِدِ الخَليلا
مَنْ لَمْ يكُنْ لكَ مُنْصِفاً ... في الوُدِّ فابْغِ بهِ بَديلا
وعليكَ نَفْسَكَ فارْعَها ... واكْسِبْ لها عَمَلاً جَميلا

فاختيار الصديق الحسن أمر مهم ،لأن صفات الصديق تنعكس على من يصاحبه ،وكل قرين مقتد بقرينه .

وقد ذكر الشعراء قبل سابق أهمية اختيار الصديق الراشد الصالح ،فهذا أبو الأسود الدؤلي يبيّن لنا أن الصديق السوء يؤثر فيمن يصاحب حتى ولو كان حاسمًا صلدًا كالسيف ، ذلك حين يقول (٢) :

ولو كنتَ سيفًا يُعْجِبُ الناسَ حدُّه
وكُنتَ له يومًا من الدهرِ فلَّكا

---

(١) انظر شعره قصيدة رقم ٢١ ،الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ .
(٢) انظر ديوان أبي الأسود الدؤلي ٥٢ .

ولو كنتَ أهْدَى الناسِ ثم صَحِبتَه
فطاوعتَه ضلَّ الهُدَى وأَضَلَّكَا

إذَا جئتَه تَبْغي الهُدَى خَالَفَ الهُدَى
وإنْ جُرْتَ عن بابِ الغواية دَلَّكَا

فالصديق السيء يجر صاحبه إلى السوء ،أو يشيع عنه السوء . لذلك فإنه لا يكفي أن نتجنب صحبة الأشرار ،بل الواجب أن يتعهد المسلم نفسه بالتقويم والتربية ،لهذا فإن سابقاً قد فطن إلى ضرورة تقويم النفس وعلاجها بالأخلاق الحسنة لتقف في وجه الصحبة السيئة وتتجنبها .

والصديق لا يظهر طيب معدنه إلا بمحك التجارب ، لذلك فإن شاعرنا ينبه إلى عدم الاغترار بالمظهر قبل اختبار الجوهر ، فيقول (١) :

ألَا رُبَّما صارَ البغيضُ مُصَافِيَا
وحالَ عن العَهْدِ الصديقُ المُشَافِنُ

فلا تَغْتَرِرْ ما عِشْتَ مِنْ مُتَجَمِّلٍ
بِظَاهِرِ وُدٍّ ، قد تُغَطَّى البَطَائِنُ

وسابق البربري هنا يدل على خبرته بالناس والحياة ،فالمظاهر البراقة ، والمعاملة الحسنة قد تغطي وراءها سوءاً وشراً ،لأن الصديق لا تظهر

---

(١) انظر شعره ،مقطعة رقم ٣١ .

نفاسة معدنه إلا عندما يتعرض لمحك التجارب ، ولهذا يطلب الشاعر ممن يبحث عن صديق أن يختبر نبل أخلاقه قبل أن تغرّه لطافة حديثه ،ومظهر معاملته ، وبالتجربة قد تنقلب المعايير ، فمن جذب بلطف معاملته ،ورقّة حديثه قد يكون باطنه سيئاً شريراً ، ومن نفّر ظاهره ، فقد يكون باطنه نقياً سليماً .

* * *

أما آخر مقاصد سابق البربري في شعره الوعظي فيشمل جانب العلم والتعلم ،فهو يحض على طلب العلم ،ويطلب تزيينه بالحِلْم ، إذ يقول (١) :

الحِلْمُ والعِلْم خَلّتا كَــرَمٍ	للمرءِ زَينٌ إذَا هُما اجتمعا
صِنْوانِ لا يسْتتم حُسْنُهمــا	إلا بجمعٍ لذا ،وذاكَ معَــا
كم مِنْ وضيعٍ سَما بهِ العِلْمُ والـ	ـحِلْم فنالَ العلاءَ وارتفعَــا
ومِنْ رفيعِ البِنَا أضاعهُمــا	أخْمَلَه ما أضاعَ فاتضعــا

فزينة المرء تكون في العلم الذى يصاحبه الحلم ،لأن العالم غير الحليم لا يمكن أن ينفع بعلمه . وسابق البربرى يجعل العلم صِنواً للحلم ، بحيث لا يفيد أحدهما إلا مع الآخر ،وإذا اجتمعا في إنسان رفعا منزلته وإن لم يرتفع به نسبه ،أما إذا افتقدهما إنسان فإنهما يحطّان من قدره ولو ارتفع به نسبه ، فلا سيادة أو سؤدد الا لمن جمع بين العلم والحلم .

---

(١) انظرشعره ،مقطعة رقم ١٨ .

وقد ترددت هذه الدعوة على ألسنة الشعراء المسلمين قبل سابق البربري كأبي الأسود الدؤلي ،إذ قال (١) :

العِلْمُ زَيْنٌ وتَشْرِيفٌ لصاحبِهِ
فاطلبْ ـ هُدِيتَ ـ فنونَ العِلْمِ والأدَبا

لا خيرَ فيمنْ له أصلٌ بلا أدَبٍ
حتى يكون على ما زانَهُ حَدِبا

كم مِنْ حسيبٍ أخي عَيٍّ وطَمْطَمةٍ
فَدْمٍ لدى القومِ معْروقٍ إذا انتسَبا

في بيتِ مكرمةٍ آباؤه نُجُبٌ
كانوا رؤوساً فأمْسى بعْدَهم ذَنَبا

وخاملٍ مُقْرِفِ الآباءِ ذي أدبٍ
نالَ المعاليَ بالآدابِ والرُّتَبا

وأبو الأسود يدعو إلى طلب العلم ويجعله سبيلاً للسؤدد والسيادة ، ولكنّ شاعرنا يقرن طلب العلم إلى الحلم ، مما يدل على أنه مصلح اجتماعي يعرف وسائل بناء المجتمع الصالح ويدعو إليهما .

والعلم لا ينفع إلا بالعمل به ،ولهذا ينبه شاعرنا على ضرورة العمل بالعلم ،إذ يقول (٢) :

إذا العِلْمُ لم تعملْ بهِ صارَ حُجَّةً
عليكَ ،ولم تُعْذَرْ بما أنتَ جاهِلُهْ

---

(١) انظر ديوان أبي الأسود الدؤلي ١٤٩-١٥٠ مستدرك الديوان .
(٢) انظر شعره قصيدة رقم ٢٢ ، البيت ١٧ .

فالعلم يستلزم العمل به ،وإلا صار مضرّة للإنسان ،إذ يصبح حجّة عليه ،كذلك لا ينبغي أن يخلد الإنسان إلى الجهل ،حيث لا عذر لمن احتج بالجهل ،بل هو مطالب بالسعي للعلم ثم العمل به .

وبنصائح سابق البربرى التي تتصل بالعلم نختم شعره الوعظي الذى يؤكد فيه ما قلناه عن سابق البربرى بأنه شاعر الوعظ والزهد ، إذ بيّن شعره أنه متصف بكثير من الصفات التي طلبها ابن الجوزى في الواعظ ، حين قال : " ... فينبغي للواعظ أن يكون حافظاً لحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عارفاً بصحيحه وسقيمه ،ومسنده ومقطوعه ،ومعضله ،عالماً بالتواريخ ،وسير السلف ،حافظاً لأخبار الزهاد ، فقيهاً في دين الله ، عالماً بالعربية واللغة ، فصيح اللسان . ومدار ذلك كلّه على تقوى الله ـ عز وجل ـ وأنه بقدر تقواه يقع كلامه في القلوب "(١) .

---

(١) كتاب القصاص والمذكرين ،لأبي الفرج بن الجوزى ٢٤ .

((شعر الحكمة والأمثال))

الحكمة والمثل بينهما صلة قوية ،ذلك أن الحكمة أصل والمثل فرع منها ،فالحكمة : قول موجز ،بليغ ،صائب الفكرة ،دقيق التعبير، يصدر عن ذى رأى وتجربة ،وقد يشتهر فيصبح مثلاً سياراً وقولاً ذائعاً. أما المثل ،فقول سائر ،يرتبط في أساسه بحادثة أو قصة ،و يقصد منه تشبيه مضربه بمورده (١) ..

وعلى هذا الأساس ندرس شعر الحكمة وشعر الأمثال عند سابق البربرى .. فشعره يتضمن في الغالب أقوالاً حكيمة صائبة تدل على عمق تجربته ودقة رؤيته .. وقد تستقل أقواله الحكيمة هذه فتصلح لأن تكون أمثالاً سائرة. أو قد يضمّن شعره أمثالاً سائرة قالتها العرب فانتشرت .

ولهذا فإننا نبدأ بدراسة شعر الحكمة عنده ،و نتلوه بشعر الأمثال .

أولا : شعر الحكمة :

أثّر الإسلام في أدب الحكمة ،فبعد أن كانت تصدر عن وجهة نظر فردية يستنبطها الشاعر من تجاربه الذاتية أو من موروثاته الثقافية ،

---

(١) انظر الحكمة في الشعر العربي ،للدكتور محمد عويس ١/ ١٠ ، وموازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء ، للدكتور زهدى صبرى الخواجا ١٨ ،والمتنبي وشوقي ،لعباس حسن ٣٢٨ .

أصبحت تَصْدُر عن الفهم الدقيق لحقائق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وتهدف إلى تقويم السلوك الإنساني ،في إطار المنهج الإسلامي . الأمر الذى جعل الحكمة الإسلامية تختلف عن الحكمة الجاهلية في المنهل والمفهوم والهدف . ولكن هذا لا يعني أن الشعرالديني تولد عن الحكمة كما يقول الدكتور محمد عويس : " فمن الحكمة تولد الشعر الديني الذى أخذ فيما بعد مظهراً مستقلاً بذاته فتحول إلى شعر الزهد ثم إلى شعر التصوف فيما بعد "(١) . فالحكمة عامة تتعلق بالقيم والمبادىء الإنسانية ،قد ترتبط بالدين أولا ترتبط . أما شعر الزهد فهو خاص بالدعوة إلى سلوك إسلامي فيه ترك لزينة الحياة الدنيا ،وتعال على فتنتها ، وتفكّر في الآخرة وتطلع إلى ما فيها ،ولكن هناك حكمة إسلامية تأثرت بالقرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة .

ومن الحكمة الإسلامية كان شعرسابق البربرى الحكمي ، ذلك أنه استمد حكمه من مصادر إسلامية خالصة ، وهدف بها إلى غرض نبيل يزهّد في الدنيا وزينتها ،ويدعو إلى السلوك الإسلامي القويم ،حتى جاءت حكمه في إطار ديني خالص جعل شعره من الصنف الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من الشعر حكمة "(٢) .

وهذا الشعر الحكمي متناثر في قصائده ومقطّعاته ، يرد مفرداً أحياناً ، ومتضمناً قصائده أحيانا أخرى . ويأتي بعضه متوالياً ،وتارة موزعاً . وأكثر هذا الشعر ورد في قصيدته الرائية التي وعظ بها الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز.

---

(١) انظر الحكمة في الشعر العربي ٢٧٠.

(٢) صحيح البخارى ،كتاب الأدب ٩٠/٨/٤٢.

وقد وجدت هذا الشعر الحكمي يدور في ثلاثة مقاصد هي : التذكير بأن الموت حق لا محيد عنه ،والحض على التقوى وطلب العلم، والدعوة إلى المنهج الإسلامي في السلوك .

فمن المقصد الأول نجد هذه الأبيات الحكمية التي توزعت في قصيدته الرائية ،وهي قوله (١) :

والموتُ جِسْرٌ لمَنْ يمشي على قَدمٍ
إلى الأُمورِ التي تُخشى وتُنتظَرُ

فهم يمرُّونَ أفْواجاً وتَجْمعُهمْ
دارٌ إليها يصير البَدْو والحَضَرُ

من كان في مَعْقِلٍ للحِرْزِ أسْلَمهُ
أو كانَ في خَمَرٍ لم يُنْجِه الخَمَرُ

لا يلْبثُ الشيءُ أنْ يَبلى إذَا اختلفتْ
يوماً على نَقْصِه الرَّوْحاتُ والبُكَرُ

والمرءُ يَصعدُ رَيعانُ الشباب بهِ
وكلُّ مُصْعَدةٍ يوماً سَتَنْحدِرُ

وكلُّ بيتٍ خرابٌ بعدَ جِدَّتهِ
ومن وراءِ الشبابِ الموتُ والكِبَرُ

إلى الفناءِ وإنْ طالتْ سَلامتُهمْ
مصيرُ كلِّ بني أُنثى ،وإنْ كثُروا

من عاشَ أدركَ في الأعداءِ بُغْيتَهُ
ومن يمتْ فلهُ الأيامُ تنتصِرُ

---

(١) انظر شعره قصيدة ١٢ ،الأبيات : ٢١ ،٢٢ ،٢٣ ،٢٨ ،٢٩ ، ٣٠ ،٣٨ ،٣٩ .

والأبيات الحكمية هذه ورد بعضها متوالياً ،وبعضها موزعاً في القصيدة ،وكلها تهدف إلى تأكيد الحقيقة الثابتة وهي : أن الموت مصير كل حي ومنتهى كل مخلوق . والتذكير بالموت نزعة غالبة على سابق البربرى ،بحيث تظهر في كثير من أغراضه ،ذلك لأنه شاعر واعظ يهدف إلى التزهيد في متع الحياة الدنيا ،والترغيب في الآخرة متخذاً من هذه الحقيقة التي استلهمها من المصادر الإسلامية سبيلاً إلى هذه الأهداف . وقد ذكّر بالموت هنا في صورة جديدة مثّل فيها الموت معبراً بين شاطئ الحياة الدنيا والآخرة ،ولا بد لكل مخلوق من عبور هذا الطريق . كما عبّر عما بعد الموت بعبارة دقيقة تبعث الرهبة والخوف في النفس ،إذ قال : إلى الأمور التى تخشى وتنتظر . فالإنسان مع هذه الأمور بين حالتي الانتظار والخشية ،ينتظرها لأنها آتية حتماً ،ويخشاها لما فيها من الأهوال ،والتعبير بالأمور هنا يفيد الكثرة التي تدل على مصاعب القيامة والبعث والحشر والميزان والصراط ، وقد بيّن القرآن الكريم هذه الأهوال ،وما سينزل على البشر فيها من الخوف والرهبة (١) .

ولتأكيد حقيقة الموت يأتي بأمثلة من الواقع ليتمثلها العقل الواعي ، فيثبت عنده أن لا مفرّ من الفناء . . . فالواقع يثبت أن الشيء إذا اختلفت عليه الليالي والأيام لا يلبث أن يبلى ويفنى ،وكذا الجسد البشري لا بد أن تهلكه السنون . والشباب الذى يمد الإنسان بالقوة والمنعة

---

(١) نستعرض الآيات الخاصة بهذه المشاهد في الفصل الخاص بتأثير القرآن في شعره .

يسير به إلى النهاية ،لأن كل صاعد لا بد أن ينحدر . والبيت الجديد لا بد أن يصير إلى خراب ، ذاك أن الفناء حق على كل موجود ، ولا يبقى إلا خالق الكون : ﴿ كلُّ مَنْ عليها فانٍ ويَبْقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلال والإكْرامِ ﴾ (١) . فالحقيقة المسلّمة هي أن الإنسان يولد ليموت ، ويبنى لخراب الدهر ... وقد كرّر سابق هذا المعنى ،ولعله نظر فيه إلى الشعراء قبله ،إذ هو مصراع بيت في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب ،وهو (٢) :

لَهُ مَلِكٌ يُنادى كلَّ يومٍ
لِدُوا للموتِ وابْنوا لِلْخَرابِ

ويؤكد هذا المعنى أكثر حين يذكر أن كل بني أنثى مصيره إلى الفناء ، وقد سبقه كعب بن زهير الى هذا المعنى ، إذ قال (٣) :

كلُّ ابنِ أُنثى وإنْ طَالتْ سَلَامتُه
يومًا على آلةٍ حدباءَ مَحْمُولُ

وينتهي الى أن العدل الإلهي متحقق في البشر ،فالله لا يضيع حقًا لإنسان ،إذ المظلوم إن لم ينتصر لنفسه في حياته انتصر له الحق بعد مماته ممن ظلمه .

---

(١) سورة الرحمن ،الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ٤/١٦٣ . ولم أجده في الشعر المنسوب إليه والذي جمعه وحققه عبد العزيز سيد الأهل طبع دار بيروت .

(٣) انظر شرح ديوان كعب بن زهير رواية أبي سعيد السكري ٢٠ ، طبع دار الفكر للجميع ١٩٦٨م .

ومن هذا المقصد أيضاً أبيات أخرى له ، يؤكد فيها حتمية فناء الإنسان ، فيقول (١) :

وكلُّ نفسٍ لها زَوْرٌ يُصبِّحُها
من المنيةِ يوماً أوْ يُمسِّيها

وللحُتُوفِ تُرَبِّي كلُّ مُرْضِعةٍ
وللحسابِ بَرى الأرواحَ باريها

لا تَبْرحُ النفسُ تُنْعى وهي سَالِمةٌ
حتى يقومَ بناديِ القومِ ناعيها

ولنْ تزالَ طَوالَ الدهرِ ظاعنةً
حتى تُقيمَ بوادٍ غيرِ واديها

فالمنية زائر ينتظره كل إنسان ، ولكن الإنسان لا يملك أن يحدد موعد هذه الزيارة ، ولا أن يمتنع عنها ، بل المنية آتية إليه في أي وقت على مدار اليوم والليلة ، وهو خاضع لهذا الموعد ، مغلوب عليه لا شأن له فيه ، وذلك لأن الموت حق ، والحساب أيضاً حق ، فالمرضعة تربي الوليد لحتفه ، والخالق إنما خلق الخلق للحساب ... وهذا هو المعنى الذى ركّز عليه سابق البربرى في شعره ليضع الإنسان أمام هذه الحقيقة ويواجهه بها ، بحيث ترسخ في ذهنه فلا يجد محيداً عن الاقتناع بها والعمل بمقتضاها ، فيستعد لهذا الرحيل المؤكد .

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٣٦ ، الأبيات : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

وأما مقصده الثاني الذى حضّ فيه على طلب العلم فيبدو في الأبيات التالية (١) :

والعِلْم يَجْلُو العَمى عن قلبِ صاحِبِهِ
كما يُجَلّي سوادَ الظلمةِ القَمَرُ

وليسَ ذو العِلْمِ بالتقوى كجاهِلِهِ
ولا البصيرُ كأعمى ما لَهُ بَصَرُ

فالعلم هو النور الذى يبدّد ظلمة الجهل عن العقول فيجلوها ، وليس كل علم هو الذى تستنير به العقول ، بل العلم النافع الذى يؤدى إلى التقوى ، بحيث يعرف المتعلم حقيقة التقوى ووسائلها ، فمن اهتدى إلى هذا العلم هو الذى أخرجه الله من الظلمات إلى النور ، يقول الله عز وجل : ﴿ هو الذى يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آياتٍ بيّناتٍ ليُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النور ... ﴾ (٢) . وبعد ذلك لا يستوي البصير بهذا العلم مع الذى غَشّى عليه الجهل ، بل هم كالأعمى والبصير لا يستويان أبداً .

فالعالم بأن الله واحد أحد ، والعامل بمقتضى هذا العلم ، بحيث يتقي الله ، ويجعل أعماله وأقواله خالصة لله وحده ، هو البصير الذى أُخرج من ظلمات الكفر إلى أنوار الهداية . ولهذا فإن شاعرنا يحض على التقوى عندما يذكّر بأنها خير زاد فيقول (٣) :

---

(١) انظر شعره ، قصيدة رقم ١٢ ، البيتين : ١١ ، ١٨ .
(٢) سورة الحديد ، من الآية : ٩ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت ٨ .

إنَّ التُّقَى خيرُ زادٍ أنتَ حامِلُهُ
والبِرُّ أفضلُ شيءٍ نالهُ بَشَرُ

فالتقوى والبر أفضل ما يحظى به الإنسان ،ولهذا جمع بينهما سابق البربرى في نصيحته الحكيمة هذه . الأمر الذى جعل قوله حكمة إسلامية خالصة لو تمسك به الإنسان لنال خيرى الدنيا والآخرة.

والهداية إلى الرشد هبة تُهْدى إلى الإنسان ،وقد وضّح شاعرنا السهل المؤدية إلى الرشد بقوله (١) :

والذكْر فيهِ حياةٌ للقلوبِ كَمَا
يُحيي البِلادَ إذَا ما مَاتتِ المَطرُ

وفي الهُدى عِبرٌ تُشْفَى القلوبُ بها
كالغيثِ يَنْضُر عن وسْميّه الشَّجَرُ

والرشْدُ نافِلةٌ تُهْدى لصاحبِهِ
والغَيُّ يُكْرهُ منه الوِرْدُ والصَّدَرُ

فالقلوب الذاكرة لله تحمده وتمجّده وتثنى عليه وتدعوه ، تعيش في ظلال نور الله التي تُشِيعُ الطمأنينة فيها ،فتحيا وتنتعش ،وكذلك القلوب العامرة بالقرآن تحيا بما فيه من العِظات والعِبَر حتى تؤوب إلى الرشد فتنعم به ، إذ يهديها إلى الصواب والعمل الصالح ..

والسبل التي بيّنها سابق يتعلق بعضها ببعض ،فالعلم ينير العقل ،والذكر يحيى موات القلوب ، والقرآن يهدي إلى

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ١٢ ،الأبيات : ١٠ ، ١٢ ، ١٧ .

العمل الصالح ... وبهذا كله يصل الإنسان إلى مرتبة الرشد فيهتدي إلى ما فيه صلاح أمره .

والحض على العلم من شاعرنا ينبع من معرفته الدقيقة بالإسلام ومبادئه ، إذ حثّ الإسلام على التعلم ،ورفع منزلة العالم ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فَضْلُ العَالِم على العَابِدِ كَفَضْلي على أدْنَاكُم " (١) . وهذا يدل على أن حكمة سابق صدرت عن معرفته للعلوم الإسلامية ،وليست نتيجة ثقافته بالثقافات الأجنبية كما وَهِمَ الدكتور إحسان عباس إذ قال : "ويكاد يكون من الأمور المسلّمة أن اللقاء بتلك الثقافات الأجنبية -اليونانية والفارسية - بالإضافة إلى عوامل أخرى كالموجة الزهدية والحركة الاعتزالية والأوضاع الاقتصادية العامة وغيرها ،هو الذى خلق طبقة من الشعراء الحكماء من أمثال سابق البربرى ،وصالح بن عبد القدوس ..." (٢)

أما المقصد الثالث من حكم سابق البربرى فهو حكمه التي استلهمها من تجارب الحياة ،ومعرفته بأحوال الزمان وتقلباته ، فهو يدعو الإنسان ألا ينساق مع أهوائه وشهواته ،لما في هذا الانسياق من أضرار عاجلة وآجلة إذ يقول (٣) :

من يَطْلبِ الجُورَ لا يَظْفَرْ بحاجَتِـهِ
وطالبُ الحقِّ قد يُهْدَى له الظَّفرُ

---

(١) سنن الترمذى ،كتاب العلم ١٩ ،ج٥/٥٠ رقم ٢٦٨٥.
(٢) ملامح يونانية في الأدب العربي ١٣٦.
(٣) انظر شعره ، قصيدة ١٢ البيتين : ٩ ، ١٣ .

قد يُوبِقُ المرءَ أمرٌ وهو يَحْقِرُهُ
والشيءُ بالنفسِ يَنْمي وهو يُحْتَقَرُ

والبيتان يُبيّنان أن النفس الإنسانية ميّالة بطبعها إلى الاستئثار بالطيب، مجبولة على حب ذاتها، ولذلك فقد تجور وتظلم في سبيل تحقيق غايتها، سواء كان ذلك بعلمها ومعرفتها أو على غفلة منها. لذا فإن سابقًا ينبّه هذه النفس بحكمته البالغة فيقول: إن الظلم والجور في سبيل تحقيق الغرض لا يؤدي إلى نيل المراد بل يعكس النتيجة على الظالم، لأن العدالة الإلهية مراقبة للبشر، ومقننة للكون. أما المطالبة بالحق في حدود العدل فإن صاحبها سينال غايته عاجلا أو آجلا، لأنه مؤيد بنصر الله. ثم ينبّه إلى خطر ما يستهان به من الذنوب، إذ قد يهلك المرء أمر استصغره، فميل النفس إلى رغبتها قد يكون هينًا بسيطًا بحيث لا يشعر المرء بخطورته فلا يهتم به، ولكن النفس بطبعها الميال إلى الأثرة تنميه وترعاه على غفلة من وعي صاحبها فيستفحل أمره ويستعصي علاجه. ويبيّن أخيرًا أن الأيام تتداول، والأحوال تتغير، فالصغير لا بد أن سيكبر وينتهي بالفناء، مثل الغصن الريان النضر الذى سيأتيه يوم يكون فيه جافًا نخرًا.

هذه الحكمة الاسلامية التي قالها سابق البربري في الجور تناقض الحكمة الجاهلية التي قالها زهير بن أبي سلمى في الظلم، إذ قال [1]:

ومن لا يذدْ عَنْ حَوْضِه بِسَلاحِهِ
يُهدَّم، ومن لا يظلمِ الناسَ يُظْلَمِ

---

(١) انظر ديوان زهير صنعة أبي العباس ثعلب ٣٥.

فزهير يأمر بالمبادرة إلى ظلم الآخرين ،في حين أن شاعرنا ينهى عن ظلم الناس عند المطالبة بالحق . وهذا أثر من آثار الإسلام السمحة التي تشبّعت بها نفس سابق البربرى فانعكست على شعره الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

ومن مقصده الثالثة أيضا أبيات حكمية يحذر فيها من المتعة المحرّمة ،لأن لذتها العابرة تُعْقِبُ حسرة دائمة ، وذلك حين يقول (١) :

وعاقِبةُ اللذاتِ تُخْشى وإنما
يُكَدِّرُ يوماً عاجِلَ الأمْرِ آجِلُهْ

وإنْ فَرِحتْ بالمرء يوماً حَلَائِلٌ
فلا بُدَّ يوماً أن تُساءَ حلائِلُهْ

فكم من فتى قد كانَ في شِرَّةِ الصِّبَى
فأقْصَر بعدَ العَذْلِ عنه عواذِلُهْ

إذا ما سَما حقٌ إليك وباطِلٌ
عليكَ فلا يَذْهَبْ بحقِّك باطِلُهْ

هذه الأبيات هي خاتمة قصيدته اللامية الطويلة التي تأمل فيها واقعه وواقع غيره مع الحياة الدنيا والآخرة إلى أن استخلص هذه الحكم العميقة المعنى . فهو ينبّه الإنسان الى أن اللذة التي يستشعرها من

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ ،الأبيات : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

شهواته المحرمة وقتية زائلة ،في حين أن العقاب عليها عظيم ودائم ، مما يجعل مرارة الآجل تكدر لذة العاجل . ويثبت هذا المعنى بحكمه التي استخلصها من واقع الحياة ،ذلك أن الإنسان لا يدوم له حال أبدًا ،فالمرأة التي فرحت بحليلها لا بد أن تساء بمصابها فيه ، والفتى المفتون بقوّته والسعيد بأصحابه لا بد أن يؤول إلى الضعف والعزلة . وينتهي إلى نصيحة قيمة يدعو فيها الإنسان إلى المطالبة بالحق وتحصيله . وهذا مبدأ إسلامي ،فالإسلام لا يرضى أن يخضع الإنسان للباطل ويستسلم لظلم الآخرين . ويطلب من المسلم أن يكون قويًا في الحق غير عاجز عنه ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " المؤمنُ القويِ خيرٌ وأفضلُ وأحبُّ إلى الله عز وجل من المؤمنِ الضعيفِ ، وفي كل خيرٌ. احرص على ما ينفعكَ ولا تعْجزْ فإن غلبكَ أمرٌ فقلْ : قدَّرَ اللهُ وما شاءَ صَنعْ ،وإياكَ واللوّ فإن اللوّ يفْتَحُ مِنَ الشيطانِ "(١) .

ثانياً : شعر الأمثال :

استعمل سابق البربري الأمثال واستفاد منها في أغراضه التي دار عليها شعره ،ولكنه أكثر منها - فيما يبدو - حتى قال الجاحظ عن شعره مقولته المعروفة : " وقالوا : لو أن شعر صالح بن عبد القدوس وسابق البربري كان مفرّقًا في أشعار كثيرة ،لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات ،ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق .ولكنّ القصيدة إذا كانت كلها أمثالاً لم تَسِرْ ،ولم تَجْرِ مجرى النوادر . . "(٢) .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٣٦٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٠٦ .

والقليل من الأمثال في الشعر هو المستملح عندهم ، كما قال ابن رشيق : " وهذه الأشياء في الشعر إنما هي نبذ تستحسن ، ونكت تستظرف ، مع القلة ، وفي الندرة ، فأما إذا كثرت فهي دالة على الكلفة ، فلا يجب للشعر أن يكون مثلاً كله وحكمة كشعر صالح بن عبد القدوس ، فقد قعد به عن أصحابه وهو يقدمهم في الصناعة لإكثاره من ذلك" (١) .

وشعر الأمثال عند سابق البربري ينقسم قسمين : قسم تضمّن أمثالاً معروفة عن العرب ، فهي موجودة في كتب الأمثال ، والآخر يتضمّن أمثالاً غير موجودة في كتب الأمثال ، مما يجعلنا نقول : إنها ربما كانت من ابتداعاته .

فأما القسم الأول فإنه يشتمل على أبيات في المواعظ والزهد والنسيب .

ففي المواعظ ينصح بالاستعداد للأمر قبل حلوله ، فيقول (٢) :

وقبلَ نُزولِ الحَرْبِ تُملا الكَنائِنُ

وشطر البيت مثل ورد في كتب الأمثال (٣) . ومثله : " قبل الرمي يُراش السهم" (٤) . وقد قال فيه الميداني " يضرب في تهيئة الآلة قبل الحاجة اليها" (٥) .

---

(١) انظر العمدة ، لابن رشيق ١/ ٢٨٥ .
(٢) انظر شعره ، مقطعة ٣٥ .
(٣) انظر مثلا كتاب الأمثال ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢١٥ . ومجمع الأمثال للميداني ٢/ ١٠١ . والمستقصى في أمثال العرب ، للزمخشري ٢/ ١٨٦ .
(٤) انظر كتاب الأمثال ، لأبي عبيد ٢١٥ .
(٥) انظر مجمع الأمثال للميداني ٢/ ١٠١

ومن شعر المواعظ أيضاً قوله مبيناً طريقة تحصيل العلم (١) :

قَدْ قِيلَ قَبْلي في الكلامِ الأقْدَمِ
إني وجدتُ العِلْمَ بالتَّعلُّمِ

ومعنى البيت واضح ، والمثل الذى فيه هو قوله : العلم بالتعلم .
وقد ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيراً يُفَقِّهْهُ ، وإنما العِلْمُ بالتَّعلُّمِ " (٢) . وقال الجاحظ في هذا المثل : " والمثل السائر على وجه الدهر قولهم : " العلم بالتعلم " (٣) .

ومن الزهد قوله في ذمّ الدنيا والحث على تركها (٤) :

النفسُ تكْلَفُ بالدنيا وقَدْ عَلِمتْ
أنّ السلامةَ منها تركُ ما فيها

فالنفس البشرية من سفهها تعجب بالدنيا ، وتسعى إلى تحصيلها مع علمها يقيناً أن البلاء كامن في الحرص عليها ، وأن السلامة مضمونة لمن تخلّى عن التمسك بزينتها . والمثل الذى في البيت هو : إن السلامة منها ترك ما فيها " وفيه قال أبو عبيد القاسم بن سلام : " ومن أمثالهم في التحذير مما يخاف قولهم : إن السلامة منها ترك ما فيها ... ويروى هذا المثل عن عبدالله بن عمر أنه قاله في اللُّقَطَةِ أو الضَّالَّةِ توجد .

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٢٥ .
(٢) صحيح البخارى ، كتاب العلم ١٠ / جـ١ / ٢٧ .
(٣) البيان والتبيين ٢ / ٤٢ .
(٤) انظر شعره ، قصيدة ٣٦ ، البيت : ٣ .

يقول : دعها ولا تعرّض لأخذها "(١) ويقول عنه الميداني : " قيل : إن المثل في أمر اللُّقَطَةِ توجد ،وقيل : إنه في ذم الدنيا والحث على تركها "(٢) .

أما النسيب فقد وجدنا له بيتين ضمنهما مثل استمده من كلام العرب ، إذ قال (٣) :

أَذاكِرٌ أنتَ عَهْدَ الحيّ أمْ ناسِي
وليس للحبِّ غيرُ الصبرِ مِنْ آسِي
إذا أرادَ امرؤٌ هَجْراً جنى عِللاً
وظَلَّ يضْرِبُ أخْماساً لأسْداسِ

والبيتان في غرض جديد على أغراض سابق البربرى التي ذكرناها ،ولكنهما يدخلان تحت شعر الأمثال ،لأنه ضمّن البيت الثاني منهما مثلاً من أمثال العرب هو قولهم : ضرب أخماساً لأسداس ، وهو من أمثالهم في المماكرة (٤) ، وقد قال عنه الميداني : " يضرب مثلاً لمن يظهر شيئاً و يريد غيره "(٥) .

هذا الاستمداد لأمثال وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن العرب يدل على أن شاعرنا قد اطلع على التراث الإسلامي العربي واستفاد منه في صياغة فنه ،ويؤكد هذا قوله في البيت الآتي (٦) :

---

(١) كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢٢٦ .
(٢) مجمع الأمثال للميداني ١/١٤ .
(٣) انظر شعره مقطعة رقم ١٤ .
(٤) كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ٨٢ .
(٥) مجمع الأمثال للميداني ١/٤١٨ .
(٦) انظر شعره مقطعة ٢٠ .

قد قالَ كعبٌ لزهيرٍ في المَثَلْ
أوْسَعتَهُمْ سبًّا وأوْدَوْا بالإبلْ

فالشاعر في هذا البيت يذكّر بمثل قاله كعب بن زهير لأبيه زهير ، وقد ذكر الميداني قصة هذا المثل فقال : " ... ويقال : إن أول من قال ذلك كعب بن زهير بن أبي سُلْمى ، وذلك أن الحارث بن وَرْقَاء الصَّيْدَاوِيّ أغار على بني عبدالله بن غطَفان ،واستاق إبل زهير وراعيه ، فقال زهير في ذلك قصيدته التي أولها :

بانَ الخَليطُ ولم يأْوُوا لمن تَرَكُوا
وزوَّدُوك اشتياقًا ،أيَّةً سَلكُوا (١) ؟

وبعث بها إلى الحارث ، فلم يردَّ الإبل عليه ،فهجاه ، فقال كعب : أوْسَعْتَهمْ سبًّا وأودوا بالابل ،فذهبت مثلا يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام " (٢) .

أما الأبيات التي ضمّنها أمثالاً ربما كانت من ابتداعاته فهي أربعة أبيات تنضوى تحت شعر الزهد ،إذ هي تذكير بفناء الإنسان ، وزواله من الدنيا ، فهو يقول (٣) :

إذَا الجَسدُ المَعْمورُ زايلَ رُوحَهُ
خوَى ، وجَمالُ البيتِ يا نفسُ آهِلُهْ

---

(١) شعر زهير بن أبي سلمى ،صنعة ثعلب ١٢٧ ،تحقيق د/ فخر الدين قباوة .

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢/٣٦٤ .

(٣) انظر شعره قصيدة ٢٢ الأبيات ١٠ ، ١١ ، ١٩ ، ٢٠ .

وقد كانَ فيهِ الروحُ حِيناً يَزِينُـــهُ
وما الغِمْدُ لولا نصلُه وحمائِلُـــهْ

أَرى الغُصْنَ لا يَنْمي اذا اجتُثَّ أَصْلُهُ
وليسَ بباقٍ من أُبِيحَتْ أوائِلُـــهْ

فإنْ كُنتَ قد أَبصرتَ هذا فإنمـــا
يُصدِّقُ قولَ المرءِ ما هو فاعِلُـــهْ

فهو يخبر عن ضرورة مفارقة الروح للجسد ، و يبيّن أن الجسد رداء للروح متى فارقته الروح خوى و فقد قيمته . وكذلك الغمد لا قيمة له إذا لم يكن فيه نصل ، فالشيء إذا فقد الجزء الرئيسي فيه انعدم وجوده وذهبت قيمته . والأمر كذلك في الأصل ،فإذا هلك الأصل لم يبق للفرع وجود ،فمن لا أصل له ليس له بقاء .

و هذه الأمثال مبنية على ملاحظة الجوهر والعرض في الأشياء .. وكلها تهدف إلى التذكير بفناء الإنسان وزواله . فهو يذكّر الإنسان بأن أصله قد باد وأنه لا محالة لاحق به .. ويمكن أن نقول إن هذه الأمثال تضرب عند فقد الجزء الهام في الشيء وبقاء غيره مما لا قيمة له ولا أثر ..

هذه الأمثال في شعر سابق البربري تدل على حكمته و بعد نظره ، إذ لحظ الحياة العامة وتأمل في الحياة والموت والإنسان حتى استطاع أن ينطق بهذه الحكم العميقة التي تصلح للتمثل بها .

((شعر الوعظ والحكمة والأمثال))

من ألوان شعر سابق البربري ما يجمع بين الوعظ الديني، والحكمة الإسلامية، والمثل. ومع أن بين هذه المعاني فروقاً دقيقة قسّمنا الشعر على أساس الغرض فيها، فإن بعض شعره لا يمكن أن نغلّب فيها غرضاً على آخر، إذ أن البيت يهدف إلى الوعظ والتذكير بالموت، ويتضمن حكمة بالغة تصلح أن يُتَمثّل بها ... ولهذا فصلنا هذه الأبيات، لنبين مدى التداخل بين هذه المعاني فيها.

ومن هذا الشعر أبيات قالها في التزهيد في الدنيا، وهي (١):

النفسُ تكْلَفُ بالدنيا وقَدْ عَلِمتْ
أن السلامةَ منها، تركُ ما فِيهَا

فلا الإقامةَ تُنْجي النفسَ مِنْ تلفٍ
ولا الفرارَ من الأحداثِ يُنْجيها

أموالُنا لذوي الميراثِ نَجْمَعُها
ودورُنا لِخَرابِ الدهرِ نَبْنِيها

هذه أبيات يذم فيها الدنيا، ويدعو إلى عدم التعلق بها، إذ هي دار مغبة وفناء، تجر المتشبث بها إلى الهلاك، كما لا ينجو أحد فيها من الفناء. ولكن النفس البشرية من سفهها تعجب بالدنيا وتسعى إلى

---

(١) انظر شعره، قصيدة رقم ٣٦، الأبيات: ٣، ٤، ٥.

تحصيل زخرفها سعياً حثيثاً ، مع علمها يقيناً أن البلاء كامن في الحرص عليها ، وأن ما تجمعه فيها عائد على غيرها ،ولذلك فإن السلامة من الدنيا مضمونة لمن تخلّى عن زينتها . . وفي هذه المعاني حكم بليغة صادرة عن طول تأمل في الحياة ،وفي الموت ،وفي حال الإنسان معهدا . وقد ضمن الشاعر هذه الأبيات أمثالاً استقاها من مصادر إسلامية عربية خالصة ، فالبيت الأول منها مختوم بمثل قالته العرب ،وهو : إن السلامة منها ترك ما فيها ،وفيه قال أبو عبيد القاسم بن سلام : " ومن أمثالهم في التحذير مما يخاف قولهم : إن السلامة منها ترك ما فيها . . ويُروى هذا المثل عن عبدالله بن عمر أنه قاله في اللُّقطة أو الضّالة توجد . يقول : دعها ولا تعرّض لأخذها "(١) . والبيت الثاني مما يصلح للتمثل به ،وهو مأخوذ من معنى الأثر : "كفى بالسلامة داء "(٢) . والبيت الثالث مما يتمثل به أيضاً ،وهو مستلهم من معنى الحديث النبوى الشريف : " يقول العبدُ مالِي ومالِي ،وإنما له مِنْ مالِه ثلاثٌ : ما أكلَ فأفنَى أو لَبِسَ فأبلى أو أعطى فأفنى ،ما سوى ذلك فهو ذاهِبٌ وتاركه للناس"(٣) .

ومن هذه الأبيات التي تجمع بين الحكمة والمثل والوعظ ،قوله (٤) :

وللموتِ تغذُو الوالِداتُ سِخَالَها
كما لخرابِ الدهرِ تُبْنى المَساكِنُ

---

(١) كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ٢٢٦ .
(٢) الكامل للمبرد ٢١٨/١ ،١٢٨/٣ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وقد جعله المبرد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه غير موجود في كتاب الصحاح والمسانيد .
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٣٦٨/٢ .
(٤) انظر شعره مقطعة رقم ٢٨ البيت : ١ .

والبيت يحمل حكمة عميقة صادرة عن طول تأمل في حياة الموجودات في الكون ومصيرها ،إذ لا يولد المولود إلا ليموت ،وهذا مما يُهوِّن شأن الدنيا ،ويدعو إلى عدم الحرص عليها ، إذ ما قيمة السعي الحثيث وراء ما ينتهي إلى الفناء . وقد استمد سابق البربرى معناه من مصادر عربية ،فقد قال عبيد بن الأبرص قبله داعيًا إلى التجلّد في ملاقاة شدائد الدنيا ، وعدم الجزع من أحداثها :

فأبلغْ بنيَّ وأعمامَهمْ ... بأنّ المنَايا هي الوارِدَهْ

لها مُدّةٌ فنفوسِ العِبَادِ ... إليها -وإنْ كَرِهَتْ- قاصِدَهْ

فلا تَجْزعوا لِحَمامٍ دَنَا ... فلِلْموتِ ما تَلِدُ الوالِدَهْ (١)

فعبيد بن الأبرص يختم أبياته بمثل استمد معناه سابق البربرى في بيته الذى ذكرناه . قال ابن عبد ربه في تقديمه لبيت سابق : " وخرج عبد العزيز بن زرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة ،فهلك هناك فكتب به يزيد بن معاوية إلى معاوية،فقال لزرارة : أتاني اليوم نعي سيد شباب العرب . قال زرارة : يا أمير المؤمنين ، هو ابني أو ابنك ؟ قال : بل ابنك . قال : للموت ما تلد الوادة ،أخذه سابق البربرى ، فقال .... البيت " (٢) .

ولكن شاعرنا أضاف إلى المعنى حقيقة ثابتة هي : أن الفناء محتوم على كل موجود حتى الجمادات ،ولا يقتصر على الأحياء ،فكل بناء يبنى ينتهي إلى خراب بتوالي الدهر عليه . ولذا صار بيته مثلاً يُتمثّل به في بيان أن لكل شيء مآل ينتهي إليه .

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ٦٢ ،تحقيق د/ حسين نصار .

(٢) العقد الفريد ،لابن عبد ربه ١/٢٦٩ .

((أغراض أخرى))

الذى وصلنا من شعر سابق البربرى جاء كله تقريباً في الإطار الديني ،إذ كان معظمه في الزهد والمواعظ والحكم الدينية والأمثال . ولكن بعضاً من شعره خرج عن هذا الإطار ، حيث وردت له أبيات قليلة في المديح ،وأخرى في النسيب . وهي لقلة عددها ، وعدم إغراقه فيها لا تمثل اتجاهاً مغايراً لنهجه الذى سار عليه معظم شعره .

ففي المديح قال أبياتاً يمدح بها شخصاً اسمه عون ،لا يُدْرَى من هو إذ قال (١) :

بُورِكَ في عَوْنٍ وفي أعْوَانِهِ
وفي جَوارِيهِ وفي غِلْمانِهِ
وبارَكَ اللهُ على دِعَانِهِ (٢)
أطْعَمَنا عَوْنٌ على خُوانِهِ
يُعْطِي وما يُقْلِعُ عن جِفَانِهِ
وعن هَدَاياه وعَنْ إيوانِهِ

وقد وردت الأبيات في تهذيب تاريخ دمشق ،وعلّق عليها عبد القادر بدران محقق الكتاب بقوله : " أقول: روى الحافظ هذه الأبيات عن سابق من طريق أبي بكر الجوزقي ،ولم يذكر قصتها ،ولم يبيّن من هو عَوْن ،فنقلناها كما رويناها عنه "(٣) .

---

(١) انظر شعره ،مقطعة رقم ٢٧ .
(٢) دعانه : كذا وردت في الأصل ولعلها رعانه . انظر هامش ص ١٤٤ .
(٣) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ، لعبد القادر بدران ٦/ ٤٤ .

ولم أستطع معرفة شخصية عون هذا ،ولكني وجدت فيمن اسمه عون شخصًا ربما كان هو المقصود ، إذ كان في الفترة الزمنية التي عاش فيها سابق البربرى ،وعلى صلة بعمر بن عبد العزيز ،وله من الصفات ما يرجح أن يكون متصلًا بشاعرنا ،وهو عَوْن بن عبدالله ابن عتبة بن مسعود (١) ، وقد ترجم له الزركلي بقوله : " عَوْن بن عبدالله ابن عتبة الهذلي ،خطيب ،راوية ، ناسب ،شاعر . كان من آدب أهل المدينة . وسكن الكوفة ،فاشتهر فيها بالعبادة والقراءة . كان يقول بالإرجاء ،ثم رجع . وخرج مع ابن الأشعث ثم هرب ،وصحب عمر بن عبدالعزيز في خلافته " (٢) . ويقول عنه ابن قتيبة : " . . . وكان زاهدًا عالمًا " (٣) .

فعون هذا توفى نحو سنة خمس عشرة ومائة من الهجرة (٤) ، واشتهر بالزهد والوعظ ،وكان مقربًا من عمر بن عبد العزيز في خلافته ، الأمر الذى يرجح أن يكون هو الشخص الذى مدحه سابق البربرى في أبياته .

---

(١) انظر ترجمته في البيان والتبيين ١/ ٣٢٨-٣٢٩ . والمعارف لابن قتيبة ٢٥٠-٢٥١ . وحلية الأولياء ،لأبي نعيم ٤/ ٢٤٠-٢٧٢ . وتهذيب التهذيب ،لابن حجر ٨/ ١٧١-١٧٢ .

(٢) الأعلام للزركلي ٥/ ٩٨ .

(٣) المعارف ،لابن قتيبة ٢٥٠ .

(٤) الأعلام ٥/ ٩٨ .

ويبدو أن عوناً هذا قد ولي منصباً في الولاية ،إذ اقتصر مديح شاعرنا على الدعاء له بالبركة فيه و في أعوانه وجواريه وغلمانه ، جزاء له على كرمه وعطائه وإطعامه ،مع ذكر الخوان والإيوان والهدايا .

أما النسيب ففيه بيتان يذكّر فيهما بالعهد ، ويشكو من الهجر ، إذ يقول (١) :

أَذاكِرٌ أنتَ عَهْدَ الحَيِّ أَمْ ناسي
وليسَ للحُبِّ غيرُ الصبرِ من آسِي
إذا أرادَ امرؤٌ هَجْرًا جنى عِلَلاً
وظلَّ يضربُ أخماساً لأسْداسِ

والبيتان من النسيب العفيف ، إذ اكتفى الشاعر فيهما بالتذكير بعهد الحي ، والدعوة إلى التصبر في الحب ، شاكياً من هجر المحبوب ومماطلته في المواعيد .

والبيتان - وإنْ كانا في النسيب - فإنهما ينضويان تحت شعر الأمثال أيضاً ، إذ ضمّن الشاعر البيت الثاني منهما مثلاً من أمثال العرب ،وهو قولهم : ضرب أخماساً لأسداس ،وهو من أمثالهم في المماكرة (٢) .

هذه الأبيات القليلة - التي جاءت في أغراض أخرى غير الزهد ، والموعظة -تدل على أن شاعرنا على الرغم من التزامه الغرض الديني

---

(١) انظر شعره ، مقطعة رقم ١٤ .
(٢) مجمع الأمثال ، للميداني ١/٤١٨ .

فإنه تطرق إلى أغراض أخرى جاءت غير منافية لنهجه الذى سار عليه .
الأمر الذى يعيننا على أن ننسب إلى شاعرنا هذين البيتين:

وقد رابني مِنْ فِعْلِ عَيْنَيَّ أنها
إذا ذُكِرَتْ سُعْدَى اعتراني جُمودها

وفي الدَّمعِ لو جادتْ به العينُ شاهِدٌ
عليها فلم يَشْهد لنفسي شُهُودُها (١)

وقد ورد هذان البيتان منسوبين إلى سابق اليزيدى . والذى يرجح نسبتهما الى سابق البربرى ، لأن الاسم واحد ، والاختلاف في اللقب فقط ، إذ هو اليزيدى ، وربما كان البربرى لحقه التصحيف والتحريف .

---

(١) النصف الأول من كتاب الزهرة ، لأبي بكر الأصفهاني ١ / ٣٠٢ تحقيق لو يس نيكل .

الفصل الثانـــــي

أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في شعر سابق البربري

نتحدث في هذا الفصل عن المناهل التي استقى منها شاعرنا ألفاظه ، ومعانيه ، وأسلوبه في شعره .

وتدل القراءة المتأنية لهذا الشعر على أن شاعرنا قد صدر في معظم معانيه عن القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهّرة ، كما استعمل ألفاظاً وجملاً من هذين المصدرين الكريمين .

وليس هذا بعجيب على شاعر إسلامي ، وقف فنه الشعري على الغرض الديني ، وتثقف ثقافة إسلامية ، تعتمد أولاً على القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وفقاً للمنهج التعليمي المتبع في عصره ، وفي كل العصور الإسلامية . قبل أن تتبدل المناهج التعليمية في العصر الحديث .

وسنحاول في هذا البحث تلمس هذا التأثر بالكتاب والسنة ، لنبيّن إلى أيّ حد كان تأثر شاعرنا بهما ؟ وما كيفية هذا التأثر ؟ .

وهذا يستلزم تقسيم شعره إلى ثلاثة أقسام : ما تأثر فيـــــه بالقرآن الكريم في معانيه، وأساليبه ، وقصصه ، وصوره . وما تأثر فيـــه بالحديث الشريف في معانيه ، وألفاظه ، ثم ما تأثر فيه بالقرآن الكريم والحديث الشريف معاً في المعاني ، والأساليب .

أولا : تأثره بالقرآن الكريم :

تأثر سابق البربري بالقرآن الكريم تأثراً كبيراً ، فنهل من معانيه ، واقتبس من ألفاظه ، وجمله وأشار إلى قصصه ، واستلهم من صـــور ه .

وهذا يدل على أنه أطال التدبر للكتاب الحكيم ،وأدام التلاوة له ،حتى انطبع في وجدانه ،بمعانيه ،وألفاظه ،وصوره ، فصدر في شعره عن هذا الانطباع عفواً دون تكلفٍ أو عنت . وهذا يدعونا إلى أن نتلمس هذا في معاني شاعرنا ،وألفاظه ،وصوره ،لنتبيّن هذا التأثر بالقرآن .

أ - التأثر بمعاني القرآن الكريم :

تضمن شعر سابق البربرى حديثاً عن الموت ،والتعلق بالدنيا ، ومشاهد القيامة ،وعن الأخلاق الإسلامية . وهذه المعاني كثيرة الورود في القرآن الكريم ، لهذا كان القرآن هو المنبع الأول الذى نهل منه الشاعر معانيه .

فعن حقيقة الموت الثابتة ،يقول مذكراً بحتمية الموت على كل البشر (١) :

والموت جِسْرٌ لمنْ يَمشي على قَدَمٍ ... إلى الأمورِ التي تُخْشى وتُنتظَرُ

من كانَ في مَعْقِلٍ لِلحِرْزِ أَسْلَمهُ ... أو كان في خَمَرٍ لم يُنْجِه الخَمَرُ

فهو يذكّر بالموت في صورة جديدة ،ويعبّر عما بعد الموت بعبارة دقيقة مستخلصة من الآيات العديدة التي بيّنت رهبة المواقف التي يقفها البشر يوم القيامة ، والبعث ،والحشر ،والصراط والحساب ،

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ١٢ البيتين ٢١، ٢٢ .

إذ وردت الآيات الكثيرة تخبر عن شدة هذا اليوم وهوله ، ففي وصف القيامة ، يقول الله سبحانه : * القَارِعةُ ما القَارِعةُ . وما أدراكَ ما القارعةُ . يوم يكونُ الناسُ كالفَراشِ المَبْثوثِ . وتكونُ الجِبالُ كالعِهْنِ المَنْفوشِ * (١) .
وفي تصوير مواقف البعث ، يقول عز وجل * ونُفِخَ في الصورِ فإذا هُمْ من الأَجْداثِ إلى ربِّهم يَنْسِلُون * (٢) . وفي الحشر ، يقول تبارك وتعالى : * ونُفِخَ في الصورِ ذلكَ يومُ الوَعيدِ . وجاءَتْ كلُّ نفسٍ معها سائقٌ وشَهيدٌ * (٣) . وفي الميزان ، يقول السميع العليم : * ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ ليومِ القِيَامةِ فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئاً وإنْ كانَ مِثقالَ حبةٍ من خَردلٍ أتيْنا بها وكفى بِنا حَاسِبين * (٤) . فهذه الآيات - وغيرها كثير - تصور أهوال القيامة ومصاعبها ، وإذا عرفها الإنسان ، وعرف أنه صائر إليها لا ريب ، فإنه - لا بد - يعيش حياته بين الخوف والترقب . ولهذا كانت عبارة سابق البربرى دقيقة ، إذ أشار إلى الآيات القرآنية الكثيرة بعبارة وجيزة مبهمة ، توحي بالرهبة من تلك المشاهد التي يعرفها المسلم عن طريق الوحي . كما يبيّن أن الإنسان مُلَاحَقٌ بالموت ، لا يملك الفرار منه وإن تحرّز في معقل أو خلف ستار . وهذا مستمد من القرآن الحكيم ، كما في قوله عز وجل * أَيْنَما تكُونُوا يُدرِكْكُمُ الموتُ ولو كُنتمْ في بُروجٍ مُشَيَّدةٍ * (٥) .

ومن استمداده من المعاني القرآنية قوله (٦) :

إذا كَلَّ عِندَ الجُهْدِ يا نَفْسُ مَنْطِقِي
وعايَنتُ عِندَ الموتِ ما لا أُحاوِلُهْ

---

(١) سورة القارعة ، الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .
(٢) سورة يس ، آية ٥١ .
(٣) سورة ق ، الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .
(٤) سورة الأنبياء آية ٤٧ .
(٥) سورة النساء من الآية ٧٨ .
(٦) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ ، البيت : ١٣ .

فهو يتحدث عن غمرات الموت ،وما يخشاه من أهوالها . وقد استلهم معناه في عجز البيت من القرآن الكريم ،فقوله : " وعاينت عند الموت " مستمد من قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كُنتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عنكَ غِطاءَكَ فبَصُرُكَ اليومَ حَديدٌ ﴾ (١) . وقوله " ما لا أحاوله " مستمد من قوله تعالى ﴿ وجاءَتْ سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ ذَلِكَ ما كنتَ منه تَحِيدُ ﴾ (٢).

واستقى معناه من القرآن الكريم في بيتيه اللذين يقول فيهما (٣) :

والمَرْءُ يَصْعدُ رَيْعانُ الشبابِ بهِ
وكلُّ مُصْعَدةٍ يوماً سَتَنْحَدِرُ

وكلُّ بيتٍ خرابٌ بَعْدَ جِدَّتِهِ
ومِنْ وراءِ الشبابِ الموتُ والكِبَرُ

فرحلة الإنسان في الحياة ، التي يبدؤها ضعيفاً ثم يشتد عوده ويقوى في الشباب ،ثم يهرم ويضعف في الكبر. هذه المعاني مستلهمة من قوله سبحانه وتعالى ﴿ اللهُ الذى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثم جَعلَ من بَعْدِ ضَعْفٍ قوةً ثم جَعلَ من بعْدِ قوّةٍ ضعفاً وشَيْبةً يخلُقُ ما يشاءُ وهو العَليمُ القديرُ ﴾ (٤).

ومن المعاني القرآنية التي تتعلق بالموت واليوم الآخر استقى معنى هذا البيت (٥) :

إذا الأرض خفَّتْ بَعْدَ ثُقلِ جِبالِها
وخلَّى سَبيلَ البَحْرِ يا نفسُ ساحِلُهْ

---

(١) سورة ق آية ٢٢ .
(٢) سورة ق آية ١٩ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيتين ٢٩ ، ٣٠ .
(٤) سورة الروم آية ٥٤ .
(٥) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ البيت ٨ .

فتحدث عن خِفّة الأرض بعد ثقل الجبال فيها ،وعن اضطراب حال البحر. وهذه من علامات قيام الساعة التي أخبر عنها القرآن الكريم ، وصوّرها في آياته المحكمة ، فخفة الجبال يوم القيامة يصوّرها قوله عز وجل : ﴿ وإذَا الجِبالُ سُيِّرَتْ ﴾ (١) ،وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يومَ تكونُ السماءُ كالمُهْلِ ،وتكونُ الجِبَالُ كالعِهْنِ ﴾ (٢) . واضطراب حال البحر عند قيام الساعة يتبدّى من الآيات الآتية مثل قوله تعالى ﴿ وإذَا البِحارُ فُجِّرتْ ﴾ (٣) ،وقوله سبحانه ﴿ وإذا البحارسُجِّرتْ ﴾ (٤) فهذه الآيات مما يصوّر اضطراب نظام الكون يوم القيامة ،والذي عبّر عنه سابق البربرى في بيته في صورة جميلة مستوحاة من القرآن الكريم.

وفي التذكير بالرحيل ،يقول (٥) :

تِلْكَ المَدائنُ بالآفاقِ خَالِيَــــةً
أمْسَتْ خلاءً وذاقَ الموتَ بانيهـــا

وهذا المعنى مستمد من القرآن العظيم ،إذ ذكّر الله سبحانه بما تركته الأمم البائدة ،كقوم فرعون الذين تركوا جنّاتهم وزرعهم وأموالهم ميراثاً لمن بعدهم ،كما قال سبحانه ﴿ واتْرُكِ البَحْرَ رَهْوَاً إنهمْ جُنْدٌ مُغْرَقُون . كمْ تَرَكُوا من جنَّاتٍ وعيُون . وزُروعٍ ومَقَامٍ كَرِيمٍ . ونعمةٍ كانُوا فيها فاكِهِينَ . كذلك وأورثْنَاهَا قوماً آخَرين ﴾ (٦) .

---

(١) سورة التكوير الآية ٣ .
(٢) سورة المعارج ،الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٣) سورة الانفطار ،آية ٣ .
(٤) سورة التكوير ،آية ٦ .
(٥) انظر شعره ،قصيدة ٣٦ ، البيت ١٣ .
(٦) سورة الدخان ،الآيات : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

ومن المنهل القرآني استمد بيته الذى يفاضل فيه بين متاع الدنيا ونعيم الآخرة ،ليرجح كفة الآجلة على العاجلة ،فيقول (١) :

وتطلبُ في الدنيا المَنازِلَ والعُلا
وتَنْسى نعيماً دائِماً لا تُزايِلُهْ

وقد وردت هذه المفاضلة بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة في القرآن الكريم ، كثيراً ،إذ بيّن الله سبحانه أن ثواب الآخرة خير وأبقى من متاع الدنيا في آيات كثيرة ،نذكر منها قوله عز وجل : * زُيِّنَ للناسِ حُبُّ الشَّهواتِ مِنَ النساءِ والبنينَ والقَناطيرِ المُقَنْطرةِ من الذهبِ والفِضَّةِ والخَيْلِ المُسَوَّمةِ والأنْعامِ والحَرْثِ ذَلِكَ متاعُ الحَياةِ الدنيا واللهُ عِندَهُ حُسْنُ المآب . قُلْ أؤُنبئكمْ بخيرٍ من ذَلِكُمْ للذينَ اتَّقَوْا عند ربهمْ جناتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فيها وأزْواجٌ مُطَهَّرةٌ ورِضوانٌ من اللهِ واللهُ بصيرٌ بالعِبادِ * (٢) .

فالله -سبحانه- يبيّن جهل البشر الذين يفضلون المتاع الدنيوى الفاني ، وينبههم إلى المتاع الدائم الذى يستحق السعي له ،ألا وهو نعيم الآخرة ،وفي هذا المعنى كان بيتسابق البربرى .

ومن المنهل القرآني استقى سابق البربرى معانيه في أبياته التي دعا فيها إلى حسن الخلق ،أو بيّن فيها فضل المبادىء السلوكية التي حض عليها الإسلام وحبّب فيها ،ومن هذا بيانه فضل القناعة بالرزق المقسوم، إذ قال (٣) :

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ البيت : ٢٤ .
(٢) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٤ ، ١٥ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ٣٦ ،البيت ٢ .

واللهِ ما قَنِعتْ نفسٌ بما رُزِقَــــتْ

من المَعيشةِ إلا سوفَ يكْفِيهــــا

فهو يبيّن فضل الرضا بما قسمه الله من الرزق ،بأن من قنع برزقــــه شعر بالرضى والكفاية. وهذا المعنى مستمد من القرآن الكريم ، إذ أشار القرآن إلى مسألة قسمة الأرزاق ،ودعا الإنسان إلى الرضا بالمقسوم له ،وعدم التطلع إلى ما عند الغير ،كما في قوله تعالى * ولا تَمُدنَّ عينَيكَ إلى ما متّعنَا به أزواجًا منهم زَهْرةَ الحياةِ الدنيا لِنَفْتِنَهمْ فيهِ ورِزْقُ ربكَ خيرٌ وأبْقى * (١) . كما أمر أن ينفق الإنسان مما آتاه الله قدر استطاعته ،إذ قال سبحانه *لِيُنفِقْ ذو سَعةٍ من سَعَتِهِ ومَنْ قُدِرَ عليه رِزْقُه فلْيُنفِقْ ممــا آتاهُ اللهُ لا يُكلِّفُ اللهُ نفسًا إلا ما آتاها سَيجْعلُ اللهُ بَعدَ عُسْرٍ يُسْرا * (٢) .

ومن المعاني القرآنية التي استمدها سابق البربرى دعوته إلى مجانبة الهوى وعدم اتباعه ،إذ قال (٣) :

وهَجْرُ الهَوى للمرءِ ،فاعلمْ ، سَعادةٌ

وطُولُ الهَوى رَيْنٌ على القَلْبِ رائِنُ

وهذا المعنى مستمد من آيات الكتاب الحكيم ،فالدعوة إلى ترك الهوى ، وعدم السيرفي سبيله مستقاة من أمر الله سبحانه * ...ولا تَتّبعِ الهَوى فيُضِلّكَ عن سَبيلِ اللهِ ... * (٤) . كما أن طول إلف الإنسان لملا زمة هواه يغشى القلب ويميته ،كما بيّن القرآن في قوله تعالى * كلّا بلْ رانَ على قُلوبِهمْ ما كانوا يكْسِبُونَ * (٥) .

---

(١) سورة طه آية ١٣٢.

(٢) سورة الطلاق ،آية ٧.

(٣) انظر شعره ، مقطعة ٣٠ البيت : ٣.

(٤) سورة ص ،من الآية ٢٦.

(٥) سورة المطففين آية ١٤.

ويدعو سابق البربري إلى التثبُّت من الحقيقة عند سعي الواشين بين الأصدقاء، للمحافظة على صلة الصداقة، إذ يقول (١) :

إذا الواشي نعى يوماً صديقاً
فلا تدعِ الصديقَ لِقولِ واشِ

وهذه النصيحة - وإن كانت خاصة بالأصدقاء في بيت شاعرنا - فإنه استمدها من المعنى العام في الآية الكريم * ياأيُّها الذينَ آمنُوا إنْ جاءكمْ فاسِقٌ بنبأٍ فتبيَّنوا أنْ تُصيبُوا قوماً بِجَهالةٍ فتُصْبِحُوا على ما فَعلْتُم نادِمينَ (٢) *. فالسعاية بين الناس أمر محظور في الإسلام، كما أن السرعة في تصديق النمّام منهي عنها أيضاً . وقد استفاد شاعرنا من هذا النهي العام في إطار المحافظة على الأصدقاء.

ومن المعاني التي استمدها من الكتاب الحكيم، مفاضلته بين العالم بالتقوى، والجاهل بها، إذ يقول (٣) :

وليس ذُو العِلْمِ بالتّقوى كجاهِلِهِ
ولا البَصيرُ كأعْمى ما لهُ بَصَرُ

وهذه المفاضلة موجودة في القرآن الكريم، ولكنها ليست خاصة بالعلم بالتقوى، وإنما في مطلق العلم، كما في قوله عز وجل : * ... قُلْ هَلْ يَسْتوِي الذينَ يعلمُونَ والذينَ لا يعلمُون .. (٤) * . والمفاضلة بين الأعمى والبصير في عجز البيت مستمدة أيضاً من القرآن الكريم في قوله تعالى : * ... قُلْ هَلْ يسْتوِي الأعْمَى والبَصِيرُ .. (٥) * .

---

(١) انظر شعره، مقطعة ١٥ .
(٢) سورة الحجرات آية ٦ .
(٣) انظر شعره قصيدة ١٢ البيت : ١١ .
(٤) سورة الزمر من الآية ٩ .
(٥) سورة الرعد، من الآية ١٦

ومن المعاني التي استلهمها من كتاب الله عز وجل دعوته إلى طلب العلم والسؤال عند الجهل ، إذ يقول (١) :

واسْتخبرِ الناسَ عما أنتَ جاهِلُــــهُ
إذا عَمِيتَ ، فقد يَجْلُو العَمى الخبرُ

وصدر البيت مستلهم من معنى قوله تعالى ﴿ ... فاسْأَلوا أهلَ الذكْرِ إنْ كنتمْ لا تَعلمُونَ ﴾ (٢) .

ومن معانيه المستهدة من القرآن الحكيم دعوته إلى الصبر على القضاء والقدر ، إذ يقول (٣) :

واصْبِرْعلى القَدرِ المَجْلُوبِ وارضَ بـــهِ
وإنْ أتاكَ بِما لا تَشْتَهي القَـــدَرُ

فالصبر على قضاء الله وقدره أمر مطلوب من المسلم ، وقد ورد الأمر بالصبر في القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى ﴿ ... واصْبِرْعلى ما أَصابكَ إنّ ذلكَ من عَزمِ الأمورِ ﴾ (٤) .

ومن المعاني التي استقاها من معاني القرآن الكريم ، ومن تعاليمه السمحة ، الدعوة إلى تجنب الظلم والبغي على الآخرين ، إذ عاقبة الظلم والبغي مردودة على الظالم ، وفي هذا المعنى يقول (٥) :

لا تَحْفِرنْ بِئْراً تُرِيدُ أخاً بِهــَـا
فإنكَ فيها ، أنــتَ ، من دُونهِ تَقَعْ

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ ، البيت : ٥ .
(٢) سورة النحل من الآية ٤٣ .
(٣) انظر شعره قصيدة ١٢ البيت ٣ .
(٤) سورة لقمان من الآية ١٧
(٥) انظر شعره ، مقطعة ١٧ .

كذاكَ الذي يَبْغي على الناسِ ظَالِماً
تُصِبْهُ - على رَغْمٍ - عواقبُ ما صَنَعْ

والنهي عن الظلم والبغي كثير في القرآن الكريم ،وعاقبة الظالم واضحة فيه ،ولهذا فإن المعنى العام للبيتين منطلق من تحذير الله عز وجل في قوله * ... إنه لا يُفْلِحُ الظّالِمُون ...(١) * أما معنى البيت الأول منهما فمستلهم من قوله تبارك وتعالى * ... ولا يَحِيقُ المكرُ السيءُ إلا بأهْلِهِ ...(٢) * . وأما معنى البيت الثاني منهما فمستقى من قول السميع العليم : * ... ياأيُّها الناسُ إنما بَغْيُكم على أنْفسِكمْ ...(٣) *

وبهذين البيتين نختم الأبيات التي استمد سابق البربرى معانيها بصورة واضحة من القرآن الكريم.

ب - التأثر بالألفاظ والأساليب القرآنية :

كما وجد سابق البربرى في القرآن الكريم منهلًا عذبًا استقى منه الكثير من معانيه الشعرية ، فقد وجد فيه أيضًا مصدرًا أساسيًا للكثيرمن ألفاظه وأساليبه الشعرية. وهذا دليل واضح على أن شاعرنا قد أدام التدبر والتلاوة للقرآن الكريم ، حتى تشبّعت به روحه ، وتغذّى به عقله ،فجاء شعره مكتسيًا حُلّةً قرآنية قرّبته من الأفهام والعقول ،وحبّبته إلى النفوس.

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٢١ .
(٢) سورة فاطر ،من الآية ٤٣ .
(٣) سورة يونس ،من الآية ٢٣ .

وهذا يدعونا إلى بيان آثار هذا التأثر بالقرآن في شعره - ألفاظه وجمله - إذ استعمل في شعره ألفاظاً من القرآن الكريم ، كما اقتبس بعض الجمل القرآنية ، دون أن يتقيد بالنقل الحرفي .

فمن ألفاظ القرآن الكريم ، التعبير عن الخوف من الموت بالفرار ، وقد استعمله سابق البربري في قوله (١) :

فلا الإقامة تُنْجي النفسَ من تلـفٍ
ولا الفِرارُ من الأحْداثِ يُنْجيهـا

فلفظة " الفرار " مستقاة من قوله عز وجل ﴿ قل لن ينفعكُمْ الفِرارُ إنْ فررتُمْ من الموتِ أو القتلِ وإذاً لا تُمتّعون إلا قليلاً ﴾ (٢) . ولكن شاعرنا استعمل كلمة " الفرار " من الأحداث المؤدية إلى الموت ، بينما جاء الفرار في الآية الكريمة من الموت أو القتل ، مما يبيّن أنه لم يقيّد نفسه بالاقتباس الحرفي من الآية الكريمة .

ومن استعماله ألفاظ القرآن الكريم ، قوله في صفة يوم القيامة (٣) :

وبعدَ دُخولِ القَبرِ يا نفسُ كُرْبـةٌ
وهَوْلٌ يُشيبُ المُرْضِعينَ زَلا زِلُـهْ

فجعل أهوال يوم القيامة بما فيها من بعث وحشر وحساب تشيب المرضعين . وهذا الوصف مستلهم من القرآن الكريم في المعنى واللفظ ، وذلك في

---

(١) انظر شعره قصيدة ٣٦ البيت : ٤ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية ١٦ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ البيت : ٧ .

قوله سبحانه و تعالى * فَكَيفَ تَتَّقُونَ إنْ كَفرتُمْ يوماً يَجْعلُ الوِلْدانَ شِيباً * (١) . ولكن المسند إليه في الآية يختلف عنه في البيت ،إلا أن معناهما متقارب . كما أنه سمى أحداث الساعة بالزلازل و وهذا مستمد من ألفاظ القرآن الكريم ،كما في قوله تبارك و تعالى : * ياأيُّها الناسُ اتَّقوا ربَّكُمْ إنَّ زَلزلةَ الساعةِ شيءٌ عَظِيم * (٢) .

و في حديثه عن الحساب والميزان يوم القيامة استعمل ألفاظاً من القرآن الكريم ،وذلك إذ يقول (٣) :

فلا يَرْتَجِي عَونًا على حَمْلِ وِزْرِهِ
مُسيءٌ ،فأولى الناسِ بالوِزْرِ حَامِلُهْ

فأطلق على الذنوب والآثام لفظة "وزر" وهذا مستمد من القرآن الكريم، كما في قوله تعالى *. . . ولا تَكْسِبُ كلُّ نفسٍ إلا عليها . ولا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أخرى ثم إلى ربِّكم مَرْجِعُكُم . . * (٤) . كما أن حمل الوزر وحامله مستقى من القرآن الكريم ،كما في قوله عز وجل : * ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخْرى وإنْ تَدْعُ مُثْقلةٌ إلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ منه شيءٌ ولو كانَ ذا قُرْبى * (٥) . فمعنى البيت وألفاظه وصورته مستوحاة من هذه الآية الكريمـة .

---

(١) سورة المزمل آية ١٧ .
(٢) سورة الحج آية : ١ .
(٣) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ البيت: ٩ .
(٤) سورة الأنعام من الآية ١٦٤ .
(٥) سورة فاطر من الآية ١٨ .

وفي وصيته بشكر الله و هجر الدنيا الغرور يستمد من معاني القرآن الكريم وألفاظه ،إذ يقول (١) :

لا تبْطَرُوا واهْجُروا الدنيا فإنَّ لها
غِبًّا وَخِيمًا ، وكُفْرُ النِّعمةِ البَطَرُ

فنهيه عن البطر في صدر البيت مستفاد من تحذير الله سبحانه وتعالى لعباده في قوله * وكم أهْلَكْنا من قَريةٍ بَطِرتْ مَعيشَتِها .. * (٢) ،وأما حديثه عن كفر النعمة في عجز البيت فمستقى مِن تحذير الله سبحانه وتعالى في قوله * وضَربَ اللهُ مثلًا قريةً كانت آمِنةً مُطْمئنةً يأْتيها رِزْقُها رَغدًا من كلّ مكانٍ فكفرتْ بأنْعُمِ اللهِ فأذاقها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوفِ بما كانوا يصْنَعُون * (٣) .

ومن تأثره بأسلوب القرآن الحكيم اقتباسه لجمل أو آيات كاملة منه ، سواءً كان الاقتباس نصًّا في الآية ،أو محوّرًا عنها بالتقديم أو التأخير حسب ما تقتضيه ضرورة الوزن.

فمن اقتباسه آية كاملة قوله (٤) :

ومِنْ جَهُولٍ مُكْثِرٌ مالَـــهُ
ذَلِكَ تقديرُ العزيزِ العَليمْ

فعجز البيت جزء من آية مقتبسة من القرآن الكريم ، استعملت في غير السياق الذى جاءت فيه ،وهي قوله تعالى * والشمسُ تَجْرى لِمُسْتقرٍ لها ذَلِكَ تقديرُ العزيزِ العَليم * (٥) .

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ١٢ البيت ٤٦ .
(٢) سورة القصص من الآية : ٥٨ .
(٣) سورة النحل آية ١١٢ .
(٤) انظر شعره مقطعة ٢٤ البيت : ٣ .
(٥) سورة يس آية ٣٨ ، وسورة فصلت من الآية ١٢ وسورة الأنعام من الآية ٩٦ .

ومما تأثر فيه بمعنى القرآن وأسلوبه دعوته إلى التعاون على الخير، إذ قال (١) :

تَعاونْ على الخَيراتِ تَظفرْ ،ولا تكُنْ
على الإثمِ والعُدْوانِ ممنْ يُعاوِنُ

فهو يحث على التعاون على الخيرات مستمداً المعنى والألفاظ من الآية الكريمة ﴿ ... وتَعاونُوا على البِرّ والتقْوى ولا تَعاونُوا على الإثمِ والعُدْوانِ ﴾ (٢) لكن الملحوظ أن اقتباسه للآية لم يكن كاملاً ،إذ اقتضته ضرورة الوزن أن يستبدل بالبر والتقوى في الآية الكريمة لفظة الخيرات في بيته ،وهي جامعة للبر والتقوى . كما اضطره الوزن إلى بعض التحوير في اقتباسه من كلمات الآية - بالتقديم والتأخير - وهذا لا يؤخذ عليه ،لأن الاقتباس من القرآن والحديث لا يُشترط أن يكون حرفياً .

ومن الجمل التي استمدها من القرآن الكريم ،قوله حاضاً على التزوُّد بالتقوى (٣) :

إنّ التُّقى خيرُ زادٍ أنتَ حامِلُـــــهُ
والبِرُّ أفضلُ شـيءٍ نالَه بَشـــرُ

فصدر البيت مقتبس من قوله تعالى ﴿ ... وتزوّدوا فإنّ خيرَ الزادِ التقوى .. ﴾ (٤)

---

(١) انظر شعره ،مقطعة ٢٩ البيت ١ .
(٢) سورة المائدة من الآية ٢ .
(٣) انظر شعره قصيدة ١٢ البيت : ٨ .
(٤) سورة البقرة من الآية ١٩٧ .

مع عدم التقيّد بنص الآية الكريمة ، إذ طرأ عليها تغيير يسير اضطرته إليه ضرورة الوزن " ولا بأس بتغيير يسير لأجل الوزن أو غيره "(١) كما هي القاعدة في الاقتباس .

ومن هذا اللون من التأثر بالأسلوب القرآني ، قوله (٢) :

حتى متى أنا في الدنيا أخو كلفٍ
في الخدّ منّي إلى لذّاتها صَعَرُ

وهو تعجب من الكلف بالدنيا ، مستلهم من النهي الآلهي : * .. ولا تُصعِّرْ خدكَ للناسِ .. * (٣) ، ولكنه يختلف عنه في الجار والمجرور ، إذ الآية تنهى عن تصعير الخد للناس ، والبيت يدل على الإقبال على الدنيا بالوجه . مما يبين أن الاقتباس لم يكن حرفياً متكلّفاً عند سابق البربرى .

جـ - التأثر بالقصص القرآني :

تأثر سابق البربرى بالقصص القرآني ، فأشار إليه - في شعره - إشارات قليلة ، مستجلياً العبرة والعظة منه ، دون أن يتأثر بمعانيه ، أو يقتبس ألفاظه ، مما جعل تأثره بالقصص القرآن يسيراً ، إذ لم يُشر إليه إلا في ثلاثة مواضع ، مستنبطاً عبرته ، فكان بذلك على العكس من الفرزدق الذى قيل عنه : " أكثر الفرزدق من الإشارة إلى القصص القرآني في شعره ... "(٤)

---

(١) انظر الإيضاح للخطيب القزويني ٢ / ٥٧٨ .
(٢) انظر شعره قصيدة ١٢ البيت : ٢٤ .
(٣) سورة لقمان ، من الآية ١٨ .
(٤) انظر أثر الإسلام في شعر الفرزدق للدكتور مصطفى عبد الواحد ٦١ .

ومن إشارات سابق البربرى إلى القصص القرآني ، ذكره قوم عاد وثمود ، إذ يقول (١) :

وصُبِّحتْ قومُ عادٍ في دِيارِهِـــم
. بِمقْطعٍ ، يومَ عادتهمْ عوادِيهـــا

وتُبِّعاً وثمودَ الحِجْرِ غادرهـــمْ
ريبُ المنونِ رميمًا في مَغانِيهـــا

فالشاعر يعظ بعدم الاغترار بالعز والمنعة والجبروت والعتو ، مستلهماً في هذا هلاك الأمم الذين ذكرهم القرآن الكريم ، فقوم عاد وثمود لم يدفع عنهم الهلاك ما كانوا فيه من قوة و منعة ، بل أهلكهم الله بذنوبهم ، فغادرهم ريب المنون رميماً . ولكنا نلحظ أن شاعرنا لم يتقيد بخبر القرآن في هلاك عاد وثمود ، فالقرآن قد ذكر هلاك قوم عاد في آيات منها قوله تعالى * وأمّا عادٌ فأُهْلِكوا بريحٍ صَرْصرٍ عاتيةٍ . سخَّرها عليهم سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسومًا . فترَى القومَ فيها صَرْعَى كأنهم أعْجازُ نَخلٍ خاويةٍ . فهلْ ترَى لهم من باقيةٍ * (٢) . فبيّن فيها أن هلاكهم كان بالريح الصرصر العاتية ، كما بيّن في آيات أخرى أن هلاكهم كان بالريح العقيم (٣) ، والصاعقة (٤) ، في حين أن سابقًا البربرى ذكر أن هلاكهم كان بمقطع لم يحدده ، ولعله أراد به مقطع الحق الذى يُقطع به الباطل (٥) .

---

(١) انظر شعره قصيدة ٣٦ البيتين : ١٦ ، ١٧ .
(٢) سورة الحاقة ، الآيات : ٦ ، ٧ ، ٨ .
(٣) سورة الذاريات آية : ٤١ .
(٤) سورة فصلت آية : ١٣ .
(٥) انظر لسان العرب لابن منظور مادة قطع ٨ / ٢٨٢ .

كما ذكر القرآن الكريم هلاك ثمود بالصاعقة في قوله تعالى : * وفي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لهم تمتَّعوا حتى حينٍ . فَعَتَوا عن أمرِ ربهمْ فأخذتْهُمُ الصاعِقةُ وهم يَنظُرون * (١) . وبيّن في آيات أخرى أن هلاكهم كان بالرجفة (٢) ،والطاغية (٣) ،والصيحة (٤) . في حين أن سابقاً البربرى يذكر أن ثمود وتبّعاً أهلكتهم ريب المنون : أى حوادث الدهر (٥) .

وهذا يبيّن عدم تقيّد سابق البربرى بألفاظ القرآن في استلهامه لقصصه ،واكتفائه بمضمون هذا القصص . مما يدل على أن الشاعر الإسلامي لم يلتزم الاقتباس الحرفي من القرآن ،وانما تصرّف في اقتباسه حسب ماتقتضيه صناعته لفنه الشعرى .

وأشار إلى قصة قوم عاد أيضاً ، حين قال (٦) :

أَلْقَى على الجِبلِ من عادٍ كلاكِلَهُ
وقومِ هُودٍ ،فهم هامٌ وأصْداءُ

فهو يشير إلى قصة قوم عاد وهلاكهم ،ولكنه عطف عليهم قوله : "وقوم هود" . والمعروف : أن عاداً هم قوم هود ،كما أخبر القرآن الكريم ، في قوله تعالى * وإلى عادٍ أخَاهُمْ هوداً قال يا قومِ اعبُدُوا اللهَ ما لكم مِنْ إلهٍ غيرُه ،أفلا تَتَّقون * (٧) . وقد جمع بينهما سابق البربرى

---

(١) سورة الذاريات ،الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) سورة الأعراف آية ٧٨ .
(٣) سورة الحاقة آية : ٥ .
(٤) سورة الحجر آية ٨٣ .
(٥) انظر لسان العرب مادة ريب ١/٤٤٢ .
(٦) انظر شعره ،مقطعة ٢ البيت : ٢ .
(٧) سورة الأعراف آية : ٦٥ .

بواو العطف للمشاركة ،وكأنهما مختلفان ،ولعله أراد التوكيد على هلاك قوم عاد ، إذ لا يضطره الوزن هنا لأنه كان بإمكانه أن يقول : وقوم نوح ، أو لوط . الأمر الذى جعل هذا مما قد يؤخذ عليه . . كما أنه أخبر عن عاد أنهم : هام وأصداء ،وهذا لم يرد في القرآن الكريم . مما يدل على أن شاعرنا تصرف في كل القصة ، مكتفياً بأخذ العظة منها .

ومن إشاراته إلى القصص القرآني ،قوله (١) :

أَبعدَ آدمَ تَرْجُون الخُلودَ ،وهلْ
تَبْقى فُروعٌ لِأَصلٍ حِينَ ينْقعِرُ

فهو يذكّر بحتمية فناء البشر ،مشيرًا إلى فناء أبي البشر آدم . ولم يرد في قصة آدم في القرآن حديث عن موته ،ولكن ذلك مفهوم بالضرورة من حديث القرآن عن حتمية فناء البشر ،وعدم خلودهم ، كما في قوله تعالى * وما جَعلْنا لِبشرٍ من قبْلِكَ الخُلْدَ أفائِنْ مِتَّ فهمْ الخَالِدونَ . كلُّ نفسٍ ذائِقةُ الموتِ وَنَبلوكمْ بالشرِّ والخَيرِ فِتنةً وإلينا تُرْجَعونَ * (٢) .
فمن فناء جميع البشر الذى أخبر عنه القرآن الكريم ،ذكّر سابق البربرى بفناء آدم أبي البشر جميعًا ،ليؤكد موعظته في التذكير بالرحيل عن الدنيا .

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ١٢ البيت : ٣٦ .
(٢) سورة الأنبياء ،الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

د - التأثر بالصور القرآنية :

تأثر سابق البربرى بالصور القرآنية ،فصدر في بعض أبياته عن الصور القرآنية ، دون أن يتقيّد بالنص القرآني الذى استقى منه صورته ، فهو تارة يستلهم الصورة ومعناها ، وأخرى يستوحي الصورة بألفاظها وهذا دليل على حريته في الاستفادة من القرآن الكريم عفواً دون تعنُّت.

فمن الصور القرآنية التي استفادها في شعره ،قوله (١) :

لا يَنفعُ الذكْرُ قلباً قاسياً أبـداً
وهـلْ يلينُ لِقـولِ الواعظِ الحَجَرُ

فهو يصف القلوب القاسية على الوعظ والتذكير بالحجارة ، وقد انطلق في معناه وألفاظه من قوله جل وعز * ... فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أولئكَ في ضَلالٍ مُبينٍ * (٢) . ومستفيد في تصوير قلب القاسي على المواعظ بالحجر من قوله عزوجل * ثم قَستْ قُلوبُكمْ مِنْ بَعدِ ذلكَ فهي كالحِجارةِ أوأشدُّ قسوة... * (٣) ، وذلك دون أن يتقيّد في إطار المعنى القرآني الذى وردت فيه الصورة.

وقريب من هذا المعنى قوله أيضاً (٤) :

ولا أرى أثراً للذكْرِ في خَلَـدى
والحبلُ في الحَجرِ القاسي له أثـرُ

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ١٢ ، البيت ٢٠.
(٢) سورة الزمر ،من الآية ٢٢.
(٣) سورة البقرة من الآيـة ٧٤.
(٤) انظر شعره ،قصيدة ١٢ البيت : ٢٥.

فهو ينعى على نفسه عدم تأثر قلبه بالذكر ، وفي عجز البيت ،حين مثّل بالحجر الذى أثّر فيه الحبل مشبهاً القلب القاسي على الذكر بالحجر ، استلهم الصورة الكلية لمعنى قوله تبارك وتعالى : *ثم قَستْ قلوبكم مِنْ بعدِ ذلكَ فهي كالحِجارةِ أو أشدُّ قسوةً وإنّ مِنَ الحِجارةِ لَمَا يتفجّرُ منه الأنهارُ وإنّ منها لما يشّقّقُ فيخْرجُ منه الماءُ وإنّ منها لما يَهْبِطُ من خَشْيةِ اللهِ وما اللهُ بغافلٍ عمّا تَعملُون* (١) .
ولكن الشاعر لم ينقل الصورة التي في الآية بنصها ، إذ لم تذكر الآية أثر الحبال في الحجارة ،كالذى في الصورة التي ضمّنها سابق البربرى في بيته ،،مستلهماً الصورة العامة التي في الآية الكريمة .
والبيت مُستَمَدٌ أيضاً من معنى قوله تعالى : * لو أنزلْنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَهُ خاشِعاً متصدّعاً من خَشْيةِ اللهِ ..* (٢) وبهذا يكون قد استمد من المعنى القرآني وصورته وألفاظه .

ومن الصور التي استوحاها من القرآن الكريم ،قوله (٣) :

فلا تَنْتكِثْ بعدَ الهُدَى عن بصيرةٍ
كما نكثَ الحبلَ المُضاعَفَ فاتِلُهْ

فهو ينصح بالوفاء بعهد الله ،وعدم الرجوع عن الحق بعد الهدى ،

---

(١) سورة البقرة ،آية : ٧٤ .
(٢) سورة الحشر من الآية : ٢١ .
(٣) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ البيت : ٢٣ .

وقد استلهم معناه وصورته من قول الله سبحانه ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً .. ﴾ (١) . فالمثل الذى مثل به شاعرنا مستقى من صورة المثل الموجودة في الآية الكريمة ، كما أن الألفاظ مقتبسة منها أيضاً . ومع ذلك جاء تمثيل الشاعر طيعاً سهلاً دون أن يتكلف له .

ومن الصور التي استلهمها سابق من القرآن الكريم ، قوله (٢) :

إذا قضت زمرٌ آجالها نزلت
على منازلها من بعدها زمر

فهو يذكر أن الأمم تخلف بعضها في الحياة ، مستعملاً في معناه التصوير للأمم التي تقضي آجالها ثم تأتي بعدها أمم أخرى . وهذه الصورة التي رسمها سابق البربرى مستمدة من معاني كثير من الآيات القرانية ، منها قوله تبارك وتعالى ﴿ هو الذى جعلكم خلائف في الأرض .. ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ (٤) .

وقوله عز وجل ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ (٥) .

---

(١) سورة النحل ، الآيتان ٩١ ، ٩٢ .
(٢) انظر شعره ، قصيدة ١٢ البيت : ٤٣ .
(٣) سورة فاطر ، من الآية ٣٩ .
(٤) سورة يونس آية ١٤ .
(٥) سورة الأنعام آية ٦ .

فهذه الآيات - وغيرها كثير - تخبر عن تتابع الأمم على الأرض، وتدل على أن لكل أمة أجل معلوم، تخلفها بعد ذلك أمة أخرى، وهذا هو معنى سابق البربري الذي ضمّنه الصورة التي رسمها.

وهذه المشاهد التي بيّنا استمداد سابق البربري لها من القرآن الكريم تؤكد ما قيل عن حرية الشاعر المسلم في التأثر بالمعاني والألفاظ القرآنية: "في أنه لا ينقلها بنصها ... وإنما يتخذها أساساً يبني عليه صوره وفق مقتضيات موضوعه"(١). فسابق البربري استمد المعاني، والألفاظ والصور من القرآن الكريم ثم شكّلها في شعره بالشكل الذي يناسب معناه وموضوعه دون أن يتقيّد بالنص القرآني. الأمر الذي جعل تأثره بالقرآن طيعاً سهلاً يأتي عفواً في غير إجهاد.

ثانيا - تأثره بالحديث النبوي الشريف:

كما تأثر سابق البربري بالقرآن الكريم، فقد تأثر بالحديث النبوي الشريف، فاستمد من معانيه ومن ألفاظه، واقتبس جملاً منه. وليس هذا بغريب عليه، إذ أنه عاش في عصر وُجّه فيه الاهتمام إلى جمع الحديث وتدوينه وتعليمه. كما أنه روى بعضاً من أحاديث المصطفى الكريم - صلى الله عليه وسلم - فذُكِرَ بين رواة الحديث. ولهذا فإننا نهتم في هذا المبحث ببيان الأبيات التي تأثر فيها بالحديث النبوي الشريف، في المعاني والأسلوب، ذلك أنه في بعض الشعر انطلق من معنى حديثي وفي بعضه اقتبس ألفاظاً أو جملاً من الحديث النبوي الشريف.

---

(١) انظر أثر الإسلام في شعر الفرزدق، للدكتور مصطفى عبد الواحد ٨١.

أ- التأثر بمعاني الحديث :

فمن تأثره بمعنى الحديث النبوى الشريف ،حديثه عن فناء الجسد وخوائه إذا فارقته الروح ،إذ قال (١) :

إذَا الجَسدُ المعمورُ زايلَ روحَهُ
خَوى ،و جمالُ البيتِ يا نفسُ آهِلُهْ

فهو يرى أن الجسد تزينه الروح وتجمّله ،فإذا ما فارقت الروح الجسد فني وخوى وفقد زينته . وهذه الصورة للجسد بعد فقده الروح مستمدة من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم - " ... من استحى مِنَ اللهِ حَقَّ الحياءِ فليَحْفظِ الرأسَ وما حَوى ،وليحفظِ البطنَ وما وَعى ، وليذْكُرِ الموتَ والبِلَى ... " (٢) . فذكر البلى بعد الموت ، لأن البلى يكون بتفتّت الأعضاء ،وتشوّه صورة الجسد بعد أن تفارقه الروح . وهذا هو الخواء الذى أراده سابق البربرى في بيته .

ومن تأثره بمعنى الحديث الشريف ،قوله (٣) :

وللنفُوسِ -وإنْ كانتْ على وَجَلٍ
مِنَ المنيةِ آمالٌ تُقوّيها

فالنفس الإنسانية ترقب المنية وجلة منها ،ومع ذلك فإن طول الأمل في الدنيا يشدّها إليها ،وينسيها خوفها ،إذ حُبُّ الحياة غريزة في

---

(١) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ البيت ١٠ .
(٢) مسند أحمد بن حنبل ١/٣٨٧ .
(٣) انظر شعره مقطعة ٣٨ البيت : ١ .

الإنسان ،كما أخبر الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم - في قوله : " قلبُ الشيخِ شابٌّ في حُبِّ اثنتينِ : طولُ الحياةِ و حُبُّ المالِ "(١)
وفي قوله : " يَهْرَم ابنُ آدمَ وتَشِبُّ منه اثنتانِ : الحِرْصُ على المالِ والحِرْصُ على العُمُرِ "(٢). ومن هذين الحديثين استمد شاعرنا معنى بيته الذى تحدّث فيه عن طول الأمل في الحياة.

ومما استمده من معنى الحديث الشريف أبياته التي تحدث فيها عن المبادىء الخلقية السمحة ،فهو يقول متحدثاً عن طمع النفس البشرية (٣) :

لا يُشْبِعُ النفسَ شيءٌ حِينَ تُحْرِزُه
ولا يزالُ لها من غيرِه وَطَرُ
ولا تزالُ -وإنْ كانتْ لها سَعَةٌ-
لها إلى الشيءِ لم تَظفَرْ به نَظَرُ

فالنفس البشرية لا تقف عند حدٍّ في أطماعها ولا تقنع بشيءٍ أحرزته وإنما هي متطلعة دائماً إلى الزيادة في كل متطلباتها . وهذا المعنى مستمد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أنّ لابنِ آدمَ مِثْلَ وادٍ مالاً ، لأَحَبَّ أن له إليه مِثْلَه ، ولا يملأُ عينَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ ،ويتوبُ اللهُ على مَنْ تابَ "(٤) .

---

(١) صحيح مسلم ،كتاب الزكاة ١١٥/٧/١٣٨.
(٢) المصدر نفسه ،والجزء والصفحة.
(٣) انظر شعره قصيدة ١٢ البيتين ١٤ ، ١٥.
(٤) صحيح البخارى ، رقاق ١٠ ، ٨/ ١١٥.

ومن المبادىء الخلقية السمحة التي دعا إليها ، حضه على طلب العلم ، إذ قال (١) :

والعِلْمُ يَشْفي إذَا اسْتَشْفَي الجَهُولُ بِهِ
وبالدواءِ قديماً يُحْسَمُ الـدَّاءُ

فالعلم دواء للجهل ، ولذا يجب الحرص على طلبه . وهذا المعنى مستمد من الحديث الشريف ، الذى روى عن جابر بن عبد الله قال :
" خرجنا في سفر فأصابَ رجلاً مِنَّا حجرٌ فشجَّهُ في رأسِهِ ، ثم احْتلم ، فسألَ أصحابَهُ ، فقال : هل تَجِدُونَ لي رُخْصةً في التيمم ؟ فقالوا : ما نَجِدُ لك رُخْصةً وأنت تقْدِرُ على الماءِ ، فاغْتسِلْ ، فماتَ ، فلمّا قدِمنَا على النبي - صلى الله عليه وسلم - أُخْبِرَ بذلك ، فقال : " قتلُوهُ قَتَلَهُمْ اللهُ ، ألَا سَأَلُوا ، إذْ لم يعلَمُوا ، فإنما شِفاءُ العِيِّ السوءال " (٢) فالسوءال في العلم يشفى من الجهل ، وهذا هو معنى صدر البيت لشاعرنا ، أما الحكمة التي في العجز فإن معناها مستمد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنّ اللهَ حيثُ خلقَ الداءَ خلقَ الدواءَ فتداوَوا " (٣)
إذ ما من داء إلا وقد خلق الله له الدواء ، فداء الجهل دواؤه العِلْم كما قال سابق البربرى .

ومن هذه المبادىء الأخلاقية السمحة ، دعوته إلى الحلم ، إذ قال (٤) :

أَلَمْ ترَ أنّ الحِلْمَ زَيْنٌ مُسوِّدٌ
لصاحبِهِ ، والجَهْلَ للمرءِ شائِنُ

---

(١) انظر شعره ، مقطعة ٧ .
(٢) سنن أبي داود كتاب الطهارة ١/٩٣ .
(٣) صحيح الجامع الصغير و زيادته للسيوطي ١٠٨/٢ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني .
(٤) انظر شعره مقطعة ٣٠ البيت ١ .

فالحلم حلية خلقية يتحلّى بها الإنسان ، لينال العز والسؤدد والسيادة ،ذلك أن الحلم والأناة من الخصال التي أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن الله يحبها في عبده ،إذ قال لأشجّ عبد القيس : "إنّ فيكَ خصلتين يحبُّهما اللهُ : الحِلْمَ والأناة"(١) فمن هذا المنطلق جعل سابق البربرى الحلم زينة للإنسان ،في حين أن الطيش و سرعة الغضب مما يسيء إليه ويجعله مذموماً .

فهذه الأبيات يظهر فيها تأثر سابق البربرى بمعنى الحديث النبوى واضحاً ، بحيث تلمّسناه في وضوح ،دون أن نتأوّل فيه . و هناك أبيات أخرى يظهر فيها التأثر بمعنى الحديث الشريف ، بطريقة غير مباشرة ،ولذا تركنا الإشارة إليها .

ب - التأثر بألفاظ الحديث النبوى :

لقد جمع سابق البربرى في شعره بين معاني وألفاظ كل من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ،حتى أنه يندر أن تجد له بيتاً اقتصر تأثره فيه على اللفظ الحديثي فقط ، دون أن يكون له صلة بمعنى أو لفظ آية قرآنية ،ولهذا اقتصرنا على بيتين ظهر فيهما التأثر بمعنى ألفاظ الحديث الشريف خاصة بحيث اقتبس فيهما من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأول هذين البيتين ،قوله(٢) :

قد قِيلَ قَبْلي في الكلامِ الأقْدَمِ
إنّي وَجَدْتُ العِلْمَ بالتّعلُّمِ

---

(١) صحيح مسلم ،كتاب الإيمان ٣٥ ، ١٨٩/١ .
(٢) انظر شعره ،مقطعة : ٢٥ .

إذ أخبر عن طريقة اكتساب العلم والمعرفة ،وهي التعلم ،أى طلب العلم. والحكمة التى ختم بها عجز البيت مقتبسة بالنص من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيراً يُفَهِّمْه ،وإنما العِلْمُ بالتَّعلُّمِ "(١) . وفيه نلحظ أن شاعرنا اقتبس نصاً من الحديث النبوى ، دون أن يتكلف ذلك ،وإنما جاء عفواً طيعاً .

ومن اقتباسه من الحديث الشريف ،قوله (٢) :

أمْوالُنا لِذَوِي الميراثِ نَجْمَعُهـــا
ودورُنا لِخَرابِ الدهرِ نبْنِيهـَــا

إذ بيّن أن الأموال إنما تُجْمَـعُ للورثة ،لأن الإنسان لا يأخذ من ماله إلا ما أنفق ،أما الباقي فمن نصيب الورثة. وهذا المعنى مستمد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول العبدُ مالِي ومالِي ،وإنما له من مالِهِ ثلاثٌ : ما أكَلَ فأفنى ، أو لبس فأبلى ،أو أعطى فأفنى ،ما سوى ذلك فهو ذاهِبٌ وتاركُه للناسِ "(٣) . ونجد هذا المعنى مع بعض ألفاظ البيت في حديث آخر للنبي صلى الله عليه وسلم : " أيُّكمْ مالُ وارِثِهِ أحبُّ إليه من مالِهِ ؟ قالوا : يا رسول اللهِ ،ما مِنَّا أحدٌ إلا مالُهُ أحبُّ إليه ،قال : فإن ماله ما قدّم ومالُ وارثه ما أخّر "(٤) فقول الشاعر " ذوي الميراث " جمع للوارث الذى في الحديث .

---

(١) صحيح البخارى ،كتاب العلم ١٠ ، ١/٢٧.
(٢) انظر شعره قصيدة ٣٦ البيت ٥.
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٢/٣٦٨.
(٤) صحيح البخارى ،كتاب الرقاق ٨/١١٦.

ثالثاً : التأثر بالقرآن والحديث معاً :

وفي شعر سابق البربرى أبيات تأثرفيها بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف معاً ،وذلك أن شعره يهدف أساساً إلى الدعوة إلى الله ،وتقويم النفس الإنسانية . والقرآن الكريم ،والحديث النبوى الشريف هما دستور المسلمين في جميع الشئون ،فلا غرابة -إذاً- أن يتأثر بهما شاعر هدفه خدمة هذا الدين.

وقد كثرت الأبيات التي تأثر فيها سابق البربرى بالمصدرين الكريمين ،ولهذا نقسّمها إلى قسمين : ما تأثر فيه بالمعانى القرآنية والحديثية ،وما تأثر فيه بالمعاني والأساليب القرآنية والحديثية.

أ - ما تأثر فيه بالمعنى القرآني والحديثي :

المعنى الذى يدور عليه معظم شعر سابق البربرى هو التذكير بضرورة الموت ،والحث على مجانبة المتاع الدنيوي ، والحض على التحلّي بالأخلاق الإسلامية ،وهذه المعاني كثيرة الورود في القرآن والحديث ، ولهذا صدر عنهما شاعرنا في معانيه .

فمما تأثر فيه سابق بالمعنى القرآني والحديثي قوله (١) :

فكمْ مِنْ صحيحٍ باتَ للموتِ آمِنـاً
أتتْه المَنايا بَغْتةً بَعْدَما هَجَعْ

وقوله (٢) :

وكلُّ نفسٍ لها زَوْرٌ يُصحبِّها
مِنَ المنيةِ - يوماً - أو يُمسّيها

---

(١) انظر شعره ،مقطعة ١٦ ، البيت : ١ .

(٢) انظر شعره ، قصيدة ٣٦ ،البيت: ٧ .

فهو يذكّر الغافلين عن الموت بأنه آت على حين غرة منهم لينتزعهم من الحياة كما انتزع الكثير وهم آمنون في نومهم . وهذا المعنى مستمد من القرآن الكريم ، حين أخبر عن هلاك الأمم ، وهي آمنة في الليل أو في النهار ،كما في قوله سبحانه ﴿ وكَمْ مِنْ قَريةٍ أهْلكناها فجاءها بأسُنا بياتاً أوْ هُمْ قائِلُونَ ﴾ (١) . وحين أخبر عن موت الأنفس في الليل أو في النهار عندما يأتي أجلها ، إذ قال سبحانه ﴿ اللهُ يَتوفّى الأنفسَ حِينَ موتِها والتي لم تَمُتْ في منامِها فيُمْسِكُ التي قَضى عليها الموتَ ويُرْسِلُ الأخْرى إلى أجلٍ مُسمّىً إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ (٢) . كما أن هذا المعنى موجود في السُّنة النبوية الطاهرة ،إذ دلّت أحاديثه - صلى الله عليه وسلم - على أن النفس تموت في نومها أو قيامها ، كما في الحديث الشريف : " إذَا أوَى احدُكمْ إلى فِراشِهِ ، فلْيَنْفضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إزَارِهِ ،فإنه لا يَدْرِي ما خَلَفهُ عليه ، ثم يقولُ : باسْمِكَ ربِّ وضعتُ جَنْبي وبِكَ أرفعُهُ ،إنْ أمْسكتَ نفسي فارْحَمْها ، وإنْ أرْسَلْتَها فاحْفظها بما تَحْفَظْ به الصالِحين " (٣) .

ومما استمده من معاني القرآن والحديث ،قوله (٤) :

وقُرِّبَ مِنْ لَحْدٍ فصارَ مَقِيلَهُ

وفارقَ ما قد كانَ بالأمْسِ قد جَمعْ

---

(١) سورة الأعراف آية : ٤ .

(٢) سورة الزمر آية ٤٢ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الدعوات ٨/٨٧

(٤) انظر شعره ، مقطعة ١٦ البيت : ٤ .

فهو يذكّر اللاهين بما سيكون عليه حالهم في القبر ، إذ سيغدو الإنسان فيه منفرداً ،فارق الأهل والمال . وهذا المعنى وارد في القرآن والسّنة كثيراً ، منه قوله عزوجل : * ولقدْ جِئْتُمونا فُرادى كما خلقْناكم أولَ مرّةٍ وتركْتُمْ ما خوّلْناكم وراءَ ظُهورِكم .. * (١) . ومنه قوله الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - " يتبعُ الميّتَ ثلاثٌ ، فيرْجعُ اثنانِ ويبْقى واحدٌ ، يتبعُه أهْلُه ومالُه وعملُه ،فيرجعُ أهلُه ومالُه ،ويبْقى عملُه " (٢) .

ومما تأثر فيه بمعنى القرآن والحديث معاً ،قوله (٣) :

لو كان يُسْهِرُ عيْني ذِكْرُ آخِرَتـــي
كما يُؤَرّقُني للعَاجِلِ السَّهَـــرُ
إذاً لَداويتُ قلباً قد أضَرَّ بــــه
طولُ السَّقامِ ،وهيْضُ العظمِ ينْجبِرُ

فاللهو في متع الحياة الدنيا والانشغال بها يُنْسي المآل في الآخرة ، ويُغْشي العين عن النظر في حال الإنسان ،ولذلك فالعلاج لموت القلب ،ولهو القلب أن تتذكر النفس الإنسانية مصيرها وما سيؤول إليه حالها . وقد استمد الشاعر هذا المعنى من القرآن الكريم والحديث الشريف ،فالقرآن تذكر فيه الآيات الكثيرة أن التفكير في الآخرة يُحيي القلوب الميتة ،منها قوله تعالى * ياأيُّها الذين آمنُوا اتقوا اللـــهَ ولتنظرْ نفسٌ ما قدّمتْ لِغَدٍ واتقوا اللهَ إنّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون . ولا تكونُوا كالذينَ نسُوا اللهَ فأنْسَاهم أنفسَهمْ أولئكَ هُمُ الفاسِقُون * (٤) .

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٩٤ .
(٢) سنن الترمذى كتاب الزهد ٤٦ ، ٤/٥٨٩ - ٥٩٠ .
(٣) انظر شعره ،قصيدة ١٢ البيتين ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) سورة الحشر الآيتان ١٨ ، ١٩ .

والمتفكرون في الآخرة هم الصالحون الأبرار ، كما بيّن الله سبحانه من دعاء إبراهيم عليه السلام ، إذ قال : ﴿ ولا تُخزني يومَ يُبعثون . يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ ، إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ﴾ (١) .

وكذلك الأحاديث الشريفة كثيراً ما بيّنت أن التفكير في المآل هو العلاج للقلوب التي أماتها اللهو في الدنيا ونعيمها ، منها قوله عليه الصلاة والسلام: " أكثِروا ذِكرَ هازِمِ اللذاتِ " (٢) ، وقوله عليه السلام : " لو تعلمونَ ما أعلمُ لضَحِكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيراً " (٣) .
فمن هذه الآيات والأحاديث - وغيرها - استقى سابق البربرى معناه في بيته المتحسّر فيه على اللهو والانشغال بالدنيا عن الآخرة .

وفي هذا المعنى يبيّن أن الذكر يُحيي القلوب الميتة إذ يقول : (٤)

وقد ينعشُ الذكرُ القلوبَ وإنما
يكونُ حياةَ العُودِ في الماءِ وابِلُهْ

فالقلب الميت يحيا بذكر الله ، وهذا مما ورد في القرآن الكريم :
﴿ الذين آمنُوا وتطمئِنُّ قلوبُهم بِذكرِ اللهِ ألا بِذكرِ اللهِ تطمئِنُّ القُلوبُ ﴾ (٥)
فذكر الله مطمْئِنٌ للقلب ، والاطمئنان باعث للثقة التي تبعث فيه الانطلاق

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) سنن ابن ماجه كتاب الزهد ٣١/ ٢/ ١٤٢٢ .
(٣) صحيح البخارى رقاق ٢٧ ، ١٢٧/٨ .
(٤) انظر شعره ، قصيدة رقم ٢٢ البيت : ١٨
(٥) سورة الرعد آية ٢٨ .

والحيوية ،وهذا هو الإحياء للقلب ،بحيث يأمل القلب ويخاف ويخشى من الله . ولهذا أمر الله بالاستجابة لأمره ،وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ،إذ الحياة الحقيقية في الالتزام بطاعة الله ورسوله ،قال الله تعالى ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنُوا استجيبوا للهِ وللرسولِ إذَا دعاكمْ لِمَا يُحْييكُمْ .. ﴾ (١) وقد بيّن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أنه كان يذكر الله كثيراً في كل أحواله ،فهو يقول : " إنه ليُغَانُ على قلبي وإني لأسْتغفِرُ الله في اليومِ مائةَ مرَّةٍ "(٢) .

فمن معنى هذه الآيات والأحاديث استمد سابق البربري معناه حين بيّن أن الذكر مُحيِيٍ للقلوب .

و مما استمد معناه من القرآن والحديث ،تعجُّبه من الإقبال على المتع الدنيوية مع أن الاعتراض عليها كامن في النفس ، إذ قال (٣) :

و فيكَ إلى الدنيا اعتراض وإنّما
تُكَالُ لدَى المِيزَانِ ما أنتَ كائِلُهْ

فالمرء من الحق لا يكلف بالدنيا ،وإنما يسعى ليجنّب نفسه الافتتان بها ، لأنه موقن بالرحيل عنها ، والحساب على الأعمال فيها . وهذا المعنى مستلهم من القرآن والحديث ،إذ الآيات التي تذكّر بإحصاء الأعمال على الإنسان ،ومحاسبته عليها كثيرة ، منها قوله تعالى :

----

(١) سورة الأنفال من الآية ٢٤ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الذكر ١٧/٢٣ .
(٣) انظر شعره ،قصيدة ٢٢ البيت ٢٢ .

﴿ووضِعَ الكِتابُ فترى المُجْرِمينَ مُشْفِقينَ مما فيه ويقولُون يا وَيْلَتَنا مالِ هذا الكتابِ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أَحْصاها ووجَدُوا ما عمِلُوا حاضِراً ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحداً﴾ (١) . كما أن الحديث الشريف قد نبَّه الإنسان إلى محاسبته على أعماله ، إذ قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي : " ... يا عِبادِي إنما هي أعمالكُم أُحْصِيها لكم ، ثم أُوَفِّيكم إياها ، فمَنْ وجَدَ خيراً فليَحْمَدِ اللهَ ، ومَنْ وجدَ غيرَ ذلكَ فلا يلُومنَّ إلا نفْسَه " (٢) .

ومن المعاني التي استمدها من القرآن والحديث أبيات يدعو فيها إلى الأخلاق الإسلامية السمحة ، ومنها حضّه على طلب العلم ، إذ قال (٣) :

موتُ التّقي حياةٌ لا انقطاعَ لهـا
قد ماتَ قومٌ وهم في الناسِ أحيـاءُ

فهو يبيِّن أن الحياة الحقيقية إنما تكون لمن يخلِّد ذكره بما يترك من علم نافع . وهذا المعنى مستمد من القرآن والحديث ، فقد أخبر الله سبحانه عن حياة الشهداء بعد الموت في قوله تعالى ﴿ولا تحسبنّ الذين قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بلْ أحياءٌ عند ربهم يُرزقُون﴾ (٤) .
كما بيّن الرسول الكريم أن العلم النافع مما يبقى للإنسان بعد فنائه ، فقال عليه السلام : (إذا مات الإنسانُ انقطعَ عملُه إلا من ثلاثةٍ : إلا مِنْ صَدقةٍ جاريةٍ ، أو عِلْمٍ يُنْتفعُ بهِ ، أوْ ولدٍ صالحٍ يدعُو له) (٥)

---

(١) سورة الكهف آية : ٤٩ .
(٢) صحيح مسلم ، تحريم الظلم ١٦/١٣٣ .
(٣) انظر شعره ، مقطعة ٦ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٦٩ .
(٥) صحيح مسلم ، الوصية ١١/٨٥ .

ومما استمده من معاني القرآن والحديث ،دعوته إلى ترك النفاق في معاملة الناس ،إذ قال (١) :

ولا تكُ ذا لونينِ يُبْدي بشاشةً
وفي صدْرِهِ ضبٌّ من الغِلّ كامِنُ

فالنفاق خُلُق حذّر منه الإسلام ،فقد شدّد القرآن في ذمّ المنافقين وبيّن أنهم يقابلون الناس بوجهين ، فقال الله تعالى ﴿ وإذَا لَقُوا الذينآمنُوا قالوا آمنَّا : وإذَا خَلوا إلى شياطِينهمْ قالوا إنّا مَعكُمْ إنما نحن مُسْتهْزئون ﴾ (٢) . كما حذّر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من التعامل مع الناس بوجهين ،وبيّن أن من اتصف بهذه الصفة من الأشرار ، يقول عليه السلام : " تَجِدُ من شرِّ الناسِ يومَ القيامةِ عند اللهِ ذا الوجْهينِ ،الذى يأْتي هؤلاءِ بوجْهٍ وهؤلاءِ بوجْهٍ " (٣) فمن هذا التحذير النبوى ،والتصوير القرآني انطلق شاعرنا في دعوته إلى تجنُّب النفاق .

ومن المبادىء الخُلُقية التي استمدها من القرآن والحديث قوله (٤) :

إنْ عِبتَ يوماً على قومٍ بعاقبةٍ
أمراً أتوْهُ فلا تصنعْ كما صَنعُوا

فهو يطلب الموافقة بين القول والعمل ،إذ من السىء أن يقول الإنسان قولاً ولا يصدِّقه فيه فعله . وهذا المعنى مستمد من القرآن الكريم ،

---

(١) انظر شعره ،مقطعة ٢٩ البيت : ٣ .
(٢) سورة البقرة آية ١٤ .
(٣) صحيح البخارى الكتاب الأدب ٥٢ / ٨ / ٢١ .
(٤) انظر شعره ،مقطعة ١٩ .

كما قال تعالى : ﴿ ياأيُّها الذينَ آمنُوا لِمَ تقُولُونَ ما لا تفْعلون . كَبُرَ مقتاً عندَ اللهِ أنْ تقُولوا ما لا تَفْعلون ﴾ (١) ، كما نعى الله تعالى على بني أسرائيل أمرهم الناس بالبر و نسيان أنفسهم ،إذ قال سبحانه ﴿ أتأْمُرون الناسَ بالبِرِّ و تَنْسَون أنفُسكم وأنتمْ تتْلُون الكتابَ أفلا تَعْقِلُون ﴾ (٢) . كما حذّر النبي - صلى الله عليه وسلم - من مخالفة العمل للقول ، إذ قال عليه الصلاة والسلام: " يُؤْتى بالرجلِ يومَ القيامةِ فيُلْقَى في النارِ فتنْدلِقُ أقتابُ بطنِهِ فيدوُرُ بها كما يدُورُ الحِمارُ بالرَّحى فيجتمعُ إليه أهلُ النارِ فيقُولونَ : يافلانُ ،مالَكَ ؟ ألمْ تكُنْ تأمُرُ بالمَعْروفِ و تنْهى عن المنكرِ ؟ فيقولُ : بلى قد كُنتُ آمرُ بالمعروفِ ولا آتيهِ ،وأنْهى عن المنكرِ وآتيهِ " (٣) . فمن هذا التحذير الشديد استمد سابق البربرى دعوته إلى موافقة القول للعمل .

ب - ما تأثر فيه بألفاظ و معاني القرآن فالحديث :

يظهر تأثر سابق البربرى بالقرآن والحديث معًا في بعض أبياته ، بحيث جمع بين معانٍ من القرآن أو الحديث ،وألفاظ من أحدهما ،فالبيت قد تكون ألفاظه مقتبسة من آية أو حديث ،ومعناه من آية أو حديث ، وقد يجمع بينهما .

فمن هذا النوع من التأثر ،بيته الذى يذكر فيه بعد اهمة الموت للإنسان بغتة ،إذ قال (٤) :

فلمْ يَسْتطِعْ إذ جاءهُ الموتُ بغتــةً
فِرارًا ،ولا منه بقوّتِهِ امْتَنَــعْ

---

(١) سورة الصف الآيتان ٢ ، ٣ .
(٢) سورة البقرة آية ٤٤ .
(٣) صحيح مسلم ،كتاب الزهد ١١٨/١٨ .
(٤) انظر شعره ،مقطعة ١٦ البيت : ٢ .

فالموت يأتي على حين غِرَّةٍ من الإنسان دون أن يستطيع منه فِرارًا .

وهذا المعنى مستلهم من آيات كثيرة ،منها قوله تعالى * فلمّا نَسُوا ما ذُكِّروا به فَتَحْنَا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أخذْناهُمْ بغتةً فإذا هُمْ مُبْلِسُون * (١) ،ومنها قوله عز وجل :

* قل لَنْ ينْفعكُم الفِرارُ إن فررْتُمْ مِنَ الموتِ أو القتلِ وإذاً لا تُمتَّعُون إلا قليلاً * (٢) . فالموت بغتة، والفرار من الموت في البيت مأخوذان من الآيتين الكريمتين لفظاً ومعنى . كما أن الموت بغتة معنى ولفظاً مستمد من الحديث الشريف ،كقوله عليه الصلاة والسلام من حديث طويل :

"... واحْذَرُوا التسويفَ فإنَّ الموتَ يأتي بغتةً ..." (٣)

ومما استمد معناه وألفاظه من القرآن الكريم والحديث الشريف قوله : (٤)

يُزَايِلُني مالي إذَا النفسُ حَشْرَجتْ
وأهْلي ،وكَدْحي لا زِمي لا أُزايِله

فالإنسان مفارق بالموت أهله وماله ،ولا يبقى معه إلا عمله الذى سَيُحاسَبُ عليه ، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا . وهذا المعنى واللفظ مقتبس من الحديث الشريف ،وهو قوله عليه الصلاة والسلام: " يَتْبَعُ الميتَ ثلاثٌ ،فيرجعُ اثنانِ ويَبْقى واحدٌ ،يتبعهُ أهلُه ومالُه وعملُه ،فيرجعُ أهلُه ومالُه ويبْقى عمله" (٥) فالأهل والمال مقتبسة من الحديث ،أما الكدح فلفظ مقتبس من الآية الكريمة * ياأيُّها الإنسانُ إنكَ كادحٌ إلى ربكَ كَدْحاً فمُلاقِيهِ * (٦) وبهذا يكون شاعرنا مستمدًا اللفظ والمعنى من القرآن والحديث .

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٤ .
(٢) سورة الأحزاب آية ١٦ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ٤/ ٩٦ .
(٤) انظر شعره ، قصيدة ٢٢ البيت ١٢ .
(٥) سنن الترمذى كتاب الزهد ٤٦ ، ٤/ ٥٨٩ - ٥٩٠ .
(٦) سورة الانشقاق آية ٦ .

جـ - تأثره بأسلوب القرآن و معنى الحديث :

نجد أبياتاً لسابق البربرى تجمع بين الأسلوب القرآني والحديثي مع استمداد المعنى منهما ،إذ قد يظهر في البيت أسلوب قرآني أو حديثي ،مع استمداد المعنى منهما أو من أحدهما .

فمن هذا اللون من التأثر قوله (١) :

وعليكَ نفسكَ فارْعَهـــا   واكْسِبْ لـها عملاً جَمِيلا

فجملة " عليك نفسك " في صدر البيت مقتبسة من الآية الكريمة :

﴿ ... عليكم أنفسكُمْ لا يضركُمْ مَنْ ضلَّ إذا اهْتَديتُم .. ﴾ (٢) ، مع تغيير الضمير فحسب. أما الكسب للنفس في عجز البيت فمستلهم من قوله تعالى ﴿ كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينةٌ ﴾ (٣) . والمعنى العام للبيت مستمد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لما بعدَ الموتِ. والعاجزُ من أتْبعَ نفسَهُ هواهَا ثم تمنّى على اللهِ" (٤) وبهذا يكون مقتبساً لأسلوب القرآن ومستمداً معنى الحديث .

ومن هذه الأبيات نا تأثر فيه بأسلوب القرآن والحديث معا ، اذ قال في افتتاح قصيدته الرائية (٥) :

بسمِ الذى أُنْزِلتْ مِنْ عِندِهِ السُّوَرُ
والحَمْدُ للهِ ،أمّا بعدُ يا عُمَرُ

---

(١) انظر شعره ،قصيدة ٢١ البيت ٣ .
(٢) سورة المائدة من الآية ١٠٥ .
(٣) سورة المدثر آية ٣٨ .
(٤) سنن ابن ماجه كتاب الزهد ٣١ ، ٢/١٤٢٣ .
(٥) انظر شعره ،قصيدة ١٢ .

فافتتح القصيدة بالبسملة والحمدلة ، وهو أسلوب منصوص عليه في القرآن الكريم والحديث الشريف ،ففي القرآن يقول الله عز وجل * إنّه مِنْ سُليمانَ وإنه بسمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحيمِ * (١) . وسور القرآن تبدأ بالبسملة ،ومنها ما افتُتِحَ بالحمدلة بعد البسملة،كما في سورة الأنعام * الحَمدُ للهِ الذى خَلقَ السمواتِ والأرضَ وجعلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ... * (٢) .

و في حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يحض على البدء بالبسملة والحمدلة في كل أمر ، فقد كان يبدأ خطبه بالبسملة ،وقال في حديث له : " كلُّ كلامٍ لا يُبْدَأُ فيه بالحمدِ للهِ فهو أجْذَم " (٣) . مما يدل على أن شاعرنا في ابتدائه قصيدته الوعظية التي وجهها إلى عمر بن عبد العزيز ،سائر على النهج الأسلوبي المتّبع في القرآن والحديث.

وبهذا البيت نختم تناولنا لأبياته التي صدر فيها عن القرآن الكريم والحديث الشريف سواء في معانيه وألفاظه وأسلوبه وصوره ،لنؤكد ما قلناه قبل : من أن سابقًا البربرى شاعر إسلامي أكثر من تدبُّـــر القرآن الكريم والحديث الشريف ، حتى تشبّعتْ روحه بهما معانيـــًا وألفاظًا وأسلوبًا وصورًا ، فاصطبغ شعره بصبغتهما وسار على نهجهما دون جهد أو تكلف.

---

(١) سورة النمل آية ٣٠ .
(٢) سورة الأنعام من الآية ١ .
(٣) سنن أبي داود ،كتاب الأدب ١٨ ، ٤/٢٦١ .

الفصل الثالث

قضية ضعف الشعر في الاسلام

إن ما تعرّض له شعر سابق البربرى الملتزم بالدعوة إلى الزهد من إغفال وضياع (١) ، يدعونا إلى دراسة قضية ضعف الشعر في الإسلام. وهي قضية هامة تناولها الدارسون قديماً وحديثاً ، فهي قضية مثارة منذ أن ادّعى الأصمعي ضعف الشعر إذا دخل في باب الخير ،إذ قال : " طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان. ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام ،فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة و جعفر رضوان الله عليهما ،وغيرهم ،لان شعره. وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرىء القيس ،وزهير ، والنابغة ،من صفات الديار ،والرحل ، والهجاء ،والمديح والتشبيب بالنساء ،وصفة الخمر ،والخيل والحروب ، والافتخار فإذا أدخلته في باب الخير لان (٢) .

وقد كان لمقولة الأصمعي هذه صدىً بعيداً ،إذ رددها بعده ابن قتيبة عندما تحدّث عن حسان بن ثابت فقال : " قال الأصمعي : الشعر نَكِدٌ بابُهُ الشر ، فإذا دخل في الخير ضَعُفَ ، هذا حسان بن ثابت فحلٌ من فحول الجاهلية ،فلما جاء الإسلام سقط شعره . وقال مرة : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ،فقُطِعَ مَتْنُه في الإسلام ، لحال النبي صلى الله عليه وسلم " (٣) . كما رددها

---

(١) انظر المبحث الخاص بدراسة مصادر شعره ص ١٧٢ -١٨٩

(٢) انظر الموشح ، للمرزباني ٥٦ ، تحقيق محب الدين الخطيب.

(٣) انظر الشعر والشعراء ١/ ٣١١.

بعده أبو منصور الثعالبي ، الذى رأى أن الشيطان أصلح للشاعر من الملَك . فروى أن : " من عجائب أمر حسان أنه كان - رضي الله عنه - يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ، ويغبّر في نواصي الفحول ، ويدّعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء في ذلك ... فلما أدرك الإسلام وتبدّل الشيطان الملَك ، تراجع شعره وكاد يرك قوله ، ليُعْلَم أن الشيطان أصلح للشاعر ، وأليق به ، وأذهب في طريقه من الملَك "(١) .

كما اتسع نطاق الحديث عن ضعف الشعر إذا دخل في باب الخير ، فلم يقتصر على شعر حسان بن ثابت ، بل أصبح يشمل جميع الشعر الداخل في مجال الزهد ، وذلك في قول الباقلاني : " ألا ترى أن الشاعر المُفْلِق إذا جاء إلى الزهد قصّر ، والأديب إذا تكلّم في بيان الأحكام وذكر الحلال والحرام ، لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره "(٢) . ويبدو ذلك أيضاً من قول أبي العلاء المعرى : " فأما الكائن عظةً للسامع ، وإيقاظاً للمتوسّن ، وأمراً بالتحرّز من الدنيا الخادعة ، وأهلها الذين جُبلوا على الغشّ والمكر ، فهو - إن شاء الله - مما يلتمس به الثواب . وأضيف إلى ما سلف من الاعتذار أن من سلك في هذا الأسلوب ضَعُفَ ما ينطق به النظام ، لأنه يتوخى الصادقة ، ويطلب من الكلام البرة ، ولذلك ضَعُفَ كثير من شعر أمية بن أبي الصلت الثقفي ، ومن أخذ بفريسة من أهل الإسلام "(٣)

---

(١) انظر خاص الخاص ١٠٢ ، قدم له : حسن الأمين ط ١٩٦٦ بيروت .

(٢) انظر إعجاز القرآن ٢٠٠ ، تحقيق: السيد أحمد صقر.

(٣) انظر اللزوميات ١/٣٩ طبعة دار صادر.

وبقيت هذه الفكرة لدى النقاد حتى العصور المتأخرة إذ وجدنا ابن خلدون يقول في مقدمته :

" ... ولهذا كان الشعر في الربانيات والنبويات قليل الإجادة في الغالب ، ولا يحذق فيه إلا الفحول ، وفي القليل على العسر ، لأن معانيها متداولة بين الجمهور مبتذلة لذلك "(١)

فهذه الأقوال تتحد في أن الشعر ذا المضمون الإسلامي يميل إلى الضعف ، وتتفق في ربط قوة الشعر بالشر والبعد عن تعاليم الإسلام السمحة ... وهذا ما يدعو إلى التساؤل عن موقف الإسلام من الشعر ، وبالتالي عن مدى صدق هذا الزعم .

وموقف الإسلام من الشعر والشعراء (٢) توضحه الآيات الكريمة :
* والشعراءُ يتّبعُهمْ الغاوون . ألمْ ترَ أنّهم في كلّ وادٍ يَهيمُون وأنّهم يَقولُون ما لاَ يَفعلُون . إلا الذين آمنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ وذَكرُوا الله كثيراً وانْتَصروا من بعدِ ما ظُلِمُوا وسيعْلَمُ الذين ظَلمُوا أيَّ مُنْقلَبٍ يَنْقلِبُون * (٣) . فهذه الآيات تقسم الشعراء إلى فئتين :

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ٣ / ١٣٠٨ .
(٢) ناقش كثير من الدارسين المعاصرين موقف الإسلام من الشعر وانتهى بعضهم إلى رأى نوء يدهم فيه . انظر مثلا : الإسلام والشعر ، ليحيى الجبوري طبعة ١٣٨٣-١٩٦٤ ، مطبعة الإرشاد - بغداد ، وانظر حسان بن ثابت للدكتور محمد طاهر درويش ، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر . وانظر الشعر في الإسلام للدكتور أحمد الغول ، الطبعة الثانية ، مطابع صوت الخليج ، وانظر الشعر الإسلامي في صدر الإسلام للدكتور عبدالله الحامد ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ مطابع الإشعاع التجارية وانظر دراسات في أدب الدعوة الإسلامية للدكتور محمود زيني ، مطبوعات نادى مكة الثقافي .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ .

فئة هم الضالون المضلّون ، الذين يختلقون الأباطيل ،وينشرون الفتنة ، ويغذّون الفرقة والتناحر بين الناس ،ويُحسّنون اللذات المحرّمة . وهذه هي الفئة المذمومة من الشعراء . وفئة أخرى محمودة ،تلك هي الفئة التي اتخذت الشعر سلاحاً تنشر به الدين ،وتردُّ عنه كيد أعدائه ، وتعمم به المبادئ الإسلامية السمحة ، فتدعوا إلى الأخلاق الفاضلة ،والمحبة والوئام ،وتوثيق عرى الأخوة ،لبناء المجتمع الإسلامي السليم .

وهذا التقسيم للشعراء يوضح موقف الإسلام الإيجابي من الشعر والشعراء ،فهو لم يذم الشعر لذاته لأنه فن من القول ممقوت ، ينبغي للمسلمين تركه والابتعاد عنه ،ولم يغض من شأن الشعراء جملة ، وإنما اهتم بتحديد المضمون الشعري المقبول ،إذ بان من أداة الاستثناء "إلا" ،أنه استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُسخِّرون فنهم لخدمة العقيدة والدفاع عنها ،ونشر الفضائل بين الناس ، فقد رُوي أنه : ((لما نزلت هذه الآية : ﴿ والشعراء يتّبعُهمْ الغاوون ﴾ جاء حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم يبكون ، قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء ، فتلا النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿ إلا الذين آمنُوا وعَمِلوا الصالحات ﴾ قال : "أنتم" ﴿ وذكروا الله كثيرًا ﴾ قال : "أنتم" ﴿ وانتصروا من بعد ما ظُلِموا ﴾ قال : "أنتم"))(١) .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٥٤ .

فالإسلام لم ينه عن الشعر جملة ليتركه المسلمون فيؤدي هذا الترك إلى ضعفه ،كما لم يتدخل في البناء الفني للشعر ليؤثر هذا في ليونة الشعر وركاكته ،وإنما دعا إلى تغيير المضمون الشعري ليوافق المبادئ الإسلامية السامية التي دعت إليها الرسالة المحمدية ، وهذا التغيير لا يؤدى بالشعر إلى الليونة والضعف أو الركاكة .الأمر الذى يدفع الوهم الذى شاع عن نهي الإسلام عن الشعر وذمّ الشعراء جملة ، بحيث أثّر هذا الوهم في ضعف الشعر الإسلامي .

ومن هذا المنطلق نعود إلى مقولة الأصمعي (١) -ومن اتبعه- لنناقشهم في معيار القوة والضعف في الشعر ،حتى نتبيّن حقيقة ما زعموه ،فالأصمعي يرى في زعمه أن الشعر نكد لا يقوى إلا في الشر ،وطريقه طريق الفحول . ويرى أن شعر حسان اتصف بالقوة والمتانة في الجاهلية ، فلما صار إلى الإسلام في مراثي الرسول - صلى الله عليه وسلم -والصحابة ضَعُفَ ولان . وهذا الرأى بشقّيْه يعكس ولع الأصمعي بالقديم ،ونفوره من كل جديد مبتكر ،ذلك أنه فضّل شعر حسان في الجاهلية فقال : "شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر ،فقُطِعَ متْنُه في الإسلام ، لحال النبي صلى الله عليه وسلم" (٢) . وقال عن جرير والفرزدق والأخطل : "هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن ،ولا أقول فيهم شيئًا لأنهم إسلاميون" (٣) .

---

(١) انظر قول الأصمعي ،وقد ذكرناه فيما سبق ص ٥٠٥ .
(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٣١١ .
(٣) انظر فحولة الشعراء للاصمعي ١٢ ، الطبعة الثانية .

وقال عن طريق الشعر : " وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ،فإذا أدخلته باب الخير لان "(١) . فهذا التقدير للقديم والولع - بكل ما فيه من ألفاظ قوية خشنة وأغراض غير ملتزمة بالدين - هو ما جعل الأصمعي يحط من شأن شعر حسان الإسلامي ، ويصفه بالليونة والضعف وقلة الجودة ،كما جعله يرفض أن يقول شيئاً في جرير والفرزدق والأخطل ،لأنهم إسلاميون -ولهذا ما كان ينبغي أن يؤخذ رأيه ذلك المأخذ الجاد ، وأن تُقابل مقولته في ضعف شعر حسان بذلك التأييد والتصديق ،حيث رددها من تبعه بدون نقاش ،ذلك لأن زعمه نابع من عقليته التي تُجِلّ القديم وتقدّسه لأنه قديم ،وترفض مقابله كل جديد ،لا لشيء إلا لأنه جديد ،خاصة وأنه يُعلّل ضعف شعر حسان بتعليل غير مقبول ،حيث يرى أن الضعف لحق مراثي حسان في الرسول والصحابة ،فيردُّ ضعف الشعر لكونه في الرثاء . وقوة الشعر أو ضعفه لا ترجع إلى غرض الشعر وإنما "مَردّ قوة الشعر وضعفه إلى طبيعة الشاعر ،وأصالة مواهبه أو سطحيتها ،وإلى صدق عاطفته أو كذبها ،وقوة انفعاله النفسي أو ضعفه "(٢) .

لذا فإن زعم الأصمعي بأن الشعر نكد لا يقوى إلا في الباطل ، قول عجيب مردود ،لا يصدّقه التاريخ الأدبي ،وينقضه موقف الأصمعي نفسه ، فجرير والفرزدق والأخطل أقوى شعرهم كان في الهجاء ،

---

(١) انظر النص فيما سبق ص ٥٠٥ .

(٢) انظر حسان بن ثابت ، للدكتور محمد طاهر درويش ٥٠٥ .

ومع ذلك لم يعدّهم الأصمعي في الفحول لأنهم إسلاميون. ثم إن بعض الشعر الذى قيل في الشر قد جاء نظماً رتيباً مملاً، يخلو من صدق العاطفة، ويبعد عن متانة البناء، مما يدل على أن المعوّل عليه في الحكم على قوة الشعر هو نضج شاعرية الشاعر وصدق موهبته، لا غرضه. فهذه مقطعة لأبان بن عبد الحميد اللاحقي في هجاء أبي النضير تثبت ذلك، يقول أبان في هجاء أبي النضير (١):

إذَا قامتْ بواكيـــك ... وقد هتّكْنَ أســـتارَكْ
أيُثنينَ علــى قبـــرِ ... كَ أم يلعنَّ أحْجارَكْ؟
وما تتركُ فـي الدنيـا ... إذا زُرتَ غداً نـارَكْ؟
ترى في سقر المشوى ... وابليسَ غداً جـارَكْ
بلى تتـركُ بواقِيـكَ ... ودُنْياكَ وأوْتـارَكْ
وخمساً من نبات (٢) الليـ ... ـل قد ألبسنَ أطْمارَكْ
تعالى اللهُ مـا أقبـ ... ـحَ إذ ولّيتَ أدْبـارَكْ

فهذه أبيات في الهجاء . بعيدة عن الخير، وقريبة من الشر، ومع هذا فقد جمعت بين سوء اللفظ وسوء المعنى، وقبح البناء.. مما يدل على أن التجارب الشريرة لا تمنح الشعر قوة في ذاته. وهناك الكثير من الشعر القوي مع أنه مما يدخل في معنى الخير، فهنـاك قصيدة كعب بن زهير في مدح النبي صلى الله عليه وسلم،

---

(١) انظر أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق، لأبي بكر الصولي ٩، تحقيق: ج. هيوارث دن.
(٢) كذا بالأصل ولعلها بنات.

وبردة البوصيري في مدح النبي عليه الصلاة والسلام ،وهما من القصائد الرائعة التي ما زالت تُعارَض إلى العصر الحديث . وهناك مراثي ابن الرومي ،وهي من روائع الشعر العربي . وهناك العديد من قصائد أحمد شوقي التي قالها في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، وتاريخ دعوته، وبكاء حضارة الإسلام في الأندلس ،وتُعدُّ من أروع الشعر العربي .. ولا نغفل شعر سابق البربري الذي بُني كله في مجال الخير ،ومع ذلك جاء أغلبه رائعًا صادق التعبير عن قوة عاطفته ،وأصالة موهبته ، وحرارة انفعاله .

ثم إن حكم الأصمعي بضعف مراثي حسان بن ثابت في الرسول صلى الله عليه وسلم ،لدخولها في باب الخير ،لا يَصْدُق على كل مراثيه ، ذلك أن لحسان مرثية في الرسول صلى الله عليه وسلم -بلغت الغاية في نقل إحساسه ،وتصوير معاناته وألمه من هذا المصاب ،ومطلعها (١) :

بطَيْبةَ رسمٌ للرسولِ ومَعْهَدُ
منيرٌ وقد تَعْفُو الرسومُ وتَهْمَدُ

ولا تَمْتَحي الآياتُ من دارِ حُرْمَةٍ
بها مِنبرُ الهادى الذى كان يَصْعَدُ

وواضِحُ آثارٍ وباقي مَعالِمٍ
ورَبْعٌ له فيه مُصلّى ومَسْجِدُ

بها حُجراتٌ كان ينزلُ وسْطَها
مِنَ اللهِ نورٌ يُسْتَضَاءُ ويُوقَدُ

---

(١) انظر القصيدة في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٦٦-٦٦٧-٦٦٨ .

معارفُ لم تُطْمَسْ على العَهْدِ آيُها
أتاها البِلَى فالآيُ منها تَجَدَّدُ

عرفتُ بها رسمَ الرسول وعَهْدَهُ
وقبراً بها واراهُ في التُّربِ مُلْحِدُ

وفيها يقول مصوراً ألم الفجيعة في نفسه :

ظَلَلْتُ بها أبكي الرسولَ فأُسْعِدتْ
عيونٌ ومثلاها من الجفن تُسْعَدُ

يُذكِّرْنَ آلاءَ الرسولِ وما أرى
لها مُحْصياً نفسي فنفسي تَبَلَّدُ

مفجّعةً قد شَفَّها فقدُ أحمدٍ
فظلَّتْ لآلاءِ الرسولِ تُعدِّدُ

وما بلغتْ من كلِّ أمرٍ عشيرَهُ
ولكنْ لنفسي بعْدُ ما قد تَوجَّدُ

أطالتْ وقوفاً تَذْرِفُ العينَ جُهْدَها
على طَلَلِ القبرِ الذي فيه أحمدُ

كما يقول مصوراً لوعة الحزن التي شملت المسلمين :

وراحُوا بحُزْنٍ ليسَ فيهم نبيُّهم
وقد وهَنتْ منهم ظهورٌ وأعْضُدُ

يُبكُّونَ من تبكي السمواتُ يومَهُ
ومن قد بكَتْهُ الأرضُ فالناسُ أكْمَدُ

ويتذكر ما فقد الناس بفقدهم الرسول صلى الله عليه وسلم:

وهل عدلتْ يوماً رَزِيَّةُ هالكٍ
رَزِيَّةَ يومٍ ماتَ فيه مُحمَّدُ ؟

تقطّع فيه منزلُ الوَحْيِ عنهم
وقد كان ذا نُورٍ يفورُ ويُنْجِدُ

يدُلُّ على الرحمنِ من يَقْتدي به
ويُنْقِذُ من هول الخزايا ويُرشِدُ

إمامٌ لهم يهديهمُ الحقَّ جاهِداً
معلِّم صدْق إن يُطيعُوه يُسْعَدُوا

عفوٌّ عن الزلّاتِ يقبل عُذْرهم
وإن يُحْسِنوا فاللهُ بالخيرِ أجْودُ

وإنْ نابَ أمرٌ لم يقوموا بحَمْلِه
فمِنْ عندِه تَيْسيرُ ما يتشدَّدُ

ثم يقول :

وما فَقَدَ الماضُونَ مِثْلَ محمَّد
ولا مِثْلُه حتى القيامةِ يُفْقَدُ

أعفَّ وأوْفى ذِمَّةً بعدَ ذِمَّةٍ
وأقربَ منه نائلاً لا يُنكَّدُ

فهذه القصيدة فياضة بمشاعر الأسى والحزن اللذين أحسهما الشاعر والمسلمون بفقدهم الرسول المصطفى الكريم - صلى الله عليه وسلم -

وقد أكثر حسان من تعداد صفات النبي عليه الصلاة والسلام وفضائله ومميزاته ، مبيّناً عظم المصاب الذى حلّ بالمسلمين لفقده عليه السلام .
ولهذا جاءت القصيدة معبّرة عن الحزن العميق ، واللوعة القاسية ، مبيّنة عظيم الأسى الذى أحس به الشاعر عند فقد الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى أن نفسه من هول الفاجعة تبلّدت ، وحزنه طغى فشمل الأرض والسماء والناس ، فرأى الكون حزيناً باكياً من هذا المصاب الجلل .

والمقدّمة الطللية في هذه القصيدة تصوّر الرسوم الباقية المتجددة مع الأيام ، وهي تخالف غيرها من المقدمات التي تُصوّر الرسوم الدارسة التي يغشاها البلى . مما جعل هذه المقدمة فريدة في نوعها ، ووثيقة الصلة بالرثاء الذى هو موضوع القصيدة (١) . وقد جاءت القافيـــة الدالية منسجمة مع هذا الرثاء الشجي الحزين الذى بنيت عليه القصيدة .

لهذا فإن قصيدة حسان بن ثابت هذه عُدّت من أروع قصائده على الإطلاق (٢) . مما يبيّن أن شعره في رثاء الرسول صلى اللـــه عليه وسلم ليس ضعيفاً كله كما قال الأصمعي ومن تابعه . ولم ينزل عن مستوى شعره كما قيل (٣) . وإنْ وُجِدَتْ فيه بعض الرقة والليونـة فإن هذا راجع الى السنّ الذى وصل إليه حسان بن ثابت حين رثى الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ كان حسان دخل في الإســـلام بعد وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وعمره ستون سنة ،

---

(١) انظر الوقوف على الأطلال للدكتور مصطفى عبد الواحد ٧٧-٧٨ .
(٢) انظر المرجع نفسه ٧٧ .
(٣) انظر حسان بن ثابت للدكتور محمد طاهر درويش ٥٠٦ .

وتوفي النبي عليه السلام في السنة الحادية عشرة من الهجرة ،أى أن حسان بن ثابت كام حينئذ في الحادية والسبعين من عمره ،وهو سن الشيخوخة والضعف الذى انعكس على شعره في رثاء النبي عليه السلام وصحابته .

و نخلص من هذا إلى أن دعوى ضعف الشعر إذا دخل في باب الخير مرفوضة ،إذ فيها الكثير من الخطأ و من الجور على هذا الشعر و على الشعراء الذين نظموه ،فالشعر لا يقوى في باب مخصوص من المعاني ، ويَضْعُفُ في آخر ، وإنما الضعف يرجع إلى ضعف التجربة الفنية . وكل ما قيل عن الشعر الديني الضعيف إنما يرجع إلى تراجع الطبع الشعرى عند ناظميه ،وعدم مقدرتهم على نقل عاطفتهم ،وعدم انفعالهم بما يقولون ، أو من خروجهم عن طبيعة الفن الشعرى إلى النظم المتكلّف بغرض اتخاذ الشعر وسيلة للتعليم أو التلقين للمسائل الدينية ،كما صنع أبان بن عبد الحميد اللاحقي في منظومته التي نظمها لبيان أحكام الصلاة والزكاة ،إذ يقول (١) :

هذا كتابُ الصومِ وهو جَامِعُ	لكل ما قَامتْ به الشرائعُ
من ذلك المنَزلُ في القرآنِ	فَضْلًا على من كانَ ذا بيانِ
ومنه ما جاءَ عن النبيِّ	من عَهْدِهِ المتّبعِ المرضيِّ
صلى الإله وعليهِ سلّما	كما هَدى اللهُ بهِ وعلّما
وبعضُه على اختلافِ الناسِ	من أثرٍ ماضٍ ومن قِياسِ

---

(١) انظر أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق ،لأبي بكر الصولي ١ ٥٠

والجامعُ الذى إليهِ صاروا رأيِ أبي يوسفَ مما اختاروا
قال أبو يوسفَ أما المفترضْ فرمضان صومه إذا عرضْ
والصومُ في كفّارة الأيْمانِ من حيثُ ما يجريِ على اللسانِ
ومعه الحجُّ وفي الظّهارِ الصومُ لا يدْفعُ بالإنْكارِ

وهي قصيدة طويلة جاءت على هذا النظم التعليمي ، الذى ليس فيه من الشعر إلا الوزن ،إذ غرض الشاعر فيها بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بالصوم والزكاة . ومثل هذا اللون من النظم لا ينبغي أن يُحْسبَ على الشعر الديني ،لأن الغرض منه تيسير حفظ القواعد والأحكام الدينية ، فهو كغيره من المنظومات التعليمية التي قُصِدَ بها تثبيت المعلومات وسهولة حفظها .

الفصل الرابع

شعر سابق البربرى في ضوء قضية الالتزام

قصر سابق البربرى شعره على الوعظ والحكمة والزهد ، وهذا يعني أنه انتهج في شعره نهجاً محدداً هو توجيه فنه الشعرى إلى الإيمان بالعقيدة الإسلامية ، والالتزام بالأخلاق والآداب الإسلامية. مما يدعو إلى تصنيفه مع الشعراء الملتزمين.

والالتزام تيار نقدى معاصر ، قصد به من دعوا إليه : " وجوب مشاركة الشاعر بالفكر والشعور والفن في قضايا قومه الوطنية والإنسانية ، وفيما يعانون من آلام وما يبنون من آمال "(١) . ودعاته هم الواقعيون الاشتراكيون ، والوجوديون (٢) ، وهو يوحى للكثيرين بالالزام ، ويرتبط عندهم بالنظم السياسية ، أو الحكومات ، أو الأحزاب ، أو القيادات (٣) ، ولذا ناهضه الكثيرون ممن سُمُّوا دعاة الحرية ، أو أهل الفن للفن بدعوى أن الالتزام يقيّد حرية الشاعر فيُسْقِطُ فنه الشعرى ، بناءً على فهمهم للحرية على أنها : " الاختيار الإرادى ، الذى لا يعوقه عائق ولا يقيّده قيد مهما كان "(٤) . فالشاعر بناءً على هذا الفهم للالتزام

---

(١) انظر النقد الأدبي الحديث ، للدكتور محمد غنيمي هلال ٤٨٥ .
(٢) انظر قضايا النقد الأدبي ، للدكتور بدوي طبانة ٥١-٥٢ .
وانظر دراسات أدبية للدكتور أحمد هيكل ١٦ .
(٣) انظر دراسات أدبية للدكتور احمد هيكل ١٥-١٦ .
(٤) انظر المصدر السابق ١٠

أو الحرية ،إمّا أن يتقيد في شعره بقضايا قومه قيداً كاملاً ، بحيث لا يُعبِّر إلا عنها ،وإما أن يتحرر في شعره حرية تامة ،بحيث يعبر عما يشاء ويصف ما أراد ،دون أن يكون له قيد من دين أو خلق أو مبدأ اجتماعي .. وكلا الاتجاهين خاطيء ، ولذا فإنّا لا نقصد بالتزام سابق البربرى ذلك التيار النقدى المعاصر ،وإنما نقصد من تصنيفه مع الشعراء الملتزمين : وضعه في قائمة الشعراء الملتزمين بالمنهج الإسلامي في الشعر، ذلك المنهج الذى توضحه الآيات الكريمات التي بيّنت موقف الإسلام من الشعر والشعراء ، في قوله سبحانه ﴿ والشعراءُ يتّبعُهمْ الغاوون . ألمْ ترَ أنّهم في كل وادٍ يَهيمُون ،وأنهم يقولون ما لا يفعلُون . إلا الذين آمنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ وذكَرُوا اللهَ كثيرًا وانْتَصَرُوا من بعدِ ما ظُلِمُوا وسيعْلَمُ الذينَ ظلموا أيَّ مُنْقلبٍ ينْقلِبُون ﴾ (١) . فالآيات توضح منهج الالتزام في الإسلام ،وهو بناء الشعر على أساس العقيدة السليمة وتوجيهه نحو الحق والعدل والدفاع عن الدين وتأكيد حقائق الإيمان ،إذ الاستثناء في الآية متجه إلى الشعراء الذين آمنُوا بالله ورسوله ،وصدّق فعلُهم قولَهم ،وأكثروا من ذكر الله في أشعارهم ،ولم يبدأوا الناس بالعدوان، وإنما استخدموا الشعر للانتصار بعد الظلم ، فالشعر المبني على هذا الأساس الديني هو الذى سمعه الرسول عليه الصلاة والسلام و شجّع الشعراء عليه ،واستنشده وإن كان للشعراء الجاهليين الذين كانوا على مذهب الحنيفية ، فقد رُوِيَ عن عمرو بن الشريد عن أبيه أنه قال : " رَدِفتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يوماً فقالَ : هل معكَ من شعر أمّية بن أبي الصّلْتِ شيءٌ ،قلتُ : نعم ،قال : هِيهِ ، فأنشدتُه بيتاً ، فقالَ :

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤-٢٢٧ .

هِيهِ ، ثم أنشدتُه بيتًا ،فقالَ : هِيهِ ،حتى أنشدتُه مائةَ بيتٍ"(١) .
كما رُوِيَ عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
" أَصْدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ ،كلمةُ لبيدٍ :

ألا كُلُّ شيءٍ ما خلاَ اللهَ باطِلٌ "(٢) .

فالنبي عليه الصلاة والسلام استنشد شعر أُمَيّة بن أبي الصَّلْت ،ومدح بيت لبيد ،مما يدل على تقديره لهذا اللون من الشعر ،وحرصه على سماعه ،لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث . كما أقرَّ النبي صلى الله عليه وسلم إنشاد الشعر المتضمّن شكراً لله وحمداً ،فقد رُوِيَ عن سَلَمة بن الأكْوَع أنه قال : " خرجنا مع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى خَيْبَرَ ،فسِرْنا ليلاً ، فقال رجلٌ من القوم لعامر بن الأكْوع : ألا تُسْمِعْنا من هُنَيْهَاتِكَ ، قال : وكان عامرٌ رجلاً شاعراً ، فنزل يَحْدُو بالقوم يقول :

اللهمَّ لولاَ أنتَ ما اهْتدَيْنَا
ولا تَصَدَّقْنا ولا صلَّينَا
فاغفِرْ فِداءٌ لك ما اقْتَفَيْنَا
وثبّتِ الأقدامَ إنْ لاقَيْنا
وأَلْقِيَنْ سكينةً علَيْنَا
إنّا إذا صِيحَ بنا أتَيْنَا
وبالصِّياحِ عوَّلوا علَيْنَا

---

(١) صحيح مسلم ،كتاب الشعر ١٥/١١ .
(٢) المصدر نفسه ١٥/١٢ .

فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : مَنْ هذا السائقُ ؟ قالوا : عامرُ ابن الأكوعِ ،فقالَ : يرحمُه اللهُ "[1] . كما شجّع النبي عليه الصلاة والسلام الشعراء على هجاء الكافرين ،إذ قال لحسان بن ثابت : "أهْجُهُمْ أو قالَ هاجِهِمْ وجِبْريل مَعك "[2] .

ومواقف النبي -علية الصلاة والسلام- هذه مع الشعراء ،وإقرارهم على هذا اللون من الشعر تُبيّن منهج الالتزام في الإسلام ،فالإسلام يدعوا إلى ازدهار الشعر المبني على أساس العقيدة ،والذى له غاية اجتماعية إصلاحية خلقية ،كما أن الالتزام الإسلامي لا يعني أن يقف الأديب فنه على قضايا مجتمعه وإن كانت على باطل . بل إن الالتزام الإسلامي هو الالتزام بالحق وبكل ما فيه خير الإسلام والمسلمين .. وعلى هذا المنهج ، فإن الإسلام يُسْقِطُ كل شعر عابث ماجن ، ليس من ورائه هدف نبيل ،فالمديح الكاذب ،والهجاء اللاذع ، والمغزل الفاحش ، والفخر المستكبر ليس من الالتزام الإسلامي في شيء.

وقد اعتمد بعض النقاد هذا المنهج الإسلامي في تقييم الشعر، فقد عاب ابن شرف القيرواني على امرئ القيس فحشه وإسفافه في شعره ،فقال : " وكل ما يخزي من الشعر فهو من أشد عيوبه "[3] ،حيث ربط القيمة الفنية للشعر بالقيمة الخلقية في التجربة الشعرية[4] ..

---

(١) صحيح البخارى كتاب الأدب ٨/ ٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ٨/ ٤٥ .
(٣) انظر رسائل الانتقاد لابن شرف ١٧٢ ،تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان. وقد نشره باسم "مسائل الانتقاد" .
(٤) انظر ابن شرف القيرواني الشاعر الناقد ،للدكتور مصطفى عبد الواحد ٦٨ .

وفي العصر الحديث يقول الدكتور غنيمي هلال : " على أنه تغنّى الشاعر بغرائز دنيا أو بعواطف مسفّة ، فهل ينال ذلك من قدر التجربة؟ لا شك ، عندنا ، في ذلك ، إذ أننا سبق أن قلنا : إن العناصر الشعرية وحدها - من خيال وموسيقى وصور - لا تكوّن الشعر ، ولكن لا بد في الشعر من عناصر "لا شعرية " وهي الأفكار التي هي جزء من الشعر ما دام يعتمد على اللغة والكلام . وإذن يسمو الشعر بسمو الأفكار ، وتهون قيمته بانحطاطها "(١) .

وعلى هذا المنهج نُقيّم شعر سابق البربري ، إذ هو شاعر ملتزم بالمنهج الإسلامي في شعره ، حيث وقفه على الزهد والوعظ والحكمة والأمثال . وكل هذه الأغراض داخلة في مجال الالتزام الإسلامي ، ولكن هل ضَعُفَتْ بنيته الفنية نتيجة لالتزامه هذا المنهج الإسلامي في شعره ؟

إن الدراسة الفنية لألفاظ سابق البربري ، وأسلوبه ، وصوره البيانية وأوزانه ، وقوافيه ، تُثبتُ أن شعره لم يتطرق إليه الضعف أو الخلل ... وما علينا إلا أن نستعرض بإيجاز ما بيّناه في دراسة شعره الفنية لنحقق قولنا ، ففي الألفاظ بيّنت الدراسة : أن ألفاظه عربية فصيحة ، سليمة من العجمة والتوليد . وسهلة ميسّرة ، ليست بدوية وعرة ولا حوشية مستكرهة ، ولا عامية ساقطة . استخدم فيها الشاعر الكثير من الكلمات القرآنية والحديثية . وفي الأسلوب ، أظهرت الدراسة : أنه استوحى أكثر مظاهره

---

(١) انظر النقد الأدبي الحديث ، للدكتور غنيمي هلال ٣٩٣ .

الأسلوبية من القرآن الكريم ،وحسبه هذا . كما أنه سار في صياغة جمله على الأسلوب العربي الفصيح النابع من السليقة العربية السليمة، كما لمسنا في استخدامه لإنما ،وفي الاستفهام بالهمزة ،وفي طريقة الاستدلال . وفي صوره البيانية ، أبدع في كثير من صور التشبيه والاستعارة ،وجاء بصور مبتكرة أظهرت دقة إحساسه بالعلاقات الخفيّة بين الأشياء ،وكشفت عن مقدرته اللغوية في توليد الدلالات المجازية للألفاظ . . . أما أوزانه وقوافيه ، فقد أظهرت الدراسة فيهما : أنه استعمل الأوزان التي كثر استخدام الشعراء الأوائل لها ، وتمكّن من إيجاد التناسب بين أوزانه ومعانيه . وكذلك الحال في قوافيه .

فالدراسة الفنية الشاملة لشعره بيّنت صدْق موهبته وسلامة بنائه الفني ، مما يُثبِتُ بالدليل العلمي أن شعره الملتزم بالنهج الإسلامي ليس ضعيفاً ،وأن توجيهه لفنه الشعرى إلى الوجهة الإسلامية لم ينزل بالمستوى الفني لشعره ،بل إن شعره قد جاء موافقاً للمنهج السليم الذى سار عليه الجمهور من شعراء العربية الأوائل ، إذ كان من المتقدمين أهل السليقة العربية السليمة .

فإذا كان المقياس في جودة الشعر وحُسْنه يتمثّل في قول ابن طباطبا : " وللشعر الموزون إيقاع يطْرَبُ الفهم لصوابه ،ويَرِدُ عليه من حسن تركيبه واعتدال اجزائه . فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى ،وعذوبة اللفظ ، فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر ،تمّ قبوله له ،واشتماله عليه ،وإن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهي : اعتدال الوزن ،وصواب المعنى ،وحسن الألفاظ ، كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه "(١) - إذا كانت

---

(١) انظر عيار الشعر لابن طباطبا ٢٨ ،تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام .

جودة الشعر عند النقاد الأوائل تبعاً لهذا المقياس ،فإن شعر سابق البربرى لا يكاد يخرج عن هذا المقياس ، مما يدل على أنه شاعر لا تنقصه الموهبة الفنية ولا المقدرة اللغوية ، بحيث ارتقى بفنه إلى مستوى جيد لا يمكن أن نغفله له أو نغمطه حقه فيه . . ولكن السؤال الذى يتبادر إلى الذهن مباشرة هو: لِمَ تجاهل أهل التراجم هذا الشاعر؟ فلم يترجموا له في أمهات كتب التراجم (١)؟ ولماذا لم يرد شعره في كثير من كتب الاختيارات المعروفة (٢)؟

والجواب على هذا السؤال له عدة احتمالات : منها أن شاعرنا كان من الزهاد ،والزهد يميل صاحبه إلى الانطواء عن الآخرين ، والترفّع عن متاع الدنيا وزينتها ،ولهذا فإنّا لم نعرف عن سابق البربرى أنه اتصل بأحد من الخلفاء أو مدحهم إلا خبر اتصاله بعمر بن عبد العزيز ووعظه . . وفي هذا سبب لتجاهل الناس له ، وإغفالهم لشعره ، وعدم الترجمة له ،إذ الناس تُقبل على المشهور المعروف . وأصحاب التراجم اهتم أغلبهم بالذين يقع الاحتجاج بشعرهم في اللغة والنحو ،وبمن ذاعت أخباره ،ونُشِرَتْ الروايات عنه ،وأنشد الناس شعره ،كما يُفْهَمُ من قول ابن قتيبة : " فأمّا من خَفِيَ اسمه ،وقلّ ذكره ،وكَسَدَ شعره ،وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ،فما أقلّ من ذكرتُ من هذه الطبقة ، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ،ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً " (٣) .

---

(١) انظر مثلا : طبقات فحول الشعراء ،تحقيق : محمود شاكر ، والشعر والشعراء ،لابن قتيبة ،تحقيق : أحمد شاكر . والفهرست لابن النديم . ومعجم الأدباء ،لياقوت الحموى ،ووفيات الأعيان ، لابن خلكان ،تحقيق : احسان عباس .

(٢) انظر المبحث الخاص بدراسة مصادر شعره ص ١٨٨ـ٢٠٥ .

(٣) انظر الشعر والشعراء ١/ ٦٥ .

وشاعرنا قد احْتُجَّ بالقليل من شعره ،ولكنه لم يكن مشهوراً معروفاً لعزلته وزهادته وقلة صِلَاته بأهل عصره .

واحتمال آخر - وهو الأرجح - هو أن شاعرنا قصر شعره على الزهد والمواعظ والحكمة والأمثال ،فلم يمدح الخلفاء ولم يهجُ ،ولم يَرْثِ ، فيما وجدناه من شعره . وهذا سبب لإغفال شعره وتجاهله لأن الشعر الديني مزهود فيه منذ العصور الأولى ،إذ لم يصلنا من الشعر الجاهلي المتعلق بالدين إلا القليل ،كما لم تَرِدْ كلمة الزهد بمعناها الديني فيه (١) . وفي العصر الإسلامي انصب أكثر الاهتمام على رواية الشعر المتعلق بالاحتجاج في اللغة والنحو والغريب ،واشتهر من الشعر ما كان مدحاً للخلفاء والولاة ، أو هجاءً ،وما إلى ذلك من الأغراض والفنون التي راجت وازدهرت . أما الشعر المرتبط بالدين ،فقد كان محدود الانتشار بين الزهاد والوعاظ ، إذ لم يهتم بنقله الرواة لِمَا ساد بينهم من اعتقاد ضعف الشعر إذا دخل في باب الخير (٢) . ثم إن النفس البشرية ميّالة بطبعها لما يبعث فيها السرور والانشراح والبهجة ،وهذا بالطبع - لا تجده في شعر الزهد والوعظ ، الذى يُذكِّر بالموت والآخرة ،ويزهّد في الدنيا ومتاعها . . الأمر الذى يجعل هذا اللون من الشعر مقصوراً على فئة قليلة من الناس ،تترفّع عن الدنيا وزينتها . أما الأكثرية العظمى من الناس فإنها تنصرف عنه تبعاً لنفورها من كل ما يخالف أهواءها ،ولهذا كان شعر سابق البربرى محدود الانتشار ،بالنسبة لشعر غيره من الشعراء الذين نقلت الكتب أخبارهم ،ووصلتنا أشعارهم .

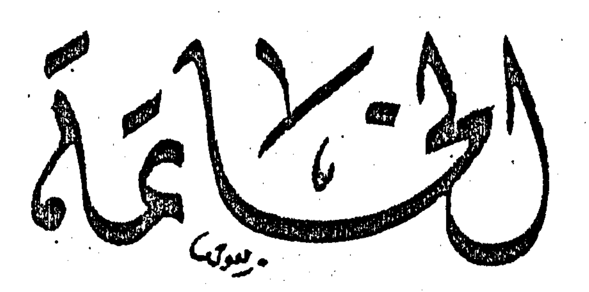
---

(١) انظر في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين ٧٣ ،وانظر الشعراء الحنفاء للدكتور أحمد جمال العمرى ، الفصل الثاني والثالث من الباب الثالث ١٤٩-١٩٥ .

(٢) انظر الفصل الخاص بقضية ضعف الشعر في الإسلام ص ٥٠٥ .

بهذه الأسباب مجتمعة يمكن تعليل إغفال سابق البربرى ، وعدم ذيوع شعره ، إذ أثبتت الدراسة لهذا الشعر قوّة بنائه الفني وعدم خلوّه من التصوير البياني الرائع ، والمزايا البلاغية الكثيرة ، فهو - على الرغم من اقتصاره على غرض واحد هو الغرض الديني - فإنه قد نوّع طرق صياغته ، وصوره البيانية ، وأساليبه الشعرية ، مستعملاً كل طاقته الفنية ومقدرته اللغوية ، ليدخل بمعانيه الهادفة البنّاءة إلى أقطاب النفس البشرية فيميلها و يخضعها . وهذا دليل على حسّه الشعرى المرهف ، وموهبته الفنية الجيدة ، إذ يكفيه أن يأتي بكل هذه الطرائق الأسلوبية في غرض واحد ، ولهذا فإنه لم يتأخر عن مرتبة الفحول من الشعراء ، بل إنه تميز عنهم في أنه استعمل هذه الموهبة الفنية الرفيعة المستوى في غرض هادف بنّاء يصقل النفس ويهذّبها ، و يربّي فيها الخلق الأمثل الذى دعا إليه الإسلام .

ثم إن شعره قد نُكِبَ بالضياع ، والتناثر في بطون الكتب ، ولو حصلنا على شعره كاملاً لتجلّت شاعرية سابق البربرى بشكل أكثر وضوحاً ، ولربما امتاز بتفوّقه على الكثير من الشعراء الذين حكم الأوائل بعلوّ طبقتهم وأصالة تصويرهم .


الخاتمة

الخاتمـــــــــــة

وبعد : فهذا هو سابق البربرى الشاعر الزاهد الواعظ ، الذى عاش في العصر الأموى ووقف شعره على خدمة العقيدة الإسلامية مما دعا أن تقوم هذه الدراسة للتعريف بشخصه ودراسة شعره ، وبيان ما فيه من الاتجاه الإسلامي .

وقد خرج هذا البحث بعد الدراسة والمناقشة والتحليل والنقد والموازنة ، بنتائج ذات صلة وثيقة بالشاعر ، وما يتعلق بفنه الشعري .

ففي الباب الأول - وهو المخصص لدراسة شخصية الشاعر وحياته العلمية - اختلف من ترجموا لسابق البربرى في الاسم الكامل له ، وفي حقيقة نسبته إلى البربر ، وقد انتهت الدراسة في هذا إلى التفريق بين سابق بن عبدالله الرّقي ، وسابق بن عبدالله البربرى الذى هو شاعرنا . وناقشت الدراسة في هذا الباب حقيقة نسبة سابق إلى البربر فانتهت إلى أنه ليس منسوباً إلى البربر وإنما البربري لقب له . وهذا يردُّ ما أكده الأستاذ عبدالله كنون من نسبة سابق إلى البربر ونسبة البربر إلى العرب ، ذلك أن واقع حياة سابق البربرى وكونه معدوداً في الشاميين يرجحان عدم نسبته إلى البربر . والتحقيق التاريخي لا يُثبت نسبة البربر إلى العرب .

وفي مولده ووفاته بيّنت الدراسة أن مولد الشاعر كان - تقريباً - في النصف الثاني من القرن الأول الهجري ، وأن وفاته كانت - تقريباً - في النصف الأول من القرن الثاني الهجري - أى أنه شاعر مخضرم بين الدولتين الأموية والعباسية . . ولكنه لم يُذْكَرْ عن حياته خبر ذو بال إلا صلته بالخليفة الأموى الزاهد عمر بن عبد العزيز ، مما جعلنا نقول إنه عاش في العصر الأموى لكونه العصر الذى ثبتت للشاعر أخبار فيه .

وفي الفصل الثاني من الباب الأول بيّنت الدراسة القائمة على الاستنباط من الشواهد التاريخية، والأخبار المروية عن سابق، أنه تلقى تعليماً إسلامياً قائماً على القرآن الكريم والحديث الشريف، والفقه وعلوم العربية. وفي روايته للحديث أثبتت الدراسة أنه ثقة، لم يُجرّح، ولم يثبت له حديث فيه ضعف. كما بينت الدراسة في هذا الباب أن الزهد إسلامي الأصل والمنبع والاتجاه، وأنه منهج حياة كثير من أهل الشام في القرن الأول الهجرى.

وفي الباب الثاني - وهو المخصص لجمع شعر سابق وتحقيقه ودراسة مصادره، بيّنت الدراسة أن للشاعر ديوان شعر مجموع، كان معروفاً حتى القرن السادس الهجري، ولعله يظهر في المستقبل إن شاء الله.. كما بينت أن الكثير من شعره قد تعرض للضياع، نظراً لتناثره في بطون الكتب، وتداخله بشعر غيره، وعدم اهتمام الرواة بنقله وتدوينه، مما يُبيّن أن الشعر الملتزم بالمنهج الإسلامي لم يلق العناية الكافية لحفظه وروايته، كما لقيها غيره من الشعر. كما أثبت التحقيق لشعر سابق البربرى صحة نسبة بعض الشعر إليه، ومشاركة غيره له في نسبة بعض الأبيات. وزيادة عدد الشعر المجموع له عما جمعه الأستاذ عبدالله كنون.

أما الباب الثالث، وهو المخصص للدراسة الفنية لشعر سابق البربرى، فإنه انقسم إلى ستة فصول دُرِسَ فيها شعر سابق من حيث الألفاظ، والأسلوب، والصور البيانية، والصنعة البديعية، والوزن والقافية، وافتتاحيات قصائده. وقد خرج كل فصل بنتائج نوضحها فيما يلي:

ففي دراسة الألفاظ تبيّن أن ألفاظ سابق البربرى عربية فصيحة سهلة، قريبة المأخذ، ليست حوشية وعرة، ولا مستكرهة ثقيلة، بعيدة عن اللحن والتوليد والدخيل.

وتبيّن من دراسة الأسلوب أن شعر سابق تميّز بظواهر أسلوبية بارزة فيه ،مثل استعماله لأسلوب الخطاب ،وللتكرار،وأنه تميز بظاهرة أسلوبية خاصة هي طريقته في الاستدلال ، وأنه في أكثر ظواهره الأسلوبية مقتدٍ بأسلوب القرآن الكريم ،سائر على نهج الأوائل في صياغة تراكيبه ،وفي تحقيق معانيه ،وإبراز أفكاره بطريقة تشوق السامع وتُثْبِتُ المعنى فى ذهنه وتجذب قلبه إليه .

وفي دراسة الصور البيانية في شعره أظهر التحليل أن لسابق خيالاً خصباً برع في إبداع صور فنية وتجديد صور مستلهمة من بيئته وثقافته ، مما بيّن خروجه عن دائرة التقليد المحض في صناعة الشعر . وفي دراسة الصنعة البديعية في شعره عكست الدراسة صفاء وعفوية أهل الطبع الذين لم تقيّدهم الصناعة ، ولم يعتسفوا الفن في إبراز معانيهم وتوضيحها . وفي دراسة الأوزان والقوافي ، تبيّنت صحة أوزان سابق البربرى ،وانتهاجه نهج الأوائل في اختيار بحور شعره ، ومناسبة أوزانه لمعانيه .وعرضت الدراسة الرأى القائل بأن النقاد الأوائل قد خصوا كل غرض بوزن معين ،فأثبتت أن الأوائل قد أوصوا بأن يكون الوزن مناسباً للمعنى ، وبيّنوا صفات البحور وما يلائمها من المعاني ، ولكنهم لم يحددوا وزناً معيناً لغرض معيّن ،كما هو مفهوم عند بعض الباحثين المعاصرين . وبينت الدراسة لقوافي سابق البربرى أنه منتهج نهج الأوائل في اختيار قوافيه ،وأن قوافيه سالمة من العيوب المستكرهة ،وأنها مناسبة لمعانيه .

وفي مقدمات قصائده بيّنت الدراسة أنه مبتكر فيها ،فقد جاءت مقدماته الدينية مشابهة لمقدمة الخطبة الدينية ،وتبيّن أيضاً أنه لم يفتتح قصائده بالمقدمات الطللية ،وإنما جاءت مقدماته مناسبة للمعاني التي بنى عليها قصائده .

أما في الباب الرابع ، وهو المخصص لدراسة الاتجاه الإسلامي في شعر سابق البربري ، فقد تمّت فيه دراسة أغراض شعره ، وأثر القرآن والحديث فيه ، ودراسة قضية ضعف الشعر في الإسلام ، ودراسة شعر سابق في ضوء قضية الالتزام . وقد خرجت الدراسة في كل فصل بنتائج نوجزها فيما يلي :

ففي دراسة أغراض سابق تبيّن أنه شاعر زاهد واعظ ، وقف شعره على الخير ، فكانت أغراضه متقاربة المعاني ، نستطيع أن نحصرها في الزهد وفي المواعظ والحكمة والأمثال ، إذ لم يخرج عن هذه الأغراض إلا في أبيات قليلة لا تمثّل اتجاهاً متميزاً . وهذا يدل على أن الشعر في العصر الأموي لم يقتصر على المديح والغزل والنقائض وشعر الحماسة ، وإنما كان الاتجاه إلى شعر الزهد والمواعظ واضحاً قوياً كما يمثله شعر سابق البربري . وبيّنت الدراسة لشعر الزهد والمواعظ عنده أنه الشاعر الجدير بأن يسمى شاعر الزهد والمواعظ ، بحيث يسبق بهذا الاسم أبا العتاهية شاعر العصر العباسي المسمى شاعر الزهد .

وفي الفصل الخاص بدراسة أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في شعره بينت أنه متأثر في صياغة شعره بأسلوب القرآن والحديث تأثراً عاما شمل المعاني ، والألفاظ والتراكيب ، والصور البيانية ، مما يدل على أن القرآن الكريم والحديث الشريف هما المصدر الأساسي للشعر الملتزم بالنهج الإسلامي . وفي تأثر سابق بالقرآن والحديث أظهرت الدراسة أنه لم يتقيّد بالاقتباس الحرفي منهما ، وإنما كانت موهبته الصادقة تتيح له الحرية في صياغة المعنى القرآني أو الحديثي في الأسلوب المناسب ، وتتيح له اقتباس اللفظ أو التركيب القرآني أو الحديثي ووضعه في السياق المناسب له . . مع مقدرته على التحوير والتغيير ، بحيث يتسق اللفظ أو التركيب المقتبس مع السياق الموضوع فيه . وهذا يدل على

عفوية الشاعر المسلم - الملتزم بالمنهج الإسلامي - في تأثره بالقرآن أو الحديث ، وعدم اقتصاره على التقليد المحض أو الاقتباس الحرفي من القرآن أو الحديث .

وقد بينت دراسة قضية ضعف الشعر في الإسلام عدم صدق المقولة التي ذاعت عن ضعف الشعر المتجه إلى الخير ، أو ضعف الشعر الملتزم بالنهج الإسلامي ، فالشعر لا يقوى في باب مخصوص من المعاني و يضعف في آخر ، وإنما مرد قوة الشعر أو ضعفه يرجع إلى صدق موهبة الشاعر ، وصفاء طبعه ، و نضج شاعريته .

و في دراسة شعر سابق في ضوء قضية الالتزام ، تبيّن أن شعر سابق البربري نموذج لمفهوم الالتزام في الأدب الإسلامي حيث أنه داع إلى الخير والحق ، مبيّن لحقائق الدين الإسلامي ، ومرغّب في الزهد ، والتطلع إلى الآخرة ، ومع ذلك فإن التزامه بهذا النهج القويم لم يؤثر في قوة بنائه الفني مما يبيّن أن الالتزام بالمنهج الإسلامي في الشعر لا يُضْعِفُهُ ، أو يقلل من قيمته الفنية - بل ربما كان هذا الالتزام عاملاً على تميّز الشاعر المسلم و تفرّده كما ظهر في شعر سابق ، إذ برع في تنويع طرائقه الأسلوبية ، وافتنَّ في صياغته الفنية مع التزامه بمنهج واحد ، جعل شعره متقارب المعاني .

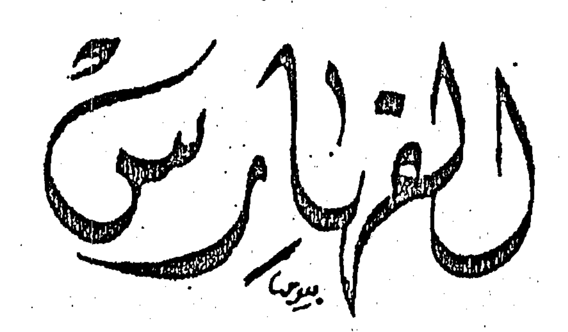
ومن الدراسة العامة لشعر سابق البربري - المتبقي لنا - تبيّن أنه داخل - في مجمله - في إطار أدب الدعوة الإسلامية . . وفي هذا دليل على أن أدب الدعوة الإسلامية لا ينحصر في أدب صدر الإسلام ، وإنما هو مُنْبثّ في أدب العصور الإسلامية . وهذا يدعونا إلى التوصية بزيادة الاهتمام بدراسة مادة أدب الدعوة الإسلامية في كلية اللغة العربية بحيث تكون مادة ضرورية في كلّ المستويات ، مع توسيع مجال الدراسة فيها ،

بحيث تُعنى بجمع الشعر الإسلامي المتناثر في بطون الكتب ، وتحقيقه ودراسته ، إذ هو غرض أساسي من أغراض الأدب العربي الإسلامي ، ينبغي الاهتمام به وتحقيق غاياته .

وقد أظهرت الدراسة لشعر سابق البربرى المعبّر عن حقائق الإسلام ومثله السمحة - الحاجة إلى التوصية بالتعمّق في دراسة أدب الدعوة الاسلامية ، بحيث لا يُكتفى بنماذج صدر الإسلام المعروفة ، أى بالشعر المنافح عن دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل إن أدب الدعوة هو في حقيقته تعبير عن تأثر الشاعر المسلم بمبادىء الإسلام السمحة خلال العصور المتعاقبة . و ينبغى أن توجّه جهود الباحثين في الأدب الإسلامي إلى هذه الغاية الكريمة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .


الفهارس

فهرس الآيـــات

رقم الآية	الآيـــة	الصفحة
٤٨-٤٩	(ثم صُبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك انت العزيز الكريم)	٣٢٨
	(سورة الأحقاف)	
٢٠	(ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)	١٢٠/١٠٢
	(سورة محمد)	
٢	(والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم)	٥٤
	(سورة الفتح)	
١/٢/٣	(إنّا فتحنا لك فتحًا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرًا عزيزا)	٥٤
	(سورة الحجرات)	
٦	(ياأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)	٤٧٤

فهرس الأحاديث

فهرست شعره

أولا - الشعر الذى ثبتت نسبته إلى سابق البربرى :

القافيــة	الـبحر	رقم المقطعة أو القصيدة	الصفحـة
جوانحِ	الكامل	٤	١٧٦
فاشي	الوافر	٥	١٧٧
يُخادِعُه	الطويل	٦	١٧٨
يُرْزَقُ	الكامل	٧	١٧٩
تُمزّقُ	الكامل	٨	١٨٠
يُرشَقُ	الكامل	٩	١٨٠
تنفق ،أو فق	الكامل	١٠ ، ١١	١٨١
في التكّلمِ	الطويل	١٢	١٨٢
عظيمُ	الكامل	١٣	١٨٤
المُعايِنُ	الطويل	١٤	١٨٥

ثالثا : الشعر الذى يُظن بأنه له :

القافيــة	الـبحر	رقم المقطعة أو القصيدة	الصفحـة
جُمودُها	الطويل	١	١٨٦
ما تذرُ	البسيط	٢	١٨٧

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

* القرآن الكريم .

* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، لمحمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

* المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة ، وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ، ومسند أحمد بن حنبل رتبه و نظمه لفيف من المستشرقين ونشره د/ أ.ى.و نسنك مكتبة بريل في مدينة ليدن ١٩٣٦م .

أ ـ المخطوطات :

* تاريخ الإسلام ، ج ٦
الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، نسخة في دار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ .

* تاريخ مدينة دمشق ، ج ٤
ابن عساكر ، على بن الحسين نسخة فتوغرافية مصورة عن معهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٢٥ تاريخ .

* التبصرة .
ابن الجوزى ، الإمام أبو الفرج عبد الرحمن ، نسخة منقولة بخط اليد في مكتبة الدكتور مصطفى عبد الواحد .

* تحفة الأخيار في الحكم والأمثال والأشعار .
كاتب جلبي ، عبد الله الشهير بحاجي خليفة ، نسخة في مكتبة أسعد أفندى ، مكتبة السليمانية ـ استانبول برقم ٢٥٣٩ .

* الحماسة المغربية ،مختصر كتاب صفوة الأدب و نخبة ديوان العرب .
الجرّاوى ،أحمد بن عبد السلام ،نسخة برقم ٤٠٧٩ في مكتبة السلطان محمد الفاتح - استانبول .

* شوق النفوس وأنس العروس .
موءلف مجهول، نسخة برقم ٣٦٢ مكتبة إزمير - المكتبة السليمانية استانبول .

ب - المطبوعات :

* الإتقان في علوم القرآن ، ، ج ١
السيوطي ، الشيخ جلال الدين بن عبد الرحمن ، المكتبة الثقافية بيروت-لبنان ١٩٧٣م.

* الأحكام السلطانية والولاية الدينية .
الماوردى ، الشيخ ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ

* أخبار الشعراء ، المسمى كتاب الأوراق .
الصولي ، أبو بكر ،تحقيق ج . هيوارث دن ، بدون إشارة إلى دار الطبع أو سنته .

* أدب الدنيا والدين .
الماوردي ، الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب ، تحقيق مصطفى السقا دار الكتب العلمية - بيروت لبنان الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

* أساس البلاغة .
الزمخشري ،الشيخ جار الله محمود بن عمر ،تحقيق : الأستاذ عبد الرحيم محمود دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

* الاستقصا ،لا ْخبار دول المغرب الأقصى ،ج ١
الناصرى ، ابو العباس أحمد بن خالد ،تحقيق وتعليق
الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصرى دار الكتاب
الدار البيضاء ١٩٥٤م.
* أسرار البلاغة ،ج١
الجرجاني ،الإمام عبد القاهر ،تحقيق د/ محمد عبدالمنعم
خفاجي، مكتبة القاهرة الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .
* الإصابة في تمييز الصحابة ،ج ٢
ابن حجرالعسقلاني ، أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني
مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩م.
* الا ْصمعيات .
الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قُرِيْب ،تحقيق وشرح
الأستاذ أحمد محمد شاكر ،والأستاذ عبد السلام هارون
دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة .
* إعجاز القرآن .
الباقلاني ،أبو بكر محمد بن الطيب ،تحقيق : السيد أحمدصقر
دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة .
* الا ْغاني ج ٢ ،٣ ،٤ ،٥ ،٨
الأصفهاني ،أبو الفرج طبعة دار الفكر - بيروت ١٩٥٦م.
* الإكمال ، في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء
والكنى والأنساب ج ١ .
ابن ماكولا ، الا ْمير الحافظ علي بن هبة الله . بدون إشارة
إلى دار الطبع أو سنته .

* الأمالي ج ١
القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم، دار الفكر.
* أمالي الزجاجي .
الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق، تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ.
* الإمتاع والمؤانسة ج ١، ٢، ٣.
التوحيدى، أبو حيّان، تصحيح وشرح : أحمد أمين، وأحمد الزين دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان.
* أنباء نجباء الأبناء .
الصقلي، الإمام أبي عبد الله محمد بن ابي محمد بن ظفر دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
* الانباه على قبائل الرواة .
ابن عبد البر، أبو عمر يوسف، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٥٠هـ.
* أنساب الأشراف ج١
البلاذرى، أحمد بن يحيى، تحقيق د/ محمد حميد الله، يخرجه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف - بمصر .
* الأنساب ج٢
السمعاني، الإمام ابي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي . تصحيح وتعليق : الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن - الهند ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.

* أوزان المتنبي وقوافيه .
المعرى ، أبو العلاء ، دراسة وتحقيق د/ السعيد السيد عبادة ، مجلة كلية اللغة العربية جامعة أم القرى ، العدد الأول ١٤٠١هـ - ١٤٠٢هـ .

* الإيضاح في علوم البلاغة .
القزويني ، الإمام الخطيب، تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني بيروت - الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

* البداية والنهاية جـ ٩
ابن كثير ، الحافظ إسماعيل بن عمر ، مكتبة المعارف بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٧٨م .

* بهجة المجالس وأُنْس المُجَالِسْ ، وشحذ الذاهن والهاجس .
ابن عبد البر ، الإمام أبي عمر يوسف ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

* البيان والتبيين جـ ١ ، ٢
الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، تحقيق وشرح : الأستاذ عبد السلام هارون مكتبة الخانجي الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

* تاج العروس من جواهر القاموس جـ ٣ ، ٦
الزّبيدي ، محمد مرتضى منشورات مكتبة الحياة بيروت - لبنان .

* تاريخ أبي زرعة الدمشقي جـ ٢
النصري ، الحافظ عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان تحقيق : شكر الله نعمة الله القوجاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٠م .

* تاريخ بغداد ج ٩
البغدادى، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب ، دار الكتاب العربي - بيروت لبنان .

* التاريخ الصغير ، ج١
البخارى ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل ، تحقيق محمود إبراهيم زايد ، دار الوعي - حلب الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

* التاريخ الكبير ج ١ ، ٢
البخارى ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن - الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

* تأويل مشكل القرآن .
ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار التراث - القاهرة الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .

* تاريخ اليعقوبي ج ١
اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت.

* التبصرة ج١
ابن الجوزى الإمام أبي الفرج عبد الرحمن، تحقيق د / مصطفى عبد الواحد . عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

* تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ج١
ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي ، تحقيق : علي محمد البجاوى ، مراجعة : محمد علي النجار المؤسسة المصرية العامة - الدار المصرية للتأليف والترجمة .

* تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ج ١
السيوطي ، الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ،
تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف دار السنة النبوية -
الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

* تذكرة الحفاظ ج ١ ، ٢
الذهبي ، الإمام أبي عبد الله شمس الدين ، دار إحياء التراث
العربي .

* الترغيب والترهيب ، ج ٤
الحافظ المنذري ، الإمام عبد العظيم بن عبد القوي ، ضبط
أحاديثه وعلق عليه : مصطفى محمد عمارة دار الفكر .

* تفسير القرآن العظيم .
ابن كثير الحافظ إسماعيل ، دار المعرفة للطباعة والنشر -
بيروت لبنان .

* تقريب التهذيب .
ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي ، تحقيق : عبد الوهاب
عبد اللطيف دار المعرفة بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ
١٩٧٥م .

* التقييد والإيضاح ، شرح مقدمة ابن الصلاح .
العراقي ، الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين ،
تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان . دار الفكر العربي .

* التمثيل والمحاضرة .
الثعالبي ،أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ،
تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، دار إحياء الكتب العربية
القاهرة ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

* تهذيب التهذيب .
ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي ، طبعة حيدر اباد الدكن
١٣٢٧هـ.

* تهذيب تاريخ دمشق ج ٦
ابن عساكر ،الإمام علي بن الحسن،هذبه و رتبه الشيخ عبد
القادر بدران ، دار المسيرة بيروت.

* الثقات ج٦
ابن حِبّان ،أبو حاتم محمد بن حِبّان حيدر آباد - الهند
١٤٠٠هـ.

* جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله .
ابن عبد البر،الإمام ابي عمر يوسف ،إدارة الطباعة المنيرية ١٣٩٨هـ.
١٩٧٨م نشر دار الكتب العلمية - بيروت لبنان .

* الجرح والتعديل ،ج١ ، أبو محمد عبد الرحمـــــــــــن ،
ابن أبي حاتم، او محمد عبد الرحمن الرازى ، دار الكتب
العلمية، الطبعة الأولى .

* جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ج١ .
أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب ،تحقيق : على محمد
البجاوى . دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة - الطبعة
الأولى .

* جمهرة الأمثال ، جـ١
العسكرى ، أبو هلال ، تحقيق : محود أبو الفضل إبراهيم ، عبد المجيد قطامش ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر - القاهرة الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م .

* جمهرة أنساب العرب .
ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ، تحقيق وتعليق : الأستاذ عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ١٣٩١هـ ١٩٧١م .

* حلية الأولياء وطبقات الاصفياء جـ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .
أبو نعيم ، الحافظ أحمد بن عبدالله الأصبهاني ، دار الكتاب العربي - بيروت لبنان الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م

* الحماسة .
البحترى ، أبو عبادة ضبط وتعليق : كمال مصطفى ، المطبعة الرحمانية الطبعة الأولى ١٩٢٩م .

* الحماسة البصرية .
البصرى ، صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن ، عالم الكتب - بيروت .

* حماسة الظرفاء من اشعار المحدثين والقدماء جـ ١ ، ٢
العبدلكاني الزوزني ، أبو محمد عبدالله بن محمد . تحقيق : محمد جبّار المعيبد . وزارة الثقافة والفنون الجمهورية العراقية ١٩٧٨م .

* حياة الحيوان الكبرى جـ١
الدميرى ، كمال الدين محمد بن موسى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة ١٣٧٦هـ ١٩٥٦م .

* الحيوان ،ج ٥
الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ،تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية.

* خاص الخاص .
الثعالبي ،أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، تقديم حسن الأمين ،دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦م.

* خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ،ج ٤
البغدادى ، الشيخ عبد القادر بن عمر، دار صادر بيروت

* الدرر اللوامع شرح همع الهوامع ج ٢
الشنقيطي ، الفاضل أحمد بن الأمين، دار المعرفة بيروت

* دلائل الإعجاز .
الجرجاني ،الإمام عبد القاهر، قرأه وعلّق عليه : الأستاذ محمود شاكر،طبع مطبعة المدني ، الناشر: مكتبة الخانجي القاهرة.

* ديوان أبي العتاهية ، المسمى : أبو العتاهية أشعاره وأخباره.
فيصل ،الدكتور شكرى ،مكتبة الملاح - دمشق .

* ديوان أبي النجم العجلي .
صنعة وشرح : آغا ، علاء الدين ،النادي الأدبي - الرياض ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

* ديوان ابن الرومي ج ١
تحقيق : نصار ،الدكتور حسين ،طبع دار الكتب .

* ديوان أبي الأسود الدؤلي .
تحقيق : آل ياسين ،محمد حسن ،دار الكتاب الجديد بيروت لبنان .

* ديوان امرىء القيس ، بشرح الأعلم الشنتمرى .
  اعتنى بتصحيحه : أبي شنب،الشيخ ابن . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.
* ديوان زهير بن أبي سلمى ،صنعة أبي العباس ثعلب.
  تحقيق : قباوة ،الدكتور فخر الدين ،دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
* ديوان شعر بشار بن برد .
  جمع وتحقيق : العلوى السيد بدر الدين ،دار الثقافة - بيروت لبنان .
* ديوان طرفة بن العبد ،شرح الأعلم الشنتمرى .
  تحقيق : درية الخطيب ، لطفي الصقال ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م.
* ديوان عبيد بن الأبرص .
  تحقيق وشرح : نصار،الدكتور حسين ، الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م. مطبعة : مصطفى البابي الحلبي بمصر.
* ديوان قيس بن الخطيم .
  تحقيق : الاسد ،الدكتور ناصر الدين ،دار صادر بيروت ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
* ديوان النابغة الذبياني .
  جمع وتحقيق ابن عاشور ، الشيخ محمد الطاهر ،نشر : الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر .
* ذيل الأمالي والنوادر .
  القالي ،ابو علي دار الفكر بيروت .
* الزاهر في معاني كلمات الناس.
  الأنبارى ،ابو بكر محمد بن القاسم ،تحقيق : الدكتور حاتم صالح الضامن - الجمهورية العراقية وزارة الثقافة والاعلام - دار الرشيد للنشر ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

* الزهـــد .
ابن حنبل ،الإمام أبي عبدالله أحمد بن محمد ،دار الكتب العلمية -بيروت لبنان ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

* سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ،ج ٢
البكرى ،الوزير أبي عبيد ،ملاحظة وتصحيح : الأستاذ عبد العزيز الميمني ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤هـ ١٩٣٦م.

* سنن أبي داود .
السجستاني الأزدى ،الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث مراجعة وضبط : عبد الحميد ، الشيخ محمد محي الدين ، دار إحياء السنة النبوية .

* سنن ابن ماجه .
ابن ماجه ،الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ،دار إحياء التراث العربي ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

* سنن الترمذى ،الجامع الصحيح ج ٤ ، ٥
ابن سورة ،أبو عيسى محمد بن عيسى ،تحقيق وشرح : أحمد شاكر . دار إحياء التراث العربي -بيروت - لبنان.

* سنن النسائي ،بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندى . المكتبة العلمية بيروت لبنان.

* سيرة عمر بن عبد العزيز .
ابن الجوزى ، الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن ، نشر دار الفكر .

* السيرة النبوية .
ابن هشام ،عبد الملك ،تحقيق وضبط وشرح : مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى ،عبد الحفيظ شلبي ،مطبعة عيسى البابي الحلبي ،الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

* شرح أبيات مغنى اللبيب ،جـ ٤
البغدادى ،الشيخ عبد القادر بن عمر ،تحقيق : عبدالعزيز رباح ،وأحمد يوسف دقاق ،طبع في مطبعة زيد بن ثابت الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

* شرح شواهد المغنى جـ ٢.
السيوطي ، الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقف على طبعه وعلّق حواشيه : أحمد ظافر كوجان ،دار مكتبة الحياة .

* شرح ديوان أمية بن أبي الصلت.
قدم له وعلّق حواشيه : سيف الدين الكاتب ،وأحمد عصام الكاتب ،منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت لبنان .

* شرح ديوان كعب بن زهير ،رواية أبي سعيد السكري .
شرح نخبة من الأدباء ،دار الفكر للجميع- بيروت ١٩٦٨م.

* شرح الكافية في النحو ،جـ ٢.
الاستراباذي ،الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن ،دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

* شرح مقامات الحريرى ،جـ ١ ،٢ ،٣ ،٥
الشريشى ،أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . نشر: المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة .

* شرح نهج البلاغة ج ٧ ، ١٧ .
ابن أبي الحديد ، عبد الحميد بن هبة الله تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية القاهرة .

* الشعر والشعراء .
ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار التراث العربي الطبعة الثالثة ١٩٧٧م .

* شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه .
ابن كثير ،الإمام ابي الفداء إسماعيل ،تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان .

* رسائل الانتقاد ، المسمى مسائل الانتقاد .
القيرواني ،محمد بن شرف ،دراسة وتحقيق : الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ،مطبعة المدني * الموسسة السعودية بمصر-القاهرة .

* رسائل الجاحظ ج ٣ .
الجاحظ ،أبو عثمان عمرو بن بحر ،تحقيق : عبد السلام هارون الناشر مكتبة الخانجي بمصر - الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

* رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها ،ضمن نوادر المخطوطات م ٢ .
المبرد ،أبو العباس محمد بن يزيد ،تحقيق : عبد السلام هارون ، شركة ومطبعة : مصطفى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م .

* روضة العقلاء ونزهة الفضلاء .
ابن حِبّان البستي ،الإمام الحافظ أبي حاتم محمد ، قدّم لها وخرّج أحاديثها : علي بن مشرف العمري ، طبع بمطبعة الحلبي ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

* الصاحبي ،في فقه اللغة العربية .
ابن فارس ،أبو الحسين أحمد ،تحقيق : السيد أحمد صقر مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة .

* صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج ١
القلقشندي ،أبو العباس أحمد بن علي ،نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية - وزارة الثقافة والإرشاد القومي . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

* الصحاح ،تاج اللغة وصحاح العربية .
الجوهري ،إسماعيل بن حمّاد ،تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ،الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ،بدون إشارة إلى دار النشر .

* صحيح البخاري .
البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ،دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان .

* صحيح الجامع الصغير وزيادته - ج ٢
السيوطي ، الشيخ جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني : المكتب الإسلامي ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

* صحيح مسلم بشرح النووي .
القشيري ،الإمام ابو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم ، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان .

* الصناعتين ،الكتابة والشعر.
العسكرى ،أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل ،
حققه وضبط نصه د/ مفيد قميحة . دار الكتب العلمية
بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

* صيد الخاطر .
ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن ،يطلب من المكتبة العلمية
بيروت - لبنان.

* طبقات الشعراء .
ابن المعتز ،عبدالله بن محمد ،تحقيق : عبد الستار أحمد فراج .
دار المعارف - بمصر .

* الطبقات الكبرى ،المعروف بطبقات ابن سعد جـ ٥ ،٧
ابن سعد ،محمد بن سعد بن منيع ، دار صادر للطباعة
والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م.

* طبقات فحول الشعراء .
ابن سلام ، محمد بن سلام الجمحي ،قرأه وشرحه : الأستاذ
محمود محمد شاكر ،مطبعة المدني - القاهرة.

* الطرائف الأدبية .
الميمني، عبد العزيز ،دار الكتب العلمية بيروت.

* الطراز ،المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز جـ٢
العلوى ،أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم
أشرفت على مراجعته وضبطه وتدقيقه : جماعة من العلماء.
دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

* العبر ، المسمى تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ، منشورات مكتبة دار
الكتاب اللبناني ١٩٥٩م.

* العقد الفريد ،ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦
ابن عبد ربه ،الفقيه أحمد بن محمد ،تحقيق : محمد سعيد العريان ،دار الفكر .

* العمدة ، في محاسن الشعر وآدابه و نقده .
ابن رشيق ،أبو علي الحسن ،حققه و فصله و علق حواشيه : محمد محيّ الدين عبد الحميد ،دار الجيل بيروت لبنان .

* عيار الشعر .
ابن طباطبا ،محمد بن أحمد ،دراسة وتحقيق د/ محمد زغلول سلام. نشر : منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٨٠م.

* عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة .
ابن هذيل ، أبو الحسن علي بن عبدالرحمن ،دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

* عيون الأخبار ج ١ ، ٢ ، ٣ .
ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* غريب الحديث ج ٢
القاسم بن سلام، أبو عبيد ،بمراقبة د/ محمد عبدالمعين خان ،حيدر آباد الدكن ، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.

* الفاخر .
ابن عاصم ،ابو طالب المفضّل بن سلمة ،تحقيق عبد العليم الطحاوى مراجعة : محمد علي النجار . دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي - الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م.

* فحولة الشعراء .
الأصمعي ، عبد الملك بن قريب ، تحقيق المستشرق ش . توري .
قدّم لها د / صلاح الدين المنجّد . دار الكتاب الجديد بيروت
لبنان .

* الفصول والغايات .
المعرى ، أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان ، تحقيق
محمود حسن زناتي ، دار الآفاق الجديدة - بيروت .

* فصل المقال في شرح كتاب الأمثال .
البكرى ، أبو عبيد حققه وقدّم له : د / إحسان عباس ،
د / عبد المجيد عابدين ، دار الأمانة ، ومؤسسة الرسالة -
بيروت .

* فهرسة ما رواه عن شيوخه ، المسمى فهرسة ابن خير .
ابن خير الأشبيلي ، أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة
الأموى . وقف على نسخها وطبعها الشيخ فرنسشكة قداره
زيدين ، وتلميذه : خليان ربارة طرغوه . منشورات دار
الآفاق الجديدة - بيروت لبنان .

* فيض القدير ، شرح الجامع الصغير جـ١
المناوي ، محمد المدعو بعبد الرؤوف ، دار الفكر الطبعة الثانية
١٣٩١هـ ١٩٧٢م .

* قانون البلاغة .
البغدادى ، أبو طاهر محمد بن حيدر ، تحقيق د / محسن
غياض عجيل ، مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ

* قبائل المغرب .
منصور ، عبد الوهاب . طبع المغرب .

* القصد والأمم في التعريف بأصول العرب والعجم .
ابن عبد البر ،أبو عمر يوسف مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٥٠هـ .
* قصص الأنبياء جـ ٢
ابن كثير ،أبو الفداء إسماعيل ،تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد
دار الكتب الحديثة ،الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .
* الكامل في التاريخ جـ ١
ابن الأثير ،أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد
الملقب بعزالدين ، عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه :
نخبة من العلماء ، دار الكتاب العربي - بيروت-لبنان .
* الكامل في اللغة والأدب جـ ١ ، ٢ ، ٣ .
المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، تحقيق : محمد أبو
الفضل إبراهيم ،دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة .
* كتاب الأفعال جـ ٢ ، ٣ .
السرقسطي ،أبو عثمان سعيد بن محمد المعافرى ،تحقيق
د/ حسين محمد محمد شرف ،مراجعة د/ محمد مهدى علام .
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ـ القاهرة ١٣٩٥هـ ـ
١٩٧٥م .
* كتاب الأمثال .
القاسم بن سلام ،أبو عبيد ،حققه وعلّق عليه وقدّم له :
د/ عبد المجيد قطامش ،دار المأمون للتراث الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .
* كتاب القصاص والمذكرين .
ابن الجوزى ،أبو الفرج عبد الرحمن ،تحقيق د/ مارلين سوارتز .
المكتبة العلمية ـ لاهور ـ باكستان الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م .

* كتاب القوافي .
التنوخي ،القاضي أبي يعلى ،تحقيق د/ عوني عبدالرؤوف
مطبعة الحضارة - الفجالة ١٩٧٥م.

* كتاب الكنى والأسماء.
الدولابي ،الشيخ أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد ،
مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية - الهند - حيدر آباد
الدكن ، الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ.

* كتاب كنى الشعراء و من غلبت كنيته على اسمه م ٥ ، ضمن نوادر
المخطوطات ، ابن حبيب ،أبو جعفر محمد ،تحقيق : عبدالسلام
هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى
١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

* لباب الآداب .
ابن منقذ ،الأمير أسامة ،تحقيق : أحمد محمد شاكر ،المطبعة
الرحمانية مصر ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م.

* اللباب في تهذيب الأنساب ج١
ابن الأثير ،أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد
الملقب بعز الدين مكتبة المثنى بغداد .

* لسان العرب ج ١ ،٢ ،٣ ،٤ ،٥ ،٨ ،١١ ،١٣ ،١٤ ،١٥.
ابن منظور ، العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ،
دار صادر بيروت .

* لسان الميزان ج ٣
ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي ،حيدر آباد الدكن -
الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ١٩٧١م.

* لزوم ما لا يلزم ،المسمى اللزوميات جـ١
المعرى ،أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان ، دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

* المؤتلف والمختلف .
الآمدى ،أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى ، تحقيق عبد الستار فراج ،دار إحياء الكتب العربية ١٣٨١هـ ١٩٦١م .

* مجمع الأمثال .
الميداني ،أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حققه وفصله وضبط غرائبه وعلّق حواشيه : محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الفكر الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ ١٩٧٢م.

* المحاسن والمساوئ .
البيهقي ،ابراهيم بن محمد دار صادر بيروت ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

* المحاسن والأضداد .
الجاحظ ،أبو عثمان عمرو بن بحر ، حققه وقدم له : فوزى عطوي ، دار صعب بيروت ١٩٦٩م .

* محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء .
الراغب الأصبهاني ،أبو القاسم حسين بن محمد ، بدون إشارة إلى دار النشر أو سنته .

* المحاضرات .
اليوسى ،الحسن ،تحقيق محمد حجّي ،دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.

* محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار.
ابن عربي ،محي الدين ،تحقيق : محمد مرسى الخولي ،
دار الكتاب الجديد - القاهرة .
* مدارك السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ج ٢
ابن قيم الجوزية ،أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب
راجع النسخة وضبط أعلامها : لجنة من العلماء بإشراف
الناشر . دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.
* المذكر والمؤنث .
الأنبارى ،أبو بكر محمد بن القاسم ،تحقيق د/ طارق عبد
عون الجنابي ،مطبعة العاني بغداد الطبعة الأولى ١٩٧٨م.
* المستطرف في كل فن مستظرف .
الأبشيهي ،شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح ،
دار الفكر بيروت .
* المزهر ، في علوم اللغة وأنواعها ج١
السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ،شروحه
وضبطه وصححه : محمد أحمد جاد المولى ،علي محمد البجاوى
محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار إحياء الكتب العربية - عيسى
البابي الحلبي .
* المستقصى في أمثال العرب ج ٢
الزمخشرى ،جار الله محمود بن عمر ،دار الكتب العلمية -
بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
* مسند الإمام أحمد بن حنبل .
ابن حنبل ،الإمام أحمد ،طبع المكتب الإسلامي ،نشر دار صادر

* المشتبه في الرجال : أسمائهم وأنسابهم ،ج١
الذهبي ،أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ،تحقيق : علي محمد البجاوى ،دار إحياء الكتب العربية .
* معاني الحروف .
الرماني ،أبو الحسن علي بن عيسى ،تحقيق د/ عبد الفتاح إسماعيل شلبي ،دار الشروق جدة الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ١٩٨١م .
* المعاني الكبير في أبيات المعاني ج١
ابن قتيبة ،أبو محمد بن عبدالله بن مسلم ،مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند ، الطبعة الأولى ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩م .
* معجم الأدباء ج١١
الحموى ،ياقوت ، راجعته وزارة المعارف العمومية ، الطبعة الأخيرة ،دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .
* معجم البلدان ج١ ،٢ ،٣
الحموى ،ياقوت ،دار الكتاب العربي ـ بيروت .
* معجم مقاييس اللغة ج٣
ابن فارس ،أبو الحسين أحمد ، تحقيق وضبط : عبدالسلام هارون ،شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .
* المعارف .
ابن قتيبة ،أبو محمد عبدالله بن مسلم ،حققه وقدّم له د/ ثروت عكاشة ،دار المعارف ،الطبعة الرابعة .

* معرفة علوم الحديث .
النيسابورى ،الإمام أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ . اعتنى بنشره وتصحيحه أ/د/ السيد معظم حسين ،طبع تحت إدارة جمعية دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن . منشورات المكتبة العلمية - بالمدينة المنورة .

* المعيار في أوزان الأشعار .
الشنتريني ،أبو بكر محمد بن عبد الملك بن السراج ،تحقيق : د/ محمد رضوان الداية ، دار الملاح الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

* مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ج ١
ابن هشام الأنصارى ،أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة المدني - القاهرة .

* مفتاح العلوم .
السكاكي ،ابو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي . يطلب من دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

* المفضليات .
الضبي ، المفضّل بن محمد بن يعلى ،تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ،دار المعارف .

* مقدمة ابن خلدون ج ٢ ، ٣ .
ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ،تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة الطبعة الثالثة - والطبعة الرابعة ،بدون تحقيق ،نشر دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان .

* مناقب عمر بن عبد العزيز .
ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن ، تحقيق المستشرق :
كارل . هـ . بيكر ، طبعة برلين ١٩٠٠م .

* المنازل والديار .
ابن منقذ ، الأمير أسامة بن مرشد بن علي ، المكتب الإسلامي
للطباعة والنشر - الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠م .

* منهاج البلغاء وسراج الأدباء .
القرطاجني ، أبو الحسن حازم القرطاجني ، تحقيق : محمد
الحبيب بن الخوجة تونس ١٩٦٦م .

* الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء .
المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران ، وقف على طبعه ،
واستخراج فهارسه : محب الدين الخطيب . المطبعة
السلفية - ومكتبتها ، الطبعة الثانية - القاهرة ١٣٨٥هـ .

* الموشّى ، أو الظرف والظرفاء .
الوشّاء ، أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى ، دار صادر
بيروت .

* ميزان الاعتدال ، في نقد الرجال جـ ٢ ، ٣ ، ٤ .
الذهبي - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، تحقيق
علي محمد البجاوى . دار إحياء الكتب العربية .

* النصف الأول من كتاب الزهرة جـ١
الأصفهاني ، أبو بكر محمد بن أبي سليمان ، تحقيق :
لويس نيكل البوهي ، مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت
١٣٥١هـ ١٩٣٢م .

* نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢
النويري ،شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب نسخة مصورة
عن طبعة دار الكتب.

* النهاية في غريب الحديث ج٢
ابن الأثير ،مجد الدين أبي السعادات ،تحقيق د / محمود
الطناحي ، طاهر أحمد الزاوى.

* الوافي بالوفيات ج ١٥
الصفدى ،صلاح الدين خليل بن أيبك ،تحقيق بيرند راتكه ،
طبع فرانز شتايز بفيسبادن.

* الوافي في العروض والقوافي .
التبريزى ، الخطيب تحقيق د / فخر الدين قباوة ،عمر يحيى .
دار الفكر ـ الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

* الوساطة بين المتنبي وخصومه.
الجرجاني ، القاضي علي بن عبد العزيز ،تحقيق وشرح
محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوى طبع بمطبعة
عيسى البابي الحلبي .

* وفيات الأعيان ،وأنباء أبناء الزمان ج٤.
ابن خلكان ،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن
أبي بكر ، تحقيق د / إحسان عباس ، دار صادر بيروت.

ثانيا : المراجـــع :

أ - المخطوطات :

١ - التناسب بين عناصر القصيدة عند النقاد والبلاغيين وقيمته في الفكر الحديث .

الثبيتي ،جريدى سليم سالم المنصورى ،رسالة ماجستير في جامعة أم القرى ،كلية اللغة العربية ،فرع الأدب ،نوقشت عام ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

ب - المطبوعات :

* ابن شرف القيرواني ،الشاعر الناقد .

عبد الواحد ،الدكتور مصطفى ،مطبعة دار التأليف - الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

* أثر الإسلام في شعر الفرزدق .

عبد الواحد ،الدكتور مصطفى ،دار النصر للطباعة الإسلامية الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

* الأعلام ،لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين .

الزركلي ،خير الدين ،دار العلم للملايين - بيروت الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.

* تاريخ الأدب العربي - ج١

بروكلمان ،كارل نقله إلى العربية د/ عبد الحليم النجار ، دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة .

* تاريخ آداب العرب ج ٢

الرافعي ،مصطفى صادق ،دار الكتاب العربي - بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

* تاريخ التراث العربي م ١ جـ ٤ ،م ٢ جـ ٣ .
سزكين ،فؤاد نقله إلى العربية د/ محمود فهمي حجازى
طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض
١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

* التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون
الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة
دمشق لابن عساكر ، أبيض ، الدكتورة ملكة، دار العلم
للملايين بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٠م .

* التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان .
أبو موسى ،الدكتور محمد ،مكتبة وهبة القاهرة الطبعة الثانية
١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

* التطور والتجديد في الشعر الأموي .
ضيف ،الدكتور شوقي ،دار المعارف بمصر ،الطبعة السابعة

* جواهر البلاغـــة .
الهاشمي ، السيد أحمد ، دار إحياء التراث العربي ،
الطبعة الثانية عشرة .

* حسان بن ثابت .
درويش ،الدكتور محمد طاهر ،دار المعارف ـ بمصر ،
الطبعة الثانية .

* الحكمة في الشعر العربي ،جـ ١ في الجاهلية والإسلام .
عويس ،الدكتور محمد ،مكتبة الطليعة ،أسيوط .

* خصائص التراكيب ،دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني .
أبو موسى ،الدكتور محمد ،مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية
١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

* خصائص الأسلوب في الشوقيات .
الطرابلسي ، محمد الهادى ، منشورات الجامعة التونسية .

* دراسات أدبية .
هيكل ، الدكتور أحمد ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأُولى ١٩٨٠م .

* دراسات في الأدب المقارن .
جمعه ، الدكتور بديع محمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

* دلالات التراكيب ، دراسة بلاغية .
أبو موسى ، الدكتور محمد ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأُولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

* التزهاد الأوائل ، دراسة في الحياة لروحية في القرون الأولى .
حلمي ، الدكتور مصطفى ، دار الدعوة للطبع والنشر ، الطبعة الأُولى ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م .

* سابق البربرى ، شاعر من المغرب عاش في الشام .
كنون ، الأستاذ عبدالله ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - مطبعة الترقي بدمشق ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م .

* السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي .
السباعي الدكتور مصطفى ، المكتب الإسلامي الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

* الشعراء الحنفاء .
العمرى ، الدكتور أحمد جمال ، دار المعارف الطبعة الاولى ١٩٨١م .

* رغبة الآمل من كتاب الكامل جـ ٤ .
المرصفي ، سيد بن علي ، مكتبة دارالبيان بغداد ، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م .

* روح الدين الاسلامي .
طبّارة ،عفيف عبد الفتاح ، دارالعلم للملايين ـ بيروت ،
الطبعة السادسة عشرة ١٩٧٧م.
* العصرالاسلامي .
ضيف ،الدكتور شوقي ،دار المعارف بمصر الطبعة السابعة.
* في الأدب الجاهلي .
حسين و الدكتور طه ،دار المعارف بمصر الطبعة العاشرة.
* فجر الإسلام ،يبحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر
الدولة الأموية.
أمين ، الأستاذ أحمد ،الناشر دار الكتاب العربي -
بيروت لبنان ، الطبعة العاشرة ١٩٦٩م.
* قراءة في الأسلوب القديم.
أبو موسى ،الدكتور محمد ،دار الفكر العربي ـ الطبعة الأولى
١٩٧٨م .
* قضايا النقد الأدبي .
طبانة ،الدكتور بدوي ،المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧١م.
* المتنبي وشوقي .
حسن ،عباس دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.
* ملامح يونانية في الأدب العربي .
عباس ،الدكتور إحسان ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت .
* موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعرى .
الخواجا ،الدكتور زهدى صبرى ،منشورات دار الأصالة للثقافة
والنشر والاعلام ـ الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

* موسيقى الشعر .
أنيس ، الدكتور إبراهيم ، ملتزم الطبع والنشر : مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الخامسة ١٩٨١م .

* المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها جـ ١ ، ٢ .
الطيب ، عبدالله ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٠م .

* المنقذ من الضلال .
الغزالي ، حجة الإسلام ، مع أبحاث بقلم د / عبدالحليم محمود ، مطبعة حسان - القاهرة الطبعة الثامنة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م .

* مختارات من الشعر الفارسي .
اختارها وترجمها ودرسها وقدّم لها : هلال ، الدكتور محمد غنيمي ، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥م .

* معجم ألقاب الشعراء .
العاني ، الدكتور سامي مكي ، مطبعة النعمان - النجف الأشرف ١٩٧١م .

* معجم شواهد العربية جـ ١
هارون ، عبد السلام ، مكتبة الخانجي بمصر الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

* النقد الأدبي الحديث .
هلال ، الدكتور محمد غنيمي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة .

* الوقوف على الأطلال بين شعراء الجاهلية والإسلام حتى القرن الخامس الهجري . عبد الواحد ، الدكتور مصطفى ، دار النصر للطباعة الإسلامية - مصر .

فهرس المحتو يـــــات

الصفحـــة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

*

* تم بحمده تعالى *

* * *